

فرق الشيعة والباطنية والخوارج

GUSU5113



المحتويات

(الدعوة إلى وجوب التمسك بالقرآن والسنة، والرجوع إليهما عند الاختلاف)

عناصر الدرس

وجوب التمسك بالقرآن والسنة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

إن القرآن الكريم دعا إلى التمسك بالكتاب والسنة، ونهى عن التفرق والاختلاف، ومن أشنع فرق الضلالة في هذا الزمان بل وفي كل زمان، فرق الباطنية والخوارج.

إن الدين الحق هو الإسلام كما قال الملك العلام: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وهو الاستسلام بالتوحيد الخالص لله تعالى، والاتباع الكامل لرسوله ﷺ مع البراءة من الشرك وأهله.

الإسلام الدين العام لجميع الأنبياء والمرسلين، والرسالة الخاتمة المرضية التي ختمت بها الرسالات، على يد إمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وقد أنزل الله ﷻ قوله: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣] فلا يسع أحد أن يتدين بغير الإسلام، الذي أنزله الله على خاتم الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: ﴿ يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال ﷺ: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار)).

فالإسلام هو دين الفطرة كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]، وهو دين الهدى والرحمة كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، وهو دين اليسر ونفي الحرج كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

الإسلام الذي هو دين العلم ودين العقل كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله أن جعلنا من المسلمين، والمسلمون هم خير أمة أخرجت للناس لقول رب الناس - جل وعلا- : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فالمسلمون هم الأمة الوسط بلا إفراط ولا تفريط ولا تعصب ولا تسيب، هم الشهداء العدول على جميع الأمم قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

لكن مع كامل الأسف أن المسلمين تفرقوا شيعًا وأحزابًا، قد استطاع أن ينال منهم أعداؤهم، حين لم يستطيعوا أن ينالوا منهم في ميادين الحروب، نالوا منهم في الجانب الفكري، حين فرقوا كلمتهم، ومزقوا وحدتهم بسياسة فرق تسد،

فوجدت السبئية أصل فرق الباطنية والشيعة الرافضة، ووجدت الخوارج بغلوها وضلالها ومروقها عن الدين، كما وجدت القدرية والجبرية ووجدت المشبه والمعطلة، وهكذا بدأ التفرّق في الأمة.

لكن الذي ينبغي أن نعرفه بادي ذي بدء أن خير المسلمين هم أهل السنة والجماعة، وأهل السنة والجماعة هم الصحابة } ومن تبعهم بإحسان في كل زمان ومكان، إنهم السلف الصالح أهل الاتباع والأثر وأهل الحديث والخبر، وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، هذه أسماؤهم الكريمة ونسبتهم الشريفة، أهل السنة والجماعة: كل من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، ملتزمًا بالإسلام جملة، محكمًا شريعته استسلامًا وانقيادًا، وقد برئ من كل مذهب بدعي ليكون من أهل السنة والجماعة.

وهذا يشمل جمهور الأمة الذين لم يخالفوا السنة في أمر كلي، ولم ينطووا تحت راية بدعية، ولم يكفروا سواد فرقة غير مرضية، إنهم وسط بين فرق الأمة جميعًا، لا يختص بهم مكان ولا يخلوا عنهم زمان، ولا يخرجون في عقيدتهم عما كان النبي ﷺ والصحب الكرام، فهم أهل العناية بالقرآن، وأهل الرعاية لسنة خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، إنهم يجتمعون على الاتباع وينبذون الفرقة والابتداع، ويوالون بالحق ويعادون بالحق، وبه يحكمون، لا تنفكّ سيرهم حسنة، كما أن عقيدتهم قويمة وشريعتهم مستقيمة، أخلاقهم ربانية ومسالكهم وسطية، وتربيتهم إيمانية.

لا يخالفون في التربية والسلوك هدي المعصوم ﷺ فبأدبه يتأدبون، وعلى أثره يعملون، وعن سنته لا يحيدون، يُعلمون ويربون ويأمرون وينهون، وإلى الله تعالى يدعون وعليه يَدلون، وفي سبيله يجاهدون، لا تزال طائفتهم مجاهدة

بالحجة والبيان واليد والسنان، ظاهرة منصورة لا يضرها من خذلها أو خالفها حتى تقوم الساعة، أعيانهم قدوة للسائرين وأئمتهم منار للحائرين، وهم حجة الله على الخلق أجمعين، وإن كانوا في الفضل متفاوتون، وعلى كثرة فضائلهم، فليس بينهم معصوم إلا النبي المعصوم ﷺ وهم بميزان الشريعة يحكمون، وبإقامة الدين يتواصون، فينهون عن ترخص جافٍ وتنطع غالٍ، وتهور واندفاع أو عجز وانقطاع.

أهم ما هم فيه وجوب التمسك بالقرآن والسنة، والرجوع إليهما عند الاختلاف، فهذا منهجهم وذلك مبدؤهم، إنه التلقي عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ واعتصامهم بالكتاب والسنة.

إن أهل السنة والجماعة يتلقون عقيدتهم عن صحائح المنقول، والإجماع المتلقى بالقبول، وصرائح المعقول والفطرة القويمة، ويعتقدون أن الحجة القاطعة والمرجع الأعلى كتاب الله تعالى، والسنة النبوية الصحيحة، ولو كانت آحادًا، ولا يقدمون على كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ كلام أحد كائنًا من كان، ويعتقدون السنة حجة بنفسها في مسائل العقيدة والأحكام، ويتلقون نصوص الكتاب والسنة بالتعظيم والاستسلام، ويعتقدون اشتمالها على جميع مسائل الدين ولا سيما الإيمان، ويأخذونها مأخذ التعويل عليها والاعتماد، ويعتنون بجمع النصوص في كل باب، ويفهمونها بفهم النبي ﷺ والصحابة الثقات والأئمة الأثبات.

يفسرون الكتاب والسنة بهما، ثم بأقوال الصحابة } ومن سار على منهاجهم، فإلم يتيسر فبما صح من لغة العرب ولهجاتهم، ويفهمونها على ظاهرها المقبول، ويدرءون باطل التأويل، ويدفعون ما ظاهره التعارض بين صحيح النقل وصريح العقل، ويعتقدون أن النصوص لا تأتي بمحالات القبول،

وقد تأتي بما تحار فيه العقول، فإن وقع ما ظاهره التعارض فمرده إلى الوهم في صحة العقل، أو الثبوت والدلالة في النقل.

ويكفون عما سكت عنه الله ﷻ ورسوله ﷺ وأمسك عنه الصحابة } ومن تبعهم بإحسان، فهم مجمعون على توحيد مصدر التلقي، وتجريده عن كل شوب كلامي مردود، أو فلسفي مذموم، أو مسلكي مبتدع، ويعتمدون ألفاظ ومصطلحات الكتاب والسنة عند تقرير مسائل الاعتقاد وأصول الدين، ويُعبرون بها عن المعاني الشرعية وفق لغة القرآن وبيان الرسول ﷺ.

ولا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ إلا لإجماع الأمة إذا انعقد، وليس لآحادها عصمة، ويعتقدون أن الإجماع في الأحكام حجة قاطعة، وأن الخلاف السائغ موطنًا للسعة، وما اختلف فيه وجب ردّه إلى الكتاب والسنة، مع الاعتذار عن المخطئ من الأئمة، فلا يُعصِّمون ولا يُؤثمون، أي: لا عصمة لأحد من الأئمة ولا إثم على المجتهد إذا أخطأ.

ودليل ذلك واضح في كتاب الله ﷻ وفي سنة النبي ﷺ فقد جاءت الآيات، وتضافرت النصوص على وجوب اتباع الكتاب والسنة، فكم نقرأ أمرًا من الله ﷻ بطاعته، وطاعة رسوله ﷺ. قال - جل وعلا- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال - جل وعلا- : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال - جل وعلا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فلا إيمان يصح إلا بهذا الانقياد وهذا الاتباع بكتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ١، ٢].

وهكذا تتوالى الآيات تترى في وجوب التمسّك بالقرآن والسنة، والرجوع إليهما عند الاختلاف، إن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول، أي: إلى القرآن والسنة، هذا هو المرجع الأساسي والأمر الرئيسي، الذي ينبغي أن نلتقي عليه، وهو أهم ما يميز أهل الإسلام أو أهل السنة والجماعة.

قلت: والمخطئ من الأئمة نعتذر له لحديث النبي ﷺ: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)) حتى مع خطئه له أجر، أجر اجتهاده، أما مع صوابه فله أجران؛ أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، فهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، والذي ينبغي أن يسير عليه كل من رضي بالله تعالى ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

دعوة القرآن والسنة إلى الاتحاد على كلمة سواء، وعدم التفرق والاختلاف

إننا إذا رجعنا إلى القرآن والسنة متجردين من الأهواء، ومن الأغراء والأمراض، فإننا بفضل الله ﷻ نتحد على كلمة سواء، وذلك أن ربنا ﷻ قال: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن أهم ما يميز المسلم الحق، والذي يندرج تحت راية أهل السنة والجماعة، وهذا كالقيد حتى لا يكون من أهل الفرق الضالة وأهل الأهواء. يقول: أهم ما يميزه

هو أنه يرجع إلى القرآن والسنة للآيات التي ذكرناها، ولمثل قول النبي ﷺ كما جاء في حديث العرباض بن سارية > قال: ((خطبنا رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. قلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)).

هكذا بيّن النبي ﷺ وهو القائل: ((من أَحْدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) وهو القائل ﷺ: ((عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))، وقال ﷺ: ((يد الله على الجماعة ومن شذَّ شذَّ في النار)) كم من آيات وكم من أحاديث تدعونا للوحدة، مع وجوب التمسك بالقرآن والسنة.

إننا لا نريدها تجميعًا مجرد أن نلتقي في ظاهر الأمر، ونتجمع فنكون في الظاهر كتلة واحدة، لكن دون أن نلتقي على كتاب وسنة، لا، لا، بل إن ربنا ﷻ وهو يأمرنا بأن نعتصم بحبله ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] إنه ليس مجرد اعتصام أو مجرد تجمع وتجميع، إنما اعتصام بحبل الله على دين الله على الكتاب والسنة، لكن الذين يدعون إلى التقارب والتقريب دون أن يكون هذا هو المرجع، ودون أن يكون هذا المصدر، فأيّ تقريب وأي تجميع وأي وحدة يمكن أن تتم دون أن تكون على الكتاب والسنة.

فإذا رحنا نتحدث - ونحن نرجو للأمة أن تتحد على كلمة سواء- فلا بد وأن يكون هناك مرجع نرجع إليه، وقاعدة ننطلق منها إن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول، أي: إلى القرآن والسنة بتفسير الأصوليين.

قلت: وأين هذا ممن يؤولون القرآن، أو يعتقدون له ظاهرًا وباطنًا، أو يحرفون الكلم من بعد مواضعه، أو يحرفون معناه؛ فضلًا عن أن يعتقدوا تحريفه، وأما السنة فمنهم من أنكرها، ومنهم من تأولها، ومنهم من شكك فيها، فكيف لنا أن نعتصم إذًا مع وجود هذه الأشياء، التي تتنافى مع الأصل الأساسي، والركن الركين في وجوب التمسك بالقرآن والسنة، والرجوع إليهما عند الاختلاف، أن نتحاكم إلى العقول أو أن نتحاكم إلى العادات والأهواء، أو إلى قوانين البشر، وإلى حثالات الأفكار، لا، إنما إلى حكم الله ﷻ، وحكم رسوله ﷺ.

ولو خلت النفوس من أغراضها والقلوب من أمراضها، فإنه ما أيسر علينا وعلى المسلمين قاطبة أن يتمسكوا بهذا الأصل؛ لأن الأصل في هذا الدين دعوة للوحدة والاجتماع والألفة، وما عرفنا دينًا دعا لهذه الألفة والمحبة والاجتماع كهذه الرسالة الخاتمة، وذلك أن الله ﷻ قال: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] كما قال: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

نعم أمة واحدة لها قبلة واحدة، كتابها واحد، سنتها واحدة، ربها واحد نبيها ﷺ معروف لا خلاف عليه، الأمور واضحة، ينبغي مع وضوح هذه الأصول أن نكون أمة واحدة، وألا نتفرق وألا نختلف، فقد نهى الله ﷻ عن هذه الفرقة بكل الصور، حين قال - جل وعلا- : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال ﷻ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٥- ١٠٨]، وإنما تبيض وجوه أهل السنة والجماعة والوحدة والألفة، وتسودّ وجوه أهل الكفر والفرقة والبدعة والضلالة.

إن الإسلام نهى عن التفرق والاختلاف بكل الصور، ودلّ على أن هذا التفرق يورث الوهن ويورث الضعف والهزيمة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ ﴾ [الأنفال: ٤٦] أي: قوتكم، فالتنازع يورث الفشل، والاختلاف يورث الضعف، والتفرق يكون سببًا في الهزائم.

وقد تعلمنا من دروس غزوة أحد أن اختلاف الرماة فيما بينهم، كان سببًا في وقوع الهزيمة من بعد النصر، ولما تساءل المسلمون: كيف هُزموا، ولماذا هزموا بعد أن انتصروا؟ أجابهم الله ﷻ: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] مخالفة لأمر النبي ﷺ واختلاف فيما بين الرماة وبعضهم، أدَّى إلى وقوع الهزيمة، وهذا من شؤم الفرقة التي حذّر الإسلام منها.

والفرقة هذه داء عُضال ومرض خطير، كأنه السرطان الذي إذا استشرى في جسد إنسان فتك به، وكذلك الفرقة إذا أصابت أمة فتكت بها ودمرتها، وسائلوا التاريخ: لماذا ضاعت الأندلس، ولماذا ضاعت فلسطين، ولماذا ضاعت دول كثيرة، وسقطت الخلافة أكثر من مرة، لماذا؟ الفرقة هي السبب الرئيس في ذلك، فنعوذ بالله من الفرقة ومن التفرق والاختلاف.

إن أعداء الإسلام حرصوا على تفريق كلمة المسلمين بسياسة عرفوها، وأدركوا نجاحها، إنها سياسة فرّق تسد، تلك التي استخدمها اليهود قديمًا، ولا يزالون يستخدمونها حديثًا، وكأن المسلمين في غفلة مع وضوح الأمر، ومع الإعلان عن الشيء والمبدأ الذي يسير عليه أعداء الإسلام فرق تسد، وبالنظر فيما ظهر من فرق، ووقع من فرقة في محيط المسلمين، نجد كل فرقة منحرفة عن الإسلام لها صلة قوية، أو حتى ضعيف ظاهرة أو مخفية، بأعداء الإسلام وبالأديان المحرفة قبل الإسلام، فما رأس السبئية إلا ابن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام، وما جاءت فكرة القدرية إلا عن طريق سنوسي النصراني، ولا فكرة الجبرية إلا عن طريق الأعصم بن لبيد اليهودي.

وهكذا كلما فتشنا عن فرقة من فرق الضلالة وجدنا لها أساتذة من أعداء الإسلام، سيما من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، إنهم اليهود والذين أشركوا ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ ﴾ [المائدة: ٨٢] وسيستبين لنا إن شاء الله من خلال الدراسة أصول الفرقة، ومن وراء هذه الفرق التي ظهرت، وكانت لها آثارها السيئة في حياة المسلمين.

نعم، نهى الإسلام عن التفرق والاختلاف، ودعا للوحدة والإئتلاف، وأمرنا بالجماعة ونهانا عن التشرذم، وأهل السنة والجماعة هذا منهجهم، وهذا هو الحق الذي يسيرون عليه، إنه ينبغي أن نعتقد وجوب التمسك بالقرآن والسنة، مع الرجوع إليهما عند الاختلاف، وأن الإسلام دعا إلى الألفة والوحدة والجماعة، ونهى عن الفرقة والاختلاف، ولا نجد في دين الله ﷻ ما يدعو إلى الفرقة أبدًا، حتى وإن وقع هناك اختلاف، فمن الاختلاف ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، فإن كان الاختلاف يرجع إلى اجتهاد، وإلى أمر يسعفنا فيه الدين، أو تسعفنا فيه اللغة، فإننا نقبله؛ لأنه خلاف سائغ ولا نضيق فيه على المخالف.

وينبغي أن نفرق بين الخلاف في مسائل الاجتهاد، وبين المسائل التي لا يسوغ الخلاف فيها، ولا نعدّ مسائل الاجتهاد من الخلاف المذموم، ولا نأخذ بالخلاف الشاذّ غير المستساغ، ولا نجري وراء زلَّات العلماء وهفوات الفقهاء، ولا ينبغي أن يتابَع الفقيه عليها، كما لا ينبغي التشنيع على الفقهاء بسببها، ولا تعارض بين ترك الإنكار والتضييق على المخالف في المسائل الاجتهادية، وبين التحقيق العلمي لها، وبيان ضعف المخالف والتحذير من مذهبه.

وأمر في غاية الأهمية التفرقة بين الخلاف في أمور عقدية أصولية، وأمور فقهية أو فرعية، فإن الخلاف في الأمر الأول فيما يرتبط بالعقيدة والأصول مذموم على كل حال؛ لأن الحق فيه واحد لا يتعدَّد، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! أما الخلاف في الفقهيات والاجتهادات والفروع فهو خلاف سائغ، وخلاف واقع ما له من دافع، وليس هذا من جنس الاختلاف المذموم الذي ذمه القرآن، أو حذر منه النبي ﷺ.

لذا نحن نفرّق بين اختلاف أملاه الحق، وبين اختلاف أملاه الهوى، وبين اختلاف في العقيدة والأصول مرفوض، وبين اختلاف في الفروع والفقيهات مستساغ، وهكذا ينبغي أن يكون هناك وضوح رؤية في هذه المسألة المهمة، والتي هي أساس كل أساس، فهي الأساس لما بعدها، وما لم نلتق على هذا المبدأ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك تقارب ولا تقريب بين فرقة وفرقة، أو طائفة وأخرى، إنما الأصل الأصيل والركن الركين الذي لا ينبغي الحيدة عنه، ولا ينبغي حتى استخدام التقية فيه، هو وجوب التمسك بالقرآن والسنة، والرجوع إليهما عند الاختلاف، وما لم يكن هذا هو المبدأ الأساسي، الذي ينبغي أن

نلتقي عليه، فإنه لا يمكن التقارب ولا التقريب، ولا التفاوض بين هذه الفرق التي انبثقت من عباءة الإسلام، أو أن لها جذورًا من غير الإسلام.

وسواء كانت تسعى لأمور سياسية، أو كانت الخلافات دينية محضة، فإنا جربنا أقوامًا من الرافضة أو الباطنية ينادون بالتقريب، وهم يريدون لأهل السنة والجماعة أن ينزلقوا إلى ما هم فيه من ضلال، وكثيرون من المسلمين قد يخدعون، لماذا لا نتقارب؟ لماذا لا نلتقي؟ نحن يجمعنا الإسلام، وننطوي تحت راية واحدة، لكي يتناسى كثير من المسلمين هذا المبدأ، الذي ركز عليه القرآن كثيرًا ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

كل هذا يؤكد تأكيدًا جازمًا على وجوب التمسك بالقرآن والسنة، سيما في زمن الفتن، فتن تموج موج البحر، فتن يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا، نعوذ بالله تعالى، ولا منجاة للإنسان إلا أن يستمسك بالقرآن والسنة ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الزُّخرُف: ٤٣]، فإذا استمسكنا بالقرآن والسنة نكون على هدي السلف الصالح - رضوان الله عليهم- والذين زكَّاهم الله ﷻ بمثل قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقد قال الله ﷻ أيضًا في معرض الحديث عن أهل الكتاب: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ

أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٥- ١٣٨]. والشاهد قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾.

وإنما اهتدى السلف } كذا السابقون باتباعهم الكتاب والسنة، وقد قال ﷺ: ((تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنتي)) نعم، المخرج لما نحن فيه، والمنقذ مما نحن فيه، والنجاة لما نحن فيه: هو التمسك بالقرآن والسنة، مع الرجوع إليهما عند الاختلاف ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]. قرآن وسنة.

وكذلك التركيز على السنة مع الرضا والاتباع، لقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣]، وقوله - جل وعلا- : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

(الفرقة والاختلاف)

عناصر الدرس

تعريـــف الفرقـــة لغـــة واصـــطلاحًا

تعريف الفرقة: معنى الفرقة لغة لها عدَّة معانٍ، فتكون من الفصل كما قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤]، وتكون من الفلق كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ [البقرة: ٥٠]، وتكون من الفرق كقوله تعالى: ﴿ فَٱلْفَرِقَٰتِ فَرْقًا ﴾ [المرسلات: ٤] ، وتكون من الفرقة والافتراق التي هي ضد الوحدة والتجمع كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥]، فالفرقة ضد الوحدة وتفرق ضده تجمّع وتوحد، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وهذا المعنى هو المراد في حديثنا عن الفرقة، وهو ما جاءت به جُلّ آيات القرآن الكريم محذرة منه، وناهية عنه ومنبهة على خطورته، ومحذرة من مغبَّته وعاقبته، ومثاله قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقوله - جل وعلا- : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ٤] ومثلها كلمة المنازعة، التي فيها النزاع الذي يؤدي إلى الفرقة، ويورث الفشل المنهيّ عنه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦] أي: قوتكم.

وتذكر الفرقة ويراد بها الاختلاف، ولكن بينهما عموم وخصوص، فالعموم يكون بمعناها ويكون مرادفًا لها، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الاختلاف بهذا المعنى؛ لأنه لما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يفضي إلى التنازع؛ استعير ذلك للمنازعة والمجادلة في مثل قوله تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾

[مريم: ٣٧]، وكذلك: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: ١١٨] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ [الذاريات: ٨]، وقوله - جل وعلا- : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة: ٢٥].

وأما الخصوص الذي بينهما؛ أن الفرقة لا تكون بمعنى الخلاف، ولا يكون الخلاف بمعنى الفرقة، بل تكون الفرقة مذمومة على كل حال، ويكون الاختلاف منه ما هو محمود وما هو مذموم، اختلاف أملاه الحق يكون محمودًا، واختلاف أملاه الهوى يكون مذمومًا، كما أن الاختلاف في الأصول يكون مذمومًا، والاختلاف في الفروع إن كان مبنيًّا على اجتهاد يكون محمودًا، وهكذا فلا شك أن الفرقة تغاير الاختلاف، وإن وردت بمعناه على سبيل العموم.

الفرقة اصطلاحًا: فهي تباعد الأمة وتناحرها، ولا يتعلق بوجهات النظر، بل يكون من الغرور واتباع الهوى، وذلك يؤدي إلى شتات الأمة وضعفها، وسقوطها أمام أعدائها، هذا، وبين الفرقة والاختلاف تغاير كما ذكرنا، نوضحه بعد بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي للفرقة.

الفرق بين الفرقة والاختلاف

إن الفرقة داء قتال وطاعون خبيث، لا ثمرة لها إلا تحطيم الحضارات وإتلاف الجهود وتبديدها، وتهيئتها للزّوال والاندثار، وسائلو التاريخ عن ضياع الأندلس قديمًا وفلسطين حديثًا، وما وقع في أفغانستان وما يقع في العراق، وما حلَّ بالأمة في كل جيل وقبيل وعصر ومصر، سيجيبكم أن السبب الرئيس في ذلك كله هو الفرقة، فبسببها تضيع الأمم وتحلّ الهزائم، وتذل الأمة أمام

عدوها، ولذلك كره الإسلام الفرقة، باعتباره دينًا يدعو إلى الوحدة والإئتلاف والتصافي والترابط، وهذه الفرقة إنما هي فتنة، عمل المغرضون على إثارتها، وما دبَّت في أمة إلا غدت تُفقدها كل شيء، بعد أن جمعت ما يؤهلها إلى قيادة البشرية.

والقائمون على تغذيتها قوم خبثت نفوسهم، لدرجة الحكم عليهم بالعذاب في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦] الآيات.

وأما الخلاف وكذا الاختلاف أيضًا فمعناه أن ينهج كل شخص طريقًا مغايرًا للآخر في حاله، أو في قوله، والخلاف أعمّ من الضدّ؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدّين، ولذلك فالخلاف منه المحمود والمذموم، والاختلاف علمي ونظري، وكلاهما لا يؤدي إلى تفرق الجماعة، ولا يمزّق وحدة المسلمين، ولأن الاختلاف يتعلق بالفروع ولا يكون في الأصول الأساسية، ويكون في مسائل الاجتهاد التي لا نص فيها، مثل وجهات النظر بين الناس.

وهذا النوع من الاختلاف جائز لأنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضادّ، ولكن إذا أدَّى إلى تفرق المسلمين فإنه يدخل ضمن الاختلاف المذموم، ويجب أن نعلم أن الخلاف في الفروع أمر واقع ما له من دافع، وقد وقع هذا الخلاف بين الصحابة - رضوان الله عليهم- دون أن يفرق كلمتهم أو يمزّق وحدتهم، ومنه ما وقع في حياة النبي ﷺ وما وقع بعد وفاته أيضًا.

ومثال ما كان في حياته ﷺ اختلاف الصحابة - رضوان الله عليهم- في فهمهم لحديث: ((لا يصلينَّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة)) فلما خرجوا مسرعين، وحان وقت العصر دون الوصول إلى بني قريظة، فمنهم من قال: نصلي الصلاة لأول وقتها كما علمنا النبي ﷺ ولا نؤخّرها، ومنهم من قال: لا، قال لنا النبي ﷺ: ((لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة)) فلنصلها في بني قريظة وإن تأخرت عن إبانها، فقالوا لهم: ما أريد منا هذا، ما أريد تأخير الصلاة، إنما أريد الهمة في الخروج والإسراع.

فأصرّ كل فريق على رأيه، الذين أخذوا بظاهر النص أبوا إلا أن يصلوا العصر إلا في بني قريظة، وإن تأخر عن وقته، والذين أخذوا بمفهوم النص صلوا العصر في الطريق؛ حتى لا يؤخروا الصلاة عن وقتها، هكذا وقع الخلاف بين الصحابة، لكن دون أن يفرّق جماعتهم، ودون أن يمزّق وحدتهم.

ولما رجعوا في ذلك إلى النبي ﷺ وسألوه عما عنّ لهم، وعما فهموه من النص، فإذا بالنبي ﷺ يقر كلًا منهما ويقول: ((كلٌّ على خير)) لأن هذا الأمر كان من باب الاجتهاد في النص، وما دام الأمر كذلك فهو اختلاف محمود، وليس مذمومًا إلا إذا أدَّى إلى التفرق.

إذًا الخلاف وقع في حياة النبي ﷺ بين الصحابة لما كانوا بمنأى عنه، أما وهم قريبون منه، فسرعان ما كانوا يلوذون به ويرجعون إليه ﷺ.

وأما ما وقع بعد وفاته ﷺ من الخلاف فهو كثير، وقد بدأ مبكرًا مع وفاة النبي ﷺ وقع الخلاف في تغسيل النبي ﷺ أنغسّله في ثيابه، أم ننزع عنه قميصه ﷺ؟ وكذا اختلفوا في مكان دفنه ﷺ، حتى بلغهم الحديث: ((يُدفن الأنبياء حيث

ماتوا))، واختلفوا فيمن يتولى الخلافة من بعده؛ لعدم وجود نص صريح بتعيين الخليفة من بعد النبي ﷺ وإن كانت هناك مؤشرات قوية في اختيار أبي بكر الصديق > ولكن عدم التنصيص عليه أوقعهم في خلاف.

كالذي حدث في سقيفة بني ساعدة، فيمن يكون خليفة بعد النبي ﷺ حتى انتهى بهم الأمر إلى اختيار أبي بكر > ، وقد توالت الاختلافات بعد ذلك دون أن تنال من وحدة الأمة في شيء.

متى نشأت الفرقة بين المسلمين

أن الفرقة بين المسلمين ليست وليدة اليوم أو الأمس القريب، بل لها بذورها وجذورها، وأصولها البعيدة التي تمتدّ بها إلى القرن الأول الهجري، وحتى حاضرنا هذا المؤلم، فقد بدت الفرقة تطلّ برأسها منذ هجرة النبي ﷺ وصحبه الكرام - رضوان الله عليهم- إلى المدينة المنورة، وقد أُسّست دولة الإسلام الفتية، وقد حرص النبي ﷺ على أن يقيمها على أسس قوية، ودعائم متينة، وصلات صحيحة فيها صلة المسلم بربه، مرموزًا إليها بالمسجد: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وصلة المسلم بإخوانه المسلمين، فكان الإخاء بين الأوس والخزرج، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، في أخوة ما عرفت الدنيا لها مثيلًا من قبلُ ولا من بعدُ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم

بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثم دُعامة ثالثة وهي صلة المسلم بغير المسلم، فانبنت على المعاهدات بين المسلمين واليهود، في معاهدات قامت على أن اليهود لهم حق الجوار، وحق النصرة وحماية المدينة، ولهم ما لنا وعليهم ما علينا، في وثيقة مِلؤها العدل وملؤها السماحة، ما عرفت الدنيا مثل هذا العدل ولا هذا البر ولا تلك السماحة، التي أرساها النبي ﷺ.

ووفَّى النبي ﷺ ولكن اليهود لم يوفوا؛ لأن اليهود أهل غدر وأهل خيانة ونقض للعهود، نعم نقضوا العهود من أول الأمر، وتوالى عداؤهم لهذا الدين، وأحزن اليهود وأفزعهم أن النبي ﷺ دعاهم للدخول في دينه، ولم يجعلهم خارجًا عن دائرته، وخافوا على دنياهم وعلى سيادتهم، سيما من كان سيتوَّج ملكًا عليهم، هذا المدعو عبد الله بن أبي بن سلول، فكشروا عن أنيابهم، وأعلنوا عن عدائهم، وأظهروا كراهيتهم للإسلام ولنبيه ﷺ ولدعوته الجديدة، ثم عادوا فجبنوا فتظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر، فظهر النفاق والمنافقون، وحرص المنافقون أشد الحرص على تفريق كلمة المسلمين، يعاونهم اليهود في ذلك، وقد استخدموا في ذلك أساليب شتَّى، منها ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ومنها أنهم بنوا لأنفسهم مسجدًا له مهام معينة، حدَّدها القرآن الكريم، أهمها تفريق كلمة المسلمين كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا

﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧] ثم كان حرصهم الأكبر على نقض دُعامة الأخوة التي أرساها النبي ﷺ بين المسلمين.

سواء أكان فيما بين الأوس والخزرج، وقد قام بهذا الدور شاس بن قيس - عليه لعنة الله- وذلك حين آخى النبي ﷺ بين الأوس والخزرج، وتناسوا الحروب التي كانت بينهم، والتي طال زمانها حتى أكلت الأخضر واليابس، فلما آخى النبي ﷺ بينهم، وألف الله ﷻ بين قلوبهم كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فجلس الأوس والخزرج يتضاحكون ويتمازحون، فمرّ شاس بن قيس ذلك اليهودي، الذي أسنّ في يهوديته، فرأى الأوس والخزرج يتضاحكون ويتمازحون فإذا به يقول: "والله لا مكان لليهود إذا اجتمعت كلمة هؤلاء"، ثم أمر شابًّا يهوديًا أن يدخل بينهم، وأن يحرش بينهم، وأن يذكرهم بما كان بينهم من حروب وعداوات، وأن ينشدهم من الأشعار التي قالوها يوم بُعاث، في حرب كانت بين الأوس والخزرج.

فدخل الشاب اليهودي، واستطاع أن يأخذ خيط الكلام، وأن يذكِّر الأوس والخزرج بما كان بينهم من حروب، وأنشدهم بشيء مما قالوه من الأشعار، حتى حرك فيهم الحمية الجاهلية، وتساب رجلان من الحيين الأوس والخزرج، ثم وثبا على خيلهما وقد قال أحدهما للآخر: "إن شئتم والله أعدناها حربًا جذعة فتيّة - أي: شابة قوية- كما كانت يوم بعاث" فتنادى الفريقان بالسلاح، وتواعدا بالحرة خارج المدينة.

وهناك ترامت الأخبار إلى النبي ﷺ: يا رسول الله، أنقذ أوسًا وخزرجًا، فقد تواعدوا على القتال بالحرة، فخرج النبي ﷺ مسرعًا في من معه من المهاجرين، ووقف بين الصفين ونادى بأعلى صوته: ((الله الله أتتقاتلون وأنا بين أظهركم، الله الله أتعودون كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، بعد أن نزع الله عنكم عَبيّة الجاهلية وهداكم للإيمان))، وقد وقعت الكلمات موقعها من نفوس الأوس والخزرج، حتى وقع منهم السلاح، وسقطت منهم السيوف وألقوا بها، والتزم كل فريق الآخر وأخذوا يبكون وندموا، وعلموا أنها مكيدة من مكائد اليهود، ونزغة من نزغات الشيطان فتابوا واصطلحوا، وانقضت هذه المسألة، وانتهت هذه الفتنة بفضل الله ﷻ، ثم بوجود النبي ﷺ بينهم.

هكذا كان حرص اليهود على أن يُوقعوا الفرقة بين الأوس والخزرج، كما حاولوا مرة أخرى عن طريق المنافقين، أن يوقعوا الفرقة بين المهاجرين والأنصار، قام بهذا الدور في تلك المرة عبد الله بن أبي بن سلول - عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين- وذلك عند عودة المسلمين من غزوة بني المصطلق، وقد نزلوا منزلًا، وأرسل الأنصار مولى من مواليهم، يدعى سنان، وأرسل المهاجرون مولى من مواليهم يدعى جهجاه، من أجل أن يأتوا بالماء، فتنازع جهجاه مع سنان عند البئر على الماء، هذا يريد أن يأتي بالماء للمهاجرين، وذاك يريد أن يأتي به للأنصار، فقال جهجاه: "يا للمهاجرين وقال سنان: يا للأنصار".

وتحرك بعض الفريقين، وذهبوا وتناوشوا بالكلمات عند البئر، وربما تناوشوا بشيء آخر، وقع بينهم الخلاف ووقع بينهم النزاع، وهناك أدركهم النبي ﷺ وقال: ((دعوها فإنها منتنة)) لعل البعض فهم دعوا هذا الماء فإنه منتن، أو دعوا

تلك البئر فإنها منتنة فتركوها، وأراد ﷺ أن يقول لهم: دعوها، دعوا الفتنة ودعوا الفرقة ودعوا العصبية؛ فإنها منتنة.

يا للمهاجرين ويا للأنصار، المهاجرون بهذا الاسم شرف، والأنصار بهذا الاسم شرف، ولكن إذا كان فيه دعوة للحمية والعصبية دعوها فإنها منتنة، نعم ومع ذلك فابن سلول راح يقول: "هكذا وصل بنا الحال، نازعونا على الماء ونازعونا في كذا وكذا، صار الأمر بيننا وبينهم كالمثل القائل: سَمِّن كلبك يأكلك، جوع كلبك يتبعك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل".

وهكذا أرادها ابن سلول فتنة بين المسلمين، وفرقة بين الأنصار والمهاجرين، لكن الله ﷻ أذهب كيده وأخفقت حملته، ومع ذلك فقد راح - لعنه الله- يبذر الخلافات ويثير الشائعات، حتى اختلق حديث الإفك، الذي أوجد مرة أخرى فرقة بين الأوس والخزرج، حين سألهم النبي ﷺ عن رجل يتّهمه في عرضه، إنه ابن سلول هذا الذي أشاع الأمر، وقال عن عائشة < وقد تخلفت عن الركب وجاء صفوان بن المعطل > يحملها على مرأى ومسمع دون هودج، فقال: "زوجة نبيكم باتت مع رجل، ثم جاء يحملها، والله ما نجت منه ولا نجا منها".

وأخذ يروج لتلك الحادثة ولهذا الإفك والذي انقطع معه الوحي شهرًا، حتى بلغ الأمر مبلغًا كبيرًا، وبعد ذلك جاء اليسر والفرج من الله ﷻ، وتنزلت آيات البراءة من السماء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١١].

وهكذا ظل دور المنافقين ينشط في تفريق كلمة المسلمين، ويزرع بذور الضغائن والعناد، ويغرس وسائل الفتنة والفساد، ولكن الله تعالى لهم بالمرصاد، لقد كشف مؤامراتهم وفضح أسرارهم، وأظهر مكنوناتهم، فلم تفلح لهم خطة ولم تنجح لهم مؤامرة، وباءت كل جهودهم بالفشل بفضل الله تعالى، مع نزول الوحي من السماء، حتى أيقنوا بالفشل والهزيمة، وراحوا ينتظرون انقطاع الوحي من السماء بموت النبي ﷺ أو قتله.

وقد استبطئوا الأجل فحاولوا قتل النبي ﷺ كثيرًا وهموا بما لم ينالوا، ولكن الله تعالى عصمه منهم ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حتى مات النبي ﷺ بانتهاء أجله، وإن كان متأثرًا بسمّ الشاة المسمومة، التي أهدته لها امرأة من يهود خيبر، حين قال النبي ﷺ لأم بِشر: ((لقد عاودتني أكلة خيبر، والآن أحس بانقطاع أبْهَرِي)) وكان ذلك في مرض موته ﷺ.

فلما انقطع الوحي من السماء بموت النبي ﷺ خرجت الأفاعي من جحورها؛ لتزاول دورها في فرقة المسلمين والقضاء على هذا الدين، وهم بمأمن من فضيحة وحي السماء لهم أو كشف مؤامراتهم، ولذلك مما لا يخفى أنه كان لهم دور لا بأس به في أيام خلافة أبي بكر الصديق > بما عرف بحروب الرِّدّة، ولكن كانوا بعيدين عن الأعين، وفي خلافة عمر بن الخطاب > أحدثوا بعض المناوشات، وأوقعوا بعض الفساد الذي جعل عمر بن الخطاب > يبادر بإجلائهم عن جزيرة العرب.

ومن بعيد دبَّروا لمقتل فاروق الأمة عمر > ولتفريق الكلمة، وقام بتنفيذ المؤامرة أبو لؤلؤة المجوسي - عليه لعنة الله- وانكسر باب الفتنة بمقتل عمر بن الخطاب > شهيدًا في المحراب، انكسر باب الفتنة ولم ينغلق، ولو فُتح لانغلق، ولكنه انكسر فلم ينغلق.

إنه بمقتل فاروق الأمة عمر بن الخطاب > أطلَّت الفتنة برأسها من جديد، لتعمل بكل قواها، وتؤدّي دورها في كل اتجاه علمي أو عملي ديني أو سياسي، ولئن كانت الفتنة التي عمل على إيجادها اليهود، وعلى إثارتها المنافقون، لم تنجح من قبل في تفريق الكلمة أو تمزيق الصف، فإن الفتنة من بعد مقتل عمر > وفي أيام خلافة عثمان بن عفان > قد نجحت ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبدأت تؤتي ثمارها الخبيثة، في اختلاف ذات البين وتمزيق الصف وضعف الأمة.

والذي تولى كبرها في هذه المرة هو عبد الله بن سبأ، المعروف بابن السوداء - سوَّد الله وجهه- ذاك الذي تظاهر بالإسلام، وبحبه لآل بيت النبي - عليه الصلاة وأزكى السلام، فراح يقول بوصاية علي بن أبي طالب > أي أنه وصي رسول الله ﷺ وأولى الناس بعده بالخلافة، ويذكر في هذا أحاديث قد وضعها كذبًا على النبي ﷺ من ذلك: لكل نبي وصي ووصيي علي، ثم أخذ يذم أبا بكر وعمر { يتهمهما بأنهما قد انتزعا الخلافة من علي >.

والأدهى من ذلك ما افتراه باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على سيدنا عثمان > من افتراءات ما أنزل الله بها من سلطان، واتهامات ليس لها من الحقيقة نصيب ولا من الواقع رصيد، ولكنه أشاع ذلك في الناس، وانتقل في الأقطار والأمصار، وكتب به الكتب وأرسل به الرسائل والرسل؛ يؤلّب الناس على عثمان > فلقي آذانًا استمعت له ورعاعًا صاروا جندًا له.

وجاء الثوار من الأمصار، خاصة من مصر والكوفة، وخرج الخوارج على عثمان > وثاروا عليه، واجتمعوا حول بيته، وما انفضوا حتى قتلوه >، وهؤلاء هم الخوارج أصحاب الفتنة، هم أصحاب عبد الله بن سبأ وتلاميذه

ومؤيدوه، ولم يكن فيهم أحد من خيرة الصحابة } وأنه بينهم وبين خيرة الصحابة أبعد مما بين الحضيض والقمة، بل أبعد مما بين الشر والخير.

ورحم الله ابن تيمية حين قال في كتابه (منهاج السنة): "إن خيار المسلمين لم يدخل واحد منهم في دم عثمان، لا قتل ولا أمر بقتله، وإنما قتله طائفة من المفسدين في الأرض من أوباش القبائل وأهل الفتن، وكان علي > يقول: اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل".

وهؤلاء الذين شاركوا في الجناية على الإسلام بمقتل أمير المؤمنين عثمان > طوائف على مراتب، فيهم الذين غلب عليهم الغلو في الدين، فأكبروا الهنات وارتكبوا في إنكارها الموبقات، ومنهم الذين ينزعون إلى عصبية جاهلية، يبغضون شيوخ الصحابة من قريش، ولم تكن لهم سابقة في الإسلام، فحسدوا أهل السابقة من قريش على ما أصابوا من مغانم شرعية؛ جزاء جهادهم وفتوحاتهم، فأرادوا أن يكون لهم مثلها بلا سابقة ولا جهاد، وفيهم الموتورن من حدود شرعية أقيمت على بعض ذويهم، فأضغنوا في قلوبهم الإِحْنَة والغل لأجلها، وفيهم الحمقى الذين استغل السبئيون ضعف عقولهم، فدفعوهم إلى الفتنة والفساد والعقائد الضالة، وفيهم من أثقل كاهله خير عثمان ومعروفه نحوه فكفر معروف عثمان، عندما طمع منه بما لا يستحقه من الرئاسة والتقدم؛ بسبب نشأته في أحضانه.

وفيهم من أصابه من عثمان من التعزير لبوادر بدرت منهم تخالف أدب الإسلام، فأغضبهم التعزير الشرعي من عثمان، وفيهم المتعجلون بالرئاسة قبل أن يتأهلوا لها اغترارًا بما لهم من ذكاء خلاب، أو فصاحة لا تغذيها الحكمة، فثاروا

متعجلين بالأمر قبل إبّانِه، وفيهم أهل الفتنة وعلى رأسهم السبئيون والمنافقون، وفيهم وفيهم.

وعلى الإجمال فإن الرحمة التي جبل عليها عثمان > وامتلأ بها قلبه، أطمعت الكثيرين فيه، وأرادوا أن يتخذوا من رحمته مطية لأهوائهم، ولو صدق التاريخ لأوقفنا على نفسيات هؤلاء الذين خرجوا على عثمان > وعلى أغراضهم ونوعياتهم؛ ليكون من ذلك الدرس والعبرة لطلاب التاريخ الإسلامي.

ثم ماذا؟ لما قضى الله تعالى أمره وأمضى قدره، وذلك بمقتل ذي النورين عثمان >؛ عُلم أن الحق ألا يُترك الناس سدى، وأن المسلمين بعده مفتقرون إلى خليفة، مفروض عليهم النظر فيه، ولم يكن بعد الخلفاء الثلاثة كالرابع قدرًا وعلمًا وتُقًى ودينًا، فانعقدت له البيعة، ولولا الإسراع بعقد البيعة لعلي > لتدافع إليها الأوباش فيقع ما لا يُرقع خَرْقُه، ولكن عليًّا > أبى البيعة وتبرأ من الأمر، وابتعد عنه، ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار وقالوا له: "ننشدك الله ألا ترى الفتنة، ألا تخاف الله".

فلما رأى أن الأمر فرض عليه انقاد إليه، حتى أتى الناس عليًّا وهو في سوق المدينة وقالوا له: "ابسط يدك نبايعك، فقال: لا تعجلوا حتى يجتمع الناس وحتى يتشاوروا". وتمت له البيعة.

وهذه الوقائع على بساطتها تدل على أن بيعة علي > كبيعة إخوانه من قبل، جاءت على قدْرها وقدَرها وفي إبانها، وأنها مستمدة من رضا الأمة في حينها، لا من وصية سابقة مزعومة، أو رموز خيالية موهومة.

ولما استقر أمر بيعة علي > دخل عليه طلحة والزبير ورءوس الصحابة } وطلبوا منه إقامة الحدود والأخذ بدم عثمان، فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مددٌ وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا، فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود؛ ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج، وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في مقتل عثمان > فقال لهما: "مهلًا عليّ حتى أنظر في هذا الأمر".

ولكن تعجل طلحة والزبير وعائشة } الأمر، وخرجوا على رأس جيش يطالب عليًّا بالقصاص من قتلة عثمان، وإن كانوا أرادوا أن يتفقوا مع علي > على الطريقة التي يتوصلون بها إلى ذلك، ولكن دسائس السبئيين وحرصهم على عدم الصلح، أدّى إلى وقوع موقعة الجمل.

هذا وفي نفس الوقت لم يكن قد بايع أهل الشام وعلى رأسهم معاوية > وقد تأثر الناس بمقتل عثمان > تأثرًا عظيمًا، وعلقوا قميص عثمان وأخذوا يبكون حوله، ويطالبون بدم عثمان، وأرسل علي إلى معاوية يطلب منه البيعة، فرفض معاوية حتى يأخذ علي بالقصاص من قتلة عثمان.

وأما موقف علي من قتلة عثمان، فإنهم كانوا عند البيعة له مستولين على زمام الأمر في المدينة، ولم يكن في استطاعة علي ولا غيره أن يقف منهم موقفًا يستطيع فيه القصاص، في الوقت الذي حرص فيه السبئيون على إثارة الفتن والقلاقل، وإثارة الأحقاد والضغائن، وأخذوا ينفخون في الرماد، ويحاولون إسعار الحرب بين المسلمين مرة أخرى، ويحرضون شيعة علي ضد كل من يطلب بثأر عثمان وقصاصه وخاصة معاوية الذي عزله علي عن الشام وامتنع من الخضوع لخلافة علي > والتسليم بإمارته إلا بالشرط الذي اشترطه وهو القصاص، وتم تبادل

الرسائل بين الطرفين، ولكنها لم تؤد دورها؛ لوجود عناصر تفسد وسائل الصلح؛ لتحقيق أغراضهم ومآربهم.

ومن هنا قامت معركة صفين بأحداثها المعروفة تاريخيًّا، وبما جرّت على المسلمين من شر مستطير، حيث كانت الشرارة التي نجمت عنها الفرق، في الوقت الذي اشتد فيه القتال دعا قوم إلى التحكيم، والناس ما بين مؤيد ومعارض، أو معارض أولًا ثم موافق بعد ذلك والعكس أيضًا، ولكن هذا التحكيم ترتب عليه ما الله به عليم، وإن كانت فتنة التحكيم ليست كما صورتها كتب التاريخ في الروايات المشهورة، وإن كانت باطلة، ولكن كان هناك تحكيم أدى إلى خلع علي > ومعاوية عن إمرة الشام > .

وعلى المسلمين أن يختاروا واحدًا من بقية الستة، الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ولكن هذه النتيجة لم تحقن دماء المسلمين، ولم توقف النزيف، ولم تؤد إلى صلح، ومن هنا خرجت الخوارج الذين كفروا عليًّا ومعاوية والحكمين، وكل من وافق على التحكيم، وجعلوا شعارهم: لا حكم إلا لله، وقالوا: أتحكمون الرجال في دين الله، وكان ما كان من أمرهم كما ستعرفه في موضعه إن شاء الله تعالى.

وهذا في الوقت الذي اندسَّ فيه السبئيون في صفوف جيش علي > ثم راحوا يزعمون مزاعم كقولهم بالوصية لعلي، وقولهم بالرجعة وتكفيرهم لأبي بكر وعمر، ولعنهما مع غلو في محبة علي > جعلتهم على طوائف؛ منهم من زعم له الألوهية وراح يقول لعلي: أنت أنت قال: ما أنت؟ قال: أنت الله، وقام علي > بتحريق بعضهم ونفي بعضهم، وهو الذي قال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا ❖ أججت نارًا ودعوت قنبرًا

وقنبرًا هذا مولى علي الذي أجج له النار، فأضمر النيران على الذين ادعوا ألوهيته، وهم يقولون له: الآن ازددنا يقينًا أنك أنت الله؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا رب النار. وآخرون قالوا بالنبوة لعلي، حيث زعموا أن جبريل الذي أطلقوا عليه لقب صاحب الريش، قد أخطأ فبدلًا من أن ينزل على علي نزل على محمد ﷺ.

ومن هؤلاء وأولئك تكونت نواة الشيعة وفرق الباطنية، الذين كانوا على النقيض من الخوارج، على نحو ما سنعرف هؤلاء وأولئك إن شاء الله، خاصة فيما يرتبط بأمر علي > .

فهذه الشيعة تحب عليًّا وتناصره، وتنبثق منها الباطنية بآرائها وأفكارها، وتلك الخوارج تبغض عليًّا وتكفره، وهؤلاء توقفوا في الحكم على الأشياء، وأرجئوا فيها الأمر إلى الله تعالى، فكانت المرجئة، وحيث احتج أناس بالقضاء والقدر، في مثل هذه الأمور وغيرها وبدأ الناس يفهمون القضاء والقدر فهمًا خاطئًا، فوُجد في المسلمين من هم على طرفي نقيض؛ حيث القدرية ينكرون القدر ويقولون: لا قدر والأمر أُنف، أي مستأنف، والجبرية على عكس ذلك، إذ يرون أن الإنسان مجبر على كل شيء قدرًا، وأنه كالريشة في مهب الريح، وينسبون الشر إلى الله تعالى.

ووجدت الإبليسية تتردد في إثبات القدر ونفيه، ومن حكم على الناس بالكفر لارتكابهم الكبيرة كالخوارج، ومن زعم أنه مؤمن كامل الإيمان كالمرجئة، ومن قال: هو في منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة، وفي فترة عمها الأمن توقفت الفتوحات بدأ الحديث عن قضايا الدين في غوامض المسائل، ودقائق الأشياء، فوقع الخلاف في الأسماء والصفات، فوجدت المجسمة والمعطلة والمؤولة.

وحيث وُجد أناس يعتزلون الفتن، كانت مدرسة الزهد الأولى، ثم وقع التلاميذ في البدع والمخالفات، فكان المتصوفة، ومن خلالهم وُجد أصحاب الاتحاد والحلول، وهكذا وجدت الفرقة وأطلت برأسها، وانتشرت في ربوع المسلمين، حتى وجدت بعد ذلك الباطنية بفرقها والبابية والبهائية والقديانية، وإلى أن وصلنا إلى العصر الحديث، وفيه أهل الحداثة والتغريب والعلمانية والماسونية، كل هذا تحت عباءة الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(ظهور الفرق الإسلامية)

عناصر الدرس

الأسباب التي أدت إلى ظهور الفرق الإسلامية

السبب الأول: الشيطان، وهو سبب يستحق الصدارة؛ إذ حرَص الشيطان من البداية بحكم عدائه للإنسان أن يفرق كلمتهم، ويقعدَ لهم دون الصراط المستقيم، كما حكاه القرآن الكريم: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ [المائدة: ٩١]، وقد قال النبي ﷺ: ((إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون بجزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم)) فهو رأى أن الشيطان يسعى دائمًا بين الناس بالخصومات والشحناء والبغضاء والفتن، وحبائل الشيطان لو تأملتها أدركت أنه يريد من ورائها أن يفرق بين الأخ وأخيه، وبين المرء وزوجه، والابن وأبيه، وهو بذلك يريد أن يفرق جماعة المسلمين ويوقع بينهم العداوة والبغضاء.

ولذلك أمرنا الله تعالى بمخالفة الشيطان والعمل على إفساد وسائله وحبائله وتجنب شبهاته وإغرائه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ [المائدة: ٩١]، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، كما قال تعالى ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧]، وكم تجد في كتاب الله ﷻ من تحذير من الشيطان من حبائله ووساوسه التي تأتي بصورة الخطوات، ولو عن طريق الخير أولًا، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النور: ٢١].

السبب الثاني: أولياء الشيطان الذين هم أعداء الإسلام خاصةً أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، وقد بنوا سياستهم مع غيرهم على مبدأ "فرِّقْ تَسُد"، قد صدق الله العظيم إذ قال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [المائدة: ٨٢]، وقال أيضًا: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠] لقد جرَّب اليهود مبدأ "فرِّقْ تَسُد" فوجدوه ناجحًا أيّما نجاح، قد جربوه مع أتباع المسيح # ، وجربوه مع الأوس والخزرج قبل الإسلام، ومن ثَمَّ حرصوا على استخدامه كلما لاحت لهم فرصة أو سنحت لهم بادرة اهتبلوها من أجل تفريق الكلمة وتمزيق الصف المسلم، وكيف لا وهم الذين فرقوا كلمة المسلمين الأوائل، الأوس والخزرج بعد أن آخى رسول الله ﷺ بينهم، ألّف الله تعالى بين قلوبهم، ومع ذلك فقد استطاعوا أن يوقدوا نار الحرب بينهم، لكن الله أطفأها بفضله ومنّه.

وقد حذرَنا ربُّنا ﷻ منهم ونهانا عن موالاتهم، وأمرنا بالإعداد لهم ومعرفة مخططاتهم، وأنه لا بد من الصراع بين الحق والباطل، ولكن في الأخير: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨] فأعداء الإسلام حريصون كل الحرص على تفريق كلمة المسلمين؛ لأنهم عرفوا أن هذا السلاح أمضى وأنه أقوى، وأنهم ما استطاعوا أن يجابهوا المسلمين أو أن ينتصروا عليهم إلا في ظل تفريق كلمتهم وتمزيق وحدتهم، وصدق ربنا إذ قال: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

واليهود حريصون على هذا المعنى كل الحرص، فما من دولة إلا حاولوا إيجاد الفرقة بين أبنائها، والتنازع على الحدود بينها وبين الدولة المجاورة لها وفي ذات

الدولة، وها نحن نرى ما يحدث في العراق وما حدث في فلسطين، وما حدث قبلُ في الأندلس، إنه مبدأ "فرِّقْ تَسُد".

السبب الثالث: التنازع على السياسة والملك، إننا إذا استقرأنا التاريخ وجدنا كثيرًا من ألوان الفرقة وقعت بسبب التنازع على السياسة وحبّ الرئاسة، وهذا السبب ذاته انبنى على حب الدنيا الذي تمكن من قلوب بعض المسلمين، فأوجد في النفوس أغراضًا وفي القلوب أمراضًا، كانت من أهم الأسباب في تفريق كلمة المسلمين وذهاب قوتهم وضياع عزهم، وما ضاعت الأندلس وأخواتها إلا بمثل هذا السبب، وكذا في كل عصر ومصر، إذًا نظر الإنسان إلى نفسه وعمل لحسابه ولم يبالِ بدينه وأمته؛ فإن ذلك يجر على الأمة ويلات وهزائمَ، حين يكون الإنسان معجبًا لرأيه حريصًا على سيادته، فمن هنا تقع الفرقة بمثل هذا التنازع على السياسة والملك، والتنازع لا بد وأن يورث الفشل: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقد ضاعت الأندلس بسبب هذا وأمثاله، حتى رئِيَ أحد الملوك وهو يبكي، فقالت له أمه: ابكِ كالنساء مُلكًا لم تحافظ عليه كالرجال.

السبب الرابع: التعصب للأشخاص والإعجاب بالرأي، فكم رأينا أناسًا يستميتون في التعصب لمشايخهم ولآراء العلماء الذين يتتلمذون على أيديهم، وللمذاهب التي يتمذهبون بها، وكم أضر هذا التعصب بالأمة المسلمة أيّما ضرر، كما ابتليت الأمة بأناس إذا اقتنعوا برأيهم لا يحيدون عنه وإن كان خاطئًا، هذا من العصبيات التي تعُجّ بها المجتمعات، وقد حذَّر القرآن الكريم من ذلك بقوله تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال النبي ﷺ وآله وسلم: ((ليس منا من دعا إلى العصبية)).

السبب الخامس: فإنه يُعدّ المفاهيم الخاطئة في حياة المسلمين، سواء أكان ذلك بالتفسيرات الخاطئة لبعض الآيات، أو الإسرائيليات في بعض التفاسير، أم كان ذلك بفهم خاطئ لبعض الأحاديث الصحيحة وانتشار أحاديث ضعيفة أخرى أو موضوعة، وكذلك بانتشار شبهات المستشرقين ومفتريات المنصّرين، فكل ذلك يعد خلطًا بين الحق والباطل، وإذا اختلط الحق بالباطل شوَّش على المسلمين فاختلفت كلمتهم، وتفرقت وحدتهم، ولو عرفت الأمة الفهم الصحيح في ذلك ما كان هذا حالهم من ضعف وهزيمة وذُلّ ومهانة.

فهذا الباب الذي هو باب المفاهيم الخاطئة في حياة المسلمين باب واسع، باب خطير استشرى حتى شمل جُلّ معالم الدين، يقوم بهذا الأمر المستشرقون، وينشره تلامذتهم من المستغربين، ففي كتاب الله ﷻ آيات وضعت في غير موضعها، وفي سنة النبي ﷺ أحاديث فُهمت على غير وجهها، ومبادئ الدين فُهمت بصورة قاصرة، وتاريخ مزيف مُحرَّف عدوه سندًا ودليلًا وجعلوه مرجعًا لهم يردون به على الحقائق الثابتة وعلى الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، وأمور أخرى تندرج في هذا الباب تدخل تحت هذا السبب كان لها أكبر الدور في تفريق كلمة المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب السادس: إنه الجهل بطبيعة هذا الدين، هذا الدين له عقيدة وأصول واحدة لا يُختلف عليها، الحق فيها واحد لا يتعدّد كما قال تعالى: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢]، وفيه فروع وتشريعات يمكن أن يتعدَّد فيها الحق ولا يتوحد ويقع فيها الاختلاف باختلاف اجتهادات المجتهدين مع الاتفاق على وحدة المصدر والمنشأ، الذين جهلوا هذا المعنى لم يفرقوا بين الكليات والجزئيات، ولا بين القطعيات و الظنيات، ولا بين المحكمات والمتشابهات؛

فكان ذلك سببًا في تفريق كلمة الأمة وتمزيق وحدتها مما أضرَّ بها وجعل الأعداء ينالون منها. ولا شك أن أسبابا أخرى أدَّت إلى فرقة المسلمين، يمكن التوسع فيها في غير هذه المقدمة التي ندور في فلكها لندخل بعدُ إن شاء الله ﷻ في المضمون.

حديث النبي ﷺ في افتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقه

هذا وقد ذكر في أمر الفرقة حديث مأثور في افتراق الأمة، الحديث كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: ((افترقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: الجماعة))، وفي رواية قال: ((ما أنا عليه اليوم وأصحابي)) ﷺ، و { .

هذا الحديث الذي تنازع العلماء في شأنه كثيرًا ما بَيْن مصحِّح ومضعِّف، نقول: الحديث من حيث الصحة والضعف كما قال المحققون من علماء الحديث هو حديث صحيح، ولست بصدد تخريجه الآن، هذا الحديث الصحيح فهِمَه البعض فهمًا خاطئًا، وربما فهمه البعض فهمًا قاصرًا حين نظر إلى الحديث على مستوى زمانه هو، أو على مستوى مكانه هو، فلربما راح يقول: من هي الفرق الثلاث والسبعون التي ذُكرت في حديث النبي ﷺ؟ فإن كان مثلًا من أبناء مصر راح يقول هي جماعة كذا وكذا وكذا، أو كان من أبناء الهند يقول: هل هم جماعة كذا وكذا وكذا؟ وهذا لا شك أنه قصور في فهم الحديث أنه نظر إلى مكان دون مكان، فحصر الأمر في زمان دون زمان.

الذي يبدو لي - والله أعلم- من خلال هذا الحديث ما نحن فيه من الحديث عن الفِرق تلك التي أطلّت برأسها منذ قليل، مُذْ قُتِل فاروق الأمة عمر بن

الخطاب > ، وجاء عهد عثمان بن عفان > فوجدت السبئية أتباع عبد الله بن سبأ على نحو ما هم عليه، منهم من يزعم إلوهية علي، ومن يقول بنبوته، ومن يقول بكذا وكذا، على نحو سنفصل القول فيه بعد - إن شاء الله ﷻ.

وُجدت الخوارج تكفر عليا ومعاوية، تكفر الحَكَمين، كل من رضي بالتحكيم، وبدأت ترسي لنفسها مبادئ ترى فيها كفر مرتكب الكبيرة وغير ذلك، ثم هي تفرقت بدورها إلى شِيَع وإلى فِرَق كالأزارقة والنجدات والبيهسية والصفرية والإباضية، وغير ذلك من فرق انبثقت عن الخوارج، لَمَّا كانت الخوارج تكفّر مرتكبَ الكبيرة وتُخرجه من ملة الإسلام وتحكم عليه بالنار والخلود فيها وُجِد من يناقضها، فيرى أن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان الملائكة والأنبياء، وأنه مخلَّد في الجنان، وأنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فكانت المرجئة.

وهكذا هذه السبئية التي كانت بذرة للشيعة والباطنية، وهذه الخوارج بفرقها المختلفة، وهذه المرجئة وما انبثق عنها من غُلاة المرجئة ومرجئة الفقهاء وغيرهم، ووُجد بعدُ مَن يُخالف رأي المرجئة والخوارج، كما جاء رجل يسأل إمام التابعين الحسن البصري - رحمه الله تعالى- عن حكم مرتكب الكبيرة، وأنه رأى أناسًا يقولون عنه: إنه مؤمن كامل الإيمان، وأناسًا يقولون عنه: كافر مخلد في النيران، فماذا تقول يا إمام الدين؟ ففكر الحسن وقتًا لأن الأمر ليس سؤالًا يجاب عليه فحسب، بل هو فتنة يريد القضاء عليها، فإذا بتلميذه واصل بن عطاء يقول: أرى أنه في منزلة بين المنزلتين، ليس بالمؤمن ولا بالكافر، لكنه مخلد في النار، واعتزل شيخه وجلس جانبًا من المسجد يُدرِّس الناسَ قوله هذا الذي قاله "المنزلة بين المنزلتين"، فقال الحسن البصري - رحمه الله- : "اعتزلنا واصل"،

وعُرِف واصل وتلامذته من ذلك اليوم باسم المعتزلة، وأنشئوا فرقة وجعلوا لها أصولًا ومبادئ، وأهم ما عندهم الأصول الخمسة عند المعتزلة، فمن لم يؤمن بهذه الأصول الخمسة لم يكن اعتزاليًّا.

ثم تتابعت الفرق حين اختلف الناس في باب الأسماء والصفات مثلًا، وقد كان السلف في هذا الباب على نحو ما تعلَّموا من نبيهم ﷺ، وكما جاء القرآن في ذلك يمدحهم: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، كما في الآية بطولها: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] فكان السلف على هذا المعنى فيما عبَّر عنه امتدادهم بعد ذلك في الأسماء والصفات نقول: نثبت لله ﷻ ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بغير تحريف ولا تكييف، ولا تأويل ولا تعطيل ولا تمثيل، سبحانه سبحانه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ومع وضوح تلك العقيدة عند السلف الصالح - رضوان الله عليهم- إلا أنه وُجِد من يُجسِّم هذه الصفات ويُمثِّلها، قد عُرِفوا بالمشبهة أو المجسمة، وردُّ فعل لهم، من ينفيها ويعطلها حتى قال أحد السلف: "المشبه يعبدون صنمًا، والمعطلة يعبدون عدمًا، وُجِد من أراد أن يوفق بين الآراء أو أن يمسك العصا من منتصفها، فتأولوا الأسماء والصفات، والتأويل ظني وليس يقينيًّا، وقد مال إلى هذا التأويل الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم، فهناك إذًا الممثلة والمعطلة والمؤولة، هم فرق في باب الأسماء والصفات خالفوا ما عليه سلف الأمة في هذا الجانب، فهم بذلك فرق".

أقول: وفي ذات الوقت الذي وقع فيه الخلاف في مثل هذه الأمور ارتبطت الأسماء والصفات التي ارتبطت بالقضاء والقدر ترتَّب عليها وجود فرقة كالجبرية والقدرية والإبليسية، وهم في ذلك يُخالفون أهل السنة والجماعة في باب القضاء والقدر، وهؤلاء الخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي < الخوارج الأول الذين عُرِفوا بلقب المُحكِّمة الأولى، ثم توالت الفِرق مِن بعدهم كالأزارقة والنجدات العاذرية والبيهسية وغيرهم، في ظل هذه الفتن وهذه الفرق هناك فتحت الدنيا على كثير من الناس، وُجدَ أناس اعتزلوا هذه الفتن، أخذوا بمبدأ العزلة، فاعتزلوا الدنيا واعتزلوا تلك الفتن والخلافات، كانوا بمنأى عن ذلك كله، وهؤلاء عُرفوا فيما بعد باسم الزّهَّاد، وهي مدرسة الزهد الأولى، وذلك مع نهايات القرن الأول وبدايات القرن الثاني.

وهناك من أقام لنفسه خُلوة ليعتزل فيها، لكن الناس أمدّوا هؤلاء الذين أقاموا في خلواتهم بالطعام والشراب، وأقاموا لهم التكايا وأكثروا لهم الهدايا؛ حتى طمع آخرون في هذا الرزق الوفير الذي صار لهؤلاء الزّهّاد وأرادوا أن يكونوا تلامذة لهم، مع الفارق الكبير بين الأساتذة والتلامذة؛ فالأساتذة اعتزلوا زهادة في الدنيا ورغبة في الآخرة، أما هؤلاء التلامذة فأرادوا أن يكونوا مع أساتذتهم رغبةً في الدنيا قبل أن تكون زهادة فيها، لم يكونوا على شاكلة الأساتذة، بل خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، هذا لا يعني أن الأساتذة معصومون، بل يُصيبون ويُخطئون، لكنهم أهل سنة وأهل فضل امتدحهم من عرَفهم ومن جاء بعدهم، فهم أئمة على العين والرأس لكنهم بشر ليسوا معصومين، أما تلامذتهم فخلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم.

لكن المصيبة فيما وقع بعد ذلك أن أناسًا دخلوا الإسلام وفيهم فلسفات قديمة وأفكار جاهلية على رأسها فلسفة وَحدة الوجود أو الاتحاد والحلول، فاندسّوا في خَلَوات هؤلاء الناس الذين أكثر بعضهم من لبس الصوف حتى عُرِفوا باسم المتصوفة أو الصوفية من كثرة لبسهم الصوف، فاندسّ في خلواتهم الفلاسفة، خرج من خرج منهم على الناس بفلسفة وحدة الوجود والاتحاد والحلول كالحلاج وابن عربي وغيرهما، ثم دخل في هذا الباب من لا يحسنه وأراد أن يرتزق من ورائه؛ فوُجدت صوفية الأرزاق ومن هو شر منهم صوفية الرأس الذين لبسوا لباس المتصوفة وهم لا يعرفون عن التصوف شيئًا ولا عن الإسلام الكثير، بل ما يعرفون من الإسلام إلا اسمَه ومن التصوف إلا رسمَه.

وهكذا وُجدت صوفية الحقائق والأرزاق والرسم، وصوفية الحقائق فيهم أهل السنة والجماعة من الأساتذة كالفضيل بن عياض وابن المبارك وسفيان الثوري وشقيق البلخي ومعروف الكرخي، فيهم التلامذة، فيهم الفلاسفة، والفلاسفة شرُّ من وُجد على ظهر الأرض، بل أكثر من اليهود والنصارى عياذًا بك اللهم، فكانت فرقة، في الوقت الذي تعاطف الناس مع آل بيت النبي ﷺ، وحين قُتل الحسين بن علي } وذلك في كربلاء فيمن قُتل من أهله، فيمن شُرِّد من آل البيت، فقويت بذرة الشيعة، ثم راحت هذه الفئة تنقسم على نفسها أقسامًا، تختلف في الآراء حتى وُجدت من بينها الباطنية، ففيها الإسماعيلية والأغاخانية، فِرَق أخرى باطنية.

كل ذلك من هذه الفرق المشار إليها في حديث النبي ﷺ: ((وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فِرقة كلها في النار إلا واحدة))، ومن بين هاتين الثنتين وسبعين فرقة النارية، فِرق والت أعداء الإسلام، وأنكرت معلومًا من الدين بالضرورة،

كهذه البهائية والبابية والقضيانية، فرق نشئت في الهند على عين الإنجليز أعداء الله، أرادوا من هؤلاء أن يمنعوا الجهاد حتى تستقر أقدامهم في البلاد التي احتلوها، فزعموا لهم نَسْخَ فريضة الجهاد، بل وتطوعوا باعتقاد نسخ شريعة الإسلام التي جاء بها النبي الخاتم محمد ﷺ، والباب وقد ادعى أنه باب المهدي حتى زعم لنفسه الإلوهية، ومن بعده البهاء على نفس الوتيرة والشاكلة، وإن اندثرت البابية فقد بقيت البهائية.

ثم جاء من بعدهما ميرزا غلام أحمد القضياني وادَّعى أنه خاتم النبيين أو خاتم المرسلين، ومضت فرقته القضيانية تزعم نسخ شريعة الجهاد، ثم تزعم نسخ شريعة الإسلام؛ هذه فرق أيضًا.

وإذا مضى من التاريخ إلى عصرنا الحديث وجدنا فِرقًا تنطوي تحت راية الإسلام والإسلام منها براء؛ حيث نجد فِرقًا تدّعي إنكار السنة ويتسمَّوْن بالقرآنيين، يؤمنون بالقرآن ولا يؤمنون بالسنة، هذه فرقة مارقة عن الدين، ونجد من يزعم أنه مسلم شيوعي أو ماركسي يجمع بين إسلامه الذي وُلد عليه وبين أفكار ماركس التي تتلمذ عليها، أو ربما أخذ من ماركس بعض مبادئه كالشيوعية في المال، أو بعض مبادئه في الاقتصاد، وحتى شيوعية النساء، هذه فرقة مارقة، والعلمانية التي ترى الإلحاد في أصلها وأنها لا دينية، لكنها تطورت حتى فصلت الدين عن الدولة، فتلك فرقة، وكذا الماسونية التي جعلت ولاءها لليهود بغَضّ النظر عن هذا العضو الماسوني، بغض النظر عن دينه ووطنه وغير ذلك، إنما ولاؤه الأول والأخير لهذه الماسونية في تحقيق أهدافها، وجدنا من المسلمين من ينطوي تحت هذه الراية، هذه فرقة، لكنها مرقت عن الدين.

وهكذا يمضي بنا الحديث في بيان هذه الفِرق فيجتهد العلماء في بيانها قديمًا وحديثًا، كالشهرستاني في (الملل والنحل) والبغدادي في (الفَرق بين الفِرق) وغيرهما من العلماء الذين اجتهدوا في إحصاء هذه الفرق الثنتين وسبعين الهالكة، أو النارية، وتبقى الثالثة والسبعون هم كما وصفهم النبي ﷺ الجماعة، الذين عرفوا بهذا المصطلح أهل السنة والجماعة، وهم الذين وصفهم النبي ﷺ في وصف عملي فقال: ((ما أنا عليه اليوم وأصحابي)) إنهم أهل السنة والجماعة الذين تَبِعوا القرآن والسنة بفهم سلف الأمة، فسلكوا الصراط المستقيم، ولم تزغ بهم الأهواء، ولم تنحرف بهم الآراء، لم يتبعوا الفِرق، ولا سلكوا مسلك الطُّرق، إنما ساروا على نحو ما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إنهم ليسوا خوارجَ ولا مرجئةً ولا شيعة ولا معتزلة ولا راية لهم ولا اسم لهم ولا رسم لهم، إلا أنهم على القرآن والسنة بفهم سلف الأمة، ينطوون تحت هذه الراية ويبحثون عن الحق، فالحق وجهتهم، والحق جماعتهم، إن الجماعة أن تكون على الحق، ولو أن تكون وحدَك، قد يكونون في الناس قلة طائفة كما بين النبي ﷺ هذه الطائفة قلَّ عددها أو كثُر ما داموا يبحثون عن الحق فهم أهل السنة والجماعة، يتمسكون بهذا الدين تمسكًا نظريًّا وعمليًّا، ويجاهدون في سبيل رب العالمين، ويحرصون على قول الحق ولو تحملوا في ذلك ما تحملوه.

يوم أن وُجدت فتنة خلق القرآن وانتصر لها ملوك وأمراء، كان أهل السنة والجماعة على التمسك بالحق الذي عرَفوه من كتاب ربهم ﷻ، وسنة نبيهم

ﷺ، حتى إن الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى- ناله في سبيل ذلك الأذى والشيء الكثير، وأصرَّ > على موقفه يتحمَّل تبعة ذلك حتى لا يُضلَّ الناس، حيث قال: "القرآن كلام الله وغير مخلوق" ومن كثرة ما ناله من المحنة مع ثباته على ذلك عُرِف - رحمه الله تعالى- بإمام أهل السنة والجماعة، وإن كانت أهل السنة والجماعة مبدوءةً بأصحاب النبي ﷺ، ومؤسسها الأول هو رسول الله ﷺ.

وهكذا يستبين لك أن حديث الفرقة: ((افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قيل: من هي يا رسول؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي))، يستبين لك من خلال هذا الحديث قصة تاريخ الأمة وما وقع فيها من فرقة بدَت جذورها مع العهد الأول ومع القرن الأول، وإن كان النبي ﷺ شهد للقرون الثلاثة الأُوَل بالخير، لكن وقعت الفرقة في هذه القرون، ولكن انتشر خطرها وعم ضررها فيما بعد ذلك، ولا تزال الفُرقة تعصف بالمسلمين إلى يوم الناس هذا.

وهذه الفُرقة كما قلت أولًا أكرر آخرًا بأنها طاعون شرس، وداء خبيث، ومرض فتَّاك، إذا ما حلَّ بأمة قتلها وفتك بها، فلتحذر الأمة من أسباب الفرقة ومن هذه الفتنة، وتعمل جاهدة على أن تكون من أهل السنة والجماعة، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، مستمسكة بالحق، تدعو إلى الوحدة والائتلاف، البعد عن الفرقة والاختلاف، كما تدعو إلى الأُلفة والاعتصام، والبعد عن الفرقة والانقسام، والله ﷻ هو الذي يوفق في هذه الوحدة وتلك الألفة، فإن فُرقة الأمة

ليست قدَرًا مبرَما، إنما هو أمر ارتبط بأسبابه، وإذا زالت الأسباب يمكن أن تصبح الأمة أمة واحدة كما أرادها الله ﷿: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢] كذا قال ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] وما تكرر هذا المعنى إلا لحرص الإسلام على دعوة المسلمين للوحدة واجتماع الكلمة حتى لا ينال أعداؤهم منهم.

((الباطنية (١)))

عناصر الدرس

بيـــــان ألقـــــاب الباطنيـــــة

ألقابهم التي تناولتها الألسنة على اختلاف الأعصار والأزمنة، وهي عشرة ألقاب: (الباطنية - والقرامطة - والقُرمطية - والخُرّامية - والخمدينية - والإسماعيلية - والسَّبعية - والبابِكية - والمُحمِّرة - والتعليمية) هذه عشرة أسماء أو ألقاب.

ولكل لقب سبب.

الباطنية: فإنما لُقبوا بها لدعواهم "أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القِشر، وأنها بصورها تُوهِم عند الجهال الأغبياء صورًا جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة، وأنَّ من تقاعدَ عقله عن الغوص عن الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار، وقنع بظواهرها مسارعًا إلى الاغترار، كان تحت الأواصر والأغلال، معلنًا بالأوزار والأثقال" وأرادوا بالأغلال التكليفات الشرعية؛ فإن مَن ارتقى إلى علم الباطن انحطَّ عنه التكليف واستراح من أعبائه، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وربما موّهوا بالاستشهاد عليه بقولهم: إن الجُهَّال المنكرين للباطن هم الذين أُريدوا بقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع؛ فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد مُوجبَ الظواهر قدروا على الحكم بدعوة الباطل على حسب ما يوجب

الانسلاخ عن قواعد الدين، إذْ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى للشرع عِصام يُرجع إليه ويُعوّل عليه.

القرامطة: فإنما لُقِّبوا بها نسبة إلى رجل يقال له حَمْدان قُرْمط كان أحد دُعاتهم في الابتداء، فاستجاب له في دعوته رجال فسُمُّوا قرامطة وقُرمطية، وكان المسمّى حمدان قرمط رجلًا من أهل الكوفة، مائلًا إلى الزهد، فصادفه أحد دعاة الباطنية في طريق وهو متوجه إلى قريته وبين يديه بقر يسوقها، فقال حمدان لذلك الداعي وهو لا يعرفه ولا يعرف حاله: أراك سافرتَ من موضع بعيد فأين مقصدك؟ فذكر موضعًا هو قرية حمْدان، فقال له حمدان: اركب بقرة من هذه البقر لتستريح عن تعب المشي. فلما رآه مائلًا إلى الزهد والديانة أتاه من حيث رآه مائلًا إليه، فقال: إني لم أُومر بذلك. فقال حمدان: وكأنك لا تعمل إلا بأمر؟ قال: نعم. قال حمدان: وبأمر مَن تعمل؟ فقال الداعي: بأمر مالكي ومالكك، ومَن له الدنيا والآخرة. فقال حمدان: ذلك إذا هو رب العالمين. فقال الداعي: صدقتَ، ولكن الله يهب ملكه لمن يشاء. قال حمدان: وما غرضك في البقعة التي أنت متوجه إليها؟ قال: أُمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة، وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر، وأملِّكهم ما يستغنون به عن الكدّ والتعب. فقال له حمدان: أنقذني أنقذك الله، وأفض علي من العلم ما يحببني به؛ فما أشد احتياجي إلى مثل ما ذكرتَه. فقال الداعي: وما أُمرت بأن أُخرِج السر المخزون لكل أحد إلا بعد الثقة به والعهد عليه. فقال حمدان: وما عهدك؟ فاذكره لي؛ فإني ملتزم به. فقال الداعي: أنت تجعل لي وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقَه ألا يخرُج سر الإمام

الذي ألقيته إليك ولا تفشِ سري أيضًا. فالتزم حمدان سرَّه، ثم اندفع الداعي في تعليمه فنون جهله حتى استدرجه واستغواه واستجاب له في جميع ما دعاه، ثم انتدب حمدان للدعوة، وصار أصلًا من أصول هذه الدعوة، فسمي أتباعه القُرْمُطيّة.

الخُرّاميّة: فلُقبوا بها نسبةً لهم إلى حاصل مذهبهم وزُبدته، فإنه راجع إلى طيب صافي التكليف، وحطِّ أعباء الشرع عن المتعبدين، وتسليط الناس على اتباع اللذات وطلب الشهوات، وقضاء الوطر من المباحات والمحرمات، وخُرّم لفظ أعجمي ينبئ عن الشيء المستلذ المستطاب الذي يرتاح الإنسان إليه بمشاهدته ويهتزّ إليه بمشاهدته ويهتز لرؤيته، وقد كان هذا لقبا للمزدكيّة، وهم أهل الإباحة من المجوس الذين نبغوا في أيام قِباس، وأباحوا النساء وإن كنَّ من المحارم، وأحلوا كل محذور، وكانوا يسمون خَمَدِينيَّة وهؤلاء أيضًا لُقبوا بها لمشابهتهم إياهم في آخر المذهب، وإن خالفوهم في المقدمات وسوابق الحيل في الاستدراج.

وأما اسم البابِكية فاسم لطائفة منهم، بايعوا رجلًا يقال له بابك الخرَّمِي، وكان خروجه في بعض الجبال بناحية أذربيجان في أيام المعتصم بالله، واستفحل أمرهم واشتدّت شوكتهم، وقاتلهم أفشين صاحب حبس المعتصم، مداهنًا له في قتاله ومتخاذلًا عن الجد في قمعه إضمارًا لموافقته في ضلاله، فاشتددت وطأة البابكية على جيوش المسلمين حتى مزقوا جند المسلمين وبددوهم منهزمين، إلى أن هبت ريح النصر واستولى عليهم المعتصم المترشح للإمامة في ذلك العصر، فصُلب بابك وصلب أفشين بإزائه.

وقد بقي من البابكية جماعة يقال: إن لهم ليلة يجتمع فيها رجالهم ونساؤهم، ويطفئون سروجهم وشموعهم، ثم يتناهبون النساء، فيثب كل رجل إلى امرأة فيظفر بها، ويزعمون أن من استولى على امرأة استحلها بالاصطياد؛ فإن الصيد من أطيب المباحات، ويدّعون مع هذه البدعة نبوة رجل كان من ملوكهم قبل الإسلام يقال له شُروين، ويزعمون أنه كان أفضل من نبينا ﷺ ومن سائر الأنبياء قبلهم.

وأما اسم الإسماعيلية فهو نسبة إلى أن زعيمهم محمد بن إسماعيل بن جعفر، ويزعمون أن أدوار الإمامة انتهت به؛ إذ كان هو السابع من محمد ﷺ، وأدوار الإمامة سبعة عندهم، فأكبرهم يُثبتون له منصب النبوة، وأن ذلك يستمر في نسبه وعَقَابه، وقد أورد أهل المعرفة بالنسب في كتاب الشجرة أنه مات ولا عقب له.

السبعية: فإنما لُقِّبوا بها لأمرين؛ أحدهما: اعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة، وأن الانتهاء إلى السابع هو آخر الدور، وهو المراد بالقيامة، وأن تعاقُب هذه الأدوار لا آخر لها قط، والثاني: قولهم: إن تدابير العالم السفلي -أعني: ما يحويه- مقعّرُ فلك القمر منوطةً بالكواكب السبعة التي أعلاها زحل ثم المشترى ثم المريخ ثم الشمس ثم الزهرة ثم عطارد ثم القمر، وهذا المذهب مسترقٌّ من ملاحدة المنجمين، وملتفتٌ إلى مذاهب الثانوية في أن النور يدبر أجزاءه الممتزجة بالظلمة لهذه الكواكب السبعة، فهذا سبب هذا التلقيب.

المُحمِّرة: فقيل: إنهم لقبوا به لأنهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك ولبسوها، وكان ذلك شعارهم، وقيل: سببه أنهم يقررون أن كل من خالفهم من فرق أهل الحق حمير، والأصح هو التأويل الأول.

التعليمية: فإنهم لقبوا بها لأن مبدأ مذاهبهم إبطال الرأي وإبطال تصرف العقول، ودعوة الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم، وأنه لا مدركَ للعلوم إلا بالتعليم، ويقولون في مبتدأ مجادلتهم: الحق إما أن يعرف بالرأي وإما أن يعرف بالتعليم، وقد بطل التعويل على الرأي لتعارض الآراء وتقابل الأهواء واختلاف ثمرات نظر العقلاء، فتعين الرجوع إلى التعليم والتعلم، وهذا اللقب هو الأليق بباطنية العصر الذي عاش فيه أبو حامد الغزالي رحمه الله، وذلك في القرن السابع الهجري، فإن تعويلهم الأكثر كان على الدعوة إلى التعليم وإبطال الرأي وإيجابه لاتباع الإمام المعصوم، وتنزيله في وجوب التصديق والاقتداء به منزلةَ رسول الله ﷺ.

سبب نصب دعوة الباطنية

مما تطابق عليه نَقَلة المقالات قاطبة أن هذه الدعوة لم يفتتحها منتسبٌ إلى ملة، ولا معتقد لنحلة، معتضد بنبوة، فإن مساقَها ينقاد إلى الانسلال من الدين كانسلال الشعرة من العجين، ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثانوية الملحدين وطائفة كبيرة من ملاحدة الفلاسفة المتقدمين، وضربوا سهام الرأي في استنباط التدبير يخفّف عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين، وينفس عنهم كربة ما دهاهم من أمر المسلمين، حتى أخرسوا ألسنتهم عن النطق بما هو معتقَدهم من إنكار الصانع، وتكذيب الرسل، وجحد الحشر والنشر والمعاد إلى الله في آخر الأمر.

وزعموا أنا بعد أن عرفنا أن الأنبياء كلهم مُمَخرقون وملمّسون، فإنهم يستبعدون الخلق بما يخيلونه إليهم من فنون الشعوذة، وقد تفاقم أمر محمد ﷺ

واستطارت في الأقطار دعوته، واتسعت ولايته، واتسقت أسبابه وشوكته، حتى استولوا على ملك أسلافنا، وانهمكوا في التنعم في الولايات مستحقرين عقولنا، وقد طَبَقوا وجه الأرض ذات الطول والعرض، ولا مطمعَ في مقاومتهم بقتال، ولا سبيل إلى استنزالهم عمّا أصروا عليه إلا بمكر واحتيال، ولو شافهناهم بالدعاء إلى مذهبنا لتنمروا علينا، وامتنعوا من الإصغاء إلينا.

فسبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم هم أرقّهم عقولًا وأسخفهم رأيًا وألينهم عريكة لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات ألا وهم الروافض، ونتحصل بالانتساب إليهم والاعتزاء لأهل البيت عن شرهم، ونتودد إليهم بما يلائم طبعهم من ذكر ما تم على سلفهم من الظلم العظيم والذل الهائل، ونتباكى لهم على ما حل بآل محمد ﷺ، ونتواصل به إلى تطويل اللسان في أئمة سلفهم الذين هم أسوتهم وقدوتهم، حتى إذا قبحنا أحوالهم في أعيننا وما يَنقل إليهم شرعهم بنقلهم ورواياتهم؛ اشتدّ عليهم باب الرجوع إلى الشرع، وسهل علينا استدراجهم إلى الانخلاع عن الدين، وإن بقي عندهم معتصَم من ظواهر القرآن ومتواتر الأخبار أوهمْنا عندهم أن تلك الظواهر لها أسرار وبواطن، وأن أمارة الأحمق الانخداع بظواهرها، وعلامة الفطنة اعتقاد بواطنها، ثم نبثّ إليهم عقائدنا ونزعم أنها المرادة بظواهر القرآن، ثم إذا تكثّرنا بهؤلاء سهل علينا استدراج سائر الفرق بعد التحيز إلى هؤلاء والتظهُّر بنصرهم.

ثم قالوا: طريقنا أن نختار رجلًا ممن يساعدنا على المذهب ونزعم أنه من أهل البيت، وأنه يجب على كافة الخلق مبايعته، وتتعين عليهم طاعته، فإنه خليفة رسول الله ﷺ ومعصوم عن الخطأ والزّلل من جهة الله تعالى، ثم لا نُظهر هذه الدعوة على القرب من جوار الخليفة الذي وسمناه بالعصمة، فإن قرب الدار ربما

يهتك هذه الأستار، وإذا بعدت الشُّقَة وطالت المسافة فمتى يقدر المستجيب إلى الدعوة أن يفتش عن حاله، وأن يطّلع على حقيقة أمره، ومقصدهم بذلك كله الملك والاستيلاء والتبسط في أموال المسلمين وحريمهم، والانتقام منهم فيما اعتقدوه فيهم وعاجلوهم به من النهب والسفك وأفاضوا عليهم من فنون البلاء، فهذه غاية مقصدهم ومبدأ أمرهم، ويتضح لك مصداق ذلك بما سنذكره لك بعدُ إن شاء الله عن خبائث مذهبهم وفضائح معتقدهم.

درجـــــات حيـــــل الباطنيـــــة

درجات حيلهم، وسبب الاقتران بها مع ظهور فسادها:

لقد نظموها على تسع درجات مُرتّبة، ولكل مرتبة اسم، أولها الزِّرَق والتفرّس ثم التأنيس، ثم التشكيك، ثم التعليق، ثم الربط، ثم التدليس، ثم التلبيس، ثم الخلع، ثم السلخ، وأبيّن لك الآن -إن شاء الله- تفصيل كل مرتبة من هذه المراتب، ففي الإطلاع على هذه الحيل فوائد جمة لجماهير الأمة، وأنْ نتعلم من هم الباطنية.

أما الزِّرَق والتفرس فهو أنهم قالوا: ينبغي أن يكون الداعي فطنًا ذكيًا، صحيح الحدس، صادق الفراسة، متفطنا للبواطن بالنظر إلى الشمائل والظواهر، وليكن قادرا على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: وهو أهمها أن يميّز بين من يجوز أن يطمع في استدراجه ويوثَق بلين عريكته لقبول ما يُلقى إليه على خلاف معتقده، فربما رجل جمود على ما سمعه لا يمكن أن ينتزِع من نفسه ما يرسَّخ فيه، فلا يضيع الداعي كلامه مع مثل هذا،

وليقطع طمعه منه وليلتمس من فيه انفعال وتأثر بما يُلقى إليه من كلام، وهم الموصوفون بالصفات التي سنذكرها بعدُ إن شاء الله.

وينبغي أن نتقي بكل حال بثّ البذر في السبخ، والدخول إلى بيت فيه سراج، يعني به الزجر عن دعوة العباسية مد الله دولتهم إرغامًا لأنوف أعدائها، فإن ذلك لا يتغرّس أبد الدهر في نفوسهم، كما لا ينغرس البذر في الأرض السبخة بزعمهم، ويزجرون أيضًا عن دعوة الأذكياء والفضلاء وذوي البصائر بطرق الجدال ومكامن الاحتيال، وبه يعنون الزجر عن بيت فيه سراج.

الأمر الثاني: أن يكون مشتعل الحدس ذكي الخاطر في تعبير الظواهر وردّها إلى البواطن، إما اشتقاقًا من لفظها، أو تلقيًا من عددها، أو تشبيهًا لها بما يناسبها، وبالجملة فإذا لم يقبل المستجيب منه تكذيب القرآن والسنة فينبغي أن يستخرِج من قلبه معناه الذي فهمه ويترك معه اللفظة منزّلا على معنى يناسب هذه البدعة، فإنه لو شافهه بالتكذيب من البداية لن يقبل منه.

الأمر الثالث: من الزرق والتفرس ألا يدعو كل أحد إلى مسلك واحد، بل يبحث أولًا عن معتقده وما إليه ميله في طبعه ومذهبه، فأما طبعه فإن رآه مائلًا إلى الزهد والتقشف والتقوى والتنظف دعاه إلى الطاعة والانقياد، واتباع الأمر من المطاع وزجره عن اتباع الشهوات، وندَبه إلى وظائف العبادات وتأدية الأمانات، من الصدق وحسن المعاملة والأخلاق الحسنة وخفض الجناح لذوي الحاجات، ولزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان طبعه مائلًا إلى المجون والخلاعة قرر في نفسه أن العبادة بلَه وأن الورع حماقة، وأن هؤلاء المعذبين بالتكاليف مثالهم مثال الحمر المُعنَّاة بالأحمال الثقيلة، وإنما الفطنة في اتباع الشهوة ونيل اللذة وقضاء الوطر من هذه الدنيا المنقضية، التي لا سبيل إلى تلافي لذاتها عند انقضاء العمر.

وأما حال المدعو من حيث المذهب، فإن كان من الشيعة فلنفاتحه بأن الأمر كله في بغض بني تيم وبني عدي وبني أمية وبني العباس وأشياعهم، وفي التبري منهم ومن أتباعهم، وفي تولي الأئمة الصالحين، في انتظار خروج المهدي، وإن كان المدعو ناصبيًّا ذُكر له أن الأمة إنما أجمعت على أبي بكر وعمر، ولا يقدَّم إلا من قدّمته الأمة، حتى إذا أطمئن قلبه ابتدأ بعد ذلك ببث الأسرار على سبيل الاستدراج الذي سنذكره بعد إن شاء الله.

وكذلك إن كان من اليهود والمجوس والنصارى حاورهم بما يضاهي مذهبهم من معتقداته، فإن معتقد الدعاة ملتقط من فنون البدع والكفر، فلا نوع من البدعة إلا وقد اختاروا منه شيئًا؛ ليسهِّل عليهم بذلك مخاطبة تلك الفرق على ما سنحكي من مذهبهم إن شاء الله تعالى.

حيلة التأنيس: فهو أن يوافق كل من همَّ بدعوته في أفعال يتعاطاها هو ومن تميل إليه نفسه، وأول من يفعل الأنسَ بالمشاهدة على ما يوافق اعتقاد المدعو في شرعه، وقد رسموا للدعاة والمأذونين أن يجعلوا مبيتهم كل ليلة عند واحد من المستجيبين ويجتهدون في استصحاب من له صوت طيب في قراءة القرآن ليقرأ عندهم زمانًا، ثم يُتبع الداعي ذلك كله بشيء من الكلام الرقيق وأطرافٍ من المواعظ اللطيفة الأخّاذة بمجامع القلوب، ثم يُردف ذلك بالطعن في السلاطين وعلماء الزمان وجُهَّال العوام، ويذكر أن الفرج منتظر من كل ذلك ببركة أهل بيت رسول الله ﷺ، وهو فيما بين ذلك يبكي أحيانًا ويتنفس الصعداء، وإذا ذكر آية أو خبرًا ذكر أن لله سرًّا في كلماته لا يطلع عليه إلا من اجتباه الله من خلقه وميزه بمزيد لطفه، فإن قدر على أن يتهجد بالليل مصليًا وباكيًا عند غيبة صاحب البيت بحيث يطّلع عليه صاحب البيت، ثم إذا أحس بأنه اطلع عليه عاد إلى مبيته

واضطجع كالذي يقصد إخفاء عبادته، وكل ذلك ليستحكم الأنسُ به ويميل القلب إلى الإصغاء إلى كلامه، فهذه هي مرتبة التأنيس.

حيلة التشكيك: فمعناه أن الداعي ينبغي له بعد التأنيس أن يجتهد في تغييره اعتقاد المستجيب بأن يزلزل عقيدته فيما هو مصمم عليه، وسبيله أن يبتدئه بالسؤال عن الحكمة في مقررات الشرائع وغوامض المسائل، وعن المتشابهات من الآيات وكل ما لا ينقدح فيه معنى معقول، يقول في معنى المتشابه ما معنى (الر، وكهعص، وحم، عسق)؟ إلى غيره من أوائل السور، ويقول: أترى أن تعيين هذه الحروف جرى وفاقًا بسبق لسان، أو قصد تعينيها لأسرار مودَعة تحتها لم تصادف في غيرها، وما عندي أن ذلك يكون هزلًا وعبثًا بلا فائدة.

ثم يشكك في الأحكام فيقول: ما بال الحائض تقضي صومًا دون الصلاة؟ ما بال الاغتسال يجب من المني الطاهر ولا يجب من البول النجس؟ ويشكك في أخبار القرآن فيقول: ما بال أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة؟ وما قوله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧] وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] أفترى ضاقت القافية فلم يُكمل العشرين؟ أو جرى ذلك وفاقًا بحكم سبق اللسان، أو قصدًا لهذا التقييد ليخيل أن تحته سرًّا، وأنه في نفسه لسر ليس يطّلع عليه إلا الأنبياء والأئمة الراسخون في العلم، ما عندي أن ذلك يخلو عن سر وينفك من فائدة كامنة، والعجب من غفلة الخلق عنها، لا يشمرون عن ساق الجد في طلبها.

ثم يشكّك في خلق العالم وفي جسد الآدمي، ويقول: لمَ كانت السموات سبعًا دون أن تكون ستًّا أو ثمانيًا؟ ولمَ كانت الكواكب السيارة سبعة والبروج اثني

عشر؟ ولمَ كان في رأس الآدمي سبع ثقب: العينان والأذنان والمنخران والفم، وفي بدنه ثقبان فقط؟ ولمَ جُعل رأس الآدمي على هيئة الميم، ويداه إذا مدَّها على هيئة الحاء، والعجُز على هيئة الميم، والرجلان على هيئة الدّالّ، بحيث إذا جُمِع الكل يشكل صورة محمد أو اسم محمد ﷺ؟ أفترى أن فيه تشبيهًا ورمزًا، ما أعظم هذه العجائب، وما أعظم غفلة الخلق عنها!.

كذا يقول: ولا يزال يورد على محدثه ومن يريد أن يشككه أمثلةً وأسئلة من هذا الجنس؛ حتى يشككه، وينقدح في نفسه أن تحت هذه الظواهر أسرارًا سُدت عنه وعن أصحابه، وينبعث منه شوق إلى طلبه.

حيلة التعليق: فبأن يطوي عنه جوانب هذه الشكوك إذا هو استكشفه عنها، ولا ينفس عنه أصلًا، بل يتركه معلقا ويهول الأمر عليه ويعظمه في نفسه، ويقول له: لا تعجل؛ فإن الدين أجلّ من أن يُعبث به أو يوضع في غير موضعه ويكشف لغير أهله، هيهات هيهات، جئتُماني لتعلما سُعدي، تجداني بسر سعدي شحيحًا، ثم يقول: لا تعجل، إن ساعدتك السعادة سنبث إليك سر ذلك، أمَا سمعت قول صاحب الشرع: ((إن هذا الدين متين، فأوغِلْ فيه برفق؛ فإن المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى)). وهكذا لا يزال يسوق ثم يدافع حتى إن رآه أعرض عنه واستهان به وقال: ما لي ولهذا الفضول، وكان لا يحيق في صدره حرارة هذه الشكوك قطع الطمع عنه، وإن رآه متعطشًا إليه وعاده في وقت معين وأمره بتقديم الصوم والصلاة والتوبة قبلهم، وعظّم أمر هذا السر المكتوم حتى إذا وافى الميعاد قال له: إن هذه الأسرار مكتومة لا تودع إلا في سر محصن، فحصن حرزك وأحكم مداخله حتى أودعه فيه.

فيقول المستجيب: وما طريقة ذلك؟ فيقول: أن آخذ عهد الله وميثاقه على كتمان هذا السر ومراعاته عن التضييع؛ فإنه الدر الثمين والعرق النفيس، وأدنى درجات الراغب فيه صيانته عن التضييع، وما أودع الله هذه الأسرار أنبياءه إلا بعد أخذه عهدهم وميثاقهم، وتلا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] ، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، وأما النبي ﷺ فلم يفشِه إلا بعد أخذ العهد على الخلفاء وأخذ البيعة على الأنصار تحت الشجرة، فإن كنت راغبًا فاحلف لي على كتمانه وأنت بالخيرة بعده، فإن وُفّقت بدرك حقيقته سعدت سعادة عظيمة، وإن اشمأزّت نفسك عنه فلا غرو، فإن كلا ميسّر لما خُلق له، ونحن نقد كأنك لم تسمع ولم تحلف ولا ضير عليك في يمين صادقة، فإن أبى الحلف خلاه، وإن أنعم وأجاب فيه وجّهَ الحلفَ واستوفاه.

حيلة الربط: فهو أن يربط لسانه بأيمان مغلّظة وعهود مؤكّدة، لا يجسُر على المخالفة لها بحال، وهذه نسخة العهد، يقول الداعي للمستجيب: جعلتُ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمّة رسوله # ، وما أخذ الله على النبيين من عهد وميثاق أنك تُسرّ ما سمعتَه مني وتسمعه، وعلمته وتعلمه من أمري وأمر المقيم بهذه البلدة لصاحب الحق الإمام المهديّ وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته، وأمور المطيعين له على هذا الدين، ومخالصة المهدي ومخالصة شيعته من الذكور والإناث والصغار والكبار، ولا تُظهر من ذلك قليلًا ولا كثيرًا تدل به عليه إلا ما أطلقت عليه أن تتكلم به، أو أطلقَ لك صاحب الأمر المقيم في هذا البلد أو في غيره، فتعمل حينئذٍ بمقدار ما نرسمه لك ولا تتعداه، جعلت على

نفسك الوفاء بما ذكرته لك وألزمته نفسك في حال الرغبة والرهبة والغضب والرضا، وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه أن تتبعني، وجميع من أسميه لك وأبينه عندك مما تمنع منه نفسك، وأن تنصح لنا وللإمام ولي الله نصحًا ظاهرًا وباطنًا، وألا تخون الله ولا وليه ولا أحدا من إخوانه وأوليائه، ومن يكون منهم ومنّا بسبب من أهل ومال ونعمة، وأنه لا رأي ولا عهد تتناول على هذا العهد بما يبطله، فإن فعلت شيئًا من ذلك وأنت تعلم أنك قد خالفتَه، فأنت بريء من الله ورسله الأولين والآخرين، ومن ملائكته المقربين، ومن جميع ما أُنزل من كتبه على أنبيائه السابقين، وأنت خارج من كل دين وخارج من حزب الله وحزب أوليائه، وداخل في حزب الشيطان وحزب أوليائه، وخذلك الله خذلانًا بيّنا يُعجّل لك بذلك النقمة والعقوبة إن خالفت شيئًا مما حلفتك علي بتأويل أو بغير تأويل، فإن خالفت شيئًا من ذلك فلله عليك أن تحج إلى بيته ثلاثين حجة نذرًا واجبًا ماشيًا حافيًا، وإن خالفت ذلك فكل ما تملكه في الوقت الذي تخلُف فيه صدقة على الفقراء والمساكين الذين لا رحم بينك وبينهم، وكل مملوك يكون لك فيه ملكك يومَ تخالف فيه فهم أحرار، وكل امرأة تكون لك أو تتزوجها في قابل فهي طالق ثلاثًا بتة إن خالفت شيئًا من ذلك، وإن نويت أو أمرت في يمين هذا، خلاف ما قصدت، فهذه اليمين من أولها إلى آخرها لازمة لك والله الشاهد على صدق نيتك وعقد ضميرك، وكفى بالله شهيد بيني وبينك. قل: نعم. فيقول: نعم. فهذا هو الغرض. وأما حيلة التدليس: فهو أنه بعد اليمين وتأكيد العهد لا يسمح ببث الأسرار إليه دفعة، ولكن يتدرج فيه ويراعي أمورًا:

أولا: أنه يقتصر في أول وهلة على ذكر قاعدة المذهب، ويقول: منار الجهل تحكيم الناس عقولهم الناقصة وآراءهم المتناقضة، وإعراضهم عن الإتباع

والتلقي من أصفياء الله وأئمته وأوتاد أرضه، والذين هم خلفاء رسوله من بعده، فمنهم الذين أودعهم الله سره المكنون ودينه المخزون، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر وأسرار هذه الأمثلة، وإن الرَّشَد والنجاة من الضلالة بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت؛ ولذلك قال # لمّا قيل: ومن أين يعرف الحق بعدك؟ قال: ((ألم أترك فيكم القرآن وعترتي)) وأراد به أعقابهم، فهم الذين يطّلعون على معاني القرآن، ويُقتصر في أول وهلة على هذا القدر ولا يُفصح عن تفصيل ما يقوله الإمام.

ثانيا: أن يحتال لإبطال المدرك الثاني من مدارك الحق وهو ظواهر القرآن، فإن طالب الحق إما أن يفزع للتفكر والتأمل والنظر في مدارك العقول كما أمر الله سبحانه به، فيفسد نظر العقل عليه بإيجاب التعلم والاتباع، أو يفزع إلى ظواهر القرآن والسنة، ولو صُرح له بأنه تلبيس ومحدَث لم يُسمع منه، فليُسلِم له لفظه ولينتزع عن قلبه معناه، بأن يقول: هذا الظاهر له باطن هو اللباب والظاهر قشر، بالإضافة إليه يقنع به من تقاعد به القصور عن درك الحقائق حتى لا يبقى له معتصَم من عقل ومستروح بالنقل.

ثالثًا: ألا يظهر من نفسه أنه مخالف للأمة كلهم، وأنه منسلخ عن الدين والنحلة؛ إذ تنفر القلوب عنه، ولكن يعتزي إلى أبعد الفرق عن المسلك المستقيم وأطوعهم لقبول الخرافات، ويتستر بهم ويتجمل بحب أهل البيت، وهم الروافض.

رابعًا: هو أن يقدم في أول كلامه أن الباطل ظاهر جليّ والحق دقيق، بحيث لو سمعه الأكثرون لأنكروه ونفروا عنه، وأن طلّاب الحق والقائلين به من بين

طلاب الجهل أفراد وآحاد؛ ليهون عليه التميز عن العامة في إنكار نظر العقل وظواهر ما ورد به النقل.

خامسًا: إن رآه نافرًا عن التفرد عن العامة يقول له: إني مفش إليك سرًّا وعليك حفظه. فإذا قال: نعم. قال: إن فلانًا وفلانة يعتقدون هذا المذهب ولكنهم يسِرونه، ويذكر له من الأفاضل من يعتقد المستجيب فيه الذكاء والفطنة، وليكن ذلك المذكور بعيدًا عن بلده حتى لا يتيسر له المراجعة، كما جعلوا الدعوة بعيدًا عن مقر إمامهم ووطنه، فإنهم لو أظهروها في جواره لافتُضحوا بما يتواتر عن أخباره وأحواله.

سادسًا: أن يمنِّيه بظهور شوكة هذه الطائفة وانتشار أمرهم وعلو رأيهم وظفر نصرهم بأعدائهم، واتساع ذات يدهم ووصول كل واحد منهم إلى مراده؛ حتى تجتمع لهم سعادة الدنيا والآخرة، ويُعزي بعض ذلك إلى النجوم، وبعضه إلى الرؤية في المنام إذا أمكنه وضع منامات تنتهي إلى المستجيب على لسان غيره.

سابعًا: ألا يطوِّل الداعي إقامته ببلد واحدة فإنه ربما اشتهر أمره وسفك دمه، فينبغي أن يحتاط في ذلك فيلبس على الناس أمره ويتعرف إلى كل قوم باسم آخر، ويغيّر في بعض الأوقات هيئته ولبسته خوف الآفات؛ ليكون ذلك أبلغ في الاحتياط، ثم بعد هذه المقدمات يتدرج قليلًا قليلا في تفصيل المذهب للمستجيب، ويذكره له بالتدريج على نحو ما سنذكر من معتقداته إن شاء الله تعالى.

حيلة التلبيس: فهو أن يُواطئه على مقدمات يتسلمها منه مقبولة الظاهر مشهورة عند الناس ذائعة، ويرسخ ذلك في نفسه مدة ثم يستدرجه منها بنتائج باطلة،

كقوله: إن أهل النظر لهم أقاويل متعارضة الأحوال متساوية، وكل حزب بما لديهم فرحون، والمطلع على الجوهر الله، ولا يجوز أن يخفي الله الحق ولا يوجد أحد، فكل أمر إلى الخلق يتخبطون فيه خبطَ عشواء، ويقتحمون فيه العناية العمياء، إلى غير ذلك من المقدمات المستعضلة.

حيلتا الخلع والسلخ: وهما متفقان وإنما يفترقان في أن الخلع يختص بالعمل، فإذا أفضوا بالمستجيب إلى ترك حدود الشرع وتكاليفه يقولون: وصلت إلى درجة الخلع، أما السلخ فيختص بالاعتقاد الذي هو خلع الدين، فإذا انتزعوا ذلك من قلبه دعوا ذلك سلخا، وسميت هذه الرتبة البلاغ الأكبر، فهذا تفصيل تدريجهم مع الخلق واستغوائهم، فلينظر الناظر فيه وليستغفر الله من الضلال في دينه، نعوذ بالله تعالى.

سبب رواج حيل الباطنية، انتشار دعوتهم مع ركاكة حجتهم وفساد طريقتهم

فقد استبان زيف هذا المذهب وضعف حجته وبطلان طريقته، ومع ذلك فقد راج في كثير من البلاد حينًا من الزمن، فإن قيل: ما جنيتموه من عظائم لا يتصور أن يخفى على عاقل، وقد رأينا خلقًا كثيرًا وجمًّا غفيرًا يتابعونهم في معتقدهم، ويتابعونهم في دينهم، فلعلكم ظلمتموهم بنقل هذه المذاهب عنهم في خلاف ما يعتقدونه، وهذا هو القريب الممكن، فإنهم لو أظهروا هذه الأسرار نفرت القلوب عنهم، واطلعت النفوس على مكرهم، وما أباحوا بها إلا بعد العهود والمواثيق وصانوها إلا عن مُوافق لهم في الاعتقاد، فمن أين وقع لكم الاطلاع عليها وهم يتسترون بدياناتهم ويستبطنون عقائدهم؟ قلت: أما الاطلاع على

ذلك فإنما عثرنا عليه من جهة خلق كثير تدينوا بدينهم واستجابوا لدعوتهم، ثم تنبهوا لضلالهم، فرجعوا عن غوايتهم إلى الحق المبين، فذكروا ما ألقوا إليهم من الأقاويل، كذا قاله أبو حامد الغزالي.

وأما سبب انقياد الخلق إليهم في بعض أقطار الأرض فإنهم لا يفشون هذا الأمر إلا إلى بعض المستجيبين لهم، ويوصون الداعي ويقولون له: إياك أن تسلك بالجميع مسلكًا واحدًا؛ فليس كل من يحتمل قبول هذه المذاهب يحتمل الخلع والسلخ، ولا كل من يحتمل الخلع يحتمل السلخ، فليخاطب الداعي الناس على قدر عقولهم، فهذا هو السبب في تعلق هذه الحيل ورواجها، فإن قيل هذا أيضًا مع الكتمان ظاهره البطلان فكيف ينخدع بمثله عاقل؟ قلنا: لا ينخدع به إلا المائلون عن اعتدال الحال واستقامة الرأي، فللعقلاء عوارض تُعمي عليهم طرق الصواب، وتقضي عليهم بالانخداع بلامع السراب، هم ثمانية أصناف:

الصنف الأول: طائفة ضعفت عقولهم وقلت مصائرهم، وسخفت في أمور الدين آراؤهم بما جُبلوا عليه من البله والبلادة، مثل السواد وأفجاج العرب والأكراد وجفاة الأعاجم وسفهاء الأحداث، ولعل هذا الصنف هم أكبر الناس عددًا، وكيف يُستبعد قبولهم لذلك ونحن نشاهد جماعة في بعض المدائن القريبة من البصرة يعبدون أناسًا يزعمون أنهم ورثوا الربوبية من آبائهم المعروفين بالشباسية، وقد اعتقدت طائفة في علي > أنه إله السماوات والأرض رب العالمين، وهم خلق كثير لا يحصرهم عدد ولا يحويهم بلد، فلا ينبغي أن يكثُر العجب من جهل إنسان إذا استحوذ الشيطان واستولى عليه الخذلان، نعوذ بالله تعالى.

الصنف الثاني: طائفة انقطعت الدولة على أسلافهم بدولة الإسلام، كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس المستطيلين، فهؤلاء موتورون قد سكن الحقد في صدورهم كالداء الدفين، فإذا حركَته تخاييل المبطلين اشتعلت نيرانهم في صدروهم فأذعنوا لقبول كل محال تشوقًا إلى درك ثأرهم وتلافي أمورهم.

الصنف الثالث: طائفة لهم همم طامحة إلى العلياء متطلعة إلى التسلط والاستيلاء، إلا أنه ليس يساعدهم الزمان بل يقصر بهم عن الأتراب والأقران، طوارق الحدثان، فهؤلاء إذا وُعدوا بنيل أمانيهم وسُوّل لهم الظفر بأعاديهم سارعوا إلى قبول ما يظنونه مفضيًا إلى مآربهم وسالكًا إلى أوطارهم ومطالبهم، فلطالما قيل: حبك الشيء يُعمي ويُصم، ويشترك في هذا كل ما دهاه من طبقة الإسلام أمر ينم به وكان لا يتوصل إلى الانتصار ودرك الثأر إلا بالاستظهار بهؤلاء الأغبياء الأغمار فتتوافر دواعيه على قبول ما يرى الأمنية فيه.

الصنف الرابع: فطائفة جُبلوا على حبّ التميز عن العامة والتخصص عنهم، ترفعًا عن مشابهتهم، وتشرفًا بالتحيز إلى فئة خاصة تزعم أنها مُطّلعة على الحقائق، وأن كافة الخلق في جهالتهم كالحمر المستنفرة والبهائم المُسيَّبة، وهذا هو الداء العضال المستولي على الأذكياء فضلًا عن الجهال الأغبياء، وكل ذلك حب للنادر الغريب، ونفرة عن الشائع المستفيض، وهذه سجية لبعض الخلق على ما شهدت به التجربة وتدل عليه المشاهدة.

الصنف الخامس: طائفة سلكوا طرق النظر ولم يستكلموا فيه رتبة الاستخلال، وإن كانوا قد ترقوا عن رتبة الجهال، فهم أبدًا متشوقون إلى التكاسل والتغافل وإظهار التفطن لدرك أمور تتخيل العامة بعدها، وينفرون عنها، لا سيما إذا نسب الشيء إلى مشهور بالفضل فيغلب على الطبع التشوق إلى التشبه به، فكم

من طوائف رأيتهم اعتقدوا محض الكفر تقليدًا لأفلاطون وأرسطاريس وجماعة من الحكماء قد اشتهروا بالفضل، وداعيهم إلى ذلك التقليد وحب التشبه بالحكماء والتحيز إلى غمارهم، والتحيز عمن يُعتقد أنهم في الذكاء والفضل دونهم، فهؤلاء يستجيرون إلى هذه البدعة بإضافتها إلى من يحسن اعتقاد المستجيب فيه، فيبادر إلى قبوله تشفعًا بالتشبه بالذي ذكر أنه من متنحليه.

الصنف السادس: طائفة اتفق نشوءهم بين الشيعة والروافض، واعتقدوا التدين بسب الصحابة، ورأوا أن هذه الفرقة تساعدهم عليها، فمالت نفوسهم إلى المساعدة لهم والاستئناس بهم.

الصنف السابع: طائفة من الملاحدة الفلاسفة والثانوية والمتحيلين في الدين ومَن على شاكلتهم، الذين طلبوا حطام الدين واستحقروا أمر العقبى، ولفقوا الشبه، وتزينوا بالتمويه للحجج على نحو يبعدهم عن الدين.

والصنف الثامن: طائفة استولت عليهم الشهوات، فاستدرجتهم متابعة اللذات، واشتد عليهم وعيد الشرف وثقلت عليهم تكاليفه، فليس يهنأ عيشهم إلا إذا اقترفوا الفسق والفجور، وابتعدوا عن الحجاب وعن تكاليف الدين وشرائعه، فزاغوا عن سواء الطريق وحدود التحقيق.

(الباطنية (٢))

عناصر الدرس

مـذهب الباطنيـة جملـة وتفـصيلًا، وبيـان أطـراف المـذهب

أما على الجملة فهو كما قال الشيخ أبو حامد الغزالي -رحمه الله- : "هو مذهب ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض، ومفتتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات ويتطرق إلى النظار من الاختلافات، وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم، وحكم بأن المعلم المعصوم هو المستبصر، وأنه مطَّلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع، يهدي إلى الحق ويكشف عن المشكلات، وأن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم يُرْجع إليه فيما يُستبهَم من أمور الدين" هذا مبدأ دعوتهم، ثم إنهم بالآخرة يُظهرون ما يناقض الشرع وكأنه غاية مقصدهم؛ لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعيَّن في فن واحد، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاة لإمامهم، فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ويقرونهم عليها، فهذه جملة مذهبهم".

وأما تفصيله: فيتعلق بالإلهيات، والنبوات، والإمامة، والحشر والنشر، وهذه أربعة أطراف، وأنا مقتصر في كل طرف على نبذة يسيرة من حكاية مذهبهم، فإن النقل عنهم مختلف، وأكثر ما حُكي عنهم إذا عُرض عليهم أنكروه، وإذا روجع فيه الذين استجابوا لدعوتهم جحدوه، والذي قدمناه في جملة مذهبهم يقتضي لا محالة أن يكون النقل عنهم مختلفًا مضطربًا، فإنهم لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال؛ ولذلك تختلف كلمتهم ويتفاوت نقل المذهب عنهم، فإن ما حُكي عنهم في الخلع والسلخ لا يظهرونه إلا مع من بلغ الغاية القصوى، بل ربما يخاطبون بالخلع من ينكرون معه السلخ.

بيان أطراف المذهب:

الطرف الأول: في معتقدهم في الإلهيات، وقد اتفقت أقاويل نقلة المقالات من غير تردّد أنهم قائلون بإلهين قديمين، لا أولَ لوجودهما من حيث الزمان إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني، واسم العلة السابق، واسم المعلوم التالي، وأن السابق خَلَق العالم بواسطة التالي لا بنفسه، وقد يُسمى الأول عقلًا والثاني نفسًا، ويزعمون أن الأول هو التام بالفعل والثاني بالإضافة إليه ناقص؛ لأنه معلوله، وربما لبَّسوا على العوام مستدلين بآيات من القرآن على ذلك، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ﴾ [الحجر: ٩]، و﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ﴾ [الزخرف: ٣٢]، أي: بصيغة الجمع، وزعموا أن هذه إشارة إلى جمع لا يصدر عن واحد، وبذلك قال: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١] إشارة إلى السابق من الإلهين؛ فإنه الأعلى، ولولا أن معه إلهًا آخر له العلو أيضًا لما انتظم إطلاق الأعلى، وربما قالوا: الشرع سماهما باسم القلم واللوح، والأول هو القلم؛ فإن القلم مفيد واللوح مستفيد متأثر، والمفيد فوق المستفيد، وربما قالوا: اسم التالي قدر في لسان الشرع، وهو الذي خلق الله به العالم حيث قال: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩].

ثم قالوا: السابق لا يوصف بوجود ولا عدم؛ فإن العدم نفي والوجود سبب، فلا هو موجود ولا هو معدوم، ولا هو معلوم ولا هو مجهول، ولا هو موصوف ولا غير موصوف، وزعموا أن جميع الأسامي منتفية عنه، وكأنهم يتطلعون في الجملة لنفي الصانع، فإنه لو قالوا: إنه معدوم لم يقبل منهم، بل منعوا الناس من تسميته موجودًا، وهو عين النفي مع تغير العبارة، لكنهم تحذّقوا فسموا هذا النفي تنزيهًا، وسموا مناقضه تشبيهًا حتى تميل القلوب إلى قبوله، ثم قالوا:

العالم قديم، أي وجوده ليس مسبوقًا بعدم زمني، بل حدثَ من السابق التالي وهو أول مبدع، وحدث من المبدع الأول النفس الكلية الفاشية جزئياتها في هذه الأبدان المركبة، وتولّد مع حركة النفس الحرارة ومن سكونها البرودة، ثم تولد منهما الرطوبة واليبوسة، ثم تولدت من هذه الكيفيات الاستقصات الأربع، وهي النار والهواء والماء والأرض، ثم إذا امتزجت على اعتبار الناقص حدثت منها المعادن، فإن زاد قربها من الاعتدال وانهدمت صرفية التضاد منها تولد منها النبات، وإن زاد تولد الحيوان، فإن ازداد قربًا تولّد الإنسان وهو منتهى الاعتدال.

فهذا ما حكي من مذهبهم إلى أمور أخرى هي أفحش مما ذكرناه، لم نرَ تسويد البياض بنقلها ولا تبيان وجه الرد عليها لمعنيين، أحدهما: أن المنخدعين بخداعهم وزورهم والمتدلين بحبل غرورهم في عصرنا هذا لم يسمعوا هذا منهم، وينكرون جميع ذلك إذا حكي من مذهبهم، ويحدِّثون في أنفسهم أن هؤلاء إنما خالفوا لأنه ليس عندهم حقيقة مذهبنا ولو عرفوها لوافقونا عليها، فنرى أن نشتغل بالرد عليهم فيما اتفقت كلمتهم، وهو إبطال الرأي والدعوة إلى التعلم من الإمام المعصوم، فهذه عمدة معتقدهم وزُبدة مخضهم فنصرف الغاية إليه، وما عداه فمنقسم إلى هذيان ظاهر البطلان وإلى كفر مسترق من الثانوية والمجوس في القول بالإلهين مع تبديل عبارة النور والظلمة للسابق والتالي إلى ضلال منتزع من كلام الفلاسفة في قولهم: إن المبدأ الأول علة لوجود العقل على سبيل اللزوم عنه لا على سبيل القصد والاختيار، وإنه حصل من ذاته بغير واسطة سواه، نعم يثبتون موجودات قديمة يلزم بعضها عن بعض، ويسمونها عقولًا ويحيلون وجود كل فلك على عقل من تلك العقول في خبط لهم طويل.

قد استقصينا وجه الرد عليهم في ذلك في فن الكلام، ولسنا نشتغل في هذا الكتاب إلا بما يخصّ هذه الفرقة وهو إبطال الرأي وإثبات التعليم، كذا قاله أبو حامد الغزالي.

الطرف الثاني: في بيان معتقدهم في النبوّات، والمنقول عنهم قريب من مذهب الفلاسفة، وهو أن النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق بواسطة التالي قوة قدسية صافية مهيأة لأن تُنْتَقش عند الاتصال بالنفس الكلية بما فيها من جزئيات، كما قد يتفق ذلك لبعض النفوس الذكية في المنام حتى تشاهد من مجاري الأحوال في المستقبل، إما صريحًا بعينه أو مدرجًا تحت مثال يناسبه مناسبة ما، فتفتقر فيه إلى التعبير، إلا أن النبي هو المستعدّ لذلك في اليقظة، فلذلك يدرك النبي الكليات العقلية عند شروق ذلك النور وصفاء القوة النبوية، كما ينطبع مثال المحسوسات في القوة الباصرة من العين عند شروق نور الشمس على سطوح الأجرام السفلية.

وزعموا أن جبريل عبارة عن العقل الفائض عليه ورمز إليه، لا أنه شخص متجسم متركب عن جسم لطيف أو كثيف يناسب المكان حتى ينتقل من علو إلى سُفل، أما القرآن فهو عندهم تعبير محمد من المعارف التي فاضت عليه من العقل الذي هو المراد باسم جبريل، ويسمى كلام الله مجازًا فإنه مركب من جهته، إنما الفائض عليه من الله بواسطة جبريل بسيط لا تركيب فيه، وهو باطل لا ظهور له، وكلام النبي وعباراته عنه ظاهر لا بطون له، وزعموا أن هذه القوة القدسية الفائضة على النبي لا تستكمل في أول حلولها كما لا تستكمل النطفة الحالة في الرحم إلا بعد تسعة أشهر، فكذلك هذه القوة كمالها في أن تنتقل من

الرسول الناطق إلى الأساس الصامت، وهكذا تنقل الأشخاص بعضهم بعد بعض فيكمن في السابع، كما سنذكر معنى قولهم في الناطق والأساس والصامت إن شاء الله.

وهذه المذاهب أيضًا مستخرَجة من مذاهب الفلاسفة في النبوات مع تحريف وتغيير، ولسنا نخوض في الرّدّ عليهم فيه فإن بعضها يمكن أن يتأول على وجه لا ننكره، والقدر الذي ننكره قد استقصينا وجه الرد فيه على الفلاسفة كما ذكره أبو حامد الغزالي، ولسنا في هذا الكتاب نقصد إلا الرد على نابغة الزمان في خصوص مذهبه الذي انفردوا به عن غيرهم، وهو إيجاب التعليم وإبطال الوقت.

الطرف الثالث: بيان معتقدهم في الإمامة، وقد اتفقوا على أنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق، يُرجع إليه في تأويل الظواهر وحلّ الإشكالات في القرآن والأخبار والمعقولات، واتفقوا على أنه المتصدي لهذا الأمر، وأن ذلك جار في نسبهم لا ينقطع أبد الدهر، ولا يجوز أن ينقطع؛ إذ يكون فيه إهمال الحق وتغطيته على الخلق، وإبطال قوله # : ((كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي)) وقوله: ((ألم أترك فيكم القرآن وعترتي))، واتفقوا على أن الإمام يساوي النبي في العصمة والاطلاع على حقائق الحق في كل الأمور، إلا أنه لا ينزل إليه الوحي، وإنما يتلقى ذلك من النبي فإنه خليفته وبإيزاء منزلته، ولا يتصور في زمان واحد إمامان، كما لا يتصور نبيان تختلف شريعتهما، نعم يستظهر الإمام بحججه والمأذونين والأجنحة، والحجج أم الدعاة، وقالوا: لا بد للإمام في كل وقت من اثنتي عشرة حجة يُنتدبون في الأقطار متفرقين في الأمصار، فليلازم أربعة من جملة الاثنتي عشرة حضرته فلا يفارقونه، ولا بد

لكل حجة من معاونين له على أمره، فإنه لا ينفرد بالدعوة بنفسه، واسم المعاون المأذون عندهم، ولا بدّ للدعاة من رسل إلى إمام يرفعون إليه الأحوال ويصدرون عنه إليه، واسم الرسول الجناح، ولا بد للداعي أن يكون بالغًا في العلم، والمأذون وإن كان دونه فلا بأس بعده أن يكون عالمًا على الجملة، وكذلك الجناح.

ثم إنهم قالوا: كل نبي لشريعته مدة، فإذا انصرمت مدته بعث الله نبيًّا آخر ينسخ شريعته؛ ومدة شريعة كل نبي سبعة أعمار، وهو سبعة قرون، فأولهم النبي الناطق، ومعنى الناطق أن شريعته ناسخة لما قبله، ومعنى الصامت أن يكون قائمًا على ما أسسه غيره، ثم إنه يكون بعد وفاته ستة أئمة، إمام بعد إمام، فإذا انقضت أعمارهم ابتعث الله نبيًّا آخر ينسخ الشريعة المتقدمة.

وزعموا أن أمر آدم جرى على هذا المثال، هو أول نبي ابتعثه الله في فتح باب الجسمانيات وحسم دور الروحانيات، ولكل نبي سُوس والسوس هو الباب إلى علم النبي في حياته والوصي بعد وفاته، والإمام لمن هو في زمانه، كما قال # : "أنا مدينة العلم وعلي بابها"، وزعموا أن آدم كان سوسه شيث، وهو الثاني، ويسمى من بعده مُتمّا ولاحقًا وإمامًا، وإنما كان استتمام دور آدم سبعة؛ لأن استتمام العالم العلوي بسبعة من النجوم، ولما استتم دور آدم ابتعث الله نوحًا ينسخ شريعته، وكان سوسه سام، فلما استتم دوره بمضي ستة سواه وسبعة معه ابتعث الله إبراهيم ينسخ شريعته وكان سوسه إسحاق، ومنهم من يقول: لا، بل إسماعيل، فلم استتم دوره بالسابع معه ابتعث الله موسى ينسخ شريعته وكان سوسه هارون، فمات هارون في حياة موسى، فصار سوسه يوشع

بن نون، فلما استتم دوره بالسابع معه ابتعث الله عيسى ينسخ شريعته وسوسه شمعون، فلما استتم دوره بالسابع ابتعث الله محمدًا ﷺ وسوسه علي # ، قد استتمّ دوره بجعفر بن محمد، فإن الثاني من الأئمة الحسن بن علي، والثالث الحسين بن علي، والرابع علي بن الحسين، والخامس محمد بن علي، والسادس جعفر بن محمد # ، وقد استتموا سبعة معه فصارت شريعته ناسخة، وهكذا يدور الأمر أبد الدهر. هذا ما نُقل عنهم مع خرافات كثيرة أهملنا ذكرها؛ لأنها أقل من أن تذكر ونظن بالبياض أن يسود بها.

الطرف الرابع: بيان مذهبهم في القيامة والمعاد، وقد اتفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة، وأن هذا النظام المشاهد في الدنيا مِن تعاقُب الليل والنهار وحصول الإنسان من نطفة لإنسان، وتولّد النبات وتولد الحيوانات لا يتصرم أبد الدهر، وأن السماوات والأرض لا يتصور العباد أجسامهما وأوله القيامة، قالوا: إنها رمز إلى خروج الإمام وقيام قائم الزمان وهو السابع لنسخ الشرع المغير للأمر، ربما قال بعضهم: إن للفلك أدوارًا كلية تتبدل أحوال العالم تبدلًا كليًّا لطُوفان عالم أو سبب من أسباب.

فمعنى القيامة انقضاء دورنا الذي نحن فيه، أما المعاد فأنكروا ما ورد به عن الأنبياء، ولم يثبتوا الحشر والنشر للأجساد ولا الجنة ولا النار، ولكن قالوا: معنى المعاد عود كل شيء لأصله، والإنسان متركب من العالم الروحاني والجسماني، أما الجسماني منه فهو جسده ومتركب من أخلاط أربعة: الصفراء والسوداء والبلغم والدم، فينحلّ الجسد ويعود كل خلق إلى الطبيعة العالية، أما الصفراء فتصير نارًا، وتصير السوداء ترابا، ويصير الدم هواء، ويصير البلغم

ماء، وذلك هو معادن الجسد، وأما الروحاني فهو نفس مدركة عاقلة للإنسان فإنها إن صُفّيت بالمواظبة على العبادات، وزكّيت بمجانبة الهوى والشهوات، وغذيت بغذاء العلوم والمعارف المتلقاة من الأئمة الهداة اتحدت عند مفارقة الجسد للعالم الروحاني الذي منه انفصالها، وتسعد بالعودة إلى وطنها الأصلي ؛ لذلك سمي رجوعًا، فقيل: ﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ [الفجر: ٢٨] وهي الجنة، وإليه وقع الرمز من قصة آدم وكونه في الجنة، ثم انفصاله عنها ونزوله إلى العالم السفلي، ثم عوده إليها بالآخرة.

وزعموا أن كمال النفس بموتها إذ به خلاصها من ضيق الجسد والعالم الجسماني، كما أن كمال النطفة في الخلاص من ظلمات الرحم والخروج إلى فضاء العالم، والإنسان كالنطفة، والعالم كالرحم، والمعرفة كالغذاء، فإذا نفدت فيه صارت بالحقيقة كاملة وتخلصت، فإذا استعدَّت لفيض العلوم الروحانية باكتساب العلوم من الأئمة وسلوك طرقها المفيدة بإرشادهم استكملت عند مفارقة الجسد، وظهر لها ما لم يظهر؛ ولذلك قال # : ((الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)) وكلما ازدادت النفس عن عالم الحسيات بُعدًا؛ ازدادت العلوم الروحانية استعدادا، وكذلك إذا ركزت الحواس للنوم اطلعت على عالم الغيب واستشعرت ما سيظهر في المستقبل، إما بعينه يغني عن المعبِّر، أو بمثال فيحتاج إلى التعبير، وأنه أخو الموت وفيه يظهر علم ما لم يكن في اليقظة، فكذا بالموت تنكشف أمور لم تخطر على قلب بشر في الحياة، وهذه النفوس التي قدستها الرياضة العملية والعلمية، فأما النفوس المنكوسة المغمورة بعالم الطبيعة المعرضة عن رشدها من الأئمة المعصومين فإنها تبقى أبد الدهر في النار،

على معنى أنها تبقى في العالم الجسماني تتناسخها الأبدان، فلا تزال تتعرض فيها للألم والأسقام فلا تفارق جسدًا وإلا ويتلقاها آخر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فهذا مذهبهم في المعاد، وهو بعينه مذهب الفلاسفة، وإنما شاع فيهم لِمَا انتُدِب لنُصرة مذهبهم جماعة من الثانوية والفلاسفة، فكل واحد نصر مذهبهم طمعًا في أموالهم وخداعهم واستظهارًا بأتباعه لما كان قد ألِفه في مذهبه، وصار أكثر مذهبهم موافقًا للثانوية الفلاسفة في الباطن وللروافض والشيعة في الظاهر، وغرضهم بهذه التأويلات انتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الخلق حتى تبطل به الرغبة والرهبة، ثم ما أوهموه وهدوا به لا يفهم في نفسه، ولا يُؤثر في ترغيب وترهيب، ولعلنا نشير إلى الكلام الوجيز في الرد عليهم في هذا الجانب إن شاء الله تعالى.

الطرف الخامس: في اعتقادهم في التكاليف الشرعية، والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحذورات واستحلالها وإنكار الشرائع، إلا أنهم بأجمعهم يُنكرون ذلك إذا نُسب إليهم، إنما الذي يصح من معتقدهم فيه أنهم يقولون: لا بد من الانقياد للشرع في تكاليفه على التفصيل الذي يفصله الإمام من غير متابعة الشافعي وأبي حنيفة وغيرهم، وإن ذلك واجب على الخلق والمستجيبين إلى أن ينالوا رتبة الكمال في العلوِّ، فإذا أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور واطلعوا على بواطن هذه الظواهر انحلت عنهم هذه القيود وانحطت عنهم التكاليف العملية، فإن المقصود من أعمال الجوارح تنبيه القلب

لينهض لطلب العلم، فإذا ناله استعد للسعادة القصوى فيسقط عنه تكاليف الجوارح؛ إنما تكليف الجوارح في حق من يجري بجهله مجرى الحُمُر التي لا يمكن رياضتها إلا بالأعمال الشاقة، وأما الأذكياء والمدركون للحقائق فدرجتهم أرفع من ذلك، وهذا فن من الإغواء شديد على الأذكياء.

وغرضهم هدم قوانين الشرع، ولكن يخادعون كل ضعيف بطريق يغويه ويليق به، وهذا من الإضلال البارز، وهو في حكم ضرب المثال كقول القائل: إن الاحتماء عن الأطعمة المضرة إنما يجب على من فسد مزاجه، وأما من اكتسب اعتدال المزاج فيواظب على أكل ما يشاء أيَّ وقت شاء، فلا يلبس المصغي إلى هذا الضلال أن يُمعن في المطعومات المُضرة إلى أن تتداعى به إلى الهلاك، فإن قيل: قد نقلتم مذاهبهم وما ذكرتم وجه الإبطال فما السبب فيه؟ قلنا: إن ما نقلناه عنهم ينقسم إلى أمور يمكن تنزيلها على وجه لا ننكره، وإلى ما يتعيّن من الشرع إنكارُه، والمنكَر هو مذهب الثانوية والفلاسفة والرّدّ عليهم فيه يطول؛ فليس ذلك من خصائص مذهب هؤلاء حتى نتشاغل به، وإنما نرد عليهم في خصوص مذهبهم من إبطال الرأي وإثبات التعليم من الإمام المعصوم.

إبطال مذهب الباطنية

ولكنَّا مع ذلك نذكر مسلكًا واحدًا على التحقيق قاصم الظهر، نعني في إبطال مذهبهم في جميع ما سنحكي عنهم وما حكيناه، وهو أنَّا نقول لهم في جميع دعاويهم التي تميزوا بها عنهم كإنكار القيامة، وكذا بالعالم وإنكار بعث الأجساد وإنكار الجنة والنار على ما دلّ عليه القرآن، ما غاية الشرح في وصفها من أين عرفتم ما ذكرتموه؟ عن ضرورة أو عن نظر أو عن نقل عن الإمام المعصوم

وسماعه؟ إن عرفتموه ضرورة فكيف خالفكم فيه ذوو العقول السليمة ؛ أن معنى كون الشيء ضروريًّا مستغنيًا عن التأمل اشتراك كافة العقلاء في إدراكه، ولو ساغ أن يُهدى الإنسان بدعوى الضرورة في كل ما يهواه ؛ لجاز لخصومه دعوى الضرورة في نقيض ما ادَّعوْه، عند ذلك لا يجدون مخلِّصًا بحال من الأحوال، وإن زعموا أنا عرفنا ذلك بالنظر فهو باطل من وجهين:

الأول: أن النظر عندهم باطل ؛ فإنه تصرفٌ بالعقل لا بالتعليل، وقضايا العقول متعارضة، وهي غير موثوق بها ؛ فلذلك أبطل الرأيَ بالكلية، ولم نصنّف هنا لإبطال هذا المذهب فكيف يمكن ذلك منه!

الثاني: أن يقال للفلاسفة والمعترفين بمسالك النظر: بِمَ عرفتم عجز الصانع عن خلق الجنة والنار وبعث الأجساد كما ورد به الشرع، وهل معكم إلا استبعاد محض لو عُرض مثله على من لم يشاهد النشأة الأولى لاستبعده عرض له ذلك الإنكار، وردّ عليهم بحجة منطوية تحت قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، ومن تأمل عجائب الصنع في خلق الآدمي من نطفة قذرة لم يستبعد من قدرة الله شيئًا، وما عرف أن الإعادة أهون من الابتداء، فإن قيل: الإعادة غير معقولة والابتداء معقول، إذًا ما عُدم كيف يعود؟ قلنا: لنفهم الابتداء حتى نبني عليه الإعادة، ورأي المتكلمين فيه أن الابتداء يخلق الحياة في الجسم أجسامًا، وأن الحياة عرض يتجدّد ساعة فساعة في خلق الله تعالى، فلا يستحيل على أصله الإمساك عن خلق الحياة مدةً في الجسم، ثم يعود إلى خلق الحياة، كما لا يستحيل خلق الحركة بعد السكون، والسواد بعد البياض.

ورأي الفلاسفة أن قوام الحياة استعداد الجسم المخصوص بنوع من الاعتدال إلى الانفعال عن النفس التي هي جوهر قائم بنفسه غير متحيز ولا متجسد، ولا هو منطبع في جسم لا علاقة بينه وبين الجسم إلا بالفعل فيه، ولا علاقة بين الجسم

وبينه إلا بالانفعال عنه، ومعنى الموت انقطاع هذه العلاقة الفعلية ببطلان استعداد الجسم؛ فإنه لا يستعد للانفعال إلا إذا كان على مزاج مخصوص، كما لا يستعدّ الحديد لانطباع الصورة المحسوسة فيه أو انعكاس الأشعة عنه إلا إذا كان على هيئة مخصوصة، فإذا بطلت تلك الهيئة لم ينفعل الحديد عن الصورة المحاذية له، ولم ينطبع فيه، إذا كان هذا مذهبهم فالقادر على إحداث العلاقة بين نفسٍ لا تتجسم ولا تختصّ بمكان ولا توصف بأنها متصلة بالجسم ولا بأنها منفصلة عنه، وبين الجسم الذي لا تناسبه بحقيقتها ولا تتصل به اتصالا محسوسًا، كيف يعجز عن إعادة تلك العلاقة؟!

والعجب أن أكثرهم جوزوا إثبات تلك العلاقة مع جسد آخر على طريق التناسق، فلمَ لا يجوز عودها إلى جسدها، فإن الجسد الذي فسد مزاجه لأبعد في أن يصلح مزاجه وتعاد تلك العلاقة إليه، فيكون ذلك هو المراد بالإعادة! ويضاهي التيقظ بعد المنام، فإنه يعيد حركة الحواس وتذكر الأمور السالفة، فإن قيل: المزاج إذا فسد لا يعود معتدلًا إلا بأن تنحل أجزاء الجسم إلى العناصر ثم تتركب ثانية، ثم يصير حيوانًا ثم يصير نطفة، فهذا الاعتدال للنطفة على الخصوص، قلنا: ومن أين عرفتم أنه ليس في مقدور الله جبر الخلل الواقع بطريق سوى هذا الطريق؟ ومن أين عرفتم أن هذا الذي ذكرتموه طريق فهل لكم مستند سوى مشاهدة الأحوال؟ وهل لكم في إبطال غيره مستند سوى عدم المشاهدة؟ ولو لم تشاهدوا خلق الإنسان من نطفة لنفرت عقولكم على التصديق به، ففي الأسباب المغيرة لأحوال الأجسام عجائب يستنكرها من لا يشاهدها، فمن منكر ينكر الخواص، وآخر ينكر السحر، وآخر ينكر المعجزة، وآخر ينكر الإخبار عن الغيب.

وكلٌّ يعول في إقراره على قدر مشاهدته لا على طريق المعقول في إثبات الاستحالة، ثم من لم يشاهده ويستيقنه ينبئ أن نفرة طبعه عن التصديق كان لعدم المشاهدة، وفي مقدورات الله عجائب لم يطلع عليها بشر، فلم يستحي أن يكون لإعادة تلك الأجسام وإعادة مزاجها سبب عند الله ينفرد بمعرفة، وإذا أعاده عادت النفس متصرفة فيه كما كان بزعمهم في الحياة، والعجب ممن يدّعي الحذق في المعقولات ثم يشاهد ما في العالم من العجائب والآيات، ثم تضيق حوصلته عن قبول ذلك في قدرة الله، وإذا نُسب ما لم يشاهده إلى ما شاهده لم يرَ أعجب منه.

نعم لو قال القائل: هذا أمر لا يدل العقل على إحالته، ولكن لا يدل أيضًا على جوازه، بل يتوقف عن حكم فيه، ويجوز أن يكون ثَمّ مُحيل لا يطلع عليه أو مجوز لا يطلع عليه، هذا أقرب للأول ويلزم لحكم تصديق النبي ﷺ إذا أخبر عنه، فإنه أخبر عما لا يستحيل في العقل وجوده، وعلى الجملة فقد اشتمل على أطوار الخلق ودرجاته قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ -١٦] فأطبق الخلق على التصديق بجملة المقدمات إلا البعث؛ لأنهم شاهدوا جميع ذلك سوى البعث، ولو لم يشاهدوا قط موتًا لأنكروا إمكان الموت، ولو لم يشاهدوا خلق آدمي من نطفة لأنكروا إمكانه؛ فالبعث مع ما قبله في ميزان العقل على وتيرة واحدة.

فلنصدق الأنبياء فيما جاءوا به فإنه لا يُمتنع، وهذا كله كلام مع الفلاسفة النُّظّار، أما الباطنية المنكرون للنظر فلا يمكنهم التمسك بالنظر، نعم، لو قال الباطني أخبرني الإمام المعصوم أن البعث مستحيل فصدقته. قيل له: وما الذي دعاك إلى تصديق الإمام المعصوم بزعمك ولا معجزة له، وصرَفَك عن تصديق محمد بن عبد الله ﷺ مع المعجزات والقرآن من أوله إلى آخره دالّ على جواز ذلك ووقوعه، فهل لك من مانع سوى أن عصمته عُلمت بمعجزته، وعصمة من يدّعيه عُلمت بهذيانك وشهوتك؟ فإن قال: إن ما في القرآن ظواهر هي رموز إلى بواطن لم يفهموها وقد فهمها الإمام المعصوم فتعلمنا منه. قلنا: تعلمتم منه بمشاهدة ذلك في قلبه بالعين أو سماع من لفظة، ولا يمكن دعوى المشاهدة، ولا بد من استناده إلى سماع لفظة، قلنا: وما يؤمّنك أن لفظة "له باطن" لم تطلع عليه فلا نثق بما فهمته من ظاهر لفظه، فإن زعمت أنه صرح معك وقال: ما ذكرته هو ظاهر لا رمز فيه والمراد ظاهره. قلنا: وبما عرفتَ أن قوله هذا وهو أنه ظاهر لا رمز فيه، أيضًا ظاهر وفيه رمز إلى ما لم تطلع عليه؟

فلا يزال يصرح بلفظه، ونحن نقول: لسنا ممن يغير بالظواهر، فلعل تحته رمزاً، وإن أنكر الباطل فنقول: تحت إنكاره رمز، وإن حلف بالطلاق بالثلاث على أنه ما قصد إلا الظاهر، فنقول في طلاقه رمز، وإنما هو مُظهر شيئًا ومضمر غيره، فإن قلت: فذلك يؤدي إلى حسم باب التفهيم. قلنا: فأنتم حسمتم باب التفهم على الرسول؛ فإن ثلثي القرآن في وصف الجنة والنار والحشر والنشر، ومؤكدٌ بالقسم والأيمان وأنتم تقولون: لعل تحت ذلك رمزًا، وأنتم تقولون: وأيّ فرق بين أن يطوّل في تفهم الأمور التطويل الذي عُرف في القرآن والأخبار، وبين أن نقول: ما أريدَ إلا الظاهر، فإن جاز عليه أن يفهم الظاهر ويكون مراده غير ما

عُلم قطعًا أنه ما وصل إلى أفهام الخلق، ويكون كاذبًا في جميع ما قال لأجل مصلحة وسرٍّ فيه جاز أن يكون إمامكم المعصوم بزعمكم يُضمر معكم خلاف ما يظهره وضد ما يفهمه، ونقيض ما يتيقن أنه الواصل لأفهامكم، ويؤكد ذلك بالأيمان المغلظة لمصلحة له وسر فيه، وهذا لا جواب عنه أبدَ الدهر.

وعند هذا ينبغي أن يعرف الإنسان أن رتبة هذه الفرقة أخصّ من رتبة كل فرقة من فرق الضلال؛ إذ لا نجد فرقة ينقض مذهبها بنفس المذهب سوى هذا؛ إذ مذهبها إطالة النظر وتغيير الألفاظ عن موضوعاتها بدعوى الرموز، فكل ما يتصور أن ينطلق به لسانه إما نظر أو نقد، أما النظر فقد أبطلوه، وأما اللفظ فقد جُوّز أن يُراد بلفظ غير موضوعه فلا يبقى لهم معتصم، فإن قيل هذا ينقلب عليكم فأنتم تجوزون أيضًا تأويل الظواهر كما أولتم آية الاستواء وخبر النزول وغيرهما، قلنا: ما أبعد هذا القلب، فإن لنا معيارًا في التأويل، وهو أن ما دلّ نظر العقل ودليله على بطلان ظاهره علمنا ضرورة أن المراد غير ذلك، بشرط أن يكون اللفظ مناسبًا له بطريق التجوّز والاستعارة، فقد دل الدليل على بطلان الاستواء والنزول، فإن ذلك من صفات الحوادث، فحُمل على الاستيلاء وهو مناسب للغة، وهذا رأي الغزالي، وهو في ذلك أشعريّ المذهب في الصفات متأوّلٌ، نقوله على نحو ما أورده في كتابه (فضائح الباطنية)، ولسنا نعتقد صدقه في هذا الباب.

وأما الحشر والنشر والجنة والنار فليس في العقل دليل على إبطاله، ولا مناسبةَ من الألفاظ الواردة فيه وبين المعنى الذي أوّلوه عليه حتى يقال: إنه المراد، بل التأويل فيه تكذيب محض، فأي مناسبة بين قوله: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية: ١٢ -١٦] وقوله: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٢٨ -٣٣] وبين ما اعتقدوه من اتصال

الجواهر الروحانية من الأمور الروحانية العقلية التي لا مدخل فيها للمحسوسات، فإن جاز أن يكذب صاحب المعجزة بهذه التأويلات التي لم تخطر قط ببال من سمعها؛ فلِمَ لا يجوز تكذيب معصومكم الذي لا معجزة له بتأويله على أمور ليس تخطر بباله لمصلحة أو لمسيس حاجة!!.

فإن غاية لفظه التصريح والقسم، وهذه الألفاظ في القرآن صريحة ومؤيدة بالقسم، وزعموا أن ذلك ذكر لمصلحة، والمراد غير ما سبق إلى الأفهام منها، وهذا لا مُخلّص عنه.

خامسًا: إفساد تأويلاتهم للظواهر الجلية، والقول الوجيز فيه أنهم لَمَّا عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها، واستفادوا بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ إبطالَ معاني الشرع بما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة، وأنهم لو صرحوا بالنفي المحض والتكذيب المجرد لم يحظوا بموالاة الموالين، وكانوا أول المقصودين المقتولين.

بعض تأويلات الباطنية

ونحن نحكي من تأويلاتهم نَبذة لنستدل بها على مخازيهم، فقد قالوا: كل ما ورد من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن، أما الشرعيات فمعنى الجنابة عندهم مبادرة المستجيب بإفشاء سر إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه، ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك، ومجامعة البهيمة معناها عندهم معالجة من لا عهد عليه ولم يؤدِّ شيئًا من صدقة النجوى، وهي مائة وتسعة عشر درهمًا عندهم لذلك أوجب الشرع عندهم القتل على الفاعل والمفعول به، وإلا فالبهيمة متى وجب القتل عليها، والزنا هو

إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس من لم يسبق معه عقد العهد، والاحتلام هو أن يسبق لسانه إلى إفشاء السر في غير محله فعليه الغسل، أي: تجديد المعاهدة، والطهور هو التبري والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الإمام، والصيام هو الإمساك عن كشف السر، والكعبة هي النبي، والباب علي، والصفا هو النبي، والمروة علي، والميقات هو الأساس، والتربية إجابة الدَّاعي، والطواف بالبيت سبعًا، والطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة، والصلوات الخمس أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام، فالفجر دليل السابق، والظهر دليل التالي، والعصر للأساس، والمغرب دليل الناطق، والعشاء دليل الإمام.

وكذلك زعموا أن المحرمات عبارة عن ذوي الشر من الرجال، وقد تُعُبِّدنا باجتنابهم، كما أن العبادات عبارة عن الأخيار الأبرار الذين أُمرنا باتباعهم، فأما المعاد فزعم بعضهم أن النار والأغلال عبارة عن الأوامر التي هي التكاليف فإنها موظفة على الجهّال بعلم الباطن، فما داموا مستمرين عليها فهم معذبون، فإذا نالوا علم الباطن وُضعت عليهم أغلال التكاليف وسعدوا بالخلاص عنها.

وأخذوا يؤولون كل لفظ ورد في القرآن والسنة، فقالوا "وأنهار من لبن" أي: معادن الدِّين العلم الباطن يرتضع بها أهلها ويتغذى بها تغذيًا تدرّ به حياته اللطيفة، فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدي الأم، "وأنهار من خمر" هو العلم الظاهر، "وأنهار من عسل مصفى"، هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة.

أما المعجزات فقد أوّلوا جميعها، وقالوا: الطوفان معناه طوفان العلم، أغلق به المتمسكون بالسنة، والسفينة حرزه الذي تحصن به مَن استجاب لدعوته، ونار

إبراهيم عبارة عن غضب نمرود لا عن النار الحقيقية، وذبح إسحاق معناه: أخذ العهد عليه، وليس إسماعيل، كذا زعموا، وعصا موسى حجته التي تلفقت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب، وانفلاق البحر افتراق علم موسى فيهم على أقسام، والبحر هو العالم، والغمام الذي أظلهم معناه الإمام الذي نصّبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم، والجراد والقمل والضفادع هي سؤالات موسى وإلزاماته التي سُلطت عليه، والمن والسلوى علم نزل من السماء بداعٍ من الدعاة.

والمراد بالسلوى وتسبيح الجبال معناه تسبيح رجال شداد في الدين راسخين في اليقين، والجن الذين ملكهم سليمان بن داود باطنية ذلك الزمان، والشياطين هم الظاهرية الذين كُلّفوا بالأعمال الشاقة، عيسى له أب من حيث الظاهر، إنما أراد بالأب الإمام، إذ لم يكن له إمام، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة، وزعموا -لعنهم الله- أن أباه يوسف النجار، وكلامه في المهد اطلاعه في مهد، قال قبل التخلص منه على ما يطلع عليه غيره بعد الوفاة، والخلاص من القالة، إحياء الموتى لعيسى معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطل، وإبراؤه الأعمى معناه عن عمى الضلال وبرص الكفر لبصيرة الحق المبين، إبليس وآدم عبارة عن أبي بكر وعلي؛ إذ أُمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر، الدجال زعموا أنه أبو بكر، وكان أعورَ إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن، ويأجوج ومأجوج هم أهل الظاهر. هذا من هذياناتهم في تأويلاتهم، ذكرنا طرفًا منها وحكيناها ليضحك منها، فنعوذ بالله من صنعة الغافل وكبوة الجاهل، ولسنا في نسلك في الرد عليهم إلا بمسالك ثلاثة: إبطال ومعارضة وتحقيق.

المسلك الأول: الإبطال: فهو أن يقال: بم عرفتم أن المراد من هذه الألفاظ ما ذكرتم؟ فإن أخذتموه من نظر العقل فهو عندكم باطل، وإن سمعتموه من لفظ الإمام المعصوم فلفظه ليس بأشد تصريحًا من هذه الألفاظ التي أوّلتموها، فلعل مراده أمر آخر أشد بطونًا من الباطن الذي ذكرتموه، ولكنه جاوز الظاهر بدرجة فزعم أن المراد بالجبال الرجال، فما المراد بالرجال؟ لعل المراد به أمر آخر، والمراد بالشياطين أهل الظاهر، فما أهل الظاهر؟ والمراد باللبن العلم، فما معنى العلم؟ فإن قلت: العلم والرجال أهل الظاهر صريحة في مقتضياتها بوضع اللغة، إن كنت ناظرًا بالعين العوراء إلى أحد الجانبين فأنت المراد إذًا بالدجال، فإنه أعور لأنك أبصرت بإحدى العينين، فإن الرجال ظاهر، وعميت بالعين الأخرى الناظرة إلى الجبال، فإنها أيضًا ظاهر، فإن قلت: يمكن أن يُكنّى بالجبال عن الرجال، قلنا: ويمكن أن يكنى الرجال عن غيرهم كما عبَّر الشاعر بالرجلين اللذين أحدهما خيَّاط والآخر نساج عن أمور فلكية وأسباب علوية فقال:

رجلان خياط وآخر حائك ❖ متقابلان على السماك الأعزل
لا زال ينسج ذاك خرقة مدبر ❖ ويخيط صاحبه ثياب المقبل

وهكذا في كل فن، وإذا نزل تسبيح الجبال على تسبيح الرجال فلينزل معنا الرجال في قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧] على الجبال، فإن المناسبة قائمة من الجانبين، ثم إذا نزل الجبال على الرجال ونزل الرجال أيضًا على غيره أمكن تنزيل ذلك الباطن الثالث على رابع وتسلسل إلى حد يبطل التفاهم والتفهيم، ولا يمكن التحكم بأن الحائز الرتبة الثانية دون الثالثة أو الثالثة دون الرابعة.

المسلك الثاني: فمعارضة الفاسد للفاسد، وهو أن يتناول جميع الأخبار على نقيض مذهبه، مثلًا يقال: قوله: ((لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة)) أي لا يدخل العقل دماغًا فيه التصديق بالمعصوم، وقوله: ((إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا)) أي: إذا نكح الباطنية بنت أحدكم فليغسلها عن درن الصحبة بماء العلم وصفاء العمل بعد أن يعفّرها من تراب الإذلال، أو يقول قائل: النكاح لا ينعقد بغير شهود وولي، وأما قوله: ((كل نكاح لا يحضره أربعة فهو سفاح)) معناه: أن كل اعتقاد لم يشهد له الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فهو باطل، وقوله: ((لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل)) أي: لا وقاع إلا بذكر وأنثيين إلى غير ذلك من الترهات.

المسلك الثالث: وهو التحقيق: أن تقول هذه البواطن والتأويلات التي ذكرتموها لو سامحناكم أنها صحيحة فما حكمها في الشرع؟ أيجب إخفاؤها أم يجب إفشاؤها؟ فإن قلتم: يجب إفشاؤها إلى كل أحد. قلنا: فلِمَ كتمها محمد ﷺ فلم يذكر شيئًا من ذلك للصحابة ولعامة الخلق حتى درج ذلك العصر، ولم يكن لأحد من هذا الجنس خبر؟ وكيف استجاز كتمان دين الله، وقد قال الله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] تنبيهًا على أن الدين لا يحل كتمانه، وإن زعموا أنه يجب إخفاؤه فنقول: ما أوجب على رسول الله ﷺ إخفاؤه من سر الدين كيف حل لكم إفشاؤه؟ والجناية في السر بالإفشاء ممن اطلع عليه من أعظم الجنايات.

فلولا أن صاحب الشرع عرف سرًّا عظيمًا ومصلحة كلية في إخفاء هذه الأسرار لما أخفاها، ولما كرّر هذه الظواهر على أسماع الخلق، ولما تكررت في كلمات القرآن

صفة الجنة والنار بألفاظ صريحة مع علمه بأن الناس يفهمون منه خلاف الباطن الذي هو حق، ويعتقدون هذه الظواهر التي لا حقيقة لها، فإن نسبتموه إلى الجهل بما فهمه الخلق منه فهو نسبة إلى الجهل بمعنى الكلام؛ إذ كان النبي ﷺ يعلم قطعًا أن الخلق ليس يفهمون من قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣٣] إلا المفهوم منه في اللغة فكذا سائر الألفاظ، ثم مع علمه بذلك كان يؤكّد عليهم بالتكرير والقسم ولم يفشِ إليهم الباطن الذي ذكرتموه؛ لعلمه بأنه سر الله المكتوم، فلمَ أفشيتم هذا السر وخرقتم هذا الحجاب؟ وهل هذا إلا خروج عن الدين ومخالفة لصاحب الشرع وهدم لجميع ما أسسه؟ كذا دين الباطنية عليهم لعنة الله، وإذ نذكر هذا إنما من باب يكفي في فضح الباطل عرضه.

(الباطنية (٣))

عناصر الدرس

استدلال الباطنية بالأعداد والحروف

هذا أمر اهتمت به الباطنية اهتمامًا كبيرًا، ونعطي حوله فكرة، ونقول -وبالله التوفيق-: هذا فن من الجهالة اختصّت به هذه الفرقة من بين الفرق؛ فإن طوائف الضلال مع تشعّب كلامهم وانتشار طرقهم في نَظْم الشبهات لم تتلطخ طائفة منهم بهذا الجنس ولا بهذه الجهالات، ولكن الباطنية اهتموا بهذا الشيء وتشبَّثوا به، ولا غروَ فإن الغريق يتمسّك بأي شيء، والغبي بكل إيهام يتذبذب ويتشكك، ونحن نذكر شيئًا يسيرًا من هذا المعنى ليعلم الدارس مدى ضلال هذه الفرقة، وليشكر الناظرُ في هذا الأمر ربه على سلامة عقله واعتدال فطرته، فإنَّا لا نُخدع بمثل هذا، ولا ينخدع بمثل هذا العبث إلا من كان به عَتَه أو خبل في عقله.

فقد قالوا: إن الثقب على رأس الآدمي سبعة، والسماوات سبعة، والأرضين سبعة، والنجوم سبعة، أعني السيارة، وأيام الأسبوع سبعة، فهذا يدل على أن دور الأئمة يتم بسبعة، وزعموا أن الطبائع أربع، وأن فصول السنة أربعة، هذا يدل على الأصول الأربعة، وهي السابق والتالي الإلهان، والناطق والأساس الإمامان، وزعموا أن البروج اثنا عشر، فتدلّ على الحجج الاثنى عشر كما ذكرناه في مذهبه، وربما استثاروا من شكل الحيوانات الدلالات، فقالوا: الآدمي على شكل حروف محمد ﷺ، فإن رأسه مثل الميم، ويداه مبسوطتان كالحاء، وعجُزه كالميم، ورجلاه كالدال، وهذا الجنس يتكلمون على شكل الطيور والبهائم.

وربما تأولوا من الحروف وأعدادها فقالوا: قد قال النبي ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، فقالوا: وما حقها؟)) ذكروا أنها معرفة حدودها، وزعموا أن حدودها معرفة أسرار حروفها، وهي أن لا إله إلا الله، أربع كلمات وسبعة فصول، هي قطع لا إله إلا الله، وثلاثة جواهر، فإن "لا" حرف، يبقى "إله" و"إلا" و"الله" فهي ثلاثة جواهر، والجملة اثنا عشر حرفًا، وزعموا أن الكلمات الأربع دالة على المدبِّرَيْن العلويّيْن السابق والتالي، والمدبِّرَيْن السفليَّيْن الناطق والأساس، هذه دلالته على الروحانيات، فأما على الجسمانيات فإنه الطبائع الأربع، وأما الجواهر الثلاثة فدالة على جبريل وميكائيل وإسرافيل من الروحانيات، ومن الجسمانيات على الطول والعرض والعمق؛ إذ بها ترى الأجسام، والفصول السبعة تدل من الروحانيات على الأنبياء السبعة، ومن الجسمانيات على الكواكب السبعة؛ لأنه لولا الأنبياء السبعة لما اختلفت الشرائع، كما أنه لولا الكواكب السبعة لما اختلفت الأزمنة، والحروف الاثنا عشر تدل على الحجج الاثني عشر، وفي الجسمانيات على البروج الاثنا عشر.

وهكذا تصرفوا في قول محمد رسول الله ﷺ، وفي الحروف، وفي أوائل السور، وأبرزوا دروبًا من الحماقات تضحك المجانين فضلا عن العقلاء، وناهيك خزيًا لطائفةٍ هذا منهج استدلالاهم، ولسنا نكثر حكاية هذا الجنس عنهم اكتفاء بهذا القدر في تعريف مخازيهم.

وهذا فن يُعرف بضرورة العقل بطلانه فلا نحتاج إلى إبطاله، إلا أنا نعلمك في إفحام الغبي والمعاند منهم مسلكين: مطالبة، ومعارضة، أما المطالبة وهو أن يقال: ومن أين عرفتم هذه الدلالات؟ ولو حكم الإنسان بها لحكم على نفسه

من سوء مزاجه أثار عليه الأخلاط، فأورث أضغاث الأحلام، وقد أضلكم الله إلى هذا الحد حتى لم يستحيوا منها أعرفتم صحتها بضرورة العقل أو نظر أو سماع من إمامكم المعصوم؟ فإن ادعيتم الضرورة بهتّم عقولكم واخترعتم، ثم لم تسلموا من معارضٍ يدعي أنه عرف بالضرورة بطلانه، ثم يكون مقامه من تعارض الحق بالفاسد مقامًا يُعارض الفاسد بالفاسد، وإن عرفتم بنظر العقل فنظر العقل عندكم باطل لاختلاف العقلاء في نظرهم، وإن صدّقتم به فأفيدونا وجه النظر وسياقه وما به الاستدلال على هذه الحماقات.

وإن عرفتم ذلك من قول الإمام المعصوم فبيِّنوا أن الناقل عنه معصوم، وبلغ الناقلون عنه حد التواتر، ثم صحِّحوا أن الإمام المعصوم لا يخطئ، ثم بينوا أنه يستحيل أن يفهم ما يُعرف بطلانه، فلعله خدعكم بهذه الحماقات وهو يعلم بطلانها، كما زعمتم أن النبي ﷺ خدع الخلق بصفة الجنة والنار، وبما يحكي عن الأنبياء من إحياء الموتى وقلب العصا ثعبانًا، وقد كذب في جميعها وذكرها على علمهم أنها لم يكن منها شيء، وأن الناس يفهمون منها على القطع ظواهرها، وأنه كان يقصد تفهيم الظواهر ويعلم أنهم يفهمون ما يُفهِمهم من الظواهر وخلاف الحق، ولكن رأى فيه مصلحة، فلعل إمامكم المعصوم رأى من المصلحة أن يستهزأ بعقولكم ويضحك من أثقالكم، فألقى إليكم هذه الترّهات إظهارًا لغاية الاستيلاء عليكم والاستعباد عليكم، وافتخارًا بغاية الدهاء والكياسة في التلبيس عليكم، فليت شعري لماذا أمنتم الكذب عليه لمصلحة رآها، وقد صرحتم بذلك عن النبي ﷺ، وهل بينهما فرق إلا أن النبي ﷺ مؤيَّد بالمعجزة الدالة على صدقه، والذي إليه استرواحكم لا معجزة له سوى حماقتكم، هذا سبيل المطالبة.

وأما المعارضة فلسنا نقصد لتعيين الصور، ولكن نعلمك طريقًا يعم كل ما في العالم من أشكال الحروف، فإن كل موجود فهو من الواحد إلى العشرة فما فوقها لا محالة، فمهما رأيت شيئا واحدا تستدل به على محمد ﷺ، وإذا رأيت اثنين فقل هو دلالة على الشيخين أبي بكر وعمر، وإن كان ثلاثة فمحمد ﷺ وأبو بكر وعمر، وإن كان أربعة فالخلفاء الأربعة، وإن كان خمسة فمع محمد ﷺ يكون الخلفاء الأربعة، قل: أما تعرفون السر أن الثقب على رأس الآدمي خمس؟ ما هو الواحد؟ هو الفم يدل على النبي محمد ﷺ فإنه واحد، والعينان والمنخران على الخلفاء الأربعة.

ونقول: أما تعرفون السر في اسم محمد وأنه أربعة حروف، ما هو؟ إذا قالوا: لا، فنقول: هو السر الذي لا يطلع عليه إلا مَلك مقرّب، فإنه يبنيه على أن اسم خليفته أربعة حروف، وهو عتيد دون علي الذي اسمه ثلاثة أحرف، فإذا وجدتَ سبعة تستدل به على سبعة من خلفاء بني أمية مبالغة في إرغامهم وإجلالًا لبني العباس عن المعارضة بهم، وقل: عدد السماوات السبع والنجوم والأسبوع دالّ على معاوية ويزيد ثم مروان ثم عبد الملك ثم الوليد ثم عمر بن عبد العزيز ثم هشام ثم السابع المنتظر، وهو الذي يقال له السفياني، وهو قول الأموية من الإمامية، أو قابلْهم بمذهب الروندية وقل: إنه يدل على العباس، ثم عبد الله بن العباس، ثم علي بن عبد الله، ثم محمد بن علي، ثم إبراهيم، ثم أبي العباس السفاح، ثم المنصور.

وكذلك ما تجده من عشرة أو اثني عشر فعدّ من خلفاء بني العباس بعددهم، ثم انظر هل تجد بين الكلامين فصلًا؟ وبه يتبين فساد كلامهم وافتضاحهم وإلزامهم

باستدلاله، وهذا الجنس من الكلام لا يليق بالمحصل فيه الإكثار منه، فلنعدل عنه إلى غيره.

فننتقل -إن شاء الله ﷻ إلى الكشف عن تلبيساتهم التي زوّقوها بزعمهم في معرض البرهان على إبطال النظر العقلي وإثبات وجوب التعلم من الإمام المعصوم.

وطريقنا أن نرتب شبههم على أقصى الإمكان، ثم نكشف عن مكمن التلبيس فيها، وآخر دعواهم أن العارف بحقائق الأشياء هو المتصدي للإمامة بمصر، وأنه يجب على كافة الخلق طاعته والتعلم منه؛ لينالوا به سعادة الدنيا والآخرة، ودليلهم عليه قولهم: إن كل ما يتصور الخبر عنه بنفس وإثبات ففيه حق وباطل، والحق واحد والباطل ما يقابله؛ إذ ليس الكل حقا، ولا الكل باطلا؛ فهذه مقدمة. ثم تمييز الحق عن الباطل لا بد منه، فهو أمر واجب لا يستغني عنه أحد في صلاح دينه ودنياه، فهذه مقدمة ثانية. ثم درك الحق لا يخلو إما أن يعرفه الإنسان بنفسه من عقله بنظره دون تعلم، أو يعرفه من غيره بالتعلم، فهذه مقدمة ثالثة.

وإذا بطلت معرفته بطريق الاستقلال بالنظر وتحكيم العقول فيه وجب التعلم من الغير ضرورة، ثم المعلم إما أن يشترط كونه معصومًا من الخطأ والزلل مخصوصًا بهذه الخاصية، وإما أن يجوز التعلم من كل أحد، وإذا بطل التعلم من كل أحد أيّ واحد كان لكثرة القائلين المعلمين وتعارض أقوالهم؛ ثبت وجوب التعلم من شخص مخصوص بالعصمة من سائر الناس، فهذه مقدمة رابعة.

ثم العالَم لا يخلو إما أن يجوز خلوه من ذلك المعصوم أو يستحيل خلوه، وباطل تجويز خلوه؛ لأنه إذ أُثبت أنه مدركٌ الحق ففي إخلاء العالم عنه تغطية الحق

وحسم السبيل عن إدراكه، وفيه فساد أمور الخلق في الدين والدنيا، وهو عين الظلم المناقض للحكمة، فلا يجوز ذلك من الله سبحانه وهو الحكيم المقدَّس عن الظلم والقبائح، فهذه مقدمة خامسة.

ثم ذلك المعصوم الذي لا بد من وجوده في العالم لا يخلو إما أن يحل له أن يخفي نفسه فلا يظهر ولا يدعو الخلق إلى الحق، أو يجب عليه التصريح، وباطلٌ أن يحل له الإخفاء فإنه كتمان للحق، وهو ظلم يناقض العصمة، فهذه مقدمة سادسة.

وقد ثبت أن في العالَم معصومًا مصرحًا بهذه الدعوة، وبقي النظر في تعيينه، فإن كان في العالم مدّعيان التبس علينا تمييز المحق عن المبطل، وإن لم يكن إلا مدعٍ واحد في محل الالتباس، كان ذلك هو المعصوم قطعيًّا، ولم يفتقر إلى دليل ومعجزة، ويكون مثاله ما إذا عُلِم أن في بيتٍ أو في الدار رجل هو عالم، ثم رأينا في بيت رجلًا، فإن كان في الدار بيت آخر بقي لنا شك في الذي رأيناه أنه ذلك العالم أو غيره، فإن عرفنا أنه لا بيت في الدار سوى هذا البيت علمنا ضرورة أنه العالم، فكذلك القول في الإمام المعصوم، فهذه مقدمة سابعة.

وقد عُلم قطعًا أنه لا أحد في عالم الله يدّعي أنه الإمام الحق والعارف بأسرار الله في جميع المشكلات، النائب عن رسول الله ﷺ في جميع المعقولات والمشروعات، العالم بالتنزيل والتأويل علما قطعيًّا لا ظنيًّا إلا المتصدي للأمر بمصر، فهذه مقدمة ثامنة.

فإذًا هو الإمام المعصوم الذي يجب على كافة الخلق تعلم حقائق الحق وتعرّف معاني الشرع منه، وهي النتيجة التي كنا نطلبها، وعند هذا يقولون: إن من لطف الله وصنعه مع الخلق ألا يترك أحدًا في الخلق يدعي العصمة سوى الإمام الحق، إذا ظهر مدّعٍ آخر لعسر تمييز المحق على المبطل، وظل الخلق فيه، فمن هذا

لا نرى قط للإمام خصمًا، بل نرى له منكرًا، كما أن النبي ﷺ لم يكن له خصم قط، الخصم هو الذي يقول: لست أنت نبيًّا إنما أنا النبي، والمنكر هو الذي لا يدَّعي لنفسه وإنما ينكِر نبوتَه، فهكذا يكون أمر الإمام.

قالوا: وأما بنو العباس إن لم ينفكّ الزمان عن معارضتهم ولم يكن فيهم من يدعي لنفسه العصمة والاطّلاع من جهة الله تعالى على حقائق الأمور، وأسرار الشرع، والاستغناء عن النظر والاجتهاد بالظن، فهذه الخاصية هي المطلوبة، وقد تفرد بهذه الدعوة عترة رسول الله ﷺ وذريته، وصرف الله دواعي الخلق عن معارضته في الدعوى لمثلها؛ ليستقر الحق في نصابه وينجلي الشك عن قلوب المؤمنين رحمة من الله ولطفه، حتى إن فُرض شخصٌ يدعي لنفسه ذلك فلا يذكره إلا في معرض هذا أو مجادلًا، فأما أن يستمر عليه معتقدًا أو يعمل بموجبه فلا، فهذه مقدمات واضحة لم نهمل من جملتها إلا الدليل على إبطال نظر العقل، حيث قلنا: الحق إما أن يعرفه الإنسان بنفسه من عقله أو يتعلمه من غيره.

بطلان نظر العقل بأدلة عقلية وشرعية

وهي خمسة أدلة:

الدلالة الأولى: وهي دلالة عقلية، أن من يتبع موجب العقل ويصدقه ففي تصديقه تكذيبه وهو غافل عنه؛ لأن ما من مسألة نظرية يعتقدها بنظره العقلي إلا وله فيها خصم اعتقد بنظر العقل نقيضها، فإن كان العقل حاكمًا صادقًا فقد صدق عقل خصمك أيضًا، فإن قلت: لا يصدق خصمي، فقد تناقض كلامك؛ إذ صدقت عقلًا وكذبت مثله، فإن قلت: صدق خصمي، فخصمك يقول: أنت كاذب مبطل، وإن زعمت أنه لا عقل لخصمي وإنما العقل لي، فهذه

أيضًا دعوى خصمك، فبماذا تتميز عنه؟ أبطول اللحية أم بياض الوجه؟ أم بكثرة السعال أو الحدة في الدعاء؟ وعند هذا يطلقون لسان الاستهزاء والاستخفاف معتقدين أن لهم بكلامهم اليد البيضاء التي لا جواب عنها.

الدلالة الثانية: قولهم إذا حاكم مسترشد تشكك في مسألة شرعية أو عقلية وزعم أنه عاجز عن معرفة دليلها فماذا تقولون له؟ أفتحيلونه على عقله، ولعله العامي الجِلف الذي لا يعرف أدلة العقول، أو هو الذكي الذي ضرب سهام الرأي على حسب إمكانه فلم تنكشف له المسألة وبقي متشككًا؟ أفتردونه إلى عقله الذي هو معترف بقصوره وهذا محال؟ أو تقولون له: تعلم طريق النظر ودليل المسألة مني؟ فإن قلتم ذلك فقد ناقضتم قولكم بإبطال التعليم؛ إذ أمرتم بالتعلم وجعلتم التعليم طريقًا، وهو مذهبنا، إلا أنكم أبيتم لأنفسكم منصب التعليم فلم تستحيوا من خصمكم المعارض لكم، المماثل في عقله لعقلكم أن هذا المتعلم يقول: قد دعاني إلى التعلم منه خصمك وقد تحيرت في تعين المعلم أيضا، وليس يدعي واحد منكم العصمة لنفسه، ولا له معجزة تميزه، ولا هو منفرد بأمر يفارق به غيره، فلا أدري أتَّبع الفلسفي أو الأشعري أو المعتزلي؟ أقاويل متعارضة وعقول متماثلة، ولست أجد في نفسي الترجيح بطول اللحية وبياض الوجوه، ولا أرى افتراقًا إلا فيه إن اتُّفق، فأما العقل والدعوى واغترار كل بنفسه في أنه المحق وصاحبه المبطل كاغترار صاحبه، فما أشدّ تناقض هذا الكلام عند من يعرف!.

الدلالة الثالثة: قولهم: الوحدة دليل الحق، والكثرة دليل الباطل، فإنا إذا قلنا كم من خمسة مع الخمسة، الحق واحد هو أن يقال عشرة، والباطل كثير لا حصر له، وهو كل ما سوى العشرة فما فوقها أو تحتها، فالوحدة لازمة مذهب

التعليم، فإنه اجتمع ألف ألف على هذا الاعتقاد واتحدت كلمتهم، ولم يتصوَّر بينهم اختلاف، وأهل الرأي لا يزال الاختلاف والكثرة تلازمهم، فدل أن الحق في الفُرقة التي تلازم الوحدة كلمتهم، وعليه دلَّ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

الدلالة الرابعة: قولهم: الناظر إن كان لا يدرك المماثلة بين نفسه وبين خصمه فيحسن الظن بنفسه ويسيء بخصمه، فلا غرو؛ فإن هذا الغرور مما يستولي على الخلق وهو شغفهم لآرائهم وجودة عقولهم، وإن كان ذلك من أدلة الحماقة، إنما العجب أنه لا يدرك المماثلة بين حالتين، وكم رأى نفسه في حالة واحدة وقد تحولت حالته فاعتقد الشيء مدة وحكم بأنه الحق الذي يوجبه العقل الصادق، فلم يخطر له خاطر فيعتقد نقيضه ويزعم أنه الآن تنبّه للحق وما كان يعتقد من قبل، فخيال انخدع به، ويرى نفسه على اعتقاد قاطع في الحالة الثانية تساوي اعتقاده السابق، فإنه كان قاطعًا بمثل قطعه الآن، فليت شعري من أين يأمل الخداع وأنه سيتنبه لأمر يتبين به أن من يعتقده الآن باطل، وما من ناظر إلا ويعتقد مثله مرارًا، ثم لا يزال يعتز آخرًا بمعتقده الذي يماثل سائر معتقداته التي تركها وعرف بطلانها بعد التصميم عليها والقطع بها.

الدلالة الخامسة: وهي شرعية، قولهم: قال رسول الله ﷺ: ((ستفترق أمتي نيفًا وسبعين فرقة الناجية منها واحدة، قيل: ومن هم؟ قال: أهل السنة والجماعة، فقيل: وما السنة والجماعة؟ قال: ما أنا الآن عليه وأصحابي)) قالوا: وما كانوا إلا على الاتباع والتعليم في كل ما شجر بينهم، وتحكيم الرسول ﷺ فيه، لا على اتباع رأيهم وعقولهم، فدل على أن الحق في الاتباع لا في نظر العقول، وهذا تحرير أدلتهم على أقوى وجه في الإيراد، وربما يعجز معظمهم على الإتقان في تحقيقه لهذا الحد.

فنقول -وبالله التوفيق-: الكلام عليه منهجان: إجمالي، وتفصيلي، ونذكر المنهج الأول وهو الإجمال مُعرضين وضاربين صفحًا عن المنهج التفصيلي، فنقول: هذه العقيدة التي استنتجتموها من ترتيب هذه المقدمات ونظمها بطريق النظر والتأمل، فإن ادعيتم معرفتها ضرورةً كنتم معاندين، ولم يعجز خصومكم عن دعوى الضرورة في معرفتهم بطلان مذهبكم، وإن ادعوا ذلك كانوا أقوم قيلًا عند المنصف، وإن ادعيتم إدراكها بالنظر في ترتيب هذه المقدمات ونظمها على شكل المقاييس المنتجة، فقد اعترفتم بصحة النظر العقلي ويُدّعى بطلانه، فهذا الكلام مفحم له وكاشف عن خزايته.

أو يقال له: عرفت بطلان النظر ضرورة أو نظرًا، ولا سبيل إلى دعوى الضرورة؛ فإن الضروري ما يشترك في معرفته ذوي العقول السليمة، كقولنا: الكل أعظم من الجزء، والاثنان أكبر من الواحد، والشيء الواحد لا يكون قديمًا مُحدَثًا، الشيء الواحد لا يكون في مكانين، وإن زعم أنه أدرك بطلان النظر بالنظر فقد تناقض كلامه، وهذا لا مخرج منه أبد الدهر، وهو وارد على كل باطني يدعي معرفة الشيء يختص به، فإنه إما أن يدعي الضرورة أو النظر أو السماع من معصوم صادق يدعي معرفة صدقه وعصمته أيضًا إما ضرورة أو نظرًا، ولا سبيل إلى دعوى الضرورة، وفي دعوى النظر إبطال عين المذهب، فلتتعجب من هذا التناقض البيّن وغفلة هؤلاء المغرورين عنه.

فإن قال قائل من منكري النظر: هذا ينقلب عليكم؛ إذ يقال لكم: وبمَ عرفتم صحة النظر إن ادعيتم الضرورة اقتحمتم ما استبعدتموه وتورطتم في عين ما أنكرتموه، وإن زعمتم أنا أدركناه نظرًا فالنظر الذي به إدراك بمَ عرفتم صحته والخلاف القائم فيه؟ فإن ادعيتم معرفة ذلك بنظر ثالث لزم ذلك في الرابع

والخامس إلى غير نهاية. قلنا: نعم، كان هذا كلام ينقلب إن كانت المعقولات بالموازنات اللفظية، وليس الأمر كذلك، فلتتأمل دقيقة الفرق، فإنا نقول عرفنا كون النظر العقلي دليلًا إلى العلم بالمنظور فيه بسلوك طريق النظر والوصول إليه، فمن سلكه وصل، ومن وصل عرف أن من سلكه هو الطريق، ومن استراب قبل السلوك فيقال طريق رفع هذه الاسترابة السلوك، ومثاله ما إذا سألنا عن طريق الكعبة فدُللنا على طريق معين فقيل لنا: من أين عرفتم كونه طريقا؟ قلنا: عرفناه بالسلوك لأنَّا سلكناها فوصلنا إلى الكعبة، فعرفنا كونه طريقًا.

ومثاله الثاني أنا إذا قيل لنا: بِمَ عرفتم أن النظر في الأمور الحسابية من هندسة ومساحة وغيرها طريق إلى معرفة ما لا يُعرف اضطرارًا؟ قلنا: سلوك طريق الحساب؛ إذ سلكناه فأفادنا علمًا من منظوري فيه، فعلمنا أن نظر العقل دليل في الحساب، وكذلك في العقليات، سلكنا الطريق النظري فوصلنا إلى العلم بمعقولات، فعرفنا أن النظر طريق، فهذا لا تناقض فيه، فإن قيل: وبم عرفتم أن ما وصلتم إليه علم متعلق بالعلوم على ما هو به، بل هو جهل ظننتموه علمًا؟ قلنا: ولو أنكر العلوم الحسابية منكر فماذا يقال له؟ أوَليس يسفّه في عقله؟ ويقال له: هذا يدل على قلة بصيرتك بالحسابيات؛ فإن النظر في الهندسة إذا حصر المقدمات وانتبه على الشكل الواجب يحصل العلم بالنتيجة الضرورة على وجه لا يتمارى فيه.

فهذا جوابنا في المعقولات؛ فإن المقدمات النظرية إذا رُتبت على شروطها أفادت العلم بالنتيجة على وجه لا يتمارى فيه، ويكون العلم المستفاد من المقدمات بعد حصولها ضروريًّا كالعلم بالمقدمات الضرورية المنتجة له، وإن أردنا أن نكشف ذلك بمن قلّت بضاعته في العلوم، فنضرب له مثالا هندسيًّا، ثم نضرب له مثالًا عقليًّا لينكشف له الغطاء وينجلي عن عقيدته الخفاء.

أما المثال الهندسي فهو أن إقليدس رسم في مصنفه في الشكل الأول من المقالة الأولى مثلثًا وادَّعى أنه متساوي الأضلاع، ولا يعرف ذلك ببديه العقل، ولكنه ادعى أنه يُعرَف بالبرهان نظرًا، وبرهانه بمقدمات، الأولى أن الخطوط المستقيمة الخارجة من مركز الدائرة إلى المحيط متساوية من كل جانب، هذه المقدمة ضرورية؛ إذ الدائرة ترسم بالبركار على فتح واحد، إنما الخط مستقيم من المركز إلى الدائرة، وفتح البركار وهو واحد في الجوانب، المقدمة الثانية إذا تساوت دائرتان بخطوط مستقيمة من مركزيهما إلى محيطهما، فالخطوط أيضًا متساوية، وهذه أيضا ضرورية، المقدمة الثالثة أن المساوي للمساوي مساو وهذه أيضًا ضرورية، ثم الآن نشتغل بالمثلث ونشير إلى خطين منه ونقول: إنهما متساويان؛ لأنهما خطان مستقيمان خرجا من مركز الدائرة إلى محيطها، والخط الثالث مثلٌ لأحدهما، أنه خرج أيضًا من مركز الدائرة إلى محيطها مع ذلك الخط، وإذا ساوى أحد الخطين فقد ساوى الآخر، فإن المساوي للمساوي مساو، وبعد هذا النظر نعلم قطعًا تساوي أضلاع المثلث المفروض، كما عُرف سائر المقدمات مثل قولنا: الخطوط المستقيمة من مركز الدائرة إلى المحيط متماثلة، وغيرها من المقدمات.

أما المثال العقلي الإلهي، وهو أنّا إذا أردنا أن ندل على واجب الوجود القائم بنفسه المستغني عن غيره، الذي منه يستفيد كل موجود وجوده لم ندرك ثبوت موجود واجب الوجود مستغنيًا عن غيره بالضرورة بل بالنظر، ومعنى النظر هو أنا نقول: لا شك في أصل الوجود، وأنه ثابت، فإن من قال: لا موجود أصلًا في العالم، فقد بهتوا الضرورة والحس، وقولنا: لا شك في أصل الوجود، مقدمة ضرورية، ثم نقول: والوجود معترف به من الكل، إما واجب وإما جائز، وهذه

مقدمة أيضًا ضرورية، وأنها حاضرة بين النفي والإثبات مثل قولنا: الموجود إما أن يكون قديمًا أو حادثًا، فيكون صدقه ضروريًّا، وهكذا كل تقسيم دائر بين النفي والإثبات، ومعناه أن الموجودات إما أن تكون استغنت أو لم تستغنِ، والاستغناء عن السبب هو المراد بالوجوب، وعدم الاستغناء هو المراد بالجواز، هذه مقدمة ثالثة.

ثم تقول: إن كان هذا الموجود المعترف به واجبًا، فقد ثبت واجب الوجوب، وإن كان جائزا فكل جائز مفتقر إلى واجب الوجوب، ومعنى جوازه أنه أمكن عدمه ووجوده على حدٍّ واحد، وما هذا وصفه لا يتميز وجوده على عدمه إلا بمخصص، وهذا أيضا ضروري، فقد ثبت بهذه المقدمات الضرورية واجب الوجود، صار العِلم بعد حصوله ضروريًّا لا يتمارى فيه، فإن قيل فيه موضع شك إذ يقول المعترف به جائز، ويقول: قولكم: إنه يفتقر إلى واجب كل جائز وجوده غير مُسلّم، بل يفتقر إلى سبب، ثم ذلك السبب يجوز أن يكون جائز الوجود، قلنا في تلك المقدمات: اشتمل على رفع هذا بالقوة، فإن كل ما ثبت له الجواز فافتقاره إلى سبب ضروري، فإن قدر السبب جائزًا دخل في الجملة التي سميناها كلها، ونحن نعلم بالضرورة أن كل الجائزات تفتقر إلى سبب، فإن فرضتَ السبب جائزًا تفرضه داخلًا في الجملة واطلب سببه؛ إذ يستحيل أن يسند ذلك جائز آخر.

وهكذا إلى غير نهاية؛ فإنه يكون عند ذلك جميع الأسباب والمسببات جملة جائزة، ووصف الجواز يصدق عل آحادها وعلى مجموعها، ويفتقر المجموع إلى سبب خارج عن وصف الجواز المخرج، وفيه ضرورة إثبات واجب الوجود، ثم بعد ذلك نتكلم في صفته ونبين أنه لا يجوز أن يكون واجب الوجود جسمًا ولا

مطّبعًا في جسم، ولا متغيرًا ولا متحيزًا، إلى سائر ما يدفع ذلك، ويثبت كل واحد منها المقدمات لا شكل فيها، وتكون النتيجة بعد حصولها بمقدمات في الظهور على ذوق المقدمات.

حكـــم الـــشرع في حـــق الباطنيـــة

وهكذا يواصل الشيخ أبو حامد الغزالي -رحمه الله- الرد على هذه الفرقة من كذا ناحية ومن كذا زاوية، وما بين رد إجمالي حينًا وتفصيلي حينًا آخر؛ وذلك لإبطال منهجهم وإظهار زيفهم، وسأضرب صفحًا عن الرد المتبقي من كلام الشيخ، سيما أنه ركّز الرد في إبطال وجوب التعليل من إمامه، وجعل له النصيب الأوفر في هذه الناحية؛ لِأصلَ بعدُ -إن شاء الله ﷻ إلى بيان حكم مقتضى الشرع في حقهم، فما هو حكم الشرع في حقهم؟ هل هو التكفير أو التضليل أو تخطئتهم فقط؟

فنقول -وبالله التوفيق-: مهما سئلنا عن واحد منهم أو عن جماعتهم وقيل لنا: هل تحكمون بكفرهم؟ نقول: لا نسارع إلى تكفير أحد منهم إلا بعد السؤال عن معتقدهم ومقالتهم ونراجع المحكوم عليهم، أو نكشف عن معتقدهم بقول عدول يجوز الاعتماد على شهادتهم، فإذا عرفنا حقيقة الحال حكمنا بموجبه.

ومقالاتهم تدور بين مرتبتين: إحداهما توجب التخطئة والتضليل والتبديع، والأخرى توجب التكفير لهم والتبري منهم

المرتبة الأولى: وهي التي توجب التخطئة والتضليل والتبديع هي أن نصادف عاميًّا يعتقد أن استحقاق الإمامة في أصل البيت، وأن المستحق اليوم المتصدي لها

منهم، وأن المستحق لها في العصر الأول كان هو عليًّا > ، فدُفع عنها بغير استحقاق، وزعم مع ذلك أن الإمام معصوم عن الخطأ والزلل، فإنه لا بد أن يكون معصوما، ومع ذلك فلا يستحل سفك دمائنا ولا يعتقد كفرنا، ولكنه يعتقد فينا أنّا أهل البغي زلت بصائرنا عن إدراك الحق خطأ؛ إذ عدلنا عن اتباعه عنادًا ونكدًا، فهذا الشخص لا يستباح سفك دمه، ولا يحكم بكفره لهذه الأقاويل، بل يحكم بكونه ضالًّا مبتدعًا، فيُزجر عن ضلاله وبدعته بما يقتضيه رأي الإمام.

فأما أن يحكم بكفره ويستباح دمه بهذه المقالات فلا، وهذا إنما يقتصر على تضليله وتبديعه إذ لم يعتقد شيئًا مما حكينا مما مذهبهم في الإلهيات وفي أمور الحشر والنشر، ولكنه لم يعتقد في جميع ذلك إلا ما نعتقد، وإنما تميز عنا بقدر الذي ذكرناه آنفًا، فإن قيل: هلا كفرتموهم بقولهم: إن مستحق الإمامة في الصدر الأولى كان عليًّا دون أبي بكر وعمر ومن بعده، وأنه دُفع على الباطل، وفي ذاك خرق لإجماع أهل الدين؟ قلنا: لا ننكر ما فيه من القحوم على خرق الإجماع؛ ولذلك تلقينا من التخطئة المجردة التي نطلقها ونقتصر عليها في الفروع في بعض المسائل إلى التضليل والتفسيق والتبديع، ولكن لا ننتهي إلى التكفير، فلم يبن لنا أن خالق الإجماع كافر، بل الخلاف قائم بين المسلمين في أن الحجة تقوم بمجرد الإجماع أم لا، وقد ذهب النظار وطائفته إلى إنكار الإجماع وأنه لا تقوم به حجة أصلًا، فمن التبس عليه هذا الأمر لم نكفره بسببه، واقتصرنا على تخطئته وتضليله.

فإن قيل: وهلا كفرتموهم بقولهم: إن الإمام معصوم، والعصمة عن الخطأ والزلل وصغير المآثم وكبيرها من خاصية النبوة، فكأنهم أثبتوا خاصية النبوة لغير

النبي، قلنا: هذا لا يوجب الكفر أيضًا، وإنما الموجب له أن يُثبت النبوة لغيره بعده، وقد ثبت أنه خاتم النبيين ﷺ أو يُثبت لغيره منصب الشيخ لشريعته، فأما العصمة فليست خاصية النبوة، ولا إثباتها كإثبات النبوة، فلقد قالت طوائف من أصحابنا: العصمة لا تثبت للنبي من الصغائر، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] وبجملة من حكايات الأنبياء.

فمن يعتقد في فاسق أنه مطيع ومعصوم عن الفسق لا يزيد على من يعتقد في مطيع أنه فاسق ومنهمك في الفساد، ولو اعتقد إنسان في عدل أنه فاسق لم يزد على تخطئة من اعتقد في غير معصوم أنه معصوم، كيف يحكم بكفره؟! نعم، يحكم بحماقته واعتقاده أمرًا يكاد يخالف المشاهَد من الأحوال وأمرًا لا يدل عليه مظهر العقل ولا ضرورته، فإن قيل: فلو اعتقد معتقد فسق أبي بكر وعمر } وطائفة من الصحابة فلن يعتقد كفرهم، فهل تحكمون بكفره؟ قلنا: لا نحكم بكفره، وإنما نحكم بفسقه وضلاله ومخالفته بإجماع الأمة، وكيف نحكم بكفره ونحن نعلم أن الله تعالى لم يوجب على من قذف محصنًا بالزنا إلا ثمانين جلدة، ونعلم أن هذا الحكم يشتمل كافة الخلق ويعمهم على وتيرة واحدة، وأنه لو قذف قاذف أبا بكر وعمر } بالزنا لَمَا زاد على إقامة حد الله تعالى المنصوص عليه في كتابه، ولم يدعوا لأنفسهم بخاصية في الخروج عن مقتضى العموم.

فإن قيل: لو صرح مصرح بكفر أبي بكر وعمر } ينبغي أن يُنزّل منزلة من لو كفّر شخصا آخر من آحاد المسلمين أو القضاة والأئمة من بعدهم، قلنا: هكذا نقول، فلا يفارق تكفيرهم تكفير غيرهم من آحاد الأمة والقضاة وبين أفراد المسلمين المعروفون بالإسلام إلا في شيئين: أحدهما في مخالفة الإجماع وخرقه؛ فإن مكفر غيرهم ربما لا يكون خارقًا لإجماع معتدّ به، الثاني أنه ورد في حقهم

من الوعد بالجنة والثناء عليهم والحكم بصحة دينهم وثبات يقينهم وتقدمهم على سائر الخلق أخبار كثيرة، فقال ذلك إن بلغته الأخبار واعتقد مع ذلك كفرهم فهو كافر لا بتكفيره إياهم لكن بتكذيبه رسول الله ﷺ، فمن كذّبه بكلمة من أقاويله فهو كافر بالإجماع، ومهما قُطع النظر عن التكذيب في هذه الأخبار وعن خرق الإجماع نزلت تكفيرهم منزلة سائر القضاة والأئمة وآحاد المسلمين.

فإن قيل: فما قولكم فيمن يكفر مسلمًا فهو كافر أم لا؟ قلنا: إن كان يعرف أن معتقدَهم التوحيد وتصديق الرسول ﷺ إلى سائر المعتقدات الصحيحة، فمهما كفرهم بهذه المعتقدات فهو كافر؛ لأنه رأى الدين الحق كفرًا وباطلًا، فأما إذا ظن أنه يعتقد تكذيب الرسول أو نفي الخالق أو تثنيتَه أو شيئًا مما يوجب الكفر، فكفّره بناء على هذا الظن فهو مخطئ في ظنه المخصوص بالشخص صادق في تكفير من يعتقد ما يظن أنه معتَقَد هذا الشخص، وظن الكفر بمسلم ليس بالكفر، كما أن ظن الإسلام بالكافر ليس بالكفر، ومثل هذه الظنون قد تخطئ وتصيب، وهو جهل لحال شخص من الأشخاص، وليس من شرط دين الرجل أن يعرف إسلام كل مسلم وكفر كل كافر، بل ما من شخص يُفرض إلا وله جهله لم يضره في دينه، بل إذا آمن شخص بالله ورسوله وواظب على العبادات ولم يسمع باسم أبي بكر وعمر ومات قبل السماع مات مسلمًا، فليس الإيمان بهما من أركان الدين حتى يكون الغلط في صفاتهما موجب للانسلاخ من الدين.

وعند هذا ينبغي أن يُقبض عنان الكلام؛ فإن الغوص في هذه المغاصة يفضي إلى إشكالات وإثارة التعصبات، وربما لا تذعن جميع الأذهان لقبول الحق المؤيَّد بالبرهان لشدة ما يرسخ فيها من معتقدات مألوفة التي وقع النشوء عليها والتحق

بحكم الاستمرار الاعتياد بالأخلاق الغريزية التي يتعذر إزالتها، وبالجملة القول فيما يوجب الكفر والتبري وما لا يوجبه لا يمكن استيفاؤه في أقل من مجلد، وذلك عند إيثار الاختصار فيه، فلنختصر على الغرض المهم في هذا الذي ذكرناه.

المرتبة الثانية: المقالات الموجبة للتكفير، وهي أن يعتقد ما ذكرناه ويزيد عليه، فيعتقد كفرنا واستباحة أموالنا وسفك دمائنا، فهذا يوجب التكفير لا محالة؛ لأنهم عرفوا أننا نعتقد أن للعالم خالقًا واحدًا قادرًا عالمًا مريدًا متكلمًا سميعًا بصيرًا حيًّا ليس كمثله شيء، وأن رسوله محمد بن عبد الله ﷺ صادق في كل ما جاء به من الحشر والنشر والقيامة والجنة والنار، وهذه الاعتقادات هي التي تدور عليها صحة الدين، فمن رآها كفرًا فهو كافر لا محالة، فإن انضاف إلى هذا شيءٌ مما حكي من معتقداتهم من إثبات إلهين وإنكار الحشر والنشر وجحود الجنة والنار والقيامة، فكل واحد من هذه المعتقدات موجب للتكفير قولًا واحدًا، صدر منهم أو من غيرهم.

فإن قيل: لو اعتقد معتقد وحدانية الإله ونفي الشرك، ولكنه تصرف في أحوال النشر والحشر والجنة والنار بطريق التأويل للتفصيل دون إنكار الأصل، بل اعترف بأن الطاعة وموافقة الشرع وكف النفس عن المحرمات والهوى سبب يفضي إلى السعادة، وأن الاسترسال على الهوى ومخالفة الشرع فيما أمر ونهى يسوق صاحبه إلى الشقاوة، ولكنه زعم أن السعادة عبارة عن لذَّة روحانية تزيد لذتها عن اللذة الجسمانية الحاصلة من المطعم والمنكح اللذين تشترك فيهما البهائم وتتعالى عنهما رتبة الملكية أو رتبة الملائكية، وإنما تلك السعادة اتصال بالجواهر العقلية وابتهاج بنيل ذلك الكمال واللذات الجسمانية محتقرة بالإضافة إليها، وأن

الشقاوة عبارة عن كون الشخص محجوبًا عن ذلك الكمال العظيم محله الرفيع شأنه مع التشوق إليه والشغف به، وإن ألم ذلك يستحقر معه ألم النار الجسمانية، وأن ما ورد في القرآن مثَلُه ضرب لعوام الخلق لَمَّا قصر فهمهم عن درك تلك اللذات، فإنه لو تعدَّى النبي في ترغيبه وترهيبه إلى غير ما ألفوه وتشوقوا إليه وفزعوا منه لم تنبعث دواعيهم من الطلب والهرج، فذكر من اللذات أشرفها عندهم، وهي المدركات بالحواس، اللحوم والقصور؛ إذ تحظى بها حاسة البصر، ومن المطاعم والمناكح؛ إذ تحظى بها القوة الشهوانية، وما عند الله لعباده الصالحين خير من جميع ما أعربت عنه العبارات ونبَّهت عليه، ومن ذلك قال تعالى فيما حكى عنه النبي ﷺ: ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)) وكل ما يدرك من جسمانيات فقد خطر على قلب بشر، أو يمكن إخطاره بالقلب.

هذا والقول عندهم بإلهين كفر صريح لا يتوقف فيه، وأما هذا فربما يَتوقف فيه الناظر يقول: إذا اعترفوا بأصل السعادة والشقاوة، وكون الطاعة والمعصية سبيل إليهما، فالنزاع في التفصيل كالنزاع في مقادير الثواب والعقاب، وذلك لا يوجب تكفيرًا، فكذلك النزاع في التفصيل، والذي نختاره ونقطع به أنه لا يجوز التوقف في تكفير من يعتقد شيئًا من ذلك؛ لأنه تكذيب صريح لصاحب الشرع ولجميع كلمات القرآن من أولها إلى آخرها، فوصف الجنة والنار لم يُكتفَ بذكره مرة واحدة أو مرتين، ولا جرى بطريق كناية أو توسع وتجوز، بل بألفاظ صريحة لا يتمارى فيها ولا يُستراب، وأن صاحب هذا الشرع أراد منها المفهوم من ظاهرها، فالمصير إلى ما أشار إليه هذا القائل تكذيب وليس بتأويل، فهو كفر صريح لا يتوقف فيه أصلًا.

ولذلك نعلم عن القطع أنه لو صُرّح بإنكار الجنة والنار والحور القصور فيما بين الصحابة لبادروا إلى قتل قائله، واعتقدوا ذلك منه تكذيبًا لله ولرسوله، فإن قيل لعلهم كانوا يفعلون ذلك ويبالغون فيه حسمًا لباب التصريح به؛ إذ مصلحة العامة تقتضي ألا يجري الخطاب معهم إلا بما يليق بأفهامهم، ويؤثر في نفوسهم وإثارة دواعيهم، وإذا رُفعت عن نفوسهم هذه الظواهر اقتصرت عقولهم عن درك اللذات العقلية أنكروا الأصل وجحدوا الثواب والعقاب، سقطَ عندهم تمييز الطاعة عن العصيان والكفر عن الإيمان، قلنا: فقد اعترفتَ بإجماع الصحابة على تكفير هذا الرجل وقتله؛ لأنه مصرح به، ونحن لم نزد على أن المصرح به كافر يجب قتله، وقد وقع الاتفاق عليه، وهكذا فرقنا بين ما عندهم من كفر وما عندهم من ضلالات.

((الإسماعيلية (١))

عناصر الدرس

التعريف بالإسماعيلية، ونظرة تاريخية حولها

الإسماعيلية هي إحدى الفرق الباطنية المنتشرة اليوم، التي تزعم أن للدين ظاهرًا وباطنًا، ظاهرًا يظنه عامة الناس، وباطنًا لا يعلمه إلا الخاصة والعلماء، وهو المراد والمطلوب من العقائد والأحكام الشرعية، وبذلك صرفوا أحكام الإسلام عن مرادها وأوّلوها تأويلات باطلة.

الإسماعيلية: انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، وظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام، ولقد تشعبت فِرقها وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر.

النشأة وسبب التسمية:

سُمّيت هذه الفرقة بهذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذي يعتبرونه أحدَ أئمتهم، وقد توفي في حياة أبيه، وهنا افترقت الإسماعيلية مع الشيعة الإثنا عشرية؛ فالإسماعيلية اعتبروا إسماعيل الأحق بوراثة أبيه في الإمامة، كونه الابنَ الأكبر، وأنكروا موته، أما الإثنا عشرية فقد نقلوا الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم، وهو الإمام السابع عندهم، وهذا من أسباب ظهور عقيدة البداء عندهم.

وهنا افترقت الإسماعيلية إلى فرقتين: الأولى منتظرة لعودة إسماعيل بن جعفر رغم موته في حياة أبيه، ونفَوا موته وادعوا أن أباه خاف عليه فغيّبه، الأخرى نقلوا الإمامة بعد جعفر الصادق إلى حفيده محمد بن إسماعيل بن جعفر.

أولًا: الإسماعيلية القرامطة، وكان ظهورهم في البحرين والشام بعد أن شقُّوا عصى الطاعة على الإمام الإسماعيلي نفسِه ونهبوا أمواله ومتاعه، فهرب من سلمية في سوريا إلى بلاد ما وراء النهر؛ خوفًا من بطشهم، ومن شخصياتهم عبد الله بن ميمون القدّاح ظهر في جنوبي فارس سنة مائتين وستين من الهجرة، والفرج بن عثمان القاشاني ذكرويه ظهر في العراق وأخذ يدعو للإمام المستور، وحمدان بن قرمط بن الأشعث ظهر سنة مائتين وثماني وسبعين من الهجرة، وجهر بالدعوة قرب الكوفة، وأحمد بن القاسم الذي بطش بقوافل التجار والحجاج، والحسن بن بهرام أبو سعيد الجنابي ظهر في البحرين، ويعتبر مؤسسَ دولة القرامطة، وابنه سليمان بن حسن بن بهرام أبو طاهر، حَكَم ثلاثين سنة، وفي عهده حدث التوسع والسيطرة، وقد هاجم الكعبة سنة ثلاث مائة وتسع عشرة هجرية، وسرق الحجر الأسود لأكثر من عشرين سنة، والحسن الأعصم بن سليمان، والذي استولى على دمشق سنة ثلاث مائة وستين من الهجرة.

ثانيًا: الإسماعيلية الفاطمية، وهي الحركة الإسماعيلية الأصلية، وقد مرت بعدة أدوار:

أولا: دور الستر من موت إسماعيل سنة مائة وثلاث وأربعين من الهجرة إلى ظهور عبيد الله المهدي، وقد اختُلف في أسماء أئمة هذه الفترة بسبب السرية.

ثانيا: بداية الظهور، يبدأ الظهور بالداعية الحسن بن حوشب الذي أسس دولة الإسماعيلية في اليمن سنة مائتين وست وستين من الهجرة، وامتد نشاطه إلى شمال أفريقيا، واكتسب شيوخ كُتامة، يلي ذلك ظهور رفيقه علي بن فضل الذي ادعى النبوة وأعفى أنصاره من الصوم والصلاة.

ثالثا: دور الظهور، يبدأ بظهور عبيد الله المهدي الذي كان مقيمًا في سَلَميّة بسوريا، ثم هرب إلى شمال أفريقيا واعتمد على أنصاره هناك من الكتاميين، قتلَ عبيد الله داعيته أبا عبد الله الشيعي الصنعاني وأخاه أبا العباس لشكّهما في شخصيته، وأنه غير الذي رأياه في سلمية. أسس عبيد الله أول دولة إسماعيلية فاطمية في المهدية بأفريقيا، تونس، واستولى على القادة سنة مائتين وسبع وتسعين من الهجرة، وتتابع بعده الفاطميون، وهم: المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل من سنة ثلاث مائة وأربع وثلاثين إلى سنة ثلاث مائة وواحد وأربعين من الهجرة، والمعز لدين الله أبو تميم مَعْد من سنة ثلاث مائة وواحد وأربعين إلى ثلاث مائة وخمس وستين من الهجرة.

وفي عهده فتحت مصر سنة ثلاث مائة وثماني وخمسين من الهجرة، وانتقل إليها المعز في رمضان سنة ثلاثمائة واثنين وستين من الهجرة، والعزيز بالله أبو منصور نزار، من سنة ثلاثمائة وخمس وستين إلى ثلاثمائة وست وثمانين من الهجرة، والحاكم بأمر الله أبو علي المنصور سنة ثلاثمائة وست وثمانين إلى أربعمائة وإحدى عشرة من الهجرة، والظاهر أبو الحسن علي من سنة أربعمائة وإحدى عشرة إلى أربعمائة وسبع وعشرين من الهجرة. والمستنصر بالله أبو تميم، وتوفي سنة أربعمائة وسبع وثمانين من الهجرة، وتُولِّى الخلافة أو الحكم أربعمائة وسبع وعشرين من الهجرة، وبوفاته انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى نزارية شرقية ومستعلية غربية، والسبب في هذا الانقسام أن الإمام المستنصر قد نصَّ على أن يليه ابنه نزار؛ لأنه الابن الأكبر، لكن الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي نحّى نزارًا وأعلن إمامة المستعلي وهو الابن الأصغر، كما أنه في نفس الوقت ابن أخت الوزير، وقام بإلقاء القبض على نزار ووضَعه في سجن وسدَّ عليه الجدران حتى مات.

استمرت الإسماعيلية الفاطمية المستعلية تحكم مصر والحجاز واليمن بمساعدة الصُّلَيحيِّين، والأئمة هم: المستعلي أبو القاسم أحمد من سنة أربعمائة وسبع وثمانين إلى أربعمائة وخمس وتسعين من الهجرة، والآمر أبو علي المنصور من سنة أربعمائة وخمس وتسعين إلى خمسمائة وخمس وعشرين من الهجرة، والحافظ أبو الميمون عبد المجيد من خمسمائة وخمس وعشرين إلى خمسمائة وأربع وأربعين من الهجرة، والظافر أبو المنصور إسماعيل من خمسمائة وأربع وأربعين إلى خمسمائة وتسع وأربعين من الهجرة، والفائز أبو القاسم عيسى من خمسمائة وتسع وأربعين إلى خمسمائة وخمس وخمسين من الهجرة، والعاضد أبو محمد عبد الله من خمسمائة وخمس وخمسين من الهجرة حتى زوال دولتهم على يَدَيْ صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله تعالى.

ثالثًا: الإسماعيلية الحشاشون، وهم إسماعيلية نَزارية بالشام وفارس وبلاد الشرق، كان في مصر وقت حرمان نزار شخصٌ فارسي هو الحسن بن الصباح، الذي كان حاجًّا إلى الإمام المستنصر، ولما شاهد ما حدث من انقسام عاد إلى بلاد فارس داعيًا إلى الإمام المستور، واستولى على قلعة الموت سنة أربعمائة وثلاث وثمانين من الهجرة، وأسس الدولة الإسماعيلية النزارية الشرقية، وهم الذين عُرفوا بالحشاشين؛ لأنهم كانوا يُكثرون من تدخين الحشيش، وقد أرسل بعض الفدائيين إلى مصر لقتل الإمام الآمر بن المستعلي، وقد كان متعطشًا للدماء حتى إنه قتل ولدَيْه، ومات سنة خمسمائة وثمانية وعشرين من الهجرة من غير سليل.

ودعاة الحشاشين هم: الحسن بن الصباح، توفي سنة أربع وعشرين ومائة وألف من الميلاد، كيابزرك آميد توفي سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف من الميلاد. محمد بن

كيابزرك آميد، توفي سنة ثنتين وستين ومائة وألف من الميلاد، والحسن الثاني ابن محمد توفي سنة ست وستين ومائة وألف من الميلاد، ومحمد الثاني ابن الحسن الثاني توفي سنة عشر ومائتين وألف من الميلاد، والحسن الثالث ابن محمد الثاني توفي سنة واحد وعشرين ومائتين وألف من الميلاد، ومحمد الثالث ابن الحسن الثالث توفي سنة خمس وخمسين ومائتين وألف من الميلاد، وركن الدين خرشاه من سنة خمس وخمسين ومائتين وألف من الميلاد، إلى أن انتهت دولتهم وسقطت قِلاعهم أمام جيش هولاكو المغولي، الذي قتل ركن الدين، فتفرقوا في البلاد، وما يزال لهم أتباع إلى الآن.

رابعًا: إسماعيلية الشام، وهم إسماعيلية نزارية، لقد ظلوا خلال هذه الفترات الطويلة على عقيدتهم يجاهرون بها في قلاعهم وحصونهم، غير أنهم ظلوا طائفة دينية ليست لهم دولة بالرغم من الدور الخطير الذي قاموا به، ولا يزالون إلى الآن في سَلميّة بالذات، وفي القدموس ومصياف وبنياس والخوابي والكهف، ومن شخصياتهم راشد الدين سنان الملقب بشيخ الجبل، ويُشبه في تصرفاته الحسن بن الصباح، لقد كوّن مذهب السنانية الذي يعتقد أتباعه بالتناسخ فضلا عن عقائد الإسماعيلية.

خامسًا: الإسماعيلية البهرة، وهم إسماعيلية مستعلية يعترفون بالإمام المستعلي، الإسماعيلية البهرة، وهم إسماعيلية مستعلية يعترفون بالإمام المستعلي ومِن بعده الآمر، ثم ابنه الطيب؛ ولذا يسمون بالطيبية، وهم إسماعيلية الهند واليمن، تركوا السياسية وعملوا بالتجارة ووصلوا إلى الهند، اختلط بهم الهندوس الذين أسلموا وعرفوا بالبهرة، والبُهرة لفظ هندي قديم بمعنى التاجر.

الإمام الطيب دخل الستر سنة خمسمائة وخمس وعشرين هجريًّا، والأئمة المستورون من نسله إلى الآن لا نعرف عنهم شيئًا، حتى إن أسماءهم غير معروفة، وعلماء البهرة أنفسهم لا يعرفونهم، انقسمت البُهرة إلى فرقتين: البهرة الداودية نسبة إلى الداعي قطب شاه داود، وهم في الهند وباكستان منذ القرن العاشر الهجري، وداعيتهم يقيم في بومباي، والبُهرة السليمانية نسبة إلى الداعي سليمان بن حسن، وهؤلاء مركزهم في اليمن حتى اليوم.

سادسًا: الإسماعيلية الأغاخانية، ظهرت هذه الفرقة في إيران، في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، ودعاتهم هم:

١- حسن علي شاه وهو الأغا خان الأول، استعمله الإنجليز لقيادة ثورة تكون ذريعة لتدخّلهم، فدعا إلى الإسماعيلية النزارية، ونفي إلى أفغانستان، ومنها إلى بومباي، وقد خلع عليه الإنجليز لقب أغاخان، مات سنة ألف وثمانمائة وواحد وثمانين من الميلاد.

٢-أغا علي شاه وهو الأغاخان الثاني من سنة ألف وثمانمائة واحد وثمانين من الميلاد إلى ألف وثمانمائة وخمس وثمانين من الميلاد.

٣- يليه ابنه محمد الحسين وهو الأغاخان الثالث، من سنة ألف وثمانمائة وخمس وثمانين من الميلاد إلى سنة ألف وتسعمائة وسبع وخمسين من الميلاد، كان يفضل الإقامة في أوربا، وقد رتع في ملاذ الدنيا، وحينما مات أوصى بالخلافة من بعده لحفيده كريم مخالفًا بذلك القاعدة الإسماعيلية في تولية الابن الأكبر.

٤-كريم، وهو الأغاخان الرابع من سنة ألف وتسعمائة وسبع وخمسين ميلاديًّا، وما يزال حتى الآن وقد درس في إحدى الجامعات الأمريكية.

سابعًا: الإسماعيلية الواقفة، وهي فرقة إسماعيلية وقفت عند إمامة محمد بن إسماعيل، وهو أول الأئمة المستورين، وقالت برجعته بعد غيبته.

دول الإسماعيليـــــــــــــــة

دولهم أو دول الإسماعيلية:

بهذا يستبين أنه قامت فيما مضت من الإسماعيلية دول عديدة، وكانت شوكة في خاصرة المسلمين، وهذه الدول هي دولة الإسماعيلية القرامطة، أو دولة القرامطة، أتباع حمدان قُرمط الذي دخل مذهب الإسماعيلية على يد حسين الأهوازي الداعية عبد الله القداح، وقد كوَّنوا دولة لهم في البحرين استمرت قرابة قرن من الزمان، وقضى عليهم الأصفر التغلبي، وانتهوا نهائيا سنة أربعمائة وست وستين من الهجرة. وأما دولتهم الثانية فهي دولة العُبَيِّدِيِّين المشهورة باسم الفاطمية، وقد نُسبوا زورًا إلى فاطمة بنت النبي محمد ﷺ أو نسبُوا أنفسهم إلى هذه التسمية من باب تزيين القبيح، ومن باب التستر؛ حتى لا تفضح حقيقتهم، وحقيقة نسبهم لآل القداح، وهم إما يهود أو مجوس، والذي أسس دولتهم عُبيد الله المهدي، وعرفت الدولة باسمه الدولة العُبَيِّدِيِّة قبل أن يزوّروا اسمها وتسمى الدولةَ الفاطمية.

أسس عُبيد الله المهدي أول دولة إسماعيلية فاطمية في شمال أفريقيا سنة مائتين وسبع وتسعين من الهجرة، وادعى أنه المهدي، ثم جاء بعده المنصور بالله، ثم المعز لدين الله، وهي ألقاب في غير موضعها، كالذي قال:

مِمَّا يُزَهِّدُني في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ❖ سَماعُ مُقْتَدِرٍ فيها وَمُعْتَضِدِ

أَلْقابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِها ❖ كالْهِرِ يَحْكي انْتِفاخاً صَوْلَةَ الأسَدِ

عبيد الله المهدي، في عهده تم احتلال مصر سنة ثلاثمائة وثمان وخمسين من الهجرة، ثم العزيز بالله، ثم الحاكم بأمر الله الذي ادَّعى الألوهية، والذي كان يصدر الأوامر الغريبة والمتناقضة، وكان يبالغ في القتل وسفك الدماء، واستمرت دولتهم حتى سنة خمسمائة وسبع وستين من الهجرة ألف مائة واثنين وسبعين من الميلاد؛ حيث زالت على يد القائد صلاح الدين الأيوبي الذي أعاد مصر إلى مذهب أهل السنة والجماعة الذي كانوا عليه قبل احتلال الإسماعيليين الفاطميين لمصر، وأعاد الدعوة إلى الخليفة العباسي.

هذا وقد خرج من رحم الدولة الفاطمية فرقة الدروس، ثم كانت طائفة الحشاشين التي انشقت عن الفاطميين والتي أسسها شخصٌ فارسي اسمه الحسن بن الصباح، كان يدين بالولاء للإمام الفاطمي المستنصر، وقام بالدعوة في بلاد فارس للإمام المستور نزار، ثم استولى على قلعة الموت في إيران، وأسس الدولة الإسماعيلية النزارية الشرقية، وانتشروا في إيران، وقد تميزت هذه الطائفة باحتراف القتل والاغتيال، وسموا بالحشاشين؛ لأنهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش، وكان شعارهم في بعض مراحلهم: "لا حقيقة في الوجود، وكل أمر مباح". وقد أرسل ابن الصباح بعض رجاله إلى مصر لقتل الإمام الآمر بن المستعلي، فقتلوه مع ولدَيْه عام خمسمائة وخمس وعشرين من الهجرة، وقد توفي الحسن بن الصباح سنة خمس وثمان وعشرين من الهجرة، أربع وعشرين ومائة وألف من الميلاد.

ومِن دعاتهم إضافة الحسن الصباح كيابزرك آميد والحسن الثاني بن محمد وركن الدين خرشاه الذي كان آخر حكام دولتهم التي أسقطها جيش هولاكو المغولي

سنة أربع وخمسين وستمائة من الهجرة، فتفرق أهلها في البلاد، هم أصل الإسماعيلية الأغاخانية اليوم.

وأما إسماعيلية الشام فهم من الإسماعيلية النزارية امتداد إسماعيلية الموت، وقد سيطروا على عدة قلاع محصنة على يد راشد الدين سنان الملقب بشيخ الجبل، وكان نُصيريًّا فتحول إسماعيليًّا، ولم يكونوا خاضعين لحكام المسلمين إلى وقت ضعفهم قوة المسلمين، فقضى على شوكتهم هولاكو سنة ثمان وخمسين وستمائة من الهجرة، ولكن أعاد لهم قطز قلاعهم، ومن ثَمّ أمرهم الظاهر بيبرس بدفع المكس والهدايا، وبقيت قلاعهم معهم حتى عام ألف وتسعمائة وعشرين من الميلاد، ولا يزال بقاياهم إلى الآن في سلمية وقدموس ومصياف وبنياس والخوابي والكهف في سوريا، ولهم صلات وثيقة بالإسماعيلية الأغاخانية المعاصرة.

ثم وقعت الإسماعيلية في الانقسامات بعد أن قُضي على دولة القرامطة سنة أربعمائة وستة وستين من الهجرة، وبقيت الحركة الإسماعيلية ممثلة بدولة الفاطميين العبيدين في مصر، ويتبعهم في الولاء العقائدي والسياسي دولة الصُّليحيين في اليمن، والتي تأسست على يد علي بن محمد الصُّلَيحي سنة أربعمائة وتسع وثلاثين من الهجرة، واستمرت حتى سنة خمسمائة واثنتين وثلاثين من الهجرة. ولما توفي الإمام الفاطمي المستنصر أبو تميم معد بن الظاهر الإمام السابع عام أربعمائة وسبع وثمانين من الهجرة، وكان قد عهد لابنه الأكبر نزار قام الوزير أفضل شاهٍ شاه ونصب ابن المستنص ر أصغر أحمد على عرش البلاد ولقبه بالمستعلي؛ وذلك لأن أحمد ابن أخته للوزير الأفضل، ولم يقبل أبناء المستنصر الآخرون بذلك، ورأى نزار الابن الأكبر أن الخلافة اغتصبت منه،

لا سيما أن أباه المستنصر قد نص عليه وكتب له بذلك، ولا يجوز عندهم لغير المنصوص عليه.

ومن هنا انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى قسمين:

القسم الأول: قبل بإمامة المستعلي وسموا بالمستعلية، وهؤلاء انقسموا قسمين فيما بعد، وبقوا في مصر حتى نهاية الفاطميين وانتقلوا بعدها لليمن حيث الدولة الصُّليحية تابعة لهم، وبعد زوال الدولة الصلاحية عرفوا بالبُهرة، أما القسم الثاني أيد نزارًا وعلى رأسهم الحسن بن الصباح، وسموا بالنزارية، وقد هربوا من مصر إلى شمال إيران وتجمعوا في حصن الموت، ووصل نشاطهم وأتباعهم إلى سوريا والعراق والهند، وهم قد انقسموا كذلك قسمين، وسموا فيما بعد بالأغاخانية.

أما القسم الأول وانقساماته فلقد انقسم مؤيدو المستعلي مما نتج عنه ثلاث فرق، إحداها انتهت على يد صلاح الدين.

الانقسام الأول: بعد وفاة المستعلي العُبيدي سنة خمس وتسعين وأربعمائة هجرية فقد تولى منه الآمر بأحكام الله وبقي في الإمامة نحو ثلاثين سنة إلى أن قتله النزارية سنة أربع وعشرين وخمسمائة من الهجرية، ويقول أكثر المؤرخين: إنه مات دون أن يترك عقبًا، وهنا افترقت المستعلية إلى طائفتين: طائفة قالوا: إن المستعلي نص على عمه الحافظ عبد المجيد فتولى الحافظ عبد المجيد الحكم، وقد قضى على هذه الطائفة صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- سنة سبع وستين وخمسمائة من الهجرة، وبسقوط الدولة العُبيديّة وعزل آخر حكامها العاضد انتهى حكم العبيديين من الإسماعيلية المستعلية في مصر.

وأما الطائفة الثانية زعموا أن المستعلي ترك ولدًا سماه الطيب ؛ لذلك سموا بالطيبية ، ويدّعون أنه استُتر خوفًا من ابن عم أبيه عبد المجيد الذي استأثر بالخلافة دونه ، وقد هرب الطيب إلى اليمن ويعتقدون ، أن الطيب بن الآمر لا يزال مستترًا منذ ذلك الحين ، وأنهم يعيشون دور الستر إلى أن يحين زمان ظهوره ، وقد جعلوا له نوابًا أئمة مطلقين يقومون نيابة عنه بزعامة الطائفة ، وبذلك انتقل المركز من القاهرة إلى اليمن ، وكان أول من تقلد هذا المنصب هو الإمام المطلق الداعي الذُّؤيب بن موسى الوادعي الهمداني سنة عشرين وخمسمائة من الهجرة في اليمن ، في عهد أروى بنت أحمد الصُّلَيْحي ، التي أعلنت استقلالها عن الدولة العبيدية في مصر بعد تولي عبد المجيد الدعوة الإسماعيلية.

الانقسام الثاني: استمرت اليمن مركز تعاقب الأئمة المطلقين بعد الذُّؤيب حتى الداعي الثالث والعشرين ، ولكن مع الداعي الرابع والعشرين انتقل المركز للهند عام ست وأربعين وتسعمائة هجرية ، وبوفاة إمامهم السادس والعشرين عجب شاه سنة سبع وتسعين وتسعمائة هجرية انشطرت الإسماعيلية المستعلية الطيبية إلى شطرين :

الشطر الأول: أيد أهل الهند داود قطب شاه واعتبروه الإمام المطلق السابع والعشرين فسموا بالداودية أو البهرة ، ويتواجد هؤلاء بشكل خاص في الهند واليمن ، وهم السواد الأعظم في هذه الطائفة ، ومركزهم مدينة سورت في إقليم كوجرات ، وفي مدينة بومباي في الهند ، وفي مدينة كراتشي الباكستانية.

الشطر الثاني: أيد أهل اليمن إمامة سليمان بن حسن الهندي وهو ابن أخي زوجة الإمام السادس والعشرين عجب شاه ، واعتبروه الإمام المطلق السابع

والعشرين وسموا بالسُّليمانية أو المَكارمة، ويتواجدون بشكل خاص في منطقة حراز في اليمن، ونجران في السعودية، وبعض مناطق الهند مثل حيدر أباد، وزعامتهم الدينية متواجدة حاليا في نجران، وعقيدة الطائفتين واحدة ولا فرق بينهما.

واعتاد الناس في اليمن على إطلاق لفظ بهرة أيضًا على الإسماعيلية السليمانية المكارمة وهذا خطأ، وهاتان الطائفتان من الإسماعيلية المستعلية لا يزال لهما وجود ظاهر؛ ولذلك سنفصل الحديث عنها أيضا إن شاء الله.

القسم الثاني: وهم أتباع نزار الذي قتله أخوه الأصغر أحمد المستعلي بأن بنى عليه جدارًا ففر أتباعه إلى الشام ثم تمركزوا في جبال إيران، وأقاموا دولة كانت قلعة الموت عاصمتها لمدة مائة وسبع وسبعين سنة، وتوسعوا حتى وصلوا سوريا والعراق وقد انقسموا قسمين قاسِمِيّة ومُؤْمَنِيَّة، وبعد القضاء على قلعتهم الموت سنة أربع وخمسين وستمائة من الهجرة وإضعاف شوكتهم في سوريا سنة ستمائة وثمان وخمسين من الهجرية تفرقوا في البلاد القريبة، وكانت أذربيجان من أهمها، ولم يكن لهم تجمع حتى ظهر حسن علي شاه سنة ألف وثمانمائة وأربع إلى سنة ألف وثمانمائة واحد وثمانين من البلاد في إيران، وصارت لهم شوكة، وعادت الحياة للإسماعيلية النزارية القاسمية باسم الأغاخانية، والتي يمكن تفصيل القول عنها بعد إن شاء الله.

أما البُهرة فهم تيار إسماعيلي مستعلٍ الذي أيد الداعي داود قطب شاه واعتبره الإمام المطلق السابع والعشرين، وذلك حين وقع النزاع بينهم عام سبع وسبعين وتسعمائة من الهجرة، فانقسمت إلى بهرة وسُلمانية.

وسبب التسمية هناك عدة آراء حول تسميتهم بالبهرة، أرجحها أنها تعني التجارة باللغة الجوجارتية الهندية؛ حيث إن الإسماعيلية وصلت تلك البلاد بواسطة تجار اليمن الإسماعيليين، أما انتشارها وواقعها الحالي فهي انتشر أتباع طائفة البهرة بشكل خاص في الهند واليمن، وفي باكستان وتنزانيا ومدغشقر وكينيا وبعض دول الخليج، وسبب ذلك أن اليمن هو الموطن الأول لهذه الفرقة بعد زوال مهدهم، وهي الدولة الفاطمية في مصر؛ ولذلك يحاولون الرجوع لها وإعادة دعوتهم فيها، والهند هي الموطن الثاني لهذه الفرقة بعد انتقال المركز والقيادة لها.

وهذا الانتقال تم بواسطة الطلبة الهنود الذين حضروا للتعلم في اليمن وأصبحوا دُعاة للإمام فنقلوا المركز للهند، فاليمن كانت مقرا للدعوة الإسماعيلية، قد وصلت إليها هذه الدعوة مبكرة، حيث استطاع الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح إقناع أبي القاسم الحسن بن رستم بن حوشب وعلي بن الفضل اليماني بالدعوة للإسماعيلية، وبعد ذلك أرسلهما لليمن فوصلاها سنة مائتين وثمان وستين من الهجرة، وقد كانت مهمتهم ناجحة، فبعد سنوات من الدعوة السرية تمكنا من إقامة دولة الإسماعيلية في اليمن سنة مائتين وثلاث وتسعين من الهجرة، لكن لم تلبث أن هُدمت هذه الدولة بسبب طمع علي بن الفضل في الرئاسة لنفسه، فتنازع مع قائده ابن حوشب حتى ضعفت شوكته، وأعلن حقيقة مذهبهم من إباحة المحرمات والانخلاع من عقائد الإسلام، حتى قُتل سنة ثلاثمائة وثلاث هجرية، وتوفي بعده بقليل ابن حوشب، وقد ضعفت دولتهن بعد ذلك وانتهت، وهذا حال الدعوات الزائفة دائمًا.

ومرة أخرى عادت اليمن للدعوة الإسماعيلية المستورة، ودخلت الدعوة الإسماعيلية في اليمن مرحلة الستر حتى ظهرت دولة الإسماعيليين الثانية في اليمن على يد علي بن محمد بن الصُّلَيْحي سنة أربعمائة وتسع وعشرين من الهجرة، والذي كان من بقاء دعوة ابن حوشب وكان مواليًا للدولة الفاطمية، ولما قُتل الآمر الخليفة الفاطمي سنة خمس وأربع وعشرين من الهجرة أصبحت اليمن هي المركز للدعوة الإسماعيلية؛ حيث لم يترك ذريةً فتولى الحكم عمه عبد المجيد، لكن بعض الفاطميين لم يقبل بعبد المجيد، وزعموا أن للآمر ولدًا هو الطيب، وقد أرسلوه لليمن هربا من عمه حافظ عبد المجيد، وأصبحت السيدة أروى الصُّلَيْحي نائبة عن الإمام، وهذا الإمام الطيب ليس له وجود أصلًا، وهذا قول أكثر المؤرخين؛ ولذلك ادعى القائلون بوجوده أنه اختار الدخول في كهف الستر، وهكذا عادت الإسماعيلية للستر.

أما من تَابع عبد المجيد في مصر فقد قضى عليهم نهائيًّا صلاح الدين سنة خمسمائة وسبع وستين من الهجرة، واستمر حكم الإسماعيلية لليمن بواسطة الصُّلَيحيين حتى سنة خمسمائة وثلاث وستين من الهجرة حيث انتهى حكمهم فعادوا للستر والدعوة السرية، وظل اليمن مركزهم حتى عام تسعمائة وست وأربعين من الهجرة حيث انتقلت للهند، وتختلف التقديرات في عدد البهرة اليوم في اليمن؛ وذلك لعدم وجود إحصاءات دقيقة، وفي بيان لمكتب العلاقات العامة لجالية البهرة في الكويت أن عدد أتباع السلطان في اليمن خمسة عشر ألفًا، ويتمركزون حاليًا في منطقة حَراز على بعد مائة عشرة كيلو متر من العاصمة صنعاء، ولهم تجمعات في مناطق أخرى، مثل صنعاء وعدن وتعس والحُدَيْدة

وغيرها، ولهم في بعض المدن مساجد مستقلة وسرية، كما أن لهم مدارس لنشر دعوتهم في منطقة مناخة ومنطقة الحطيب والمدرسة البهرية في صنعاء، والتي لها فروع، وهم يعملون في التجارة وأصحاب ثراء، ولزعيمهم الحالي الدكتور محمد برهان الدين بيت في قرية الحُطَيْب في منطقة حراز، وقد تعرض لقذيفة بازوكا عام ألف وأربعمائة وست وعشرين من الهجرة.

وللبُهرة في اليمن علاقة وطيدة مع الحزب الاشتراكي اليمني بسبب توافقهما الفكري في النهج الاشتراكي والثوري؛ ولذلك تُعد صحيفة الثوري التابعة للحزب الاشتراكي ناطقة باسم الإسماعيلية، كما أن لهم تنظيمات غير رسمية وهي حزب الفيض الحاكمي والجناح العسكري شباب أهل الجنة، وقد كان لهذا الحزب صلات وثيقة بإسرائيل وزيارات فضحها الشيخ غالب علي محسن وهو أحد زعمائهم بعد أن تبرأ منهم، ولكون قيادة البهرة قيادة هندية دكتاتورية من جهة وشركية من جهة أخرى لتأثرها بأصولها الوثنية وبيئاتها الهندوسية.

انخلع بعض اليمنيين من البهرة وتحولوا لمذهب الزيدية عام ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة، لكنهم عادوا تحت سلطة السلطان لعدم مساعدتهم من أحد، وبسبب الشرك وغيره فَصَل عنه نائبَ السلطان في اليمن حسن الظهرة وغالب علي محسن؛ ولذلك أصبحت القيادة لنواب هنود يرسلهم السلطان من الهند، وهم لهم شوكة وتغلغل في بعض المسئولين، مما يساعدهم على تنفيذ مقاصدهم من بناء الأضرحة والمزارات على رءوس الجبال والمسيرات الضخمة في مناسبات وزيارات لليمن مع سلطانهم؛ حيث يأتي البهرة إلى اليمن مع الألف في

مناسبات محددة ويحاولون صبغ أتباعهم اليمنيين بالصبغة الهندية في اللباس والكلام، مع تجنيسهم لأعداد كبيرة بالجنسية اليمنية، وإرسال أولاد اليمنين للهند للتعلم والزواج من الهنديات، ومسئولهم الحالي يدعى سلمان رشيد، وهو نائب السلطان في اليمن منذ عام ألف وتسعمائة تسعة وتسعين، وهو من مواليد الهند عام ألف وتسعمائة ثلاث وأربعين، وقد تتلمذ على يد محمد برهان الدين سلطان البهرة في الهند وتخرج على يديه، ومكث في الولايات المتحدة الأمريكية ثلاثين عامًا، ويحمل شهادة في الهندسة من جامعاتها، وقد نجح بعض أتباعهم في الانتخابات البلدية في صنعاء وحَراز، ولديهم تطلع للانتخابات البرلمانية.

هذه فكرة عن دولة الإسماعيلية متمثلة في دولة القرامطة والعُبيديين والصُّلَيْحيين في اليمن وبدايتهم ومتى انقرضوا، أما في الهند وهي المقر الرئيسي الحالي للطائفة، وتحديدًا مدينة بومباي؛ حيث كان يقيم زعيمها محمد برهان الدين وأسرته قبل استقراره في لندن، فقد انتقلت زعامة البهرة من اليمن إلى الهند عام تسعمائة وست وأربعين هجرية بعد أن ضعف شأنها في اليمن، حيث انتقلت من الداعي محمد عز الدين في اليمن إلى أول داعٍ هندي وهو يوسف نجم الدين، وهو الداعي رقم أربعة وعشرين في سلسلة دعاة البهرة الداوودية، ومع الزمن أصبحت نيابة الإمام المستتر الطيب بن الآمر كما يزعمون حكرًا على أبناء عائلة تارمل الوثنية، ثم ما لبثوا أن ادعوا لأنفسهم العصمة وأنهم الناطقون عن الله.

وصول الدعوة الإسماعيلية إلى الهند

والدعوة الإسماعيلية وصلت الهند قبل أن تصبح مركزًا لها، وقد وصل الإسلام الهند سنة واحد وتسعين من الهجرة على يد محمد بن القاسم الثقفي، والتشيع وصلها مع عبد الله العلوي المتوفى سنة مائة وست وخمسين من الهجرة، ثم نزح للهند مجموعات من قرامطة البحرين وفارس في فترات مختلفة، وفي مطلع القرن الرابع الهجري وصل الهند دعاة إسماعيليون، واستقروا في السند، وتمكن جيلم بن شيبان الإسماعيلي من تكوين أول دولة لهم في الهند، والتي قضى عليها السلطان محمود سبكتكين الغزنوي عام أربعمائة وواحد هجرية، وهربت فلول هذه الدولة لمنطقة كجرات، وذلك لوجود مجموعات إسماعيلية فيها وصلتها من اليمن ومصر.

وهناك أكثر من قصة لوصول هذه المجموعات للهند، أرجحها أنها تكونت بسبب نشاط التجار اليمنيين الإسماعيليين بداية، وتزايدت بعد سقوط دولتهم في مصر، وتزايد وجودهم أكثر بعد سقوط دولتهم في اليمن الصُّلَيْحية، ثم كان التمركز بسبب استيلاء الزيود على أماكنهم، فشعروا بضرورة نقل مركز الدعوة لمكان آمن فاختاروا كجرات، وذلك عام تسعمائة وست وأربعين هجرية، فاستدعوا أربعة من الهنود لتعلم أصول المذهب، وأصبحوا فيما بعد الدعاة له.

هؤلاء الدعاة هم من نسل ملك هندي يدعى كارمن، من عبدة الأوثان خاصة الفيل، لكنهم ادعوا الانتساب لآل البيت، ويصرحون أن الإمامة محصورة في ذرية كارمن، وادعوا العصمة وأنهم الناطقون باسم الله، وكلامهم مقدم على

القرآن والسنة، وقد مزجوا كثيرًا من عقائد الهندوس وعبادتهم في مذهبهم، وقد انشق عنهم بعض المجموعات الصغيرة وهي العلوية، وهي التي يرأسها علي بن إبراهيم بن آدم المتوفى سنة أربع وعشرين وستمائة وألف من الميلاد، حفيد الداعي الثامن والعشرين.

والناجُوشيَّة كانوا من البراهمة ثم دخلوا الإسماعيلية، ويحرمون أكل اللحم، ويرون أن شريعة الإسلام انتهت، وكانوا في نهاية القرن الثامن عشر، ويتواجدون في ولاية بارودا بالهند، والهبتية أتباع هبة الله بن إسماعيل بن عبد الرسول المتوفى نهاية القرن الثامن عشر، ويقيمون في منطقة أوجاف بالهند، فرقة مهدي باغ وتسمى نكبورية، وهم أتباع ملا حسين الذي ادعى أنه حجة من الإمام المستور، وذلك عام أربعة عشر وثلاثمائة وألف من الهجرة، ومركزهم نكبور، ولهم تواجد في بمبا وأجين. فرقة هجومية والجعفرية، وهؤلاء عادوا لمذهب أهل السنة وتركوا الإسماعيلية، وذلك زمن مظفر شاه سنة ألف وأربعمائة وسبعة ميلادية، إلى ألف وأربعمائة وإحدى عشرة ميلادية.

والسليمانية وهي أكبر الفرق المنشقة عنهم هم الذين تابعوا سليمان بن الحسن الهندي بعد داود بن عجب شاه، وهي فرقة كبيرة، والبُهرة يتواجدون في الهند في بومباي، وفي كوجرات ومهارشترا وسورت وراجسثران، وفي خمسمائة مدينة وقرية، وفي أوائل التسعينات من القرن الماضي كان عددهم في الهند يقدر بحوالي مليوني نسمة، ولهم هناك أكثر من مائة مسجد، ومن أهم مؤسساتهم الجامعة السيفيّة الذي أسسها الداعي الثالث والأربعون عبد اللطيف سيف الدين سنة عشرين ومائتين وألف من الهجرة، وعدد طلابها خمسمائة طالب، وقد جددها

سلطانهم المعاصر محمد برهان الدين لبناء الحي الجامعي والدوائر العلمية والإدارية الخاصة بها، وأصبحت ذات ثلاث مراحل: الثقافية وهي أربع سنوات، الجامعية وهي خمس سنوات، التخصصية وهي سنتان، وتشمل التخصصاتِ الشرعيةَ مقسَّمةً على تسع دوائر، والعربية ثلاث دوائر، والعلوم الكونية والإنسانية ثلاث دوائر، كما أنشأ فرعًا لها في مدينة كراتشي بباكستان، التي يتواجد فيها منهم ثلاثمائة ألف بُهريّ.

وأما مصر فمع تولي سلطانهم الحادي والخمسين طاهر سيف الدين سنة ألف وتسعمائة وخمس عشرة ميلادية بدأ التخطيط للدعوة والانتشار، فقد سافر إلى مصر عام ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين من الميلاد، وقال مبينًا هدف تلك الزيارة: "إنني جئت إلى القاهرة لأجدد فيما بيننا وبينكم تلك الروابط الأصيلة القديمة" وأهدته الحكومة المصرية تسعة وثلاثين قطعة أثرية فاطمية، والتقى مع جمال عبد الناصر سنة ألف وتسعمائة وستين من الميلاد في الهند، وأرسل قُببًا ذهبية لقبور آل البيت المزعومة في مصر، مثل السيدة زينب، والإمام الحسين، كما أوفد ابنه محمد برهان الدين السلطان الحالي إلى القاهرة سنة ألف وتسعمائة وست وستين من الميلاد لتفقُّد وضع القبب فكرّمته الحكومة ومنحته جامعة القاهرة الدكتوراه الفخرية.

وفي زمن السادات سنة ألف وتسعمائة وتسع وسبعين من الميلاد جاءوا للقاهرة وطلبوا ترميم جامع الحاكم بأمر الله وإدارته وإنشاء مؤسسة جامعية خاصة بهم، فسُمحَ لهم بترميم الجامع والذي شهد افتتاحه الرئيس السادات سنة ألف

وتسعمائة وثمانين ميلادية، وقد تجاوزوا في الترميم فزادوا في مساحة الجامع واعتدَوا على المقبرة المجاورة، وأضافوا للجامع شققًا للسكن خاصة بهم، تُفتَح على صحن المسجد، وقد بالغوا في التزيين لإظهار قوتهم وثرائهم واستمالة ضعفاء النفوس لمذهبهم، وقد اشتروا أغلب المنازل والمحلات المحيطة بالجامع بأسعار مضاعفة؛ لتكون المنطقة خاصة بهم، ولم يُسمحْ لهم بإدارة المسجد بشكل رسمي، لكنهم هم القائمون على إدارته في الحقيقة لغض الطرف عنهم، لكنهم لا يشاركون المسلمين في الصلاة، بل ينعزلون عنهم في طرق المسجد، كما أن بعض عائلاتهم تقيم في المسجد؛ لذلك تشاهد نساءهم تختلط بالرجال في الصلاة في رمضان يحضرون أشهر المقرئين لصلاة التراويح، ويضعون السماعات على أسوار الجامع لكسب ود الناس، ولهم اجتماعات ليلة الجمعة في داخل الجامع عند البئر والقبلة، ولم تسمح لهم الحكومة بمؤسسة تعليمية فتوجهوا للدخول في الأزهر بكثافة، وبعد مقتل السادات شُدّد عليهم.

ولكن من عدة سنوات يبدو أنهم قد تمكنوا من الحصول على موافقة المسئولين لإقامة نشاطاتهم، وقد اجتمع سلطانهم محمد برهان الدين مع الرئيس مبارك في شرم الشيخ سنة ألفين وخمس من الميلاد، ويقدر عددهم في مصر بعشرين ألف شخص يعملون في التجارة غالبًا، وهم من الأثرياء وأصحاب المصانع، ويقطنون أحياء الحسين والجمالية والمهندسين.

أما في دول الخليج فالوجود فيها طارئ، وهو بسبب تواجد الهنود فيها للعمل، مثل الكويت والبحرين وإمارة دبي ومدينة عدن اليمنية، أو لأهميتها الدينية كالعراق، وأما في العراق فهم في مدينة كربلاء أقاموا لهم هناك وكيلًا عن داعي

الدعاء يعرف باسم عامل صاحب أو عامل يختص بشئون حُسَينياتهم في كربلاء والنجف، وهو المعني بالدعوة إلى المذهب، وقد حالوا ترميم بعض أضرحة أئمة الشيعة كما برز ذلك عند محاولتهم تشييد ضريح أبي الفضل العباس في عهد المَرجع الشيعي محسن الحكيم، إلا أن محاولتهم هذه اصطُدمت برفض المرجع الحكيم، وقد زار البهرة الحالي كربلاء سنة ألف وتسعمائة وتسعين من الميلاد مع عشرة آلاف من طائفته، وأما في البحرين فيُقدّر عدد أفراد البهرة في البحرين بسبعمائة شخص، ولهم جمعية تُعرف بجمعية البهرة الإسلامية، تأسست سنة ألف وتسعمائة وخمس وثمانين من الميلاد، وأُعيد تسجيلها في مطلع التسعينات، ومقرها في مسجد البهرة بالعاصمة المنامة، وقد وضع سلطان البهرة سنة ألف وتسعمائة وثمان وسبعين حجر الأساس للمسجد أثناء مروره بالبحرين، وبجوار المسجد يوجد مقبرة خاصة به.

الكويت: أغلب البهرة في الكويت من الجالية الهندية يبلغ عددهم اثنى عشر ألف نسمة يعملون بالتجارة غالبًا، وقد زار سلطانهم محمد بهران الكويت ثلاث مرات، أولاها في سنة أربع وسبعين وتسعين وألف من الميلاد، والثانية سنة خمس وسبعين وتسعمائة وألف من الميلاد، والثالثة سنة أربع وألفين من الميلاد، وكان ضيفًا على الأمير، وقد استُقبل بحفاوة وتوجه على أثرها إلى الاحتفال الذي أُقيم له من أتباعه ورعيته في النادي العربي في المنصورية، وحضر الاحتفال على ما يزيد على عشرين ألف بهري، ولهم الآن مركز يسمى المركز البهراني في المنطقة العارضية يقيمون فيهم احتفالاتهم، والتي حضر إحداها حفيد سلطان البهرة طه سيف الدين الذي أتى خصيصًا من الهند لها، ولهم مكتب علاقات

عامة وممثل عن السلطان في الكويت، وهو شبير أصغر النعماني، ويزورهم باستمرار أولاد وأحفاد السلطان.

وأما في الإمارات فيبلغ عددهم ستة آلاف نسمة، وكانوا قد أقاموا احتفالًا عالميًّا سنة ألفين وأربع من الميلاد، حضره نحو ثلاثين ألفًا من البهرة من جميع أنحاء العالم بمناسبة يوم عاشوراء، وذلك بحضور السلطان محمد برهان، وحُجزت لهم جميع الفنادق في دولة الإمارات، كان ضيفا رسميا على دبي، وذلك بدعوة من ولي العهد محمد بن راشد.

ولهم في مكة والمدينة مراكز غير رسمية، وُضِعَ عناوينها وهاتفها على موقعهم في الإنترنت، وفي فلسطين هناك علاقة وثيقة بينهم وبين إسرائيل، شملت زيارات لإسرائيل منذ بداية الثمانينات للحزب الفيضي في اليمن، وقد التقى سلطان البهرة بعرفات في القاهرة أكثر من مرة، رغم عدم وجود جالية منهم في فلسطين إلا أنهم يترددون على قطاع غزة بحجة وجودهم.

ففي عام ألف وتسعمائة وأربع وتسعين طلبت طائفة البهرة من السلطة الفسلطينية السماح لها بتطوير ضريح هاشم بن عبد مناف في مدينة غزة، وأنفقت لهذا الغرض نحو ثلاثين ألف دولار بين عامي ألف وتسعمائة وتسع وتسعين إلى عام ألفين من الميلاد، خلال هذه الفترة كانت تأتي وفود حجيج البهرة تترا عبر رحلات سياحية تضم الرجال والنساء والأطفال، وتقوم بممارسة طقوس وعبادات غريبة، منها: الدوران حول القبر، والتمسح بالجدران، وإيقاد الشموع، وحين اكتمل بناء الضريح أقام البهرة حفل افتتاحٍ حضره سلطانهم،

وفَّرت لهم السلطة وقتها حراسة خاصة، وأقام البهرة بهذه المناسبة حفل غداء، وقام السلطان بطلاء أبواب الضريح، وحصل على مفاتيحه كي يدخلوه وقت ما يشاءون، والبهرة يعتبرون المقام مقدسًا لديهم، بالإضافة إلى المسجد الإبراهيمي، والمسجد الأقصى.

وللبهرة تواجد في باكستان وإفريقيا وغيرها من البلاد، لكن ليس عندنا الآن معلومات مفصلة عن ذلك.

(الإسماعيلية (٢))

عناصر الدرس

أهـــم عقائـــد الإسماعيليـــة

أولًا: أنهم ينكرون صفات الله ﷻ وأسمائه؛ لأن الله ﷻ في نظرهم فوق متناول العقل، فهو لا موجود ولا غير موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، وليس بالقديم وليس بالمحدث؛ فالقديم أمره وكلمته، والحديث خلْقه وفطرته، وقد جعلوا صفات الله للعقل الأول، فجعلوا مع الله آلهة أخرى.

ثانيًا: يرون النبوة مكتسبة، وأن جبريل بشر وليس مَلكا، وأن النبي ﷺ كان يتعلم من خمسة، هم: أبيّ بن كعب، وزيد بن عمر، وعمرو بن نفيل، وزيد بن أسامة، وبحيرة الراهب.

ثالثًا: ضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه، بل هو ركن في الدين، ويكون من نسل محمد بن إسماعيل، على أن يكون الابن الأكبر، وقد حدث خروج على هذه القاعدة عدة مرات.

رابعًا: من مات ولم يعرف إمام زمانه ولم يكن في عنقه بيعة له مات ميتة جاهلية.

خامسًا: الإمام هو محور الدعوة الإسماعيلية، ومحور العقيدة يدور حول شخصيته، ويضفون على الإمام صفات ترفعه إلى ما يشبه الإله، ويخصونه بعلم الباطن ويدفعون له خُمس ما يكسِبون.

سادسًا: يؤمنون بالتَّقِيَّة والسرية ويطبقونها في الفترات التي تشتد عليهم فيها الأحداث.

سابعًا: الأرض لا تخلو من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور، فإن كان الإمام ظاهرًا جاز أن يكون حجته مستورًا، وإن كان الإمام مستورًا فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين.

ثامنًا: يقولون بالتناسخ، والإمام عندهم وارث الأنبياء جميعًا، ووارث كل من سبقه من الأئمة.

ولهم عقائد باطلة في الجنة والنار والمعاد يُفهم منها إنكارهم للدار الآخرة، كذلك في دينهم الإباحة المطلقة، ورفع الحجاب، واستباحة المحذورات واستحلالها، وإنكار الشرائع، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم.

ومن معتقداتهم التي انبثقت عنهم فيما يسمون بالبُهرة، وأن ولاية الإمام وطاعته والانقياد له هو ركن الإسلام الأول، كما قال زعيم البُهرة الحالي محمد برهان الدين في رسالة وجهها إلى البهرة الموجودين في اليمن وأسماها (هداية الدين المضيء) وعليكم بالمحافظة على دعائم الإسلام السبع، فقد وضعها صاحب الشريعة لسعادة داريكم خير وضع، وهي الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد؛ فالإمامة هي المحور الذي تدور عليه دائرة الفرائض التكليفية عند الحركات الباطنية جميعها بصفة عامة والإسماعيلية بصفة خاصة، وهؤلاء البهرة بصفة أخص.

وكذلك يعطلون –أي: البهرة- أسماء الله وصفاته، ويقولون: لا يشار إليه ولا يوصف به صفة، بحجة أنه فوق متناول العقل سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا، فهم يقولون: لا يدخل تحت اسم ولا صفة، ولا يقال عليه حي ولا قادر ولا عالم ولا عاقل ولا كامل ولا تام ولا فاعل، وفي مقابل إثبات العجز لله تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا يثبتون صفات الربوبية لأئمتهم؛ حيث يقول داعيهم طاهر سيف الدين في ابنه برهان الدين:

وأرسلت برهان الهدى ابني زائرا ❖ لرب المعالي حاتم الخير مشهدا

ويقول في حاتم أيضًا:

أيا حاتم الخيرات أنت ملاذنا ❖ وملجأنا في يومنا وكذا غدا

ومن عقائدهم صرف أركان الإسلام وفرائضه عن المراد منها، فالصلاة عندهم هي الاتصال بالإمام، أي: لا صلاة لمن شكّ في إمام عصره، وزعموا أن جعفر الصادق قال: "أما إقامة الصلاة فهي معرفتنا وإقامتنا" معرفتنا، أي: معرفة الأئمة، ويفسر جعفر بن منصور اليمني الإسماعيلي كما في كتاب (الكشف) قول الله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] بقوله: الصلاة، الطاعة لأمير المؤمنين والأئمة الذين اصطفاهم الله من ولده، والزكاة عندهم هي الإقرار بالأئمة من ذريتهم، فقالوا: إن إيتاء الزكاة هو إطاعة الناطق ثم الأساس، والصوم يعني الستر والكتمان.

فيقول الحامدي: "صوم شهر رمضان هو ستر مرتبة القائم، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: من أدرك زمان الإمام فليلزم الصمت"، والحج يفسرونه بالقصد إلى صحبة السادة الأئمة من أهل البيت وقطع النظر عن سواهم، وأما النحر والحلق فإزالة الباطل وإظهار الحق، وتقبيل الحجر الأسود قبول الدعوة من الناطق المؤيد، وحجهم إلى مكة إنما هو من باب التقية، أما الحج الحقيقي فهو إلى روضة طاهر سيف الدين في الهند، ويكون ذلك في شهر رجب أيام التاسع عشر والعشرين والحادي والعشرين، ويزعمون أن المراد بالقرآن هو علي صاحب التأويل، وهو مقترن بمحمد صاحب التنزيل، ويفسرون آية: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١] بإمام مكان إمام، ويفسرون "الصراط" بأنه أمير المؤمنين #، والجنة بالإمام الحجة، وغير ذلك من التأويلات الفاسدة.

ومن مبادئهم عدم إقامة صلاة الجمعة بحجة عدم وجود السلطة الشرعية التي لا تتوافر عندهم إلا في ظلّ الحكم الإسماعيلي، ويخالفون المسلمين في مراسم الدفن، ولا يدفنون موتاهم في مقابر المسلمين، ويتعمدون مخالفتهم في بداية شهر رمضان ونهايته، ويُجرون عقود النكاح دون الرجوع إلى المحاكم الشرعية أو الهيئات المختصة لأنهم لا يعترفون بها، كما أن السلطان يوزع على أمواتهم صكوك الغفران ويسمونها الرسالة، ويتم وضعها في أبط الزراع الأيسر في القبر، ويحرصون على مخالفة المسلمين في دفن موتاهم بتوجيههم نحو بيت المقدس.

كذلك التبرؤ من المجتمع الإسلامي المحيط، فهم يحرصون على عزل طائفتهم عن محيطهم، كما كتب محمد برهان الدين إلى أبناء طائفته في اليمن يقول لهم: "اعلموا يا أبناء دعوتي أن من أخل بشرط من شروط العهد ونقضه فهو ناكث العهد، خارج من سلك الإيمان والعقد، واعلموا أن البراءة من الأعداء وترك مجالسهم ومجالستهم ومواصلتهم في أي حال من الأحوال شرط من شروط التعهد، واعلموا أن مخالفي الحق هم من الإخوان الشياطين".

ومن مبادئهم: عدم الصلاة في مساجد المسلمين، والصلاة عندهم ثلاث مرات فقط في اليوم، ويتوجهون في صلاتهم إلى قبر طاهر سيف الدين في بومباي، والصلاة واجبة عليهم في الأيام العشرة الأولى من محرم دون غيرها، وينبني على هذا أنهم يُكفِّرون من سواهم، ويقتلون كل من يقدرون على قتله ممن يخرج عن عقيدتهم، ففي سنة تسعمائة وست وثمانين هجرية قتلوا جمال الدين محمد الصديق الهندي حين تاب إلى الله ورجع عن عقائدهم الشيطانية، كما قتلوا نورمان أكنز الذي طالب بإصلاح الطائفة إذ تحدثنا عنه قبل ذلك.

وتكثر عندهم الطقوس الشركية من السجود والطوائف بالأموات والأحياء، بعكس السُّليمانية المكارمة، وهؤلاء الإسماعيلية البهرة يتظاهرون بعقيدة تشبه عقيدة الفرق الإسلامية، لكن باطنهم شيء آخر، فهم إذ يصلون فصلاتهم للإمام الإسماعيلي المستور، وإذ يذهبون إلى مكة للحج كبقية المسلمين لكنهم يعتقدون أن الكعبة رمز على الإمام، وشعارهم، وكذا فرقة الحشاشين منهم لا حقيقة في الوجود، وكل أمر مباح، ووسيلتهم لاختيار المنظم والامتناع بسلسلة من القلاع الحصينة، ويعتقدون بأن الله لم يخلق العالم خلقًا مباشرًا، وإن كان ذلك عن طريق العقل الكلي الذي هو محل لجميع الصفات الإلهية، ويسمونه الحجاب، وقد حل العقل الكلي في الإنسان هو النبي وفي الأئمة المستورين الذين يخلفونه، فمحمد هو الناطق وعلي هو الأساس الذي يفسر ويؤول.

ومن الإسماعيلية المكارمة، وعقائد المكارمة هي عقائد الإسماعيلية نفسها، وكذا يقال هي عقائد الإسماعيلية نفسها، وهي عقيدة باطنية تزعم أن للإسلام ظاهرًا وباطنًا، وبذلك صرفوا آيات الله عن مراده منها، فسروها حسب أهوائهم وبما يناسب مذهبهم، ومن أهم عقائدهم التي صاغوها في كتبهم عقيدتهم في الله، ينكر بعض ملاحدتهم وجود الله ﷻ زاعمين أن ذلك يتطلب موجودًا أوجده، يقول داعيتهم ابن الوليد: اعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه، لا ينبغي أن يقال: إن الباري ذات؛ لأن الذات حامل الصفات، ولا يقال: إنه موجود؛ لأن الموجود يقتضي موجودًا أوجده، ولو أنصف لقال مُوجدًا، جعلوا بعض مخلوقات الله أربابًا من دون الله، كما يتجلى ذلك في عقائدهم المعروفة بالعقول العشرة، وهم يعتقدون أن للكواكب تأثيرًا في خلق الكون، وخلق الإنسان وسعادته وتذكيره وتأنيثه.

كما يقول داعيتهم حميد الدين الكرماني في (راحة العقل): "إن موجودات هذا العالم كانت عن طريق تزاوج الأفلاك مع الأركان الأربعة، النار والهواء والماء والأرض، فحصل من بينها المواليد التي هي النبات والمعادن والحيوانات والإنسان، ثم تدخلت أيضًا في جعل بعض مواليد الإنسان إناثًا وبعضهم ذكورًا"، وينكرون أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، فقد قال الكرماني في كتابه (راحة العقل) أيضًا: "إنه تعالى لا يُنال بصفة من الصفات"، وجاء في كتاب السليمانية ما يؤيد أنهم على آثار أسلافهم سائرون، فقد جاء في صحيفة الصلاة للسيد نصر قول صاحبها: "فسبحان المتجالل عن كل صفة وسمة"، واعتبروا أن الكفر هو الكفر بأئمتهم لا الكفر بالله.

عقيدتهم في القرآن الكريم: فهي إنكار أن القرآن كلام الله تعالى، فهم ينفون الصفات عن الله نفيا قاطعًا؛ حيث يقول الداعي لجعفر بن منصور اليمن: "إن الله -جل ثناؤه- منزه عن الخطاب والكلام (سرائر أسرار النطقاء) وتحريفهم القرآن الكريم بالتأويل الباطني الذي يعتبر ركيزة من ركائز معتقدهم، كما يقول جعفر بن منصور اليمن في تأويله قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠] يعني بالقرآن عليًّا ﷺ اتخذوه مهجورًا في كتابه (الكشف)، واعتقادهم بأن القرآن محرف ومبدل كما يقول الداعي ابن الوليد، وفعلهم -أي الصحابة } بالكتاب الذي جمعه وألفه علي > عندما أخرجه إليهم، وقولهم له عندنا الكتاب، وتركهم له عندما علموا أنه بين فيه فضائحهم، فدرسوه وأخفوا أثرهم كما فعل قوم موسى (تاج العقائد).

عقيدتهم في الرسل: فيعتقدون أن النبوة مكتسبة وليست اصطفاء من الله، يمكن للإنسان أن يحصل عليها بما أوتي من مؤهلات وذكاء، يقول أحد دعاة المكارمة السليمانية وأشرف النطقاء -عليهم الصلاة والسلام- ناطق دورنا وأبوه إبراهيم ﷺ، وأشرف الأوصياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام أمير المؤمنين علي سلام الله عليه وعليهم، وهم ممن تعلم ورقى في المعارف شيئًا بعد شيء إلى بلوغ غاية النطق، واعتقادهم بنبوة ورسالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأنه أفضل من جميع الرسل، ويقولون بأنه نبي ورسول بعد محمد ﷺ وهو الذي أكمل الدين وأتم الشريعة، وهو الرسول السابع، ويسمونه الناطق السابع، وقائم القيامة وقائم الزمان،

يقول جعفر بن منصور اليمن في كتابه (الكشف): "فدين الله متصل من آدم # على أيدي النطقاء والأئمة -صلوات الله عليهم- حتى يكمل الله دينه وأمره بالناطق السابع المهدي ﷺ محمد بن إسماعيل، وهو الذي إليه دعت الدعاة، وإلى معرفته ندبت الرسل عليهم السلام، وبشريعته تمت الشرائع، وهو صاحب إظهار الأمر كله".

ومن عقيدتهم الطعن في أنبياء الله ﷻ واتهامهم بارتكاب الزنا والفواحش، أي كما هو عند اليهود يعتقدونه ويقررونه في كتابهم التوراة المحرفة، فيقول جعفر بن منصور اليمن: "إن داود # أُعجب بامرأة أُريا فوقع عليها بالزنا فحملت وولدت له سليمان # ". وذلك في كتابه (سرائر أسرار النطقاء)، ويقول في الكتاب نفسه: "إن ابنة يعقوب # حملت بالزنا". وقد افترى على نبي الله لوط افتراءات تقشعر منها الأبدان، فقد ادعى جعفر هذا أن لوطًا # زنا بابنتيه، كأنهم في ذلك يهود والعياذ بالله.

عقيدتهم في اليوم الآخر: فهم ينكرون البعث بمعناه المتعارف عليه بين المسلمين، ويزعمون أن البعث له معنيان: بعث إيراد وبعث إصدار، بمعنى المبدأ والمعاد، فيقول داعيهم الأكبر السجستاني في كتابه (الافتخار): إن اعتقاد عامة المسلمين بالقيامة وما فيها من أهوال وتغير الأرض والسموات والجبال، وبعث الناس للحساب والجزاء سخف وحمق وجهالة، وإن الاعتقاد الصحيح هو الأبدية، وأن المراد بها القائم.

ويقول جعفر بن منصور اليمن في كتابه (سرائر أسرار النطقاء): إن يوم القيامة هو يوم ظهور القائم، وبهذا ينكرون الجنة والنار والثواب والعقاب ورؤية الله ﷻ، والحوض والميزان والصراط، ولهم في ذلك تأويلات فاسدة من قبيل تفسير داعيتهم ابن هبة الله لقول الله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فقال: "وأعد لهم جنات" يعني: الانضمام إلى الحجج المستجنّة في الحضرة المقدسة "تجري تحتها الأنهار" يعني مواد العلوم بالإلهام إلى دعاة الجزائر، وذلك في كتابه (مزاج التسنيم).

عقيدتهم في القضاء والقدر: فينفي السليمانيون المكارمة القضاء والقدر، ويزعمون أن الله ﷻ لم يخلق أفعال العباد، وليس لله مشيئة ولا إرادة، بل إنها من خلق الإنسان، يقول داعيتهم إبراهيم الحامدي: إن جميع الموجودات خلقًا وأمرًا في بدء الوجود الإبداعي تقتضي قضية الحكمة والعدل أن يكون كله شيئًا واحدًا محضًا وذاتًا واحدة، لا تفاضُل بينهما ولا تفاوت من جهة إبداعية، ولا تمييز لشيء منها على شيء؛ لكون الحكمة توجب ذلك وتقتضيه، وذلك في كتاب (كنز الولد).

عقيدتهم في الملائكة: فيعتقدون أن الملائكة على ثلاث أقسام: من هو في العالم العقلي، ويقولون: هم العقول العشرة، والذين هم في العالم الفلكي، وهم روحانيات زحل والمريخ والزهرة والمشترى، والذين هم في العالم الطبيعي وهم الأئمة والحجج والدعاة وحدودهم.

عقيدتهم في الأئمة والإمامة: فيعتبر الإسماعيليون -ومنهم المكارمة- الإمامة قطب الدين وأساسه والدعامة التي يدور عليها جميع أمور الدين والدنيا، وهي عندهم أهم أركان الإسلام، بل يرون أن الحكمة من خلق البشر طاعة الأئمة وأخذَ العلم والفضائل منهم، يقول القاضي النعمان: "فمن لم يعتقد ولاية إمام زمانه لم ينفعه قول ولا عمل، ولم يصح له ظاهر ولا باطن" وذلك في كتابه (تأويل الإسلام).

وجعلوا الإمامة على درجات ومقامات ومراتب، وجعلوا لكل إمام صلاحيات واختصاصات بعضها أعلى وأشرف من مرتبة الرسالة والنبوة، وهي كالآتي:

الأول الإمام المقيم، الثاني الإمام الناطق، الثالث الإمام الصامت، الرابع الإمام المستقر، الخامس الإمام المستودِع، السادس الإمام المتِم، ويزعمون أن علي بن أبي طالب > هو الخليفة بعد رسول الله ﷺ، وأن القرآن نص على ذلك، ويتهمون الصحابة بأنهم عصوا الله ورسوله باختيارهم لأبي بكر الصديق > خليفةً للمسلمين بعد وفاة النبي ﷺ، ويعتقدون بعصمة أئمتهم، ويضفون عليهم صفات وخصائص الأنبياء، بل وأكبر من ذلك إذ أضفوا على أئمتهم أسماء وصفات لا تليق إلا بالله تعالى؛ يخلص المرء عند قراءة ما يعتقدون في أئمتهم إلى أنهم يؤمنون بتأليه الأئمة من دون الله.

زعم جعفر بن منصور اليمن أن رسول الله ﷺ قال: "لما عرج بي إلى السماء الرابعة رأيت عليًّا جالسًا على كرسي الكرامة والملائكة حافين به يعظمونه ويعبدونه ويسبحونه ويقدسونه، فقلت: حبيبي جبرائيل سبقني أخي علي إلى هذا المقام؟ فقال لي: يا محمد، إن الملائكة شكت إلى الله شدة شوقها إلى علي لعلمها بعلوه ومنزلته، وسألت النظر إليه، فخلق الله هذا الملك على صورة علي وألزمهم طاعته، فكلما اشتاقوا إلى علي نظروا إلى هذا فيعبدونه ويسبحونه ويقدسونه، وذلك قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٨٤]، كذا زعم في كتابه (سرائر أسرار النطقاء)، ويزعمون أن الباقر خامس الأئمة عند الإسماعيلية والشيعة الإثنا عشرية قال: ما قال في الله هو فينا، وما قيل فينا فهو في البلغاء من شيعتنا.

أما عقيدتهم في صحابة رسول الله ﷺ فهي مشابهة لعقائد الشيعة الإثنا عشرية؛ إذ يعتقدون بكفر الصحابة وارتدادهم بعد وفاة النبي ﷺ، وأنهم سلبوا عليا حقه في الخلافة، وهم يدينون الله بسب الصحابة وبغضهم ولعنهم وتكفيرهم.

هذا ومن الإسماعيلية أيضًا الأغاخانية التي هي من أشهر فرقهم كذلك، وهؤلاء الأغاخانيون كسائر الإسماعيلية، فبنى الإسماعيليون، ومنهم الأغاخانيون، معتقدَهم في الإلوهية على ما أسموه بالتنزيه والتجريد، وانتهوا به إلى تعطيل الله سبحانه عن كل وصف، وتجريده من كل حقيقة، فقالوا: لا هو موجود ولا لا موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، ونفوا أسماءه وصفاته بزعم أنه فوق متناول العقل.

وصرفوا صفات الله إلى أول مبدع خلقه الله بزعمهم وهو العقل الأول، واعتبروا أن المخلوقات كلها وُجدت بواسطة العقل والنفس؛ حيث يقول مصطفى غالب

وهو من الإسماعيلية المعاصرين في كتابه (الثائر بن الحميري الحسن الصباح)، والعقل الأول أو المبدع الأول في اعتقاد الإسماعيلية هو الذي رمز له القرآن بالقلم في الآية الكريمة: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] وهو الذي أبدع النفس الكلية التي رمز لها القرآن أيضًا باللوح المحفوظ، ووُصفت بجميع الصفات التي للعقل الكلي، إلا أن العقل كان أسبق إلى توحيد الله فسُمي بالسابق، وسميت النفس بالتالي، وبواسطة العقل والنفس وُجدت جميع المبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية من جماد وحيوان ونبات وإنسان، وما في السماوات من نجوم وكواكب.

هذا وفي مقابل تعطيل صفات الله وأسمائه ونفي صفة الخلق عنه يصرف الأغاخانيون صفات الربوبية والألوهية إلى أئمتهم، فقد ادَّعى الأغاخان الثالث أن الإله متجسم فيه شخصيًّا، وأن آلافًا من البشر يعتقدون ذلك. انظر (تاريخ الدعوة الإسماعيلية) لمصطفى غالب.

ويشير الدكتور محمد كامل حسين -رحمه الله- في كتابه طائفة الإسماعيلية إلى حادثة جرت له مع أغاخان الثالث محمد شاه الحسيني تؤكد ادّعاءه للإلوهية، فقد قال له: "لقد أدهشتني بثقافتك وعقليتك، فكيف تسمح لأتباعك أن يدعوك إلهًا؟! فضحك أغاخان طويلًا، وقال للدكتور محمد كامل: "إن القوم في الهند يعبدون البقرة، ألست خيرًا من البقرة".

هذا ويعتقدون أن النبوة مكتسبة وليست هبة من الله، والنبي عندهم عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق بواسطة التالي –أي: العقل والنفس- قوة قدسية صافية، ذلك أن الإنسان تميّز عن سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض الأنوار عليه، وأن النبي يمثّل أعلى درجات هذا الاستعداد، وأن هذه

القوة القدسية الفائضة عن النبي لا تُستكمل في أول حلولها، وأن كمال هذه القوة أن تنتقل من الرسول الناطق إلى الأساس الصامت، أي: الإمام. وهم بهذا الاعتقاد يعتبرون الإمامة مكملة للنبوة واستمراراً لها، واشترطوا على النبي قبل أن يصل إلى مرتبته أن يمر بمرتبة الولي؛ لأنه يجمع في نفسه الولاية والنبوة والرسالة.

وتأكيدًا لهذه الفكرة يقول مصطفى غالب في كتابه (مفاتيح المعرفة): ولما كانت النبوة وقتية زائلة فقد شاءت إرادة المبدع أن تحلّ الإمامة محلها وتتمّها وتكون خالدة إلى الأبد كدينٍ وُجدت لسعادة البشرية، وهي موجودة في كل عصر وزمان، ولا تزال باقية مرآة صادقة لذات الله ترشد وتقود البشرية إلى الصراط المستقيم.

ويعتقدون أن جميع الأنبياء لم يأخذوا التأييد ولم يتصل بهم الوحي إلا عن طريق وُسطاء أسموهم بالحدود الروحانية الخمسة، ويعتقدون أن رسالة النبي محمد ﷺ ليست آخر الرسالات، بل هي حلقة من حلقات تتابُع النبوة التي انتهت بظهور إمامهم السابع محمد بن إسماعيل بن جعفر، كما يزعمون، واعتقدوا أنه فاتح عهد جديد وصاحب شريعة نسخت شريعة محمد ﷺ.

وفيما يتعلق بنسخ الشريعة فإننا نجد كلامًا لا لَبس فيه حول هذا الموضوع يصرح به الأغاخان الرابع كريم، إذ يقول في مقابلة صحفية، وذلك في ١٩٧٩من الميلاد: "ليس القرآن مجموعة قانونية، وأعتقد أن كل مسلم يقول ذلك ما يشار إليه اليوم بالشريعة الإسلامية فهو تصنيف لنظريات وضعها الفقهاء الذين عاشوا بعد نزول القرآن الكريم وبعد عصر النبي ﷺ بفترات طويلة، والشيء المهم في

القرآن مثلًا هو الأحكام الموجهة إلى خير المجتمع، فإذا كانت هذه نقطة البداية فإني أستطيع القول أن أشياء كثيرة تطبق الآن في أجزاء من العالم الإسلامي ينبغي ألا تكون مطبقة، فهذا موقفي؛ لأنني أحب أن أبدأ بالقرآن وليس باجتهادات ظهرت بعد عصر النبي بخمسة أو ستة أجيال". انتهى كلامه.

هذا ويعتقدون أن للإسلام سبعة أركان أو دعائم هي الولاية، والولاية عندهم اعتقاد وصاية علي بن أبي طالب وإمامة الأئمة المنصوص عليهم من ذريته، وفاطمة بنت الرسول ﷺ ووجوب طاعتهم دون غيرهم؛ فالولاية هي الركن الأول، ثم الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، وجعلوا الولاية الركن الأساسي، فيقول عارف تامر وهو أحد أعلام هذه الفرقة في سوريا: إن ولاية الإمام أحد أركان الدين ودعائمه، بل إنها أفضل هذه الدعائم وأقواها؛ حيث لا يستقيم هذا الدين إلا بها، والإمامة هي المركز الذي تدور عليه دائرة الفرائض، فلا يصح القيام بهذه الفرائض إلا بوجوده، والضرورة عندهم تحتم وجوب استمراريتها مدى الدهر، ذلك أن الكون لا يمكن له البقاء لحظة بدون إمام، وأنه لو فقد هذا الإمام ساعة واحدة لفسد الكون وتبدّل. انظر كتاب (الإمامة في الإسلام) لعارف تامر.

وبسبب المفهوم هذا للولاية والإمامة فإنهم أسبغوا على أئمتهم صفات الربوبية والألوهية، وخصوهم بمعرفة الظاهر والباطن، ويؤمن الإسماعيلية -ومنهم الأغاخانيون- أن للإسلام ظاهرًا وباطنًا؛ ولذا فإنهم يؤولون الغيبيات والفرائض وأحكام الدين تأويلات فاسدة، فإنهم يتصورون يوم القيامة تصورًا خاصًّا فهو عندهم عبارة عن قيام النفوس الجزئية المفارِقة للمدركات الحسية

والآلات الجسدية وقيام الشرائع والأديان بظهور صاحب الزمان، أي: الإمام، والبعث يعتبرونه انتباهَ النفوس من غفلتها لتتلقى العلوم والمعارف التي تهذبها وتنقيها من أدران عالم الكون والفساد؛ لتتمكن من اللحاق بالنفس الكلية حيث السعادة والهناء السرمدي. (مفاتيح المعرفة) لمصطفى غالب.

ويؤولون العذاب والعقاب بما تجده النفوس من الآلام والأوجاع والأسقام ومفارقة المؤلفات بهجوم الحوادث والنكبات، وذلك في الرسائل الأربع الإسماعيلية لعارف تامر، وليست الفرائض ببعيدة عندهم عن التأويل الباطني؛ فالصلاة صفة الدَّاعي إلى دار السلام، والزكاة إيصال الحكمة إلى المستحِق، والصوم الإمساك عن كشف النواميس الشرعية من غير أهلها، والحج هو القصد إلى صحبة السادة الأئمة من أهل البيت، والربا يفسرونه بالرغبة في طلب الإكثار، وطلب الحطام بإفشاء الأسرار، والمسكر الحرام ما يصرف العقل عن النوم إلى طلب معرفة الإمام، ومشاهدة أنواره المحيطة بالخاص والعام ،أربع رسائل إسماعيلية لعارف تامر.

ويتوجه بعض الأغاخانين بقبلتهم إلى حيث يقيم إمامهم، وهم لا يقيمون الصلاة مع المسلمين، ولا يسمون أماكن عبادتهم مساجد إنما بيت الجماعة، والصلاة عنده عبارة عن مجموعة من السجدات، وهم يجمعون في صلاتهم بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، والأغاخانيون يعتبرون قِبلة المسلمين الكعبة ليست سوى حجارة، ويقولون: إن الحج إليها في بداية الإسلام كان نظرًا للمستوى العقلي للناس في ذلك الوقت، وبدلًا من ذلك يفضلون الذهاب إلى الأغاخان وزيارته وتقديم الولاء والإجلال له، وبهذا يكون قد أدَّى الأغاخاني

الحجَ بزعمهم، ويقولون مستنكرين حج المسلمين لبيت الله الحرام: ما الأفضل: تحج إلى حجارة لا تعقل، أم تزور إمامًا إنسانًا حيًّا متعلمًا؟!.

معتقدات الإسماعيلية الحشاشين؛ حيث تلتقي معتقداتهم مع معتقدات الإسماعيلية بصفة عامة، من حيث ضرورة وجود إمام معصوم ومنصوص عليه، على أن يكون الابنَ الأكبر للإمام السابق، وكل الذين ظهروا من قادة الحشاشين إنما يُمثّلون الحجة والداعية للإمام المستور، باستثناء الحسن الثاني وابنه، فقد ادعيا بأنهما إمامان من نسل نَزار، وإمام الحشاشين بالشام رشيد الدين سنان بن سليمان قال بفكرة التناسخ فضلًا عن عقائد الإسماعيلية التي يؤمنون بها، كما ادعى أنه يعلم الغيب، والحسن الثاني بن محمد أعلن قيام القيامة وألغى الشريعة وأسقط التكاليف.

والحج لديهم ظاهره إلى البيت الحرام، وحقيقته إلى إمام الزمان ظاهرًا أو مستورًا، وشعارهم في بعض مراحلهم "لا حقيقة في الوجود، وكل أمر مباح" ووسيلتهم الاختيار المنظم، وذلك عن طريق تدريب الأطفال على الطاعة العمياء، والإيمان بكل ما يلقى إليهم، وعندما يشتدّ ساعدهم يدربونهم على أسلحة معروفة لا سيما الخناجر، ويعلمونهم الاختفاء والسرية، وأن يقتل الفداء نفسه قبل أن يبوح بكلمة واحدة من أسراره، وبذلك عد طائفة الفدائيين التي أفزعوا بها العالم الإسلامي آن ذاك، وكانوا يمتنعون في سلسلة من القلاع والحصون فلم يتركوا مكانًا مُشرِفًا إلا أقاموا عليه حصنًا، ولم يتركوا قلعة إلا وضعوا نصب أعينهم احتلالها.

ويقول عنهم المؤرخ كمال الدين بن العديم: "انخرط سكان جبل السماط في الآثام والفسوق، وأسموا أنفسهم المتطهرين، واختلط الرجال والنساء في

حفلات الشراب، ولم يمتنع رجل عن أخته أو ابنته، وارتدت النساء ملابس الرجال، وأعلن أحدهم أن سنانًا هو ربه".

هذه إشارة عن الحشاشين ومعتقداتهم وما هم عليه، وأما عن القرامطة وأهمّ أفكارهم ومعتقداتهم فلقد أسسوا دولة شيوعية تقوم على شيوع الثروات وعدم احترام الملكية الشخصية، ويجعلون الناس شركاء في النساء بحجة استئصال أسباب المباغضة، فلا يجوز لأحد أن يحجب امرأته من إخوانه، مع إلغاء أحكام الإسلام الأساسية كالصوم والصلاة وسائر الفرائض الأخرى، واستخدام العنف ذريعة لتحقيق الأهداف.

ومن هنا فقد حفظ التاريخ لهؤلاء القرامطة أحداثًا لم يُرَ مثلها في تاريخ البشرية فيما نعلم، حيث قام أبو طاهر زعيم دولة القرامطة فاستولى على كثير من بلاد الجزيرة العربية، وبلغ من سطوته أنْ دفعت له حكومة بغداد الإتاوة، ومن أعماله الرهيبة أنه فتك بالحجاج حين رجوعهم من مكة، ونهبوهم وتركوهم ضاحين إلى أن هلكوا في الصحاري، وملكَ الكوفةَ ستة أيام فاستحلها أيام المقتدر سنة مائتين وخمس وتسعين إلى ثلاث مائة وعشرين من الهجرة، وهاجمَ مكة عام ثلاث مائة وتسعة عشر هجرية، وفتك بالحُجاج، وهدم زمزم، وملأ المسجد بالقتلى، ونزع الكسوة عن الكعبة، قلع باب البيت العتيق، واقتلع الحجر الأسود وسرقه إلى الأحساء، وبقي الحجر الأسود هناك عشرين سنة، إلى عام ثلاثمائة وتسع وثلاثين من الهجرة، فكان هذا من معتقداتهم.

كما يعتقدون بإبطال القول بالمعاد والعقاب، وأن الجنة هي النعيم في الدنيا، والعذاب هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد،

وينشرون معتقداتهم وأفكارهم بين العمال والفلاحين والبدو الجفاة وضعاف النفوس، وبين الذين يميلون إلى عاجل اللذات.

وأصبح مجتمع القرامطة بذلك مجتمع ملاحدة وسفاكين يستحلون النفوس والأموال والأعراض، ويقولون بالعصمة، وأنه لا بد في كل زمان من إمام معصوم يؤول الظاهر ويساوي النبي في العصمة، ومن تأويلاتهم: الجنابة مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، والصيام هو الإمساك عن كشف السر، والبعث هو الاهتداء إلى مذهبهم، والنبي عبارة عن شخص فاضت عليه من الإله الأول بقوة التالي قوة قدسية صافية، والقرآن هو تعبير محمد عن المعارف التي فاضت عليه، ومُركّب من جهته، وسمي كلام الله مجازًا، ويفرضون الضرائب على أتباعهم إلى حدّ يكاد يستغرق الدخل الفردي لكل منهم، ويقولون بوجود إلهين قديمين أحدهما علّة لوجود الثاني، وأن السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه، الأول تام والثاني ناقص، والأول لا يوصف بوجود ولا عدم ولا موصوف ولا غير موصوف.

ويدخلون على الناس من جهة ظلم الأمة لعلي بن أبي طالب وقتلهم الحسين، يقولون بالرجعة، وأن عليًّا يعلم الغيب، فإذا تمكنوا من الشخص أطلعوه على حقيقتهم في إسقاط التكاليف الشرعية وهدم الدين، ويعتقدون بأن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالة، ويدعون إلى مذهبهم اليهود والصابئة والنصارى والمجوسية والفلاسفة وأصحاب المجون والملاحدة والدهريين، ويدخلون على كل شخص من الباب الذي يناسبه.

الجذور الفكرية والعقائدية لفرقة الإسماعيلية، وأماكن انتشارها ونفوذها

لقد نشأ مذهب الإسماعيلية في العراق ثم فرّوا إلى فارس وخراسان وما وراء النهر كالهند والتركستان، فخالط مذهبهم آراء من عقائد الفرس القديمة والأفكار الهندية، وقام فيهم ذوو أهواء زادوا في انحرافهم بما انتحلوا من نحل، واتصلوا ببراهمة الهند والفلاسفة الإشراقيين والبوذيين وبقايا ما كان عند الكردانين والفرس من عقائد وأفكار حول الروحانيات والكواكب والنجوم، واختلفوا في مقدار الأخذ من هذه الخرافات، وقد ساعدتهم سرِّيتهم على مزيد من الانحراف، وبعضهم اعتنق مذاهب مزدك وزرادشت في الإباحة والشيوعية كالقرامطة مثلًا، وليست عقائد الإسماعيلية مستمدة من الكتاب والسنة، فقد دخلته الفلسفات، عقائد كثيرة أثرت فيهم وجعلتهم خارجين على الإسلام.

أما انتشارهم ومواقع نفوذهم، فلقد اختلفت الأرض التي سيطر عليها الإسماعيليون مدًّا وجزرًا بحسب تقلبات الظروف والأحوال خلال فترة طويلة من الزمن، وقد غطى نفوذهم العالم الإسلامي، ولكن بتشكيلات متنوعة تختلف باختلاف الزمان والأوقات؛ فالقرامطة سيطروا على الجزيرة وبلاد الشام والعراق وما وراء النهر، والفاطميون أسسوا دولة امتدت من المحيط الأطلسي وشمال أفريقيا، وامتلكوا مصر والشام، وقد اعتنق مذهبهم أهل العراق، وخطب لهم على منابر بغداد سنة خمسمائة وأربعين من الهجرة، ولكن دولتهم زالت على يد صلاح الدين الأيوبي.

والأغاخانية يسكنون نيروبي ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكونغو البلجيكي والهند وباكستان وسوريا، ومركز القيادة الرئيسي لهم مدينة كراتشي، والبهرة

استوطنوا اليمن والهند والسواحل القريبة المجاورة لهذين البلدين، وإسماعيلية الشام امتلكوا قلاعًا وحصونًا في طول البلاد وعرضها، وما تزال لهم بقاء في سلمية والخوابي والقدموس ومصياف وبنياس والكهف.

والحشاشون انتشروا في إيران واستولوا على قلعة الموت جنوب بحر قزوين، واتسع سلطانهم، واستقلوا بإقليم كبير وسط الدولة العباسية السُّنية، وامتلكوا القلاع والحصون، ووصلوا بنياس وحلب والموصل، وولي أحدهم قضاء دمشق أيام الصليبيين، وقد اندحروا أمام هولاكو المغولي، وأما الحشاشون فأصولهم البعيدة شيعية ثم إسماعيلية، وبموت الإمام المستنصِر بالله أخذوا يدعون إلى إمامية ابنه الأكبر نَزار الذي قتل هو وابنه قبل تسلمه الإمامة.

وفكرة تربية الفدائيين نقلها الحسن بن الصباح عن إمامه المستنصر عندما كان في زيارته، وكان القتل والاغتيال وسيلة سياسية ودينية لترسيخ معتقداتهم ونشر الخوف في قلوب أعدائهم، وفكرة التناسخ التي دعا إليها رشيد الدين سنان مأخوذة عن النُّصيرية.

وأما الجذور الفكرية والعقائدية للقرامطة فقد كانت فلسفتهم مادية تسرَّبت إليها تعاليم الملاحدة والمتآمرين من أئمة الفرس، كما تأثروا أيضًا بمبادئ الخوارج الكلامية والسياسية ومذاهب الدهرية، ويتعلقون بمذاهب الملحدين من مثل مزدك وزرادشت، وأساس معتقدهم ترك العبادات والمحذورات، وإقامة مجتمع يقوم على الإباحة والشيوع في النساء والمال، وفكرتهم الجوهرية هي حشد جمهور كبير من الأنصار ودفعهم إلى العمل لغاية يجهلونها.

وانتشارهم ومواقع نفوذهم دامت هذه الحركة قرابة قرن من الزمان، قد بدأت من جنوبي فارس وانتقلت إلى سواد الكوفة، وامتدت إلى الأحساء والبحرين

والبصرة واليمامة، وسيطرت على رقعة واسعة من جنوبي الجزيرة العربية واليمن والصحراء الوسطى وعمان وخراسان، وقد دخلوا مكة واستباحوها، واحتلوا دمشق، ووصلوا إلى حمص والسلمية، وقد مضت جيوشهم إلى مصر وعسكرت في عين شمس قرب القاهرة، ثم انحصر سلطانهم وزالت دولتهم، وسقط آخر معاقلهم في الأحساء والبحرين.

هذا ومما يلاحظ الآن أن هناك كتابات مشبوهة تحاول أن تقدِّم حركة القرامطة وغيرها من حركات الرِّدّة والتخريب في العالم الإسلامي على أنها حركات إصلاحية، وأن قادتها رجال أحرار يُنشدون العدالة والحرية، بل وأخطر من هذا عودة هذه الفرق الضالة في أثواب جديدة ترتدي عباءة الإسلام تنشر أفكارها الضالة، ولها جهود ولها نفوذ ولها مال، ويدعمها الصهاينة ومَن على شاكلتهم من أعداء الإسلام، وقد وجدت آثارها واضحة في بلاد المسلمين، وربما ظلت تتخفى بعض الوقت أيام قوة المسلمين، فلما تنكب المسلمون الطريق وضعفوا وجبنوا إذا بهؤلاء يمكن أن يفصحوا عن أنفسهم، وأن يعلنوا عن بعض مبادئهم، وأن يتستروا بالباقي؛ تقية إلى أن يتمكنوا وأن يستولوا على العالم الإسلامي خاصة السني منهم، من باب تصدير الثورة من داخل إيران إلى خارجها. وهكذا يمتدّ النشاط الباطني، وكذا الشيعي في بلاد العالم الإسلامي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(الشيعة (١))

عناصر الدرس

تعريف الشيعة لغة واصطلاحًا

الشيعة لغة: تُطلق على الفِرقة من الناس، وتقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد، وهي كذلك تعني القوم الذين يجتمعون على الأمر، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيعة، وهم كذلك أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها شِيع، وأشياع جمع الجمع، يقال شايعه كما يقال والاه من الوالي والموالاة، وقد وردت كلمة "شيعة" في كتاب الله سبحانه، في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ٨٣] أي: من أهل دين نوح # ، وفي قوله سبحانه: ﴿ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٥] أي: فاستغاثه الذي من شيعته من بني إسرائيل قوم موسى # ، وقال -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات. هذا وقد غلب هذا الاسم على من تولى عليًّا > وأهلَ بيته -رضوان الله عليهم أجمعين- حتى صار لهم اسمًا خالصًا.

الشيعة اصطلاحًا: لها عدة تعريفات؛ منها: الشيعة هم الذين يشايعون عليًّا > ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ.

أيضًا هم الذين يشايعون عليًّا > على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًّا ووصيةً، إما جليًّا وإما خفيًّا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتَقيّة من عنده. وتعريف الأشعري الأول عام يشمل الشيعة جميعًا، وهو الذي نرجّحه.

تعريف ثالث في عُرف الفقهاء والمتكلمين والباحثين: تُطلق كلمة الشيعة على كل من يزعم أنه يدين بالحب لآل بيت النبي ﷺ وعترته بصفة عامة، ويدين بالولاء للإمام علي > وذريته من بعده بصفة خاصة، وقد غلب هذا الاسم على هذه الفرقة من فرق المسلمين التي تزعم لنفسها التفرّد بحب آل البيت أو عليٍّ وذريته من بعده، حتى صار ذلك اللفظ علمًا خاصًّا على هذه الفرقة، فإذا قيل "زيد من الشيعة" عُرِف أنه من هذه الطائفة، وإذا قيل: "هذا الحكم عند الشيعة أو في مذهب الشيعة" عُرِف عند هذه الطائفة أيضًا. كان هذا عن التعريف لغةً واصطلاحًا.

نشأة الشيعة

لقد تعددت الآراء والمذاهب حول نشأة الشيعة والظروف التي أدَّت إلى ظهورها ورجالها الأُوَل الذين وضعوا نَواتَها وقعّدوا لمبادئها وعملوا على انتشارها؛ بحيث لو تُرك المجال للقلم أن يكتب ذلك لطال الحديث عنه حتى يُفرَد له مؤلفٌ خاص به، ولكن ليس ذلك مقصودَنا من تلك الدراسة التي يراد بها بيان نشأة الشيعة بصورة مبسطة لهذه الفرقة.

واختصارًا للقول في تلك الجزئية نقول: يرى مؤرخو الشيعة أن مذهب التشيع قديم بقِدم الإسلام، وذلك بنزول قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فهذا وحي خاص بآل بيت رسول الله ﷺ وذوي القُربات، وتأكدَ هذا بنزول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة: ٦٧] قال ابن عباس { والبراء بن عازب > : إن هذه الآية نزلت في فضل علي بن أبي طالب > عندما

نزلت أخذ رسول الله ﷺ بيده وقال: ((من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه)) فلقيه عمر بن الخطاب > فقال له: هنيئًا لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، قالوا: ومن هنا يستبين أن الذي بلَّغه رسول الله ﷺ لأمته بأمر من الله تعالى هو موالاة علي وأولوياته بالإمامة، وهذا أظهر معاني التشيع الذي يدل على الدعوة إلى التشيع لأبي الحسن من صاحب الرسالة، كانت تمشي جنبًا إلى جنب مع الدعوة إلى التوحيد والرسالة لمحمد ﷺ. كذا كان زعم الشيعة كما سطره محمد حسين الزيني في كتابه (الشيعة في التاريخ).

كما قال الشيعة أيضًا: "إن نواة التشيع كانت من أصحاب رسول الله ﷺ فهم كانوا أوائل الشيعة" لكنهم يركزون على عدد من الصحابة } على أنهم جاهدوا في نشر التشيع والانتصار للإمام علي > ، ومن هؤلاء الصحابة الذين ينوِّه الشيعة بذكرهم وفضلهم في نشر التشيع مَن يسمونهم بالأركان الأربعة، أي: أركان المذهب الشيعي، وهم: المقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، } .

وبعض المؤرخين لا يتعصبون هذا التعصب المرفوض في نشأة التشيع، ويرون أن التشيع بدأ عند فريق من الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ ووقوع البيعة لخليفة المسلمين أبي بكر > بعد يوم الثقيفة؛ حيث رأى بعض الصحابة أن عليًّا أحق بخلافة رسول الله ﷺ وذلك لقرابته من رسول الله ﷺ، وكأنهم ينظرون إلى الخلافة على أنها ميراث أدبي من حق قرابة رسول الله ﷺ، وكانوا يرون أن

رسول الله ﷺ لو ترك ميراثًا ماديًّا يُورث لكان من نصيب قرابته وآل بيته، وبما أنه لم يترك إلا الخلافة فإن قرابته هم الأحق بها.

وكانوا يتأولون في ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥] وأنه قد بدأت نواة التشيع بعدد ضئيل من الصحابة الذين سبق ذكرهم، وكانوا أربعة ثم ازداد ذلك العدد بعد أن ولي عثمان > الخلافة، ونقموا عليه أمورًا كان أولى ألا يقدُم عليها، كذا زعموا، وأنه بذلك تكونت الشيعة بعد فتنة مقتل عثمان > وخروج البغاة عليه، أو تكونت يوم موقعة الجمل؛ حيث خرج المطالبون بدم أمير المؤمنين عثمان بن عفان > فكانت الشيعة ممثلةً لجيش علي > ، ثم أضحت الشيعة ظاهرة يوم موقعة صفين وخاصة بعد فتنة التحكيم التي أُجبر عليها علي بن أبي طالب > من قِبَل فريق من جيشه، وهو يعلم أنها خدعة، فلما تجلى ذلك لهم، وقبل علي التحكيم وتوقف القتال، أدركوا أنهم السبب في هزيمته وضياع الأمر من يده، ولم يجدوا طريقة يُكفّرون بها عن خطئهم في حق علي > إلا بالدفاع عن حقه في الخلافة ومحاولة إرجاعها إليه.

وبعد مقتل علي > ازداد شعور هؤلاء بالذنب، فانتقلوا بولائهم من علي إلى أبنائه محاولين إرجاع الخلافة إليه، وكانوا يعتقدون أنهم إن لم يستطيعوا أن يُعذروا إلى علي > في ما ارتكبوه من حقه فإنهم مستطيعون أن يُعذروا إلى أبنائه من بعده، كلما مضى الزمان ازدادت العقيدة الشيعية انتشارًا وانثال عليها الناس متأثرين بشعورين: شعور بالذنب، وشعور بالرثاء والعطف، ذلك أن أكثر أئمة الشيعة كانت حياتهم تنتهي بالقتل، وأحيانًا بالصلب والمُثلى، وهذا الفعل كان

يعمق الشعور بالذنب عند أنصارهم، ويخلق الشعور بالرثاء والعطف عند عامة المسلمين، وزاد من حدة ذلك مقتل الحسين > وما تعرض له آل البيت من شدائد أو قسوة أو اضطهاد، ونظرًا لهذا أشفق الناس عليهم.

وبذلك تكونت فرقة الشيعة وكثر أتباعها، ووُضعت لها المبادئ، وقُعّدت القواعد، وحُدّدت لها السمات.

و(تاريخ الفرق الإسلامية) للدكتور محمود محمد مزروعة، يقول: "وبعد هذا العرض المجمل لما قيل هو نشأة الشيعة من علماء الشيعة أنفسهم والمؤرخين لها نقول والحق يقال: إن القول بأن الشيعة نشأت في عهد رسول الله ﷺ إنما هو مجرد زعم، وقول عارٍ من الدليل، وما استُدِل به هناك من قرآن أو سنة إنما هو على غير وجهه وليس في بابه، وليس فيه ما يدل على بوادر ظهور تلك الفرقة، وإنما يدل على منزلة علي > وذكر منقبة من مناقبه، كما أن لغيره من الصحابة مناقبًا، ويدل على مكانة أهل بيت رسول الله ﷺ ووجوب محبتهم بصفة خاصة فوق حب سائر الصحابة } ، وهذا أمر معلوم لكافة المسلمين.

والقول بأن الشيعة نشأت بعد يوم الثقيفة لتقديم بعض الصحابة لعلي > على غيره في أمر الخلافة، فهذا لا يعدو إلا أن يكون رأيًا لبعض الصحابة لم يرتفع لهم صوت، كما وقع بديل عنه في الأنصار ممن طالبوا بمبايعة سعد بن عبادة > أو من قال: "منا أمير ومنكم أمير"؛ فهذه وجهات نظر تبادلها الناس وقت المشورة، وقد اختفت بمبايعة الصديق > .

ومن زعم بأنها نشأت يوم فتنة الدار -أي: مقتل أمير المؤمنين عثمان > - عندما خرج عليه البغاة، فالحق أنها لم تنشأ في هذه الفترة أيضًا؛ لأن خروج

البُغاة من الأنصار الذين حاصروا عثمان في داره لم يكن تشيعًا لعلي أو انتصارًا له، بل إن عليًّا وبنيه كانوا في مناصرة عثمان > ضد البُغاة، حتى عزم الخليفة عليهم بأن يتركوه هم ومن معهم من المهاجرين والأنصار، وكانوا قريبًا من سبعمائة، فيهم عبد الله بن عمر { وعبد الله بن الزبير { والحسن والحسين { ومروان وأبو هريرة { وخلْق من مواليه، ولو تركهم لمنعوه ولكنه قال لهم: أُقسم على مَن لي عليه حق أن يكفَّ يده وأن ينطلق إلى منزله، كما قاله لرفيقه: من أغمد سيفه فهو حر، فبرد القتال من داخل القتال وحمي من خارجه، واشتدّ الأمر حتى كانت الساعة التي تم فيها للشيطان ما سعى إليه وتمناه.

أقول: وكذلك لم تظهر الشيعة بمعناها الاصطلاحي يوم موقعة الجمل ولا صفين، وإن كانت هناك بوادر لظهورها متمثلة في الفتنة التي حرَّض عليها وأشعل نارها عبد الله بن سبأ عليه لعنة الله، الذي بالغ في العداء لأمير المؤمنين عثمان > وكال له الاتهامات بغير بينة ولا برهان، ونشر ذلك في الأقطار والأمصار، وزعم حب آل البيت وادعى لعلي > الوصاية وأنه أولى بالخلافة من كل من سبقوه، كما زعم القول بالرجعة للنبي ﷺ لينتصر لوصيّه علي > ، وأخذ يغالي في حب علي > حتى قال بإلوهيته.

فهذا مما لا شك فيه أنها كانت بوادر نشأة تلك الفرقة، وإن كان لا يمنع من وجود أناس مخلصين كانوا يحبون عليًّا > ولكنهم لا يفضلونه على أبي بكر وعمر { ، وهناك مفضلون وهم الذين يفضلونه على غيره من الصحابة دون انتقاص أحد منهم، وهناك أيضًا الغالون الذين غالوا فيه فرفعوه إلى مرتبة

النبوة، ومنهم من رفعه إلى مرتبة الإلوهية، أنه حل فيه جزء إلهي... إلى غير ذلك من أقوالهم فيه.

والحق يقال: إنه دخل في الشيعة أشتات من الناس، منهم المخلص لمبادئها، وأكثرهم المغرض الذي رأى في انضمامه إليها سبيلًا يصله بغرضه ويقرّبه من هدفه، فقد تشيَّع كثيرون حبًّا في علي وولده، وتشيع آخرون نفاقًا ووصوليًّا، من هؤلاء على الخصوص جمهرة من أسلم من الفرس؛ حيث انضموا إلى الشيعة لأسباب كثيرة، أهمها: مقتهم لبني أمية، وتبرّمهم من تمركز السلطة في أيديهم، وتعصبهم للعرب وإهمالهم شأن الفرس، كذلك رغبة الفرس في إشاعة الفتن وإذاعة القلائل والمحن، كذلك كان الفرس يعيشون تحت سلطة ملك عتيد عمّر مئات السنين، وكانت تحكمهم أسرة ساسان؛ لذا فقد نشئوا على إيمان بأن الملك وراثي، وأن دم الملوك لا يشبهه دم آخر، ومن هنا كانوا يرون أن ولاية الأمة الإسلامية التي كان على رأسها النبي محمد ﷺ هي من نصيب أسرته أو أقربائه.

واندسَّ في صفوف الشيعة كذلك الحاقدون على الإسلام من الفرس والروم والنصارى والمجوس والوثنيين، أصحاب الديانات السابقة على اختلافها، كل هؤلاء اندسُّوا في الشيعة، ثم أخذوا ينفثون سمومهم من تعاليم أديانهم ونحلهم حتى بدت الشيعة في صورة من المسخ العقلي والتلوث الفكري والشتات بين طوائفها التي لا يكاد يجتمع على شيء، أو على مبدأ واحد.

إن الشيعة ليست مذهبًا واحدًا بل مذاهب، وإن شئت قلت بل هي مسخ من الأديان أو الملل والنحل، لخليط من أناس في صورة البشر، تظاهروا بالإسلام وهم يريدون أن ينشروا تعاليم أديانهم ومبادئ فلسفاتهم التي يدينون بها، وفي

ذات الوقت هُمْ بنشر هذه التعاليم والمبادئ يعملون على إضعاف الدين الجديد بإشاعة البلبلة وتفريق الكلمة وهزيمة الأمة وتقتيل بعضهم بعضًا، فتْح أبواب الجدل والمناقشة، خلْق جو من التشكيك في تعاليم الإسلام وبعض مبادئه.

لعل هذا يفسر لنا السر في أن كثيرًا من الطوائف التي انتسبت إلى الشيعة تحولت عن تعاليم الدين إلى فلسفات هوت بها في وهدة الكفر والإشراك، فمَنْ من الباحثين يستطيع أن ينكر تأثر الشيعة بالفرس في تقديسهم للملك والموارثة في الملك، وتشابُه نظام الشيعة مع نظام الفرس واضح، وأن أكثر أهل فارس الآن من الشيعة، والشيعة كانوا من فارس، ومَنْ مِن الباحثين يستطيع أن يُنكر أن أصل الشيعة يرجع إلى ذلك اليهودي الخبيث عبد الله بن سبأ الذي ظهر في أواخر خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان > ، قد جاء من صنعاء إلى المدينة المنورة مُظهرًا إسلامه، مستترًا بتشيعه لعلي بن أبي طالب، زاعمًا حبه وحب آل البيت، وكان من ألد الأعداء لأمير المؤمنين عثمان بن عفان > وولاته.

وفي المدينة نشر أفكاره حول علي بن أبي طالب > وأنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصي، وعلي هو وصي محمد ﷺ وأنه سيرجع إلى الحياة الدنيا كما سيرجع عيسى # ، وقال: "عجبت لمن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد ﷺ!"، ثم قال بنبوة علي، ثم زاد في مزاعمه حتى حكم بإلوهيته وقال له: "أنت أنت أي: أنت الله" وهمّ علي > بقتله، ولكن ابن عباس { نهاه عن ذلك إذ قال له: "إن قتلته اختلف عليك أصحابك، وأنت عازم على الخروج لقتال أهل الشام" فنفاه إلى المدائن.

وبعد مقتل علي > استغلّ حبّ الناس له، وأخذ يروّج أفكاره، وزعم أن عليًّا لم يمت، وإنما رُفع إلى السماء كما رُفع عيسى ابن مريم، سيرجع بعد ذلك، وأن الذي رآه الناس مقتولًا إنما هو الشيطان تمثل في صورته، وقال: كما كذبت اليهود و النصارى في دعواها قتل عيسى، كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل علي؛ حيث رأوا قتيلًا يُشبه عليًّا فظنوه عليًّا، وعلي قد صعد إلى السماء وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه.

وزعم بعض السبئية أن عليًّا في السحاب، وأن الرعد صوته والبرق صوته أو تبسمه، ومن سمع من هؤلاء صوت الرعد قال: عليك السلام يا أمير المؤمنين، وقد رُوي عن عامر بن شرحبيل الشعبي أن ابن سبأ قيل له: إن عليًّا قد قُتِل، قال: "إن جئتمونا بدماغه في سرّته لم نصدق بموته، لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها". وقد ردّ البغدادي على ذلك فقال: "إن كان مقتوله عبد الرحمن بن ملجم شيطانًا تصور للناس في صورة علي فلمَ لعنتم ابن ملجم، وهل مدحتموه؟! فإن قاتل الشيطان محمود على فعله غير مذموم به. وقلنا لهم: كيف يصح دعواكم أن الرعد صوت علي والبرق صوت، وقد كان الرعد مسموعًا والبرق محسوسًا في زمن الفلاسفة قبل زمان الإسلام؛ لهذا ذكروا الرعد والبرق في كتبهم واختلفوا في علّتها، ذكر المستشرق وِلْ هَوْسِنْ أن العقيدة الشيعية نبعت من اليهود أكثر مما نبعت من الفارسية، مستدلًّا بأن مؤسسها عبد الله بن سبأ اليهودي، انظر (تاريخ المذاهب الإسلامية والخطا) للمقريزي، و(الفرق بين الفرق وبين الفرقة الناجية منهم) للبغدادي، (فجر الإسلام) أحمد أمين.

وقد تأثرت الشيعة ببعض الأفكار اليهودية ؛ وذلك لانضمام أناس من اليهود إليها فصبغوها بصبغتهم، كذلك فعلَ أصحاب كل دين ممن انضم إلى الشيعة، قال الشيخ محمد أبو زهرة -رحمه الله-: الشيعة الحاضرون وأكثر المعتدلين ينكرون أن يكون مثل عبد الله بن سبأ منهم ؛ لأنه ليس مسلمًا في نظرهم، فضلًا عن أن يكون شيعيًّا، ونحن لا ننكر أن التشيع يمكن أن يكون بدأ حبًّا ومودة لعلي بن أبي طالب > لمناقبه وأسبقيته في الإسلام ولشخصيته المتميزة من خلال الكريمة، لكنه لم يوجد بهذا الاسم في وقت مبكر، ولا عندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وإنما أثناء خلافة عثمان بن عفان > حدثت أحداث انتهت بقتله > وقد استمر الحب والمودّة لعلي > وبعد ذلك بويع بالخلافة. فلم تكن فرقة الشيعة قد تكونت بعد، ولكنها تكونت بالمعنى الاصطلاحي المعروف بعدما وُجد أن البيت العلوي لم ينزل منزلته اللائقة به، وإنما تعرض للظلم والاضطهاد والتعذيب والقتل، وكان رجال البيت العلوي والمتعاطفون معهم يغذون هذه الفكرة بما استطاعوا من مال وتشجيع، ولكن ذلك وحده لا يساعد على بقاء الأفكار، ومن هنا أخذوا يبحثون عن سند من الدين فلجئوا إلى القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة يستمدون منها في يسر أو تعسف ما يؤيد أفكارهم، فإن لم يجدوا فيهما فإننا وجدنا من لم يتورع منهم أن يؤلف قرآنًا بكتابة سور أو إضافة آيات، أو يكذب أحاديث على رسول الله ﷺ ليكون ذلك لهم سندا في دعواهم وأكاذيبهم وافتراءاتهم.

وآلَ أمر الشيعة إلى شِيع وأشياع، وأفرط الكثير منهم في علي وغالى فيه، منه ما كان حبًّا والحب يُعمي ويُصم، ومنه ما كان تظاهرًا بحب علي، ولكن المعنى في

بطن الشاعر، وكلٌّ يغني على ليلاه، ومن هنا إن لم تكن الشيعة لها أصل يهودي أو فارسي فهي قد تأثرت بأفكار من انضم إليها من أصحاب الأهواء والديانات بما فيهم اليهود والفرس، ولا ينكَر دور ابن سبأ عليه لعنة الله وما له من سبْق، ولا يتجاهل كذلك حق غيره من حَسَنِي النوايا الذين ليست لهم أغراض، إنما تأثروا بما وقع لآل البيت أو كانت لهم عاطفة جياشة نحوهم لم تنضبط بضوابط الدين، ومن قلدوهم بعد ذلك على مر السنين، والله أعلم بالسرائر والإعلان.

أهم معتقدات الشيعة

أهم معتقدات الشيعة هي قضية الإمامة، نعم قضية الإمامة هي أهم قضايا الشيعة على الإطلاق، كما قال الشهرستاني في (الملل والنحل)، وقالوا: "ليست الإمامة قضية مصلحية تُناط باختيار العامة وبتنصيب الإمام بنصبهم له، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين لا يجوز للرسل -عليهم السلام- إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبًا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي والتبري قولًا وفعلًا وعقدًا إلا في حال التّقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك، ولهم في تعدية الإمام كلام وخلاف كثير، وعند كل تعدية وتوقُّف مقالة ومذهب وضبط" انتهى كلام الشهرستاني -رحمه الله- في (الملل والنحل).

هذا واعتقاد الشيعة في الإمام فوق اعتقادهم في الأنبياء والرسل؛ فهم يُثبتون للأئمة كل ما أثبتوه للأنبياء سوى الرسالة، فالإمام مصطفى ومختار من الله تعالى، وهو معصوم عن الكبائر والصغائر والسهو والنسيان منذ ولادته حتى

موته، كما أنه منزّه عن كفر الأبوين، ومن هنا ترى السر في ذهاب الشيعة إلى القول بإيمان أبي طالب؛ فإنهم كما نزهوا الأنبياء عن كفر الوالدين كذلك نزهوا الأئمة عن كفر الوالدين، ولما كان أبو طالب هو والدَ الإمام الأول والوصي الولي علي > قالوا بإيمانه وكفروا من قال فيه غير ذلك.

هذا وقد بدأنا بالكلام في الإمامة مع بداية الكلام عن أهم معتقدات الشيعة؛ لأنها تمثّل عندهم ركن الإسلام الأول وأصل الدين، وهي رئاسة في الدين والدنيا ومنصب إلهي لا يتم باختيار الناس، ولكنه يتم باختيار الله تعالى واصطفاء منه، والإمامة هي وراثة النبوة، والإمام هو وريث النبي، فكما أن النبي يصطفيه الله ليقيم به أمور الدنيا والدين ويرعى به مصالح العباد ويبلغ به دينه وينشر ذلك الدين ويحافظ على تعاليمه من التغيير والتبديل، فكذلك الإمام هو مثيل للنبي في كل ذلك، فالإمام مصطفًى من الله تعالى ولا اختيار للناس فيه، والإمام يتولى أمور الدنيا ويرعى تعاليم الدين وشرائع الله من التغيير والتبديل، ويرعى مصالح المسلمين الشيعة.

والإمام له على الناس حق الطاعة والإذعان دون مراجعة أو اعتراض، والإمام يظل إمامًا طَوال حياته لا يترك منصبه لسبب من الأسباب، ولا يحلّ للمسلمين الخروج على أوامره، أو محاولة خلعه من منصبه مهما كانت الدواعي، والإمام الأول علي بن أبي طالب > منصوص عليه من رسول الله ﷺ ثم نص هو على من يليه، ثم نص من بعده على الذي يليه، وهكذا لا يموت إمام حتى ينص على خليفته في الإمامة، وقد نص الرسول ﷺ على إمامة علي > ثم ظل كل إمام ينص على الذي يليه حتى الإمام الحادي عشر، وقد نص على الإمام الثاني عشر الذي هو الإمام الغائب المختفي الحي الذي سيخرج من كهفه المغيب فيه فيملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلِئت جورا وينتقم للشيعة من كل الذين ظلموهم.

أما مكانة الأئمة وصفاتهم عند الشيعة، فللأئمة عند الشيعة صفات خاصة، لا يشاركهم فيها غيرهم من الناس، وربما ارتفعوا بأئمتهم في هذه الصفات فوق منزلة الأنبياء والمرسلين، وأهم هذه الصفات ثلاث:

الصفة الأولى: صلة الأئمة بالله، فالأئمة لهم في نظر الشيعة صلة بالله ليست من جنس صلة الأولياء الصالحين، ولكنها من جنس الصلة الخاصة بالأنبياء والمرسلين؛ ولهذا كان الأئمة يوحى إليهم كما يوحى إلى الأنبياء والرسل، والأئمة يتلقون الوحي كما يتلقاه الأنبياء، فهم يتلقون الوحي في الرؤية المنامية كإبراهيم الخليل # ، ويتلقونه عن طريق الملك وساطة بينهم وبين الله، وإذا كان الإمام يوحى إليه كالأنبياء فما الفرق بينه وبين النبي؟ وقد ذكروا قبلُ أن للأئمة ما للأنبياء غير أنه لا يوحى إليهم، والآن يقولون: يوحى إليهم.

وعن هذا السؤال يجيب عن هذا صاحب (أصول الكافي) فيما رواه عن علي الرضا في الفرق بين النبي والرسول والإمام، إن الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه، وربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم، والنبي ربما سمع الكلام وربما رأى الشخص، والإمام هو الذي سمع الكلام ولا يرى الشخص.

الصفة الثانية: فهي العصمة فقد عرفنا من الفقرة السابقة أن الأئمة يوحى إليهم، ومن هذا المعنى ينتقل الشيعة إلى الخاصية الثانية من خصائص الأئمة، وهي العصمة، فالأئمة ما داموا يتلقون الوحي عن الله ﷻ فهم معصومون، والشيعة في هذا المجال يُضفون من العصمة على أئمتهم ما لم يضفِه أهل السنة على الأنبياء والرسل؛ فالأئمة عندهم معصومون عن ارتكاب الصغائر والكبائر، منزهون

عن الخطأ والنسيان، وكتب الشيعة مليئة بالحجج والأدلة التي أقاموها لإثبات عصمة الأئمة.

الصفة الثالثة: علم الأئمة ثالث صفات الأئمة التي اختصوا بها هي العلم، وعلم الأئمة علم من نوع خاص، فهم في نظر ولاة الشيعة قد أحاطوا بكل شيء علمًا، وقد أطلعهم الله على جميع أسرار الكون منذ خلق الله الدنيا حتى تقوم الساعة، وهم أحاطوا برسالات الأنبياء السابقين جميعًا واطلعوا على كتبهم المنزلة على اختلاف ألسنتها وعلومها، هذا بالنسبة للرسالات السابقة، أما بالنسبة لرسالة محمد ﷺ فقد أنزل الله على رسوله ﷺ مصحفًا للأمة كلها، واختص عليا وحده بمصحف آخر، وجعله وقفًا على الأئمة ليس لغيرهم فيه قليل ولا كثير، وهذا المصحف فيه علم ما كان وما يكون منذ أنشأ الله الدنيا حتى تقوم الساعة.

وقصة ذلك المصحف أن السيدة فاطمة بنت محمد ﷺ > ا بعد وفاة أبيها ﷺ قبل أن تلحق به لقيت من المصائب والأحزان ما لا يعلمها إلا الله، وفي هذه الفترة ما بين موت أبيها ﷺ وموتها > كان جبريل # ينزل عليها ليواسيها ويسرّي عنها، وفي أثناء ذلك كان جبريل يحدثها عن كيفية خلق الله تعالى العالم وماذا حدث فيه، وينقل إليها أخبار الماضين تفصيليًّا، ويحدثها عن ذريتها وما سوف يحدث لهم، وينبئها عن أخبار المستقبل، كل ذلك وزوجها علي > يسمع ويكتب ويسجل كل ما يسمع، حتى إذ ماتت فاطمة > كان قد تكون عند علي > من ذلك مصحف قدر المصحف المحمدي ثلاث مرات، وفي هذا المصحف كل ما كان وما سيكون حتى قيام الساعة، وهذا المصحف خاص

بالأئمة، كل إمام يورثه للإمام الذي يأتي من بعده، وكل إمام يعلّم الناس في زمنه من أسرار هذه المعلومة القدر الذي يستطيعون فهمه، والإمام يعلَم متى يموت، حتى الأئمة الذي راحوا ضحية الغدر والقتل غيلة كانوا يعلمون ساعة قتلهم ويعرفون قتلاهم راضين بهذا القتل.

وهم يروون عن أئمتهم في العلم المخاريق العجيبة، وما يروونه عن جعفر الصادق قوله: إني لأعلم ما في الجنة وما في النار، وأعلم ما كان وكل ما سيكون، ولو كنت عند موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس لهما، وقد عبّر شاعرهم عن هذه العقيدة في علم الأئمة حين قال مخاطبًا أحد الأئمة:

لَو كانَ عِلمُكَ بالإِلَهِ مُقَسَّماً ❖ في الناسِ ما بَعَثَ الإِلَهُ رَسولا

والشيعة يعتقدون أن العلم قسمان: ظاهر، وباطن، وأن الأئمة هم الذين يتفرَّدون بهذين النوعين من العلم، وأنهم لا يفعلون شيئًا إلا بوحي من الله تعالى، وأنهم معصومون عن الخطأ، وإذا نحن ضممنا هذه الثلاثة إلى بعضها خرجنا بالسبب الحقيقي وراء هذه الانحرافات الشنعاء التي وقع فيها بعض طوائف الشيعة، فصِلة الإمام بالله صلة مباشرة، والوحي مستمر عنده، وإذا أضفنا إلى ذلك قسمته عن الوقوع في الخطأ، ثم أضفنا إلى هذين العلمَ الباطن أدركنا أن الإمام لا يُسأل عما يفعل، وكل ما يأتيه صواب، حتى لو أتى المنكرات؛ ذلك أنه معصوم عن الخطأ من جانب، وعنده علم الباطن من جانب آخر، ومن هذا الباب دخل إلى الشيعة طوائف الباطنية والحشاشين وغيرهم.

ولقد غالى الشيعة في اعتقادهم بضرورة وجود الإمام حتى زعموا أن الأرض لن تخلوا أبدًا من إمام عادل من أئمتهم إن زاد الناس شيئًا ردّه، وإن نقصوا أتمه، وإن ضلوا هداهم، ولو وُجد في الأرض رجلان فقط لكان أحدهما هو الإمامَ المعصوم، والإمام ضروري؛ لأنه نور الله في الأرض الذي يضيء للناس طريقهم، فهو المراد بقوله الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فالنور هو الإمام، وهو الهادي الذي جعله الله في كل قوم ليهديهم إلى الطريق المستقيم، فهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] فالأئمة هم نور للناس وهدايتهم وخزنة علم الله والبسطاء والشفعاء، ولن يقرب الجنة إلا محبوهم، ولن يدخل النار إلا مبغضوهم، والإيمان بهم جزء من الإيمان، وهو الإيمان بالله ورسوله، فمن مات لا يؤمن بإمام مات كافرًا مهما كان علمه، وذلك أن حب الأئمة كافٍ في محو السيئات وتكفير الذنوب، لعل أصدق ما يعبر عن هذا قول شاعرهم:

حب علي في الورى جُنة ❖ فامحوا به يا رب أوزاري
لو أن ذميًّا نوى حبه ❖ حُصّن في النار من النار

ولقد درج كثير من طوائف الشيعة على تقديس أئمتهم، وصاروا في هذا الشوط إلى مداه، حتى خلعوا عليهم صفات لا يوصف بها إلا الله ﷻ.

والآن إليك وقفة تصحيح: إن قول الشيعة بأن "الإمامة ركن الدين ولا يتم إلا بها" فهو حق أريد به باطل؛ ذلك أن المسلمين جميعًا يتفقون على وجوب تنصيب الإمام الذي يقيم شعائر الدين ويطبق أحكام الإسلام وحدوده ويحافظ على حدود بلاد المسلمين، ويرفع لواء الجهاد في وجه من يعتدون على بلاد المسلمين وينتهكون حرماتهم، كما قال ابن حزم الظاهري: اتفقت جميع الفرق

الإسلامية على وجوب الإمامة، وأن الأمة فرض واجب عليها أن تُقادَ لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله ويسوسوهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ.

وكما قال الماوردي: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع" أما الباطل الذي أراده الشيعة فهو الاستدلال بالنصوص العامة على وجوب تعيين الإمام في إمامة شخص معين، والإمام علي أو الاثنا عشر إمامًا فيستشهدون مثلًا بحديث رسول الله ﷺ: ((من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)) بأنها البيعة لإمام أهل الزمان، أو بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١] وبقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [السجدة: ٢٤] بأن المقصود هو الإمام علي بن أبي طالب > ومن بعده من الأئمة المنصوص عليهم، مع أن الشيعة مختلفون في سلسلة الأئمة المنصوص عليها اختلافًا بيّنًا، والمقصود من هذه النصوص العامة التنبيه على ضرورة وجود الإمام وتحديد صفات الإمام الذي تجب طاعته، بصرف النظر عن اسمه أو شخصه، كما صح النص على صفة الشهود في الأحكام صفة المساكين والفقراء الواجب لهم الزكاة، صفة الإمام في الصلاة، صفة من يجوز نكاحهم من النساء دون حاجة إلى ذكر أسماء، وكل قرشي بالغ عاقل قادر على ولاية أمور الناس قام بعد موت الإمام الذي لم يعهد إلى أحد فبايعه الناس فهو الإمام الذي تجب طاعته ما حكمَ بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فإن زاغ عن شيء منهما مُنع من ذلك ويخلع إذا أومن أذاه ولم يؤدِّ خلعه إلى فتنة أكبر.

أما دعوى النص على علي > أو غيره فهي لا تتفق مع الكتاب والسنة الصحيحة من جهة، ولا تتفق مع العقل من جهة أخرى، فلو كان هناك نص من كتاب أو سنة لَما اجتمع الصحابة في ثقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للمسلمين، بل كانوا يبايعون المعهود إليه مباشرة، خاصة وهم أحرص الناس على اتباع رسول الله ﷺ، ولو كان هناك نص لَما قال عمر بن الخطاب > حينما طُلب منه أن يختار خليفة للمسلمين من بعده: إن أستخلِف فقد استخلفَ من هو خير مني -يعني: أبا بكر > - وإن أترُك فقد تَرَك من هو خير مني، يعني رسول الله ﷺ فهذا نص صريح يفيد أن النبي ﷺ لم يستخلف أحدًا بعده.

ومما ينفي النصية على شخص معين ما رواه الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس { : ((مات رسول الله ﷺ ولم يوصِ)) وهل يُعقل أن يكون هناك نصٌّ على علي > ثم يتركه أبو بكر الصديق > الذي قال للناس بعد أن تولى أمر المسلمين: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم" هل يُعقل أن يترك صحابة رسول الله ﷺ نص حديث رسول الله ﷺ أو معنًى معلومًا لآية من الكتاب الكريم لحساب أبي بكر الصديق > أو عمر بن الخطاب > .

فلو سلمنا جدلًا بحدوث هذا الأمر من أبي بكر > هل يعقل أن يترك علي بن أبي طالب > هذه النصوص التي تثبت حقه ولا يواجه بها المجتمعين يوم الثقيفة؟ فإن قالوا: سكت تقية، نسبوه إلى النفاق والمداهنة، وهو ما لا يرضاه مسلم لعلي بن أبي طالب > القوي في الحق.

يقول ابن حزم -رحمه الله-: "ولا يجوز أن يُظَنّ بعلي > أنه أمسك عن ذكر النص عليه خوف الموت وهو الأسد شجاعةً، قد عرض نفسه للموت بين يدي رسول الله ﷺ مرات، ثم يوم الجمل وصفين، فما الذي جَبَنه بين هاتين الحالتين، وما الذي ألَّف بين بصائر الناس على كتمان حق علي ومنعه ما هو أحق به منذ مات رسول الله ﷺ إلى أن قُتل عثمان >؟ ثم ما الذي جلى بصائرهم في عونه إذ دعا إلى نفسه فقامت معه طوائف من المسلمين عظيمة، بذلوا دماءهم دونه، ورأوه صاحب الأمر والأولى بالحق ممن نازعه، فما الذي منعه ومنعهم من الكلام وإظهار النص الذي يدّعيه الكذابون، إذ مات عمر > وبقي الناس بلا رأي ثلاثة أيام أو يوم الثقيفة؟ أمَا كان في جميع أهل الإسلام من المهاجرين والأنصار وغيرهم واحد فقط تحلّى بالصدق يقول: يا معشر المسلمين، إن عليًّا له الحق في الإمامة، وهذا هو نص رسول الله ﷺ؟!.

بل إن الثابت بالنصوص هو أنه لما أراد الناس بيعة علي > بعد استشهاد عثمان > قالوا له: مدَّ يدك نبايعك على خلافته. قال: دعوني والتمسوا غيري وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، أنا لكم وزيرًا خير لكم مني أميرًا. وقد ورد هذا النص في (نهج البلاغة) وهو من مَراجع الشيعة التي يعتمدون عليها، فلو كانت إمامته لرسول الله ﷺ نصًّا لَمَا اعتذر هذا الاعتذار؛ ذلك أن الإمامة المنصوص عليها من الله واجبة الطاعة على الإمام وعلى رعيته، بل إننا نلاحظ أن عليًّا بن أبي طالب قد بايع أبا بكر > ولم ينازعه الأمر، ثم بايع عمر > وعثمان > وحينما جاء دوره في الإمامة أراد أن يعتذر.

ثم نلاحظ أن الحسن بن علي { قد فوَّض الأمر إلى معاوية > وبايعه، كما أن الحسين > قد بايع معاوية أيضًا، كل ذلك يدل دلالة قاطعة على نفي النص على شخص معين، فلو كان الحسن والحسين إمامين منصوصًا عليهما من الله ورسوله كما زعمت الشيعة لَمَا بايعا معاوية > أجمعين؛ إذ كيف يستحلّ الحسن والحسين { إبطال عهد رسول الله ﷺ طائعَيْن غير مكرهَيْن، فلما مات معاوية قام الحسين يطلب حقَّه حين رأى أن بيعة يزيد باطلة، فلولا أنه رأى بيعة معاوية حقًّا لما سلمها له، ولا فعل كما فعل مع يزيد، فما أعجب بعد ذلك إلا من تكفير كثير من الشيعة لأبي بكر وعمر وعثمان بحجة أنهم اغتصبوا الإمامة من علي وبنيه!.

(الشيعة (٢))

عناصر الدرس

قضية الإمامة عند الشيعة

فالإمامة عند الشيعة بالنص والتعيين، أنه منصوص على علي > ، وأما الصحابة فقد انتزعوا منه الإمامة، بأن انتزعها أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان { ، وقد تمالأ الصحابة على ذلك وكتموا النص وسكتوا عنه.

وكلامنا الذي نردّ على هذا الادعاء والزيف: هل يجوز أن ننسب صحابة رسول الله ﷺ إلى مثل صفات الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكتمان الحق والاغتصاب، وغير ذلك مما لا يليق بهم، خاصة وأن رسول الله ﷺ قد مدح أصحابه وجعلهم مصدر الهداية من بعده فيما قاله الرسول ﷺ: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)) الحديث، فهل نكذب رسول الله ﷺ ونصدق الشيعة، وهو القائل ﷺ: ((اهتدوا باللذين من بعدي، أبي بكر وعمر {)) وكأن هذا الحديث فيه إشارة واضحة إلى أن أفضل الصحابة فيمن يمكن أن يتولى الأمر بعد النبي ﷺ هما أبو بكر وعمر { ، بل ومن قبل ذلك قال الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

إن كثيرًا من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية دلّت على فضل الصحابة { ، وفي هذا ردٌّ على الإمامية الذين يفضلون عليًّا > على أبي بكر وعمر { ، بل إن عليًّا نفسه قد قال على منبر الكوفة: "لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حدَّ المفتري" أي: ثمانين سوطًا، وفي هذا دليل أيضًا على بطلان قول الرافضة من الشيعة الزيدية بأن عليًّا لم يبايع إلا تَقيَّة، فكل هذه أدلة تنفي

القول بالتقية، وتهدم مبدأهم الأساسي الذي انطلقوا منه إلى سائر معتقداتهم الفاسدة.

إذًا ما هو مصدر تلك المقولة الخطيرة التي فرقت الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا؟ سبق أن قلت: إن أول من ابتدع القول بالتقية هو عبد الله بن سبأ اليهودي اللعين ليشتت بها شمل المسلمين، وتلقفها من بعده الشيعة وجعلوها من أصول الإيمان عندهم، ولكي يستدلوا على ما ذهبوا إليه وليستميلوا جهلة المسلمين وعوامّهم ذهبوا إلى كتاب الله العزيز واختاروا منه الآيات العامة التي تمدح المؤمنين وأولياءه من المتقين وخصوصها بعلي وبنيه، وأسعفهم في ذلك واضعو الأحاديث والمؤرخون والمضللون الذين فسروا بعض الأحاديث على هواهم، ومنها الأحاديث التي وردت في مدح علي > على أنه ورد أضعافها في مدح أبي بكر وعمر وعثمان، { .

وخذ على سبيل المثال لا الحصر: قول رسول الله ﷺ في أبي بكر > : ((لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي)) رواه البخاري ومسلم، وقوله ﷺ في عمر بن الخطاب > : ((لو كان بعدي نبي لكان عمر)) رواه الحاكم في (المستدرك) وصححه ووافقه الذهبي، قوله ﷺ في عثمان > : ((ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)) يعني: عثمان، رواه البخاري، فهل إذا ورد حديث يقول: "أنا مدينة العلم وعلي بابها" أو يقول ((أقضاكم علي))، أو قال: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى)) يكون هذا نصًّا على إمامته خاصة، مع أن هذا الحديث الأخير قاله الرسول ﷺ في ظروف خاصة، فقد خرج الرسول ﷺ في غزوة تبوك، استخلف عليًّا على المدينة، فغضب علي > وكره أن يبقى وحده مع النساء والصبيان والعجزة، وينهض جميع

الصحابة للجهاد وهو المحارب الشجاع، فأراد الرسول ﷺ أن يطيب خاطره فقال: ((ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)).

وهذا الحديث لا يثبت الإمامة لعلي، غاية ما فيه إثبات فضيلة من فضائل الإمام علي، ولم يتعرض الحديث لكونه أفضل من غيره، فقد أراد النبي ﷺ من وراء مقاله أن يطيّب خاطره، ومما يؤيد هذا أن هارون المشبه به لم يكن خليفة بعد النبي موسى عليهما السلام، بل كان نبيًّا معه، ولا يلزم من التشبيه المساواة في كل الأحوال، وقد استخلف موسى هارون في حياته حينما ذهب لميقات ربه، يقول ابن تيمية -رحمه الله-: ولم يقل أحد من العقلاء: إن من استخلف شخصًا على بعض الأمور وانقضى ذلك الاستخلاف أن يكون خليفة بعد موته على شيء.

ولو كان الاستخلاف يدل على أنه أفضل أو أنه الخليفة وأن الأمر يكون من بعده له فهذا معناه أن يكون ابن أم مكتوم خليفة بعد النبي ﷺ؛ لأنه استخلفه النبي ﷺ على المدينة، كما استخلف غيره أيضًا، فلِمَ خصصتم عليًّا بذلك دون غيره مع اشتراكٍ في الاستخلاف، ولو كان هذا من باب الفضائل لما وجد علي > في نفسه حين قال: "أتجعلني مع النساء والأطفال والضعفاء" هذا فضلًا عن أن الاستغراق ممنوع؛ إذ من جملة منازل هارون كونه نبيًّا مع موسى، وعلي ليس بنبي اتفاقًا منا ومنكم، ولا مع النبي ﷺ ولا بعده، فلو كانت المنازل الثابتة لهارون ما عدا النبوة بعد النبي ﷺ ثابتة لعلي ما اقتضى أن يكون نبيًّا مع النبيﷺ؛ لأنه النبوة معه لم تستثن، وهي من منازل هارون # ، وإنما المستثنى النبوة بعده، وأيضًا من جملة منازل هارون كونه أخًا شقيقًا لموسى وعلي ليس بأخ، والعام إذا تخصص بغير الاستثناء صارت دلالته ظنية، فليحمل

الكلام على منزلة واحدة كما هو ظاهر التاء التي للواحدة، فتكون الإضافة للعهد وهو الأصل فيها.

فمنزلة علي هي استخلافه على المدينة في غزوة تبوك كما استخلف موسى هارون على بني إسرائيل أيام الميقات، وأما حديث غَدِير خُمٍّ: ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) فقد فهمه الشيعة فهمًا مغالطًا، فقالوا: إن المولى بمعنى الأولى بالتصرف، وكونه أولى بالتصرف هو عين الإمامة، فهذا الكلام منهم مغالطة؛ فإن أهل العربية لا تقول المولى بمعنى أولى بالتصرف، فهناك فرق بين الولي وبين المولى والوالي، فباب الولاية التي هي ضدّ العدواة شيء، وباب الولاية التي هي الإمارة شيء، والحديث هو في الأولى دون الثانية، والنبي ﷺ لم يقل من كنت واليه فعلي واليه، بل من كنت مولاه، إذًا فهو أولى بالمحبة والتقدير والتعظيم وولاية النصرة والمودة.

فهذا الحديث لا يدل على ولاية السلطة التي هي الإمامة والخلافة، ولكنه المعنى الثاني المراد، وهو: من كنت ناصرًا له ومواليًا له فعلي ناصره ومواليه، أو من والاني ونصرني فليوالِ عليًّا وينصره. وهذه منقبة عظيمة لسيدنا علي > ، وقد فهم الصحابة } معنى ذلك، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله، عندما لقي عمر بن الخطاب > قال له هنيئًا لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مواليا ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

أما حديث ((أقضاكم علي)) فلا دلالة فيه على الإمامة، بل هو يدل على سمة خاصة تميَّزَ بها علي > كما تميز غيره من الصحابة } ببعض السمات، فقد قال رسول الله ﷺ: ((أفرضكم زيد، وأقرؤكم أُبيّ، وأعرفكم بالحلال والحرام

معاذ)) فهذه من الخصائص أو المناقب أيضًا، فبراءة علي < في القضاء ثابتة، ولكن لا يُستدَّل بها على الإمامة أيضًا، وأما استشهادهم بحديث "أنا مدينة العلم وعلي بابها" فهو موضوع، ولا أصل له في كتب السنة المعتمدة، ومع التسليم جدلًا بصحته فهو لا يثبت دعواهم، ومثله حديث "سلموا على علي بإمرة المؤمنين" فهو موضوع اتفاقًا، فهل بمثل هذا تفوت الخلافة، هذا وقد أجمعت الأمة على أن النبي ﷺ ما نصَّ على أحد يكون من بعده.

وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله- في (البداية والنهاية) أن القول بوصيته ﷺ لعلي كذب وبهتان وافتراء عظيم، وقال: "وأما ما غيَّرَ به كثير من الجهلة الشيعة والقُصّاص الأغبياء من أنه أوصى إلى علي بالخلافة فكذب وبهتان وافتراء عظيم يلزم منه خطأ كبير من تخوين الصحابة ومُمَالأتهم بعده على ترك إنفاذ وصيته، وإيصالها إلى من أوصى إليه، وصرفهم إياها إلى غيره لا لمعنى ولا سبب، وكل مؤمن بالله ورسوله يتحقق أن دين الإسلام هو الحق يعلم بطلان هذا الافتراء؛ لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء، وهم خير قرون هذه الأمة التي هي أشرف الأمم بنص القرآن وإجماع السلف والخلف في الدنيا والآخرة، ولله الحمد"، انتهى كلام ابن كثير في (البداية والنهاية).

وخلاصة الرد على الشيعة أن صحابة رسول الله ﷺ لم يكونوا من العقوق لرسول الله ﷺ بأن يصل أمرهم إلى حدّ إهمال نصوصه وتوجيهاته، وإنما كانوا حريصين كل الحرص على طاعة الله ورسوله، مما يدل على أنه لم يكن هناك نص على إمامة أحد، وإلا لتمسَّكَ به علي < وسائر الصحابة } ، وكيف تكون الإمامة بالنص والتعيين في اثني عشر إمامًا مع أن الرسول ﷺ قال: ((تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم

تكون خلافة على منهاج النبوية، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكًا عضوضًا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكًا جبريًّا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة)) رواه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح.

إذًا فكيف يكون هناك نصّ على اثني عشر إمامًا هم الذين يستوعبون ما بقي من عمر الدنيا بعد وفاة الرسول ﷺ؟! إن هذا التحديد لا يتفق مع العقل ولا مع الحديث السابق الذي تحدث عن المستقبل السياسي للأمة بعد وفاة رسول الله ﷺ، فعرض لنا مراحل واقعية مرت بها الأمة الإسلامية.

إن صحابة رسول الله ﷺ الذين شهد القرآن بعدالتهم لا يمكن أن نقبل فيهم تجريح الشيعة ونسبتهم للكفر والظلم، ألا يكفي في صحابة رسول الله ﷺ أن يقول الله: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] وكانوا ألفًا وأربعمائة صحابي } ، وما قاله الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧].

ألا تكفي كل هذه النصوص، وهي قليل من كثير في بيان فضل صحابة رسول الله ﷺ وعِظَم منزلتهم عند الله، فكيف يسمح مسلم لنفسه أن يطعن فيهم ويرميهم بالكفر أو الفسق أو الظلم والعدوان! بل إن من الشيعة من عاب عليًّا نفسه وقال: إنه قصّر في حقه، وإنه كان يجب عليه أن يخرج داعيًا لنفسه، وأن يظهر الحق ولا يكتمه.

وإنه لتناقض عجيب وقع فيه هؤلاء الشيعة ؛ حيث إنه من مبادئهم أن الإمام المنصوص عليه هو أعلم الناس بالشريعة، وهو دائرة التلقي والعلم، فكيف يعيبون عليه أنه قصَّر في حقه، وكيف يُملون عليه ما كان ينبغي أن يفعله وهم الذين يزعمون أنه مصدر العلم والهدى !.

ونتساءل في نهاية المناقشة : لماذا صرف الله الإمامة عن آل البيت؟ ولماذا لم ينص رسول الله ﷺ على إمامة أحد من آله من بعده؟

والجواب : أن الله صرف الإمامة عن آل البيت إكرامًا لهم وتبرئة للنبوة ولبيت النبوة ؛ فإن النبوة لا تورّث، ومن أجل هذا صرف الله الخلافة عن عشيرة النبي ﷺ وآله وأبنائه { فلن ينالها واحد منهم بنص منه ؛ وذلك تبرئة لنبيهم ﷺ ، وقد كانت المنافسة شديدة بين بني هاشم وبين القبائل العربية الأخرى حول الرئاسة والقيادة، ولو ورثها النبي ﷺ لواحد من آله لظن الناس أنها ملك وليست نبوة، يقول أبو بكر > : إن الله أبى أن يجمع لأهل البيت بين النبوة والخلافة، ولو رجعنا إلى زمن النبي ﷺ لوجدناه لم يستعمل أحدًا من بني هاشم في رئاسة أو إمارة، ولقد طلبها عمه العباس > وفي رواية حمزة > فقال : ((يا عم، نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها)) بل إن الرسول ﷺ منع أبناءه إرث ماله حين قال : ((نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة)).

ولذلك فإن أبا بكر وعمر } لم يستعملا أحدًا من بني هاشم في إمارة أي بلد من بلدان المسلمين ؛ جريًا على سنة رسول الله ﷺ ، ولذلك قال الفاروق عمر > لابن عباس } : "أنتم أهل النبي فما نقول في منع قومكم لكم"، قال ابن

العباس: "لا أدري والله ما أضمرنا لهم إلا خيرًا"، فقال الفاروق: "كرهت قريش أن تجمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا في السماء بذخًا وشمخًا، وإن قريشا لتنظر إليكم نظر الثور إلى جازره".

ومن هنا تُرك الأمر لرأي الأمة، فإن اختارت من تلقاء نفسها واحدًا من آل البيت فهذا شأنها، أما أن يرثها آل البيت بنص فهذا ما لم تكن قريش تقبله؛ ولهذا قدَّمت من بعده من هو أفضل بعمله ودينه وسبقه في الإسلام وهو أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، حتى جاء الدور على علي بن أبي طالب، { .

موقف علي بن أبي طالب من الخلافة والخلفاء

وفي الوقت الذي تعظم الشيعة قضية الإمامة وتراها القطب الأعظم للدين عندهم لم يُؤثر عن سيدنا علي > أنه ذهب إلى تقديس الخلافة أبدًا، أو أنه جعل الإمامة ركنًا من أركان العقيدة، ولكن الذي أُثِر عنه طبقًا للمصادر الإسلامية من شيعية وغير شيعية أنه كان زاهدًا فيها وغير حريص عليها، هذا، فضلًا عن حبه للخلفاء الراشدين الذين سبقوه، ومودّتِه لهم، وإصهارِه إليهم، ورثائِه إياهم عندما توفوا إلى رحمة الله تعالى، فيروي ابن أبي الحديد قولًا للإمام علي في الخلافة: "دعوني والتمسوا غيري، فإنَّا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان، وأعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلِّي أسمعكم وأطيَعكم لمن ولّيتموه أمركم، وأنا لكم وزيرًا خير لكم مني أميرًا".

في كلمات أخرى يرويها ابن أبي الحديد أيضًا عن سيدنا علي > أنه قال: "والله ما كان لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتموني عليها، فلما أفضت إليّ نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وما أمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استنَّ النبي ﷺ فاقتضيته".

وهكذا يتحمل سيدنا علي > أمانة الخلافة استجابة لطلب المسلمين، ولم يخطر بباله أنها منصب إلهي أو ركن من أركان العقيدة الإسلامية، وهذا أستاذ شيعي يشهد ويجتهد في المسألة وهو الدكتور موسى الموسوي في كتابه (الشيعة والتصحيح)، فيرى أن عليًّا أولى بالخلافة وليس بالإمامة على الصورة التي رسمها الشيعة المتأخرون زمانًا، ولكن المسلمين بايعوا الخلفاء الراشدين وعلي بايعهم، ثم بايع المسلمون عليًّا بعد عثمان، فلا غبار على شريعة الخلفاء الراشدين من أبي بكر إلى علي، كتاب (الشيعة والتصحيح) للدكتور موسى الموسوي.

ويمضي المجتهد الإيراني الشيعي الدكتور موسى الموسوي في القول بأن الإمام عليًّا كان يؤكِّد على شرعية بيعة الخلفاء الراشدين قائلًا: ومرة أخرى نقول: "إن هناك فرقًا كبيرًا بين أن يعتقد الإمام علي والذين كانوا معه أنه أولى بخلافة رسول الله ﷺ من غيره، ولكن المسلمين اختاروا غيره، وبيْن أن يعتقد أن الخلافة حقه الإلهي ولكنها اغتصبت منه"، ثم يقول: والآن فلنستمع للإمام علي وهو يحدثنا عن هذا الأمر بكل وضوح وصراحة، ويؤكد شرعية انتخاب الخلفاء وعدم وجود نص سماوي في أمر الخلافة، ويردّد قولًا للإمام ذكره ابن أبي الحديد وهو: أنه بايعني القوم الذين بايعوا أبو بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار وللغائب أن يردّ، وإنما الشورى للمهاجرين

والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل سموه إمامًا كان ذلك لله رضًا، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين.

وفي موضع آخر من كتابه (الشيعة والتصحيح) يعود الدكتور موسى ليؤكّد على شرعية الخلفاء الراشدين وبيعة سيدنا علي } لهم قائلًا: إذا كانت الخلافة بنص سماوي، وكان هذا النص في علي، هل كان بإمكان الإمام علي أن يغض النظر عن هذا النص ويبايع الخلفاء ويرضخ لأمر لم يكن من حقهم؟! ثم اسمع رأي الإمام علي في الخلفاء الراشدين } أجمعين: كان علي شديد الحب للخلفاء الراشدين، كثيرَ التعاون معهم في دراسة مشاكل المسلمين وتحملِ مسئولية الحكم إبّان أسفاره كانوا يندبونه إلى ذلك.

ولعل أبلغ ما يمكن أن يصوِّر مكانة أبي بكر في قلب الإمام علي > هو خطبة علي حين وقف على بابه يخاطبه يوم وفاته قائلًا: "رحمك الله يا أبا بكر، كنت أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدهم يقينا، وأعظمهم عناء، وأحفظهم على رسول الله ﷺ خُلقًا وفضلًا وهديًا وسمتًا؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ وعن المسلمين خيرًا، صدَّقْت رسولَ الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صديقًا، فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣] يريد محمدًا ﷺ ويريدك، وكنت والله للإسلام حصنًا، وعلى الكافرين عذابًا، لم تقلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك وكنت كالجبل لا تحركه العواصف، وكنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفًا في بدنك، قويًّا في أمر الله، متواضعًا في نفسك، وعظيمًا عند الله، جليلًا في الأرض كبيرًا عند المؤمنين،

ولم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة؛ فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك".

هذا هو رثاء أمير المؤمنين علي > لأمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر > ، أو قُل بالأحرى هذا رأيه فيه، وتلك دمعة سكبها لفراقه، أفمثل هذا الذي رثاه سيدنا علي بهذه المعاني يُمكن لأتباع سيدنا علي أن يرموه بالكفر والرّدّة، وأن يصفوه بالجبت والطاغوت؟! والرأي نفسه قاله أمير المؤمنين علي > في عمر وعثمان - { ، وهو كلام جميل كله صدق وأدب، وكلام موثق لا كذب فيه ولا تلفيق.

ثم يعود المجتهد والدكتور موسى الموسوي يستعرض الكثير من هذه المواقف ويردّدها ثم يقول: "لا يجوز تجريح الخلفاء وذمّهم بالكلام البذيء الذي نجده في أكثر كتب الشيعة، والكلام الذي يُغاير كل الموازين الإسلامية والأخلاقية، ويُناقض الإمام علي ومدحه وتمجيده في حقهم، ويجب على الشيعة أن تحترم الخلفاء الراشدين وتقدّر منزلتهم من الرسول ﷺ؛ فالنبي ﷺ صاهر أبا بكر وعمر { ، وعثمان > صاهر النبي ﷺ مرتين، وعمر بن الخطاب > صاهر عليًّا وتزوج من ابنته أم كلثوم > ".

ويستطرد المجتهد الشيعي قائلًا: "ولا أطلب من الشيعة في هذه الدعوة التصحيحية أن تقول وتعتقد في الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا عليًّا > أكثر مما قاله الإمام في حقهم، فلو التزمت الشيعة بعمل الإمام علي لانتهى الخلاف وساد الأمة الإسلامية سلام فكري عميق فيه ضمان الوحدة الإسلامية الكبرى" (الشيعة والتصحيح).

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة تعقيبًا على هذا الكلام: "هذا كلام عالم شيعي مجتهد جليل، يشاركه رأيه في هذا الموضوع كثير من علماء الشيعة وأعيانهم المعاصرين الذين تربطنا بالكثير منهم روابط أخوة إسلامية ومودّة قلبية وأواصر متينة من الود والمحبة، وإذا كان العالم المجتهد الدكتور الموسوي قد فصل الأمر في علاقات الحب والاحترام المتبادل بين الإمام علي والخلفاء الراشدين السابقين عليه، فإننا نضيف إلى قوله أن الإمام عليًّا > لشدّة تعلقه بالخلفاء الراشدين الثلاثة } الذين سبقوه قد سمَّى ثلاثة من أبنائه بأسمائهم، فلقد سمى أحد أولاده أبا بكر، سمى ولدًا ثانيًا عمر، سمى ولدًا ثالثًا عثمان، وهذه قرينة كبرى على حب سيدنا علي لإخوانه الراشدين } صحابة رسول الله ﷺ".

وإليك مزيدًا من مواقف علي بن أبي طالب من الخلافة وممن سبقه من الخلفاء:

روى الإمام يحيى بن حمزة الزيدي عن سويد بن غفلة أنه قال: مررت بقوم ينتقصون أبا بكر وعمر { فأخبرت عليًّا > عنهم، وقلت: لولا أنهم يرون أنك تضمر ما أعلنوا ما اجترءوا على ذلك، فقال علي > : نعوذ بالله، رحمنا الله، ثم قام فأخذ بيدي فأدخلني المسجد فصعد المنبر ثم قبض على لحيته وهي بيضاء، فجعلت دموعه تتحادر عليها وجعل ينظر للقاع حتى اجتمع الناس، ثم خطب فقال: ما بال أقوام يذكرون أخوَي رسول الله ﷺ ووزيرَيْه وصاحبيه وسيدَي قريش وأبوَي المسلمين، وأنا مما يذكرون بريء وعليه معاقِب، صحبا رسول الله ﷺ بالحب والوفاء والجِد في أمر الله، يأمران وينهيان، ويغضبان ويعاقبان، ولا يرى رسول الله ﷺ كرأيهما رأيًا، ولا يحب كحبهما حبًّا، لما يرى من عزمهما في أمر الله، فقُبض ﷺ وهو عنهما راضٍ والمسلمون راضون، فما تجاوز في أمرهما وسيرتهما أمر رسول الله ﷺ ورأيه في حياته وبعد موته، فقُبضا

على ذلك رحمهما الله، فوالذي فلق الحبة وبَرَأَ النسمة لا يحبهما إلا مؤمن فاضل ولا يبغضهما إلا شقي مارق، فحبهما قربة وبغضهما مروق، فالله أكبر.

هذا قول علي في الشيخين ورأيه فيهما، فعلى أي شيء يلعن الشيعة أبا بكر وعمر خاصة والصحابة عامة؟! هذا وتزعم الشيعة أن عليًّا وصي رسول الله ﷺ وخليفته بنص أو وصية، فأين هذا النص وتلك الوصية؟ ولماذا لم يخرجها علي يومًا ما أو يعلنها على الناس؟ ولماذا لم يعرفها أحد من الصحابة فيعلنها في حينها عند مبايعة أبي بكر الصديق، أو مِن قبل ذلك أو مِن بعده؟ وماذا نقول في هذا النص الذي يدل على عدم وجود وصية أصلًا، وهو في ذلك واضح وضوح الشمس في جلاء النهار؛ حيث روت كتب السنة عن ابن عباس { أن عليًّا خرج من عند النبي ﷺ وهو في وجعه الذي تُوفي فيه فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال علي > : أصبح بحمد الله بارئًا، وأخذ بيده العباس > وقال: أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سيتوفى من وجعه هذا، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب إلى رسول الله ﷺ فاسأله فيمن هذا الأمر؟ فإن كان فينا علمناه، وإن كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا، فقال علي: أما والله لئن سألناه فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني لا أسألها.

وواضح من هذه الرواية عن ابن عباس { أنه لم يكن هناك نصّ ولا وصية ولا تعيين على إمامة علي > ، وكيف يقال: إن النبي ﷺ قد أوصى بالخلافة لعلي > وهو الذي سارع إلى مبايعة أبي بكر الصديق > لمجرد سماعه مبايعة المسلمين بالخلافة، أو بعد ستة أشهر كما قيل، حيث كان منشغلًا بزوجه فاطمة } .

ومما يدل على أن عليًّا بايع أبا بكر منذ البداية ورضي بخلافته ما رواه الطبري من أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى علي > عقب تولية أبي بكر الخلافة، وقال له: ما بال الأمر -يريد الخلافة- في أقل حي من قريش، والله إن شئت لأملأنها عليه خيلًا ورجالًا، فقال له علي: يا أبا سفيان، طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره شيئًا، وإنا وجدنا أبا بكر لها أهلًا.

قــول الــشيعة بتعــيين الله عليًّــا إمامًــا

هذا وليس هناك من يقرر وجوب تعيين وصي على الله تعالى، ولا من يقرر أن الله تعالى قد عين وصيًّا لكل نبي إلا هؤلاء الشيعة، كل ما استدل به في هذا الباب فهو إما أنه صحيح في نفسه لكنه وضع في غير موضعه وفُسّر على غير وجهه، وإما أنه ليس صحيحًا أصلًا، فزعمهم أن قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] لم ينزل إلا بعد أن عين الرسول ﷺ عليًّا > إمامًا، حيث لا يكمل الدين ولا تتم النعمة إلا بتعيين الوصي والإمام، كلام مرفوض ودليل متهافت ومذهب فاسد لا يذهب إليه إلا جاهل، ولا يقول به إلا سفيه، وزعموا أن قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] إن الله هو الذي يختار الإمام ولا يحق للناس اختياره، فهو أفسد من سابقه.

وزعموا أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] إنما نزلت في علي، حيث اختاره الله وصيًّا، وأبلغ الرسول ﷺ بذلك وأمره أن يبلغ الناس ذلك، بل ويقرأ بعض فرق الشيعة الآية

على هذا النحو: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك في علي" وليس الأمر كذلك، بل هو السفه والجنون وتحريف الكلم عن مواضعه.

وزعموا أن قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] أن المقصود هو الإمام من أئمتهم، وأن الله تعالى قد أعطى الأئمة فهم كل شيء والإحاطة بكل شيء، وكذا زعموا حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧] قالوا: المنذر رسول الله ﷺ والهادي هو علي > ، وفي قوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤] قالوا: مسئولون عن ولاية علي ومشايعته < .

هذه الآيات التي يستدلون بها على أن الله تعالى قد عين الإمام عليًّا وصيًّا ووليًّا بعد رسول الله ﷺ وليس فيها شيء مما زعموه، ومن الواضح أن فهمهم للآيات خاطئ، وأنهم أوَّلوا الآيات على هواهم، وليس في الآيات آية واحدة تشهد من قريب أو بعيد لما ذهبوا إليه، إن الإمامة كمنصب إلهي، قضية اختُرعت في زمن متأخر، هكذا يقول الدكتور مصطفى الشكعة، هذا العنوان الجانبي الطويل ليس من عندي، فإنه من الوضوح بمكان أنني لم أشترك في هذا الموضوع وغيره من الموضوعات، من موضوعات المذاهب الإسلامية كطرف مباشر، ولكني أستنطق الوثائق والأحداث والأشخاص.

وقد حرصت في هذا الباب أن يكون الحوار في شئون المذاهب بين الشيعة وبين أنفسهم، وإن العالم المجتهد موسى الموسوي يُلغي مبدأ أن الإمامة منصب ديني سماوي إلغاء تامًّا، ويقول ما نصه: "حتى في أوائل القرن الرابع الهجري -وهو عصر الغيبة الكبرى- لا نجد أي أثر لفكرة اغتصاب الخلافة من الإمام علي، أو

أنها حقّ إلهي اغتصب منه، أو أن صحابة رسول الله ﷺ اشتركوا أو ساهموا في هذا الأمر، هكذا تغيرت فكرة الأولية لخلافة علي إلى فكرة الإلهية ومخالفة النص الإلهي"، (الشيعة والتصحيح).

وتبعًا لذلك يستطرد المجتهد الشيعي الموسوي قائلًا: "إذا كانت الإمامة إلهية كما تذهب الشيعة، وأنها في أولاد علي حتى الإمام الثاني عشر لعيَّنَ علي ابنه الحسن خليفة وإمامًا من بعده، وهو ما لم يحدث، فقد اتفق الرواة والمؤرخون على أن الإمام عليًّا عندما كان على فراش الموت بعد أن ضربه ابن ملجم المُرادي بالسيف المسموم، وسُئل عن الشخص الذي يستخلفه، قال: أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ. وبعد وفاة الإمام اجتمع المسلمون واختاروا ابنه الحسن وبايعوه خليفة على المسلمين، ولكن الحسن > صالح معاوية > تنازل له عن الخلافة، فهل يا تُرَى لو كانت الخلافة منصبًا إلهيًّا كان يستطيع الإمام الحسن أن يتنازل عنها بذريعة حقن دماء المسلمين!".

ويستشهد الدكتور الموسوي بمواقف لأئمة آخرين مرموقين كعلي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق فيقول: إننا لم نجد في أقوال الإمام علي بن الحسين الملقب بالسجاج أيَّة عبارة تدل على كون الخلافة إلهية، وبعد السجاج يأتي دور الإمام الباقر والذي في عهده بدأ يتبلور مذهب أهل البيت الفقهي الذي أكمله ابنه الإمام جعفر الصادق، فنحن -والكلام للدكتور الموسوي- لا نجد أثرًا لفكرة الخلافة الإلهية في عهدهما ولا في عهد أئمة الشيعة الآخرين، حتى الغيبة الكبرى.
هكذا بمنطق الحق والإنصاف، ينفي بعض علماء الشيعة الكبار المبدأ الذي اخترعه فريق من الشيعة، وهو القول بأن الإمام منصب إلهي، وأنها إحدى

دعائم الإسلام، وهذه القضية التي فرَّقت شمل المسلمين وبدَّدت جهودهم، وجعلتهم فرقًا متنافرة متحاربة بعد أن كانوا إخوة متحابين أشداء على الكفار، رحماء بينهم.

التوحيد ومراتبه عند الشيعة

أنتقل في ذكر عقائد الشيعة إلى العقيدة الثانية المسماة عندهم بالتوحيد، والمأخوذة من أصول المعتزلة الخمسة، والتوحيد هو أساس من أسس العقيدة عند الشيعة، وهو المقابل عند أهل السنة للأصل الأول الإيمان بالله تعالى، وهو وإن كان أولًا لكنني أخّرته وجعلت الأول الإمامة؛ لأن هذا الأصل -أي: التوحيد- لم ينل من الأهمية ما نالته عقيدة الإمامة عند الشيعة، إذًا قدمتها عليه، وإذا قلت: إن التوحيد هو الأساس الأول باعتبار يمكن أن نلتقي معهم عليه، هذا وقد آثر الشيعة كلمة التوحيد بدلًا من الإيمان بالله بسبب أنهم من النافين للصفات كالمعتزلة، الذين يقولون بأن صفات الله تعالى هي عين ذاته، فليس لله سبحانه صفات زائدة على الذات، ومن هنا فقد آثروا التنصيص على التوحيد في عقائدهم، لما أنهم يرون أنهم الموحدون بنفيهم الصفات، وأن المثبتين من طوائف الأمة للأسماء والصفات ليسوا موحدين، نقول: فحتى التوحيد لم يخلُ عندهم من كفريات تمثَّلت في إنكار توحيد الصفات الذي لا يجحده إلا كافر.

والتوحيد عندهم له مراتب أربعة: توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد الآثار. وقد يُعبرون عن هذه الدرجات الأربعة بما يقابلها من

أصناف الخلق، فيقولون: توحيد العوام، وتوحيد الخواص، وتوحيد خواص الخواص، وتوحيد أخصّ الخواص؛ فالعوام هم الذين يقتصرون على توحيد الذات، والخواص يجمعون إلى توحيد الذات توحيدَ الصفات، وخواصّ الخواص يوحّدون الذات والصفات والأفعال، وأما أخصّ الخواص فيمتازون عن الأصناف الثلاث؛ لأنهم يزيدون على توحيد الذات والصفات والأفعال توحيدَ الآثار، ويقولون: "إن المرتبة الأولى هي مدلول كلمة لا إله إلا الله، والمرتبة الثانية هي مدلول كلمة لا هو إلا هو، والمرتبة الثالثة هي مدلول كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله، والمرتبة الرابعة هي مدلول كلمة لا مؤثر في الوجود إلا الله".

وهم يزعمون أن الشيعة وحدهم هم الذين يجمعون في التوحيد هذه المراتب الأربعة، خلافَ طوائف المسلمين، فمنهم من يقف عند الدرجة الأولى، ومنهم من يتعدّاها إلى الثانية، ولكن لا يحصل المرتبة الثالثة والرابعة إلا الشيعة. أما الصفات فيعتقدون بأن صفات الله تعالى الثبوتية عين ذاته ليست زائدة عليها، وليس وجودها إلا وجود الذات، فقدرته من حيث الوجود هي حياته، وحياته قدرته لا اثنينيّة في صفاته، وكذا في سائر صفاته تعالى، هذا هو الشأن في الصفات الثبوتية الكمالية، أما الصفات الثبوتية الإضافية مثل الخالقية والرازقية فهي ترجع في حقيقتها إلى صفة واحدة هي صفة القيومية، وهي صفة واحدة انتزعوا منها عددًا من الصفات تبعًا لاختلاف الآثار والملاحظات، وأما الصفات السلبية التي تسمى بصفات الجلال فهي ترجع جميعًا إلى سبب واحد هو سبب الإنكار، وعجيب أمر التوحيد بهذه الصورة عند الشيعة.

النبـــــوة عنـــــد الـــــشيعة

وأما معتقدهم الثالث فيدور حول النبوة، ويعتقد الشيعة أن النبوة وظيفة ربانية وسفارة إلهيه يضعها الله بين إنسان معين من الخلق ويُعدّه الله تعالى لهذه المهمة إعدادًا خاصًّا، ويمدّه بملكات وقوة نفسية وجسمية بها يستعين على أداء مهمته التي اصطفاه الله لها، وهؤلاء الأنبياء والرسل يصطفيهم الله سبحانه ليكونوا سفراء بينه وبين خلقه، يبلغونهم تعاليمه وشرائعه وينشرون تلك الشرائع بين الناس ويرعون مصالح الناس في الدنيا والآخرة.

ويعتقد الشيعة أن الأنبياء أكثر عددًا من الرسل؛ فالنبي أعم والرسول أخصّ، فالرسول صاحب شريعة والنبي تابع له في ذلك، ويعتقد الشيعة بأن الأنبياء معصومون عصمة مطلقة، فهم معصومون من الصغائر والكبائر والسهو والنسيان قبل البعثة وبعدها، ويعتقد الشيعة أن إرسال الرسل واجب على الله تعالى، ولهم أدلتهم في ذلك، منها:

أولا: أنه قد ثبت أن الله يجب عليه فعل الأصلح لعباده، وليس هناك أصلح من إرسال الرسل والأنبياء إلى العباد.

ثانيا: أن القرآن الكريم صرّح بوجوب اللطف على الله بالعباد، حيث يقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: ١٩] وأعلى درجات اللطف هو إرسال الأنبياء والرسل لرعاية مصالح الناس في الميعاد والمعاش.

ثالثا: أن الهدف من إيجاد الخلق هو عبادة الخالق سبحانه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وهذا الهدف لا يمكن أن يتحقق

إلا عن طريق إرسال الرسل إلى الخلق ليعرّفوهم أوامر الله ونواهيه، وإلا كانت العبادة هنا تكليفًا بما ليس في وسع النفس الإنسانية ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

هذه مُجْمَل أدلتهم التي يثبتون بها وجوب إرسال الرسل على الله ﷻ عما يصفون، وهي أدلة متهافتة؛ فالله سبحانه لا يجب عليه شيء، فهو المتفضل المنعم، وكل ما في الوجود إنما هو تفضل ولطف منه ﷻ، والوجوب يعني: الإلزام، وفيه معنى الجبر والقهر والقسر، والله ﷻ منزّه عن كل ذلك، ومَن الذي يوجب ذلك على الله تعالى؟!!! لكن الشيعة جمعت في معتقداتها بين ضلالها وضلال المعتزلة في أصولها، كما أن الوجوب ينافي المشيئة والإرادة المطلقتين، ويجعل مشيئة الله وإرادته محدودتين مقيدتين لحدود ما يجب عليه، وكل ذلك باطل، نستغفر الله تعالى من مثل هذا القول ونبرأ منه.

كما يعتقد الشيعة أيضًا أن الأنبياء والرسل منزَّهون عن كفر الآباء والأمهات والأقارب وذوي الشأن، فهم يؤمنون بأن أب إبراهيم الخليل كان مؤمنًا، وأن أبوَيْ رسول الله ﷺ مؤمنان، كذلك يؤمنون بأن أبا طالب عم رسول الله ﷺ كان مؤمنًا، بل إنه من أولياء الله الصالحين، بل هو رأس الأولياء، وهم يُكفّرون كل من يدّعي كفر أبي طالب ويتبرءون منه.

والشيعة يثبتون للأئمة كل ما أثبتوه للأنبياء سوى الرسالة، فالإمام مصطفًى ومختارٌ من الله تعالى، وهو معصوم من الكبائر والصغائر والسهو والنسيان منذ ولادته حتى موته، كما أنه منزَّه عن كفر الأبوين.

ومن هنا نرى السر في ذهاب الشيعة إلى القول بإيمان أبي طالب ؛ فإنهم كما نزهوا الأنبياء عن كفر الوالدين كذلك نزهوا الأئمة عن كفر الوالدين، ولما كان أبو طالب هو والد الإمام الأول والوصي الولي علي > قالوا بإيمانه، وكفَّروا من قال فيه غير ذلك.

(الشيعة (٣))

عناصر الدرس

عقيـــدة الـــشيعة في الإمامـــة

ومن معتقداتهم التي أخذوها عن المعتزلة العدل، وهو من أركان العقيدة الإيمانية أو أصول الدين عند الشيعة، وعقيدة الشيعة في العدل، وحديثهم في هذا الأصل يدل على الصلة الوثيقة بين الشيعة والمعتزلة في العقائد؛ إذ الأصل في العدل أنه مبدأ من مبادئ الاعتزال التي أقام المعتزلة عليها مذهبهم.

وقد أخذ الشيعة الكثير من عقائد المعتزلة ومنها القول بالعدل، والقول بالعدل ترتبت عليها أمور عقدية منها: أنهم أوجبوا على الله تعالى إرسال الرسل، وأن ينصَّ على الأئمة، وأن يفعل الصلاح والأصلح، وأن يلطف بعباده، وأن يعوّض العباد عما يلحقهم من الآلام، وأنه يجب عليه أيضًا أن يُثيب المطيع ويعاقب العاصي. ويترتب عليه كذلك أن العبد مستقل بأفعاله الاختيارية، يفعلها بنفسه دون أن يكون لله ﷻ تأثير في ذلك.

وهذه الأمور التي أخذها الشيعة عن المعتزلة حينما أخذوا مبدأ العدل، كما أخذوا أمورًا أخرى من أهمها: أن معرفة الله تعالى واجبة على العباد بالعقل وليس بالشرع، وأن الحُسن والقُبح عقليان أن الصفات عين الذات، أو الصفات ليست زائدة على الذات، ترتب عليها أيضًا إنكارهم جواز رؤية الله في الآخرة، وإنكارهم أن ذلك وقع لرسول الله ﷺ في الدنيا في حادثة المعراج.

ولكن القول بالوجوب على الله ﷻ عما يصفون بجانب أنه يدل على فهم سقيم؛ فإنه يدل على سوء الأدب في جانب الله ﷻ فإن الواجب كما علمت يعني الإلزام والإلجاء، ومن ذا الذي يُلزم الله تعالى بأن يفعل كذا أو يترك كذا،

ومن هذا الذي يُلجئ الحق ﷻ إلى فعل شيء أو ترك آخر، ثم إن الوجوب يعني: التقييد على الإرادة والمشيئة؛ فلا يكون الله ﷻ فاعلًا لما يشاء أو تاركًا لما يشاء، وإنما يكون فاعلًا لما يجب عليه فعله تاركًا لما يجب عليه تركه.

وذلك والجبر سواء، وفي ذلك نقد لما يجب لله ﷻ من الكمال، ورفض لما ورد عن الله ﷻ في كتابه الكريم، وعن رسوله ﷺ في سنته الشريفة من أن الله تعالى يفعل ما يشاء، له الإرادة المطلقة، والمشيئة الكاملة حين قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وهذه القضية مزيد من الرّدّ عليها عند الكلام عن معتقدات المعتزلة الفاسدة، ولكن هنا نكتفي بهذه الإشارة، ومن معتقداتهم أيضًا المعاد، وهو من أركان العقيدة عند الشيعة فيما يوافق معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان باليوم الآخر، ويُراد به أنه يجب على المسلم أن يعتقد بأن الله ﷻ سوف ينشر الأجساد بعد فنائها وتفرق أجزائها، ثم يُعيد لكل جسد روحه التي فارقته عند الموت في الدنيا، وأن ذلك سوف يكون عند قيام الساعة ليحاسب كلَّ إنسان على ما قدمت يداه، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] والمعاد يُطلق ويراد به معانٍ ثلاثة:

الأول: المعنى المصدري من العود، وهو ما يُسمَّى بالمصدر الميمي.

الثاني: زمان العود.

الثالث: مكان العود.

والمراد بالمعاد الذي يجب على المؤمن اعتقاده ليس المعنى المصدري أي: مجرد العود إلى اجتماع النفس والجسد في حياة ثانية، ولكن المراد اعتقاد ذلك بجانب الاعتقاد بأمور الأخرى تتصل بهذا المعاد، وبهذه الحياة الأخرى، وذلك كزمانها، وأن ذلك بعد فناء هذه الدار، وقيام الساعة، ومكانها أو هيئة مكانها، وأن ذلك يكون في مكان يسع الخلائق جميعًا، ويحشرون فيه على هيئة معينة؛ فليس المعاد مجرد عود إلى حياة بعد الموت، ولكنه عود على هيئات زمانية وإنسانية معينة ورد بها الكتاب والسنة، فوجب استصحابها ضمن الاعتقاد في الميعاد.

هذا والشيعة يؤمنون بالمعاد كما نؤمن به أهل السنة والجماعة على الجملة، فيُثبتون المعاد للنفس والبدن، ولعل هذه الجزئية من النقاط التي يلتقي فيها الشيعة مع أهل السنة في منهج صحيح يتفق مع القرآن والسنة، وذلك على الجملة فيما نعلم، والله أعلم.

ومن معتقدات الشيعة الإيمان بالقضاء والقدر مع البَدَاء، فيؤمن الشيعة بالقضاء والقدر، بمعنى أن الله تعالى قد قضى وقدر كل شيء أزلًا، لكنهم مع ذلك يؤمنون بأن الله تعالى يغيّر من قضائه وقدره حسبما يبدو له، ولذا فهم يُضيفون إلى الإيمان بالقدر الإيمان بالبَدَاء.

والبداء معناه: أن الله تعالى بعد أن قدَّر كل شيء أزلًا يبدوا له أن يغيّر من قدره السابق، فيغير منهم حسبما يبدو له تحت اعتبارات الظروف والأحوال. والشيعة يؤكّدون على الإيمان بالبداء تأكيدًا قويًّا شأن كل القواعد التي خالفوا فيها أهل

السنة والجماعة، فإنه في هذه العقائد يؤكّدون عليها، ويتشدّدون فيها، ويعظمون من شأنها؛ لذلك يعظمون من عقيدة البداء.

ومن قواعدهم الدينية ما عُظم الله بمثل البداء، ويروى عن أئمتهم أن الله ما بعث نبيًّا قط حتى يقول له بالبداءة، فالقول بالبداء هو من أفضل العقائد التي يُعظَّم بها الله ﷻ عندهم لماذا؟ قالوا: لأن في إثبات البداء إثباتًا لمشيئته ﷻ واختياره، واستمرارًا لإرادته ومشيئته؛ إذ أن نفي البداء هو نفي لإرادته تعالى ومشيئته، حيث قد قضى وقدر كل شيء، ولا يملك بعد ذلك أن يغيّر أو يبدل، وإذا كان لا يمكن أن يغير أو يبدل من قدره السابق فهو إذًا غير مريد، أو هو قد بطلت إرادته، وانتفت مشيئته بعد أن قدَّر كل شيء أزلًا، فهذه فلسفتهم.

والشيعة عندهم مثال مشهور يوضّحون به المراد بالبداء، ويفسرون به العلاقة بين القدر والبداء فيقولون: "إن الله تعالى قد قدَّر عمر زيد أزلًا بسبعين سنة، هذا هو القدر، ولكن يبقى الاختيار والمشيئة لله في أن يزيد من ذلك العمر أو يُنقص منه، وهذا هو البداء".

فالبداء يعني أن يبقى لله تعالى الاختيار في مرحلة البقاء، كما هو مسطَّر في عقائد الإيمانية الإثنا عشرية للسيد إبراهيم الموسوي السنجاجني، وإنه لعجيب أمر الشيعة حين يظنون أنهم بإثباتهم البداء إنما يُعظمون من شأن الله ﷻ، ويعلِّلون ذلك بأنهم إنما يُبقون على صفة الإرادة والمشيئة لله تعالى زاعمين أن النافين للبداءة إنما ينفون عن الله ﷻ صفة الإرادة والمشيئة، أو يعطلونها، وهذا خطأ بين.

فهم بإثباتهم البداء لم يثبتوا لله الإرادة، فإن الإرادة لله ثابتة، وما نفاها أحد، ولكنهم نفوا عن الله تعالى العلم بما يكون؛ ذلك أن قدر الله في الأزل إنما هو

مبني على علم الله سبحانه بكل ما سيكون، فالله تعالى قد أحاط بكل شيء يكون، وبذلك قدر كل شيء بناء على علمه تعالى، فإذا أي شيء بدا له بعد ذلك فإن هذا البداءة لا يُفهم إلا بناء على احتمالين، كلاهما محال بالنسبة لله سبحانه تعالى:

الأول: أن يكون الله تعالى قدر ذلك عن جهد، تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا، فلما علم الأمر حين وقوعه بدا له أن يغير من قدره ذلك، وهذا محال على الله تعالى، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

الثاني: أن يكون الله تعالى عالمًا بكل شيء، ولكنه يقدر بناء على علمه تقديرًا لا يتسم بالحكمة، وقد يبدو له أن يغيّر من تقديره التماسًا لحكمة ومصلحة لم يتحققا في تقديره السابق، وذلك محال أيضًا. وعلى ذلك ونحن ننفي البداء لا ننفي إرادة الله تعالى ومشيئته، وكيف وكل شيء في الوجود إنما هو بإرادته ومشيئته مع كامل علمه وحكمته ﷻ وهو العليم الحكيم.

فهذه العقيدة عقيدة البداء من الأفكار التي روَّجها اليهود، وعبد الله بن سبأ خاصة يزعمون أن الله يحصل له البداء، والبداء هذا لا يعدو إلا أن يكون نسيانًا أو جهلًا. وهذا محال على الله ﷻ ويصل الأمر بتعظيم عقيدة البداء عند الشيعة أن قال إمامهم الثامن عندهم: ما بعث الله نبيًّا قط إلا بتحريم الخمر، وأن يُقر لله تعالى بالبداء، نعوذ بالله من هذا الظلم وذاك الكفر.

ومن معتقدات الشيعة أيضًا الرجعة، والرجعة تعني: أن الأئمة ابتداء بالإمام علي > وانتهاءً بالحسن العسكري الذي هو الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية سيرجعون إلى الدنيا ليحكموا المجتمع الذي أرسى قواعده بالعدل

والقسط، الإمام المهدي الذي سيظهر قبل رجعة الأئمة ويملأ الأرض قسطًا وعدلًا، ويمهد الطريق لرجعة أجداده، وتسلمهم الحكم؛ ليكون هذا تعويضًا لهم عن حقهم الشرعي في الخلافة والحكومة التي لم يستطيعوا ممارستهم في حياتهم قبل الرجعة.

وللشيعة في عقيدة الرجعة كلام عجيب: يعتقدون فيه أن الإمام إذا رجع أخرج أبا بكر وعمر وصلبهما، وأخرج عائشة وجلدها، وترهات من هذا القبيل لا يصدقها العقلاء، ولا يقول بها إلا البلهاء؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله. هذا ومن أخطر ما هو عند الشيعة الزعم بتحريف القرآن، فهناك رأيان في هذه المسألة عند الشيعة.

الرأي الأول: وهو السائد وعليه أكثر من فقهائهم هو عدم التحريف.

الرأي الثاني: هو وجود مصحف لعلي يُغاير القرآن الموجود، ومن الشيعة من يقول بوجود مصحف فاطمة < يستدلون على ذلك بما جاء في كتابهم (الكافي) عن أبي عبد الله بن محمد قال: "وإن عندنا لمصحف فاطمة -عليها السلام- وما يُدريك ما مصحف فاطمة، مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم هذا حرف واحد، ولقد أشار بعض علماء الشيعة إلى أن مصحف فاطمة يختلف عن مصحف علي.

هذا وتعتقد الشيعة زواج المتعة، ويقصدون بالمتعة الزواج المؤقت، ويقول فقهائهم: إن المتعة كانت مباحة في عهد الرسول الكريم ﷺ، وفي عهد الخليفة أبا بكر، وفي شطر من خلافة عمر أي: في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حتى حرمها، وأمر المسلمين بالكف عنها، ومن معتقداتهم التقية، وهم يعدونها من

أصول الدين لا يجوز تركها إلى أن يخرج القائد فمن، تركها قبل ذلك فقد خرج عن دين الله وعن دين الشيعة خاصة الإمامية، وقالوا في ذلك نقلًا عن أئمتهم: التقية ديني ودين آبائي، التقية تسعة أعشار الدين، لا دين لمن لا تقية له.

الشيعة الإمامية الإثنا عشرية

الشيعة الإمامية الإثنا عشرية أكبر فرق الشيعة، سيِّما في هذا الزمان، وتسمى بالإمامية الإثنا عشرية، كما تُسمى بالرافضة أيضًا. أما تسميتها بالإمامية لاعتقادها أن الإمامة لا تكون إلا بنصٍ وتوقيف، وأنها قرابة، وأنه جائز للإمام في حال التقية أن يقول: إنه ليس بإمام، وأبطلوا جميعًا الاجتهاد في الأحكام، وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس، وزعموا أن عليًّا > كان مصيبًا في جميع أحواله، وأنه لم يُخطئ في شيء من أمور الدين إلا فرقة من فرقهم تُدعى الكاملية، أصحاب أبو كامل، فإنهم أكفروا الناس بترك الاقتضاء بهم، وأكفروا عليًّا لترك الخلافة، وأنكروا على الخروج أئمة الجور، وقالوا ليس يجوز ذلك دون الإمام المنصوص على إمامته.

وأما تسميتهم بالرافضة فقد سُمّوا بهذا الاسم لرفضهم إمامة أبا بكر وعمر؛ فقد أجمعوا على أن النبي ﷺ نصَّ على استخلاف عليّ بن أبي طالب > باسمه، وأظهر ذلك وأعلنه، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ، فهم إذا رافضة، وهم إمامية، وهم اثنا عشرية؛ لاعتقادهم بأن الإمامة في اثني عشر إمامًا، وإن كانوا في زماننا هذا يحاولون التسمية بأسماء أخرى من باب تقارب بينهم وبين أهل السنة، أو تضليل أهل السنة، كأن يسموا أنفسهم بآل البيت، أو الجعفرية مثلًا.

هذا وقضية الإمامة بالنسبة لهذه الفرقة التي عي أكبر فرق الشيعة الإمامية الإثنا عشرية تمثّل أهم أصول الدين وقضاياه، وينصون فيها على أن الأئمة لم يُعرفوا بالوصف، كما قال زيد بن علي { بل عُيّنوا بالشخص، فعُين الإمام علي من النبي ﷺ، وهو يُعيّن من بعده بوصية من النبي ﷺ ويسمون بالأوصياء، وقد أجمعت الإمامية على أن إمامة علي > ثبتت بالنص عليه بالذات من النبي ﷺ نصًّا ظاهرًا وتعيينًا صادقًا من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين.

وقد اتفقت الإمامية فيما بينهم أن عليًّا وصي النبي ﷺ بالنص، وأن الأوصياء من بعده هم أولاده من فاطمة < من الحسن والحسين، وهؤلاء هم المُجمع عليهم، وبعد ذلك اختلفوا في الأئمة اختلافًا كثيرًا وفيما بينهما اختلفوا بعد ذلك على أكثر من سبعين فرقة، وأعظمها فرقتان؛ الإثنا عشرية، والإسماعيلية. وقد كانوا من أول الأمر على مذهب أئمتهم في الأصول، ثم لمَّا اختلفت الروايات عن أئمتهم وتمادى الزمان اختارت كل فرق منهم طريقة، فصارت الإمامية وبعضها معتزلة؛ إما وعيدية إما تفضيلية، وبعضها إخبارية إما مشبهة وإما سلفية، ومن ضلّ الطريق وتاه، ولم يبالِ الله به في أي وادٍ هلك.

هذا وقد سبق الحديث عن الإسماعيلية، فيبقى الحديث عن الإمامية الإثنا عشرية، يرى هؤلاء الناس أن الخلافة بعد الحسين > لعلي زيد العابدين ومن بعده لمحمد الباقر، ثم لأبي عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر، ثم لابنه موسى القاسم، ثم لعلي الرضا، ثم لمحمد الجواد، ثم لعلي الهادي، ثم للحسن العسكري، ثم لمحمد ابنه وهو الإمام الثاني عشر، والإمامية الإثنا عشرية يتواجد في عدة دول منها إيران وهم يُمثلون الأكثرية بعد أن استطاعوا أن يقضوا على الكثيرين من أهل السنة، أو أن يُرغموهم على تغيير دينهم إكراهًا وإرغامًا، ومن

بعدها في العراق وهم يمثلون نصف سكانه تقريبًا، ومذهبهم في العقائد والأحوال الشخصية والمواريث والأوقاف والزكوات والعبادات، كلها هو المذهب الإثنا عشري.

ومنهم من يعيش في سوريا ولبنان ودول الخليج والبحرين، وأذربيجان وباكستان، والهند وتركيا، وكذلك المنطقة الشرقية من السعودية، وذلك توجد لهم أقليات في أنحاء أوربا وأمريكا وأفريقيا، وجنوب شرق آسيا، وهم يتودّدون إلى من يجاورهم من السنيين، ولا ينفرونهم بحكم التقية، أو محاولة نشر مذهبهم بين أهل السنة والجماعة.

والإمامية يبدو من اسمها الاهتمام بقضية الإمامة، فمكانة الإمامة عندهم هي حجر الأساس التي هي أصل من أصول الدين الذي لا يتمّ الإيمان إلا بالاعتقاد به، ولا يجوز فيها التقليد للآباء والأجداد؛ إنما يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد والنبوة، وأن الإمامة كالنبوة لطف من الله تعالى؛ فلا بد أن يكون في كل عصر إمام يَخْلف النبي ﷺ في وظائفه، وقد اعتقدوا أن النبي ﷺ نصَّ على الخليفة من بعده وهو علي بن أبي طالب > وقالوا: إن النبي ﷺ بالنسبة لعلي > قد نصَّ عليه وعيَّنه أنه ثبتت له الأفضلية وبالنص والعصمة، والأفضلية ثبتت لبقية الأئمة الإثنا عشر.

ومنزلة الإمام عندهم يفرضون للإمام سلطانًا مقدسًا؛ لأنه استمدَّ إمامته من النبي ﷺ عن طريق الوصاية به، وأنه قد ولي أمر الأمة بهذه الوصية، فتصرفاتها كلها مشتق من صاحب هذه الوصاية، وهو النبي ﷺ فالإمام له السلطان الكامل في اليقين، وكل ما يقوله في الشرع، ولا يمكن أن يصدر منه ما يخالف الشرع.

واعتقدوا عصمة الإمام؛ إذ الإمام قد تبوَّء هذه المنزلة عندهم، فقد قرّروا له العصمة من الخطأ والنسيان، ومن جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من الطفولة إلى الموت عمدًا أو سهوًا؛ لأنه الحافظ للشرع والقوَّام عليه حاله في ذلك حال النبي فله العصمة كالنبي ﷺ.

وصفات الإمام وعلمه: يعتقدون أن الإمام كالنبي يجب أن يكون أفضل الناس في صفات الكمال من شجاعة، وكرم، وعفة، وصدق، وعدل، والدليل في النبي هو نفس الدليل في الإمام. أما علمه فهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات عن طريق النبي، أو الإمام قبله، وإذا استجد شيء لا بد أن يعلمه عن طريق الإلهام، والقوة القدسية التي أودعها الله فيه، هذه القوة القدسية تبلغ الكمال في أعلى درجاته؛ ومن ثمَّ يجب طاعة الإمام.

فلما أنزلوا الإمام عنده هذه المنزلة، فقد أوجبوا طاعته ويعتقدون أن أمره من أمر الله، وأن نهيه من نهي الله، وأن طاعته هي طاعة الله، وأن معصيته معصية لله، واعتقادهم في الأئمة على النحو الذي ذكرنا، وتسميتهم للأئمة الأحد عشر إمامًا حتى يأتي الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري؛ حيث تعتقد الإمامية بظهور المهدي من أولاد فاطمة < في آخر الزمان يملأ الأرض عدلًا، كما ملئت ظلمًا وجورًا، وهو عندهم شخص معين معروف وُلد سنة مائتين وست وخمسين من الهجرة، وهو ابن الحسن العسكري المسمى محمد، وقد تسلَّم المهدي منصب الإمامة بعد والده وبنص منه، وبقي مختفٍ عن الأنظار طيلة خمسة وستين عامًا، وكانت الشيعة تتصل به هذه الفترة عن طريق نوابهم لهذا الغرض، وكانت تُسمى بفترة الغيبة الصغرى، ثم ادَّعوا الغيبة التامة أو الكبرى

فلا ظهور له إلا أن يأذن الله في آخر الزمان، وظلوا بغير إمام حتى قالوا بولاية الفقهية؛ لأن الإمام عندهم حيٌّ غائب وهو الإمام الثاني عشر، وبما أن الإمام حي ولكنه غائب عن الأنظار، ولم يفقد سلطته الإلهية بسبب غيبته؛ فإن هذه السلطة تنتقل منه إلى نوائبه، لأن النائب يقوم مقام المنوب عنه في كل شيء.

الشيعة الإمامية الإثنا عشرية أقامت مذهبها أو دينها على هذه القضية، فاعتبروا الإمامة ركنًا من أركان الإيمان ومن أنكره كفر، ونقل الشيخ المفيد الإجماع على ذلك بقوله "اتفقت الإمامية على أن من أنكر إمامة أحدٍ من الأئمة وجحد ما أوجبه الله تعالى له من فرض الطاعة؛ فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار". قال ابن بابويه القمي الملقب عندهم بالصدوق: "اعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من بعده أنه كمن جحد نبوّة جميع الأنبياء، واعتقادنا فيمن أقرَّ بأمير المؤمنين وأنكر واحدًا من بعده من الأئمة أنه بمنزلة من أقرَّ بجميع الأنبياء وأنكر نبوة نبينا محمد ﷺ".

ولا يزال شيعة اليوم على هذا المعتقد مع تخفيف العبارة فقط، فهذا المجلس الشيعي الأعلى في لبنان على اعتلالهم أو تقيتهم ينشر على موقعه الإلكتروني عقيدة الشيعة في الإمامة فيقول: نعتقد أن الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها، والإمامة عند الشيعة أفضل أركان الدين كما ورد في (الكافي) عندهم، باب دعائم الإسلام، عن زرارة عن جعفر # قال: "بني الإسلام على خمسة أشياء على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية، قال زرارة: وأي شيء أفضل من ذلك فقال: الولاية أفضل".

وقد بالغوا في مدح أئمتهم حتى أوصلوهم إلى مرتبة الربوبية، كما قال الخميني الأئمة الذين لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة، نعتقد فيهم الإحاطة بكل ما فيه مصلحة المسلمين، ويقول: إن تعاليم الأئمة كتعاليم القرآن يجب تنفيذها واتباعها. ويقول أيضًا: فإن للإمام مقامًا محمود ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل. وزعموا بأن الأئمة يخلقون ويرزقون، ويعلمون الغيب، ويسيرون الكون، وأنهم أفضل من الملائكة والأنبياء، وأنهم الوسيطة بين الله وخلقه واعتقدوا بأحقية علي بالنبوة والخلافة، وأنه لا دولة ولا حكم إلا في علي وبنيه وذريته، وزعموا أن رسول الله ﷺ قال: "لعن الله من خالف عليًّا، عليّ الإمام الخليفة بعدي من تقدَّم على علي فقد تقدم علي، ومن فارقه فقد فارقني".

ومن ثَمَّ يعتقد الشيعة الإمامية بكفر صحابة رسول الله ﷺ وردّتهم إلا ثلاثة أو أربعة، وينتقصون من قدرهم، ومن قدر أمهات المؤمنين، وزوجات النبي الطاهرات، وبالتالي يرفضون كل ما جاءنا من النبي ﷺ عن طريق هؤلاء الأخيار؛ فأبدى ذلك إلى رفضهم لكثير من الدين وإنكارهم للسنة النبوية، فالأحكام لا تؤخذ عندهم إلا عند طريق أئمتهم، أو بما نسبوه هم لأئمتهم، روى الكشي عن أبي جعفر أنه قال: كان الناس أهل ردّة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ قال: المقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي. وجاء في كتاب (الكافي): أن أبا بكر وعمر فارقا الدنيا ولم يتوبا، ولم يتذكرا ما فعلاه، وعليهما لعنة الله والملائكة و الناس أجمعين، نعوذ بالله.

كما يعتقد أكثر الإمامية بتحريف القرآن الكريم، وأن الصحابة قد بدَّلوا وغيروه فيه، ويزعمون أن المصحف الحقيقي الذي سيُحضره المهدي المنتظر آخر الزمان، هو ثلاثة أضعاف المصحف الحالي المتداول بين أيدينا الآن، ويؤمنون بأن للقرآن

معان تُخالف الظاهر، يقول شيخهم علي أصغر بروجردي في كتابه (عقائد الشيعة): والواجب أن نعتقد أن القرآن الأصلي لم يقع فيه تغيير ولا تبديل، مع أنه وقع التحريف والحذف في القرآن الذي ألفه بعض المنافقين، أما القرآن الأصلي فموجود عند إمام العصر عجَّل الله فرجه، وقد ألف أحد علمائهم وهو مرزا حسين الطبرسي كتابًا أسماه (فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب) وجمع فيه المئات من أقوال علماء الشيعة قديمًا وحديثًا، والتي تقول بوقوع التحريف والنقص في القرآن الكريم، وجاء في مقدمة الكتاب قوله: "هذا كتاب لطيف وسفر شريف عملته في إثبات تحريف القرآن، وفضائح أهل الجور والعدوان".

وقد لَّمح الخميني قائد الثورة الإيرانية في كتابه (كشف الأسرار) إلى إمكانية وقوع التحريف من الصحابة فقال: لقد أثبتنا في بداية الحديث بأن النبي أحجم عن التطرّق إلى الإمامة في القرآن؛ لخشيته أن يُصاب القرآن من بعده بالتحريف، ونلاحظ هنا أنه يتعامل مع القرآن وكأنه من صنع النبي ﷺ وليس من عند الله، وأن الله تكفَّل بحفظه.

الشيعة الزيدية

هذا ومن فرق الشيعة: الزيدية، وتُعدّ الزيدية إحدى الفرق الشيعية الكبرى إضافة إلى الإمامية الإثنا عشرية، والإسماعيلية، وتُنسب الزيدية إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب >، وقد تلقَّى العلم عن والده زين العابدين علي بن الحسين، ثم عن أخيه الأكبر محمد الباقر، وتنقَّل في البلاد

الشامية والعراقية بحثًا عن العلم أولًا، وعن تولي آل البيت الإمامة ثانيًا، وكان تقيًّا شجاعًا، ويقال: إنه اتصل برأس المعتزلة واصل بن عطاء، وتدارس معه العلوم، وتأثر به وبأفكاره التي نقل بعضًا منها إلى الفكر الزيدي، وبالمقابل تتلمذ أبو حنيفة على إمام زيد، وأخذ منه العلم.

لم يكن فقه الإمام زيد قد دُوّن في حياته، ومع ذلك فالزيدية ينسبون إليه كتابين يُعتبران عماد الفقه الزيدي، الأول: المجموع في الحديث والآخر المجموع في الفقه، وهما مجموعان في كتاب واحد اسمه (المجموع الكبير)، وراوي هذين الكتابين عن الإمام زيد تلميذه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي، وقد اتهمه أهل الحديث بالوضع والكذب.

أما مكان انتشارهم فتُعتبر اليمن أهم مكان لوجود المذهب الزيدي، ويرتبط دخول الزيدية إلى اليمن بالإمام الهادي يحيى بن الحسين الذي عكف على دراسة الفقه على مذهب زيد، ومذهب أبي حنيفة، ورحل إلى اليمن سنة مائتين وثمانين من الهجرة فوجدها أرضًا صالحة لبذر آرائه الفقهية، لكن الإمام الهادي عاد بعد ذلك إلى الحجاز ولم يكن قد دعا إلى إمامته في هذه المرحلة، وأحس أهل اليمن بالفراغ الذي تركه فراسلوه ليرجع إليهم، فأجابهم. وعاد إلى اليمن سنة مائتين وأربع وثمانين من الهجرة، واستقر في صعُدة بشمال اليمن، وأخذ منهم البيعة على إقامة الكتاب والسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستمر حكم الأئمة الزيدين لليمن حتى قيام الثورة اليمنية سنة ألف وثلاث مائة واثنين وثمانين من الهجرة، ألف وتسعمائة واثنين وتسعين من الميلاد على أنقاض المملكة المتوكلية اليمنية، وهي أطول فترة حكم في التاريخ لآل البيت استمرَّت أحدى عشر قرنًا من الزمان.

ورغم عدم وجود إحصاء رسمي دقيق عن نسبة الزيدية في اليمن إلا أن بعض المصادر تشير إلى أنهم يُشكّلون حوالي ثلاثين إلى خمس وثلاثين في المائة من سكان اليمن الموحد؛ حيث إن الزيديين يتركّزون في المحافظات الشمالية من اليمن الشمالية مثل: صنعاء وصعدة وحجة وزمار، بينما ينتشر السنة الشافعية في المحافظات الوسطى والجنوبية مثل: تعز وإب والحديدة ومأرب وعدن وحضر موت، بل الجنوب بأكمله؛ حيث إن ما كان يعرف باليمن الجنوبي سكانه سنة على مذهب الإمام الشافعي، وكانت بعض المصادر تشير إلى أن نسبة الزيدية تُشكل خمسة وأربعين في المائة من اليمن الشمالي، وباحتساب عدد السكان في الشمال والجنوب تكون النسبة من ثلاثين إلى خمس وثلاثين في المائة في اليمن الموحد، هي نسبة واقعية ومقبولة ،مع ملاحظة أن الجنوب بالرغم من كبر مساحته هو أقل سكانًا من الشمال، وأن المحافظات السنية هي في الغالب أكثر سكانًا المحافظات التي يكثر فيها الزيدية، خاصة محافظة تعز التي يصل عدد سكانها إلى مليوني نسمة من أصل عشرين مليونًا أو أكثر قليلًا هم سكان اليمن شماله وجنوبه.

وبالإضافة إلى الوجود التاريخي للزيدية في اليمن، فإنه كانت هناك دعوات زيدية في طبرستان والجبل والديلم في بلاد فارس، وأسست لهم دول لكنها لم تعمر طويلًا، ومنها حركة الحسن بن زيد بن محمد الملقب الداعي إلى الحق، والذي ظهر سنة مائتين وخمسين هجرية في طبرستان ثم احتلَّ آمل وساري والري وجرجان، وكومس هازم بنى طاهر ثم تُوفي سنة مائتين وسبعين هجريًّا، واستمرت تلك الدولة خمسة وتسعين عامًا من مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة وخمس وأربعين من الهجرة.

وكذلك دولة البوهيين من سنة ثلاث مائة وأربع وثلاثين إلى سنة أربعمائة سبع وأربعين من الهجرة في بلاد فارس، والتي سيطرت على بغداد عاصمة الخلافة العباسية قيل: إنها زيدية جارودية. أما فرق الزيدية فقد خرجت عن الزيدية ثلاث فرق طعن بعضها في الشيخين، كما مال بعضها عن القول بإمامة المفضول، وهذه الفرق هي الجارودية أصحاب أبي الجارودية زياد بن أبي زياد، وهم غالبية الزيدية اليوم في اليمن، اثنان السليمانية أصحاب سليمان بن جرير، ويقال لها أيضًا: الجريرية، ثلاثة البترية أصحاب النوى الأبتر والحسن بن صالح، ويقال لها: الصالحية.

أهم الأفكار لم كانت الزيدية إحدى فرق الشيعة، فإنها توافق بعض عقائد الشيعة الإثنا عشرية الذين يُشكلون العدد الأكبر من الشيعة اليوم، لكنهم أقرب الشيعة لأهل السنة لعدم غلوّهم. فالزيدية يتفقون مع الشيعة في أحقية الإمام أهل البيت دون النص على فرض معين، ويجوّزن البداء على الله، ويعينون ذكاة الخمس، وفي جواز التقية إذا لزم الأمر، ويقولون حي على خير العمل في الأذان، ويرسلون أيديهم في الصلاة، ويعدون صلاة التراويح بدعة، ويرفضون الصلاة خلف الفاجر، ولا يطعنون في الصحابة كالشيعة الإمامية، بل يتردون على الخلفاء والصحابة.

الإمامة عند الزيدية يُجيز الزيدية أن يكون الإمام في أولاد فاطمة سواء من نسل الحسن أم من الحسين، وليس كالشيعة الإمامية التي تحصر الإمامة في ذرية الحسين فقط، والإمامة عندهم ليست بالنص، وليست وراثية؛ بل تقوم على البيعة، ويتم اختيار الإمام من قِبَل أهل الحل والعقد. ويجيزون وجود أكثر من إمام واحد في وقت واحد في بلدين مختلفين، وتقول الزيدية بإمامة المفضول مع وجود

الأفضل؛ إذ لا يشترط عندهم أن يكون الإمام أفضل الناس جميعًا، ومعظمهم يقرون بصحة خلافة أبا بكر وعمر وعثمان مع مؤاخذته على بعض الأمور.

ويميل الزيديون إلى مذهب الاعتزال فيما يتعلق بذات الله وصفاته والجبر والاختيار، ومرتكب الكبيرة يعتبرونه في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة، ولكنه غير مخلّد في النار؛ إذ يعذب فيها حتى يطهّر من ذنبه ثم ينتقل إلى الجنة، كما قالوا بوجوب الإيمان بالقضاء والقدر مع اعتبار الإنسان حرًّا في طاعة الله أو في عصيانه، وفصلوا بين الإرادة وبين المحبة أو الرضا، وهو رأي أهل البيت من الأئمة.

ونتيجة للأوضاع التي عاش بها الإمام زيد أسس مذهبًا فقهيًّا يجمع بين فقه أهل البيت والاعتزال، وأسس قاعدة مشروعية الخروج على الحاكم الظالم، وهي القاعدة التي طبَّقها الزيدية جيلًا بعد جيلٍ، وقد قاد الإمام زيد ثورة ضدّ الأمويين زمن هشام بن عبد الملك سنة مائة واثنين وعشرين من الهجرية مدفوعًا من أهل الكوفة الذين سرعان ما تخلَّوا عنه، عندما علموا أنه لا يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر ولا يلعنهما، وقد التقى بالجيش الأموي وما معه سوى خمسمائة فارس، وقيل مائتين فقط؛ حيث أصيب بسهم قضى عليه.

إذا الملامح الشيعية واضحة في المذهب الزيدي رغم اعتدالهم ومخالفتهم للإمامية في كثير من الأصول والفروع، كما أن فكر المعتزلة له أيضًا وجوده الواضح في حياة الزيدية وأفكارهم، كما هو بالنسبة للإمامية أو الشيعة. وأما نظرة الإثنا عشرية إلى الزيدية على الرغم أن الزيدية تعدّ إحدى فرق الشيعة إلا أن الزيدية كانتلها نصيب وافر من كره وحقد الإمامية، والإفتاء بكفرهم واعتبارهم نواصب، ذلك أن الشيعة يؤمنون بكفر الكل من لا يؤمن الأئمة الإثنى عشر. فروى الكوليني في كتابه (الكافي) حديثًا عن عبد الله بن المغيرة قال: قلت لأبي الحسن # : "إن لي جارين أحدهما ناصب والآخر زيدي، ولا بد من

معاشرتهم فمن أعاشر؟ قال: هما سيان من كذب بآية من كتاب الله فقد نبذ الإسلام من وراء ظهره، وهو المكذّب بجميع القرآن والأنبياء والمرسلين". وقال: "إن هذا نصب لك، وهذا الزيدي نصب لك".

ويقول إحدى علمائهم، وهو محمد الموسوي الشيرازي، الملقب بسلطان الواعظين في كتاب (ليالي بشاور): "إنما الشيعة مذهب واحد، وهم المطيعين لله وللرسول محمد ﷺ والأئمة الإثنى عشر -عليهم السلام-، ولكن ظهرت مذاهب كثيرة لدواعي دنيوية وسياسية زعمت أنها من الشيعة، ونشروا كتبًا على هذا الأساس الباطل من غير تحقيق وتدقيق.

وأما المذاهب التي انتسبت إلى الشيعة عن جهلٍ أو عن عمد لأغراض سياسية ودنيوية، فهي أربع مذاهب أولية، وقد اضمحلّ منها مذهبان وبقي مذهبان، تشعبت منها مذاهب أخرى؛ والمذاهب الأربعة: هي الزيدية، الكيسانية، القداحية، الغلاة. وفي المقابل كان علماء الزيدية إلا من شذّ منهم يعرفون ضلال الشيعة الروافض، ويحذرون منهم، ويتساوى في ذلك الإثنا عشرية والجارودية، والقسم من الزيدية عُرفوا بالغلو والميل إلى الرفض والتشيع، كما هو معلوم عنهم.

(الشيعة (٤))

عناصر الدرس

الشيعة المعاصرين وصلتهم بأسلافهم

صرنا في الآونة الأخيرة نتحدث كثيرًا عن الشيعة، وموقف الرافضة وعلاقتهم بأهل السنة في وقت كان الناس يتحدثون فيه عن التقريب بين السنة والشيعة، وينادون بوحدة المسلمين أمام الهجمات الشرسة على الإسلام والمسلمين، حتى صار يتردَّد في أيامنا في أوساط المسلمين من غير الرافضة هذا السؤال: لماذا تثار هذه القضية الآن؟ ولماذا كثر الكلام في موضوع الشيعة، والذي أصبح في ذمّة التاريخ وإثارته تؤدي إلى الفرقة بين المسلمين في وقت نحن في أشد الحاجة إلى التعاون والتآزر والتآخي؛ لنقف صفًّا واحدًا أمام أعداء الإسلام، وقد يبدو السؤال وجيهًا، ولكن لا يردّده إلا من لا يعرف حقيقة الشيعة الرافضة في عصرنا، وأن موقف العلماء المعاصرين هو ذات معتقد الشيعة الأقدمين ولو كان الأمر في ذمَّة التاريخ لما جاز إثارته من جديد.

أما إذا كان الغلو والضلال والدعوة إلى العقيدة الباطلة التي تعدّ هدمًا للإسلام من أساسه، إذا كانت كل هذه ما نراه عند الشيعة الرافضة في عصرنا الحالي ممتدًّا بالأسلاف، أو ممتدًّا إلى الأسلاف، وقد صار هذا أمرًا واضحًا منذ قامت للشيعة قائمة، وصارت لهم دولة، وأرادوا تصدير ثورتهم إلى العالم السني. كل هذا يدعونا لأن نُحذّر أمتنا من خطر الشيعة الرافضة حتى نتقي شرَّهم حتى نكون على بصيرة من عوامل الهدم التي يلجئون إليها، حتى نتمكن من الدفاع عن ديننا، وليتبين لعامة الشيعة غير الرافضة مدى تضليل علماء الرافضة لهم تحت شعار حبّ آل البيت، وآل البيت الأطهار بُرآء منهم.

وبنظرة سريعة إلى جانب من سيرة آل البيت يتضح بجلاء لأولي الألباب أن الرافضة أعداء آل البيت، وإن زعموا كذبًا وزورًا أنهم أتباعهم وأحبائهم ؛ انظر مثلًا إلى تزويج علي بن أبي طالب > ابنته أم كلثوم لعمر بن الخطاب > ودلالة هذا التزويج، وإذا بالرافضة يقولون: ذاك فرجًا غصبناه، وهذا طعن وتجريح لعلي أكثر منه لعمر { . ولا شك أن الإنسان يختار أحب الأسماء إلى نفسه عند تسمية أولاده، وهذا أمر فطريّ بل ليس موضوع جدل، وإذا رجعنا إلى أسماء آل البيت وجدنا من أبناء علي بن أبي طالب أبو بكر وعمر وعثمان، ومن أحفاده أبو بكر وعمر ابني الحسن، وعمر بن الحسين، وعمر بن علي بن الحسين، فماذا يقول الرافضة في عصرنا؟ أهم أتباع آل البيت وأحباؤه، أما أعداؤه وشانئوه؟

إذا كان بيان حقيقة الشيعة الرافضة فرض كفاية، فقد يصبح عين على بعض الشيعة من العلماء غير الرافضة، وأما حقيقة الشيعة الإثنا عشرية في عصرنا، أهم من معتدلي الشيعة أم من غلاة الرافضة؟ فلننظر إلى أكبر علمائهم الذين بلغوا مرتبة المرجع الأعلى، وتولوا توجيه الشيعة في عصرنا وإلى غيرهم من علمائهم البارزين مثل: الحكيم، والخوئي، والخميني، كان السيد محسن الحكيم المرجع الديني الأعلى للشيعة في العراق، وجاء بعده السيد أبو القاسم الخوئي، وأما الخميني فقصته معروفة وثورته واضحة. هؤلاء الثلاثة الذين وجّهوا الشيعة الإثنا عشرية في عصرنا ما دورهم الذي قاموا به؟ أجعلوا الرفض مسألة تاريخية وحاربوا الغلو والتطرف والضلال الذي رأينا منه شيئًا فيما سبق بيانه حول معتقدات الشيعة، لا سيما الإثنا عشرية، ودعوا أتباعهم إلى الصراط المستقيم، أم أنهم ظلوا في طريق الضلال نفسه، ودعوا أتباعهم ليتبعوا سبيلهم.

إن موقف الشيعة الآن موقف التجديد لكل ما هو قديم، فما أشبههم باليهود حين اشتبه الخلف بالسلف، إن الشيعة ليست فرقة ماتت أو صارت في ذمة التاريخ فينبغي السكوت عنها، ولا ينبغي إحياء الميت؛ إنما هو موضوع حيّ وخطر داهم، وما أكثر دُعاة الشيعة في عصرنا الذين يسلكون شتَّى الطرق؛ لإحياء دعوة ابن سبأ، وذلك على مستوى ربوع العالم الإسلامي في أمور خطيرة جدًّا تقودها البهائية والقديانية والأغاخانية والإسماعيلية والباطنية والإثنا عشرية، فما أكثر فرق الضلالة التي تشعبَّت عن الشيعة. وأما تصدير الثورة الذي نادى به الخميني وسعى إليه إلا إحياءً لهذه الدعوات القديمة، ونشاطهم في أنحاء العالم الآن معلوم وملحوظ، يخضعون المسلمين بزعمهم الكاذب؛ لأنهم أتباع أهل البيت الأطهار، ويستغلون حاجتهم، ويُغرون بالمال والنساء عن طريق ما يُسمى زواج المتعة.

وإن جهود الشيعة وفكر علمائهم الكبار في عصر الآن لهو واضح، وهو خير دليل على أن الشيعة المعاصرين يجددون فكر الشيعة القدامى، وأن الصلة الشيعة المعاصرين بأسلافهم صلة ،واضحة وعلى كل حال ينبغي النظر في جهود وفكر العلماء الكبار عندهم، أو الأئمة، أو الفقيه فيما يُعرف بولاية الفقيه، ماذا فعل السيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي والخميني، كيف كانت توجيهاتهم للشيعة في عصرنا، وإلى غيرهم من علمائهم البارزين، هل تنازلت الشيعة عن شيء، هل تركوا لعن الصحابة، هل تركوا دعاء صنمي قريش؟

لقد سبق ذكر ما جاء متواترًا عن علي بن أبي طالب > من أن خير الناس بعد رسول الله ﷺ هو أبو بكر، ثم عمر، ورأينا ما بيَّن علي من حبِّه للخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه، مما يُثبت بجلاء أن الرافضة أعداء آل البيت خلافًا

لزعمهم الكاذب، فما موقف علمائهم المعاصرين، أتأسو بسيدنا علي > والحسن والحسين } ، أم ظلوا في طريق الضلال والزندقة، من الدعاء المشهور عند الرافضة ما يُسمى بدعاء صنمي قريش، ويقصدون بالصنمين الشيخين أبي بكر الصديق وعمر الفاروق { وأخذ أعداءهما هذا الدعاء المنقول من كتبهم من كتاب (بحار الأنوار) للمجلسي وغيره، وقد نقل تكفيره لغير الرافضة، وتخصيصًا باب كاملًا للخلفاء الراشدين الثلاثة جعل عنوانه باب كفر الثلاثة ونفاقهم وفضائح أعمالهم.

إن مثل هذا الزنديق لا نعجب عندما يذكر دعاء صنمي قريش، ويشرحه، ويفتري الكذب على آهل البيت الأطهار؛ حيث يروى عن ابن عباس { أن عليًّا بن أبي طالب > كان يقنت به، وقال: إن الداعي به كالرامي مع النبي ﷺ في بدر وأحد وحنين بألف ألف سهم، والدعاء لا يقف عند الشيخين، بل يذكر ابن تيهمة أي: أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة -رضي الله تعالى عنهما- بل يذكر أنصارهما، ويشمل أمة الإسلام كلها التي أحبَّت الشيخين واقتضت بهما امتثالًا لأمر الرسول ﷺ فيما صحَّ عنه يقتدون بالذين من بعدُ أبا بكر وعمر، وما جاء في الحديث الصحيح المشهور: ((عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهدين عضُّوا عليها بالنواجذ))، ومع ذلك فالشيعة المعاصرين كالشيعة القدامى يُكفّرون الشيخين ويعتقدون نفاقهما، ويلقبونهما بصنميّ الأمة، وذلك في هذا الدعاء المشهور عندهم دعاء صنمي قريش، ونصه "اللهم ألعن صنمي قريش، وجبتيهما، وطاغوتيهما، وإفكيهما، وابنتيهما اللذين خالفا أمرك، وأنكرا وحيك، وجحدا إنعامك، وعصيا رسولك، وقلبا دينك، وحرفا كتابك، وعطلا أحكامكم، وأبطلا فرائضك، وألحدا في آياتك، وعاديا

أولياءك، ووواليا أعداءك، وخرَّبا بلادك، وأفسدا عبادك، اللهم العنهما وأنصارهما، فقد أخربا بيت النبوة، وردما بابه، ونقضا سقفه، وألحقا سماءه بأرضه، وعاليه بسافله، وظاهره بباطنه، واستأصلا أهله، وأبادا أنصاره، وقتلا أطفاله، وأخليا منبره من وصييه ووارثه، وجحدا إمامته، وأشركا بربهما، فعظم ذنبهما، وخلدهما في سقر، وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر، اللهم العنهم بعدد كل منكر أتوه، وحقٍّ أخفوه، ومنبرٍ علوه، ومؤمنٍ أرجوه، ومنافقٍ ولوه، ووليّ آذوه، وطريد آووه، وصادق طردوه، وكافر نصروه، وإمام قهروه، وفرض غيَّروه، وأثر أنكروه، وشرٍّ آثروه، ودمٍ أراقوه، وخير بدلوه، وكفر نصبوه، وإرث غصبوه، وفيء اقتطعوه، وسُحت أكلوه، وخمس استحلُّوه، وباطل أسسوه، وجور بسطوه، وظلم نشروه، ووعد أخلفوه، وعهد نقضوه، وحلال حرموه، وحرام حللوه، ونفاق أسروه، وبطن فتقوه، وضلع دقوه، وصك مزقوه، وشمل بددوه، وذليل أعزوه، وعزيز أذلوه، وحق منعوه، وإمام خالفوه، اللهم العنهما بكل آية حرفوها، وفريضة تركوها، وسنة غيروها، وأحكام عطلوها، وأرحام قطعوها، وشهادات كتموها، ووصية ضيعوها، وأيمان نكثوها، ودعوى أبطلوها، وبينة أنكروها، وحيلة أحدثوها، وخيانة أوردوها، وعقبة أرتقوها، ودباب دحرجوها، وأزياف لزموها، وأمانة خانوها، اللهم العنهما في مكنون السر، وظاهر العلانية لعنًا كثيرًا دائبًا أبدًا دائما سرمدًا لا انقطاع لأمده، ولا نفاذ لعدده يغدو أوله، ولا يروح آخره لهم، ولأعوانهم، وأنصارهم، ومحبيهم، ومواليهم، والمسلمين لهم، والمائلين إليهم، والناهضين بأجنحتهم المقتدين بكلامهم، والمصدقين بأحكامهم، ثم يقول: اللهم عذبهم عذابًا يستغيث منه أهل النار آمين رب العالمين، أربع مرات، ودعا # في

قنوته: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، وقنعني بحلالك عن حرامك، وأعذني من الفقر إني أسأت، وظلمت نفسي، واعترفت بذنوبي، فها أنا، واقف بين يديك، فخذ لنفسك رضاها من نفسي، لك العتبى لا أعود، فإن عدت فعد على بالمغفرة، والعفو، ثم قال # : العفو العفو مائة مرة، ثم قال: أستغفر الله العظيم من ظلمي، وجرمي، و إسرافي على نفسي، وأتوب إليه، مائة مرة، فلما فرغ # من الاستغفار ركع، وسجد، وتشهد، وسلم". انتهى نص دعاء صنمي قريش الذي وضعه أعداء الله من الزنادقة أتباع عبد الله بن سبأ لعنهم الله لعنًا كبيرًا.

ونحن نلعنهم هنا اتّباعًا لسنة رسول الله ﷺ كما روى ذلك شيعي غير رافضي، وهو الحاكم في مستدركه بسنده عن الرسول ﷺ أنه قال: "إن الله -تبارك وتعالى- اختارني واختار لي أصحابًا، فجعل لي مني وزراء وأنصار وأصهار، فمن سبهم عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل" قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، أما ما ذكره المجلسي وغيره من شرح لهذا الدعاء الفجر طويل، ونحن في غنى عنه، وبعض ما جاء في نص الدعاء يكفي لبيان حقيقة هؤلاء الرافضة؛ سواء كانوا من الأسلاف أو كانوا من المعاصرين. ويدل دلالة واضحة على موقفهم ليس من أبي بكر وعمر فقط ،بل من كل الصحابة } أجمعين، ومن كل المسلمين الذين يوالون الصحابة ويحبونهم.

فهكذا عباد الله نجد أن زنادقة الرافضة استمرّوا في الأخذ بهذا الدعاء إلى عصرنا هذا، وهل أنكر هذا الدعاء الحكيم أو الخوئي أو الخميني، أو أحد مما لم يأخذ بالتقية من علماء الشيعة، نعوذ بالله من هذا الفكر الصراح البواح؛ فالأسلاف

أسسوا المذهب والمعاصرون صاروا عليه، ولم يغيّروه بل انتصروا له ودعوا إليه، وأقاموه له دولة، وجعلوا له ثورة، وحاولوا تصدير هذه الثورة إلى عالمنا السني إلى بلاد المسلمين، أهل السنة والجماعة، إن خطر المعاصرين لا يقلّ عن خطر الأسلاف؛ فالمعتقد واحد وإن كان المتأخرون لهم ما ليس للمتقدمين من القوة والثورة مع ضعف أهل السنة والجماعة.

مخالفة الشيعة وتطاولهم لآل البيت

أما مخالفة الشيعة لآل البيت وتطاولهم عليهم، فهذا أمر واضح على الرغم من أن الشيعة يزعمون أنهم يحبون آل البيت، وأحب أن أقول: إن الشيعة إذا تحدثت عن آل البيت فإنما تتحدث عن آل بيت علي > ، وليس عن آل بيت النبي ﷺ، فهم يحبون آل بيت علي خاصة الأئمة كما يعتقدونه، أما حبهم لآل بيت النبي ﷺ بصفة عامة فهذا لا نعرفه عن الشيعة، بل نعرف مخالفتهم لآل البيت وتطاولهم عليه، فقد جاء في كتبهم ما يدل على هذا التطاول وتلك الإهانة في روايات بدأت من إهانة الرسول ﷺ وإهانة علي والحسن والحسين، وأمهات المؤمنين } أجمعين.

يروي النعماني عن الإمام محمد الباقر # كما يقولون أنه قال: لما يظهر الإمام المهدي يؤيد بالملائكة، وأول من يبايعه محمد ﷺ، ثم علي # ، أليست هذه إهانة للنبي ﷺ بل إهانتهم للمهدي ذاته حين روى الشيخ الترسي والنعماني عن الإمام الرضا # أن من علامات ظهور المهدي أنه سيظهر عاريًا أمام قرص الشمس. وانظر أخي -رحمك الله- كيف يهنون رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين

عليًّا > ، ويدَّعون كذبًا وزورًا أنهما سيبايعان المهدي، ثم يفترون على المهدي أيضًا أنه سيظهر عريانًا هكذا بدون ثياب، أيّ دين هذا. وكيف يكون هذا حال المهدي، وكيف يكون هذا حال آل البيت، ثم نسبت الشيعة كذبًا وزورًا إلى النبي ﷺ من تمتَّع مرة كان درجته كدرجة الحسين، ومن تمتع مرتين فدرجته كدرجة الحسن، ومن تمتع ثلاث مرات كانت درجته كدرجة علي بن أبي طالب، ومن تمتع أربع مرات فدرجته كدرجتي.

وانظر إلى هؤلاء الحمقى، أفدرجة الحسين > هينة إلى هذا الحد أن من يطأ مرة في نكاح المتعة عندهم مزعوم يصير في درجة الحسين، إننا أهل السنة والجماعة نعتقد أن الرجل مهما عبد الله بشتَّى أنوع العبادات العظيمة؛ فإنه لا يستطيع بحال أن يبلغ درجة أدنى فرد من أصحاب رسول الله ﷺ فكيف بسيد شباب أهل الجنة وسبط رسول الله ﷺ ثم كيف بدرجة أخيه الأكبر الحسن، ودرجة والده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب > رابع الخلفاء الراشدين المهدين } أجمعين.

وأما عن بهتانهم ووقاحتهم في شأن سيد الأولين والآخرين، وأفضل الرسل أجمعين أن من تمتع أربع مرات تُصبح درجته كدرجته ﷺ، عياذًا بك اللهم، اللهم إنا نبرأ إليك مما يدّعي هؤلاء الخُبثاء، ونكل أمرهم إليك وأنت الجبار القهار، ولا حولا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وذكر الكليني في فروع (الكافي) أنه قال زرارة: "فلما ألقي طرق الصحيفة إذا كتاب غليظ يُعرف أنه من كتب الأولين، فنظرت فيها فإذا فيها خلاف ما في أيدي الناس من الصلة والأمر بالمعروف الذي ليس فيه اختلاف، وإذا عامته كذلك فقرأته حتى أتيت على آخره بخبث نفسٍ وقلة تحفظٍ، وإسقام رأي قلت: أنا أقرأه باطل حتى أتيت على آخره، ثم أدرجتها ورفعتها إليه، فلما أصبحت لقيت أبا جعفر # فقال لي:

أقرأت صحيفة الفرائض؟ قلت: نعم. فقال: كيف رأيت ما قرأت؟ قلت: باطل ليس بشيء، وهو خلاف ما الناس عليه إن الذي، قال: فإن الذي رأيت والله يا زارة هو الحق الذي رأيت إملاء رسول الله ﷺ، وخط علي بيده" وهذه إحدى روايات الكافي.

وكتاب (الكافي) هذا أعظم مرجع عند الشيعة، فانظر يا أخي أهناك إهانة في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب > ، وفي حق سيد الخلق أجمعين أكثر وأشدّ من أن ينسب إليهما تحرير فيه خلاف ما في أيدي الناس من الصلة والأمر بالمعروف أي: أن رسول الله ﷺ والعياذ بالله كان يأمر الناس عامة في كل حين بالصلة والأمر بالمعروف، ولكنه في الخلوة يُملي لسيدنا علي > بخلاف ذلك أي: بالقطيعة والأمر بالمنكر ونحوه، أفهناك بهتان أشنع من هذا، ثم انظر ما رأيك في دين الشيعة هؤلاء الذين يرون أن الدين الحقيقي هو الذي يدعيه زرارة كذبًا وافتراء، أنه أملاه رسول الله ﷺ وكتبه سيدنا علي > بخط يده، فيه أحكام بالقطيعة وأمر بالمنكر؛ فهل يصلح مثل هذا أن يكون دينًا.

وأما عقيدة الشيعة في إهانة أمهات المؤمنين فأمر لا يخفى على كبير ولا صغير، ذلك أنهم يعتقدون أن أمهات المؤمنين لسن من آل البيت مع أن الله ﷻ يقول: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]، وأنزل الله ﷻ في حق أمهات المؤمنين > ن-: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ومع ذلك فعقيدة الشيعة هي إنكار أن يكون أمهات المؤمنين من آل البيت؛ بل وأشدّ من ذلك ما ورَد عن المجلسي، محمد الباقر المجلسي في كتابه (حق اليقين): "وعقيدتنا -أي: الشيعة- في التبرؤ أننا نبرأ من الأصنام الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية، والنساء الأربع

عائشة وحفصة وهند وأم الحكم، ومن جميع أتباعهم وأشياعهم، وأنهم شرّ خلق الله على وجه الأرض، وأنه لا يتم الإيمان بالله ورسوله والأئمة إلا بعد التبرؤ من أعدائهم".

هذا واضح في إهانة عائشة وحفصة زوجات النبي ﷺ مع غيرهنّ مع أن الله ﷻ يقول عنهن: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٦]، ويروي ابن بابويه في كتابه (علل الشرائع) أنه قال: الإمام محمد الباقر # إذا ظهر الإمام المهدي فإنه سيحيي عائشة، ويقيم عليه الحد انتقامًا لفاطمة، وهذا في منتهى الوقاحة والبشاعة في حق الصديقة بنت الصديق { حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من فوق سبع سماوات، ولا ندري ما نُعلّق على هذه الأكذوبة، إننا نَكِل أمر الشيعة وأعلامهم، هؤلاء إلى الله الجبار القهَّار لينتقم منهم بحبيبته ﷺ ولآل بيته، وللصحابة } أجمعين، وقال شيخهم: مقبول أحمد في كتابه وترجمته لمعاني القرآن: إن قائدة الجيوش البصرة في وقعة الجمل عائشة قد ارتكبت فاحشة مبينة، حسب هذه الآية، وكأنه يُكّذب تبرئة الله ﷻ بأم المؤمنين عائشة فيما نزل في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾ [النور: ١١، ١٢]، الآيات قد نزلت في تبرئة السيدة عائشة > ، لكن الشيعة -عليهم لعنة الله- يلعنون عائشة ويتهمونها بالفاحشة، وإذا أردوا أن يسبّوا امرأة في عرضها قالوا لها: يا عائشة يعني يا زانية، أو يعني: يا عاهرة، يقولون هذا بعد أن أنزل الله ﷻ في حقها، وفي حق أمهات المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فإنها

نزلت في حق أمهات المؤمنين عامة وفي حق السيدة عائشة < خاصة؛ حيث أنزل الله ﷻ آيات سورة النور في طهارتها وعفتها وكمالها.

وهي صريحة في أن من يطعن فيها بالإفك ويخترع الروايات الكاذبة بالطعن فيها بإنه من عصبة المنافقين؛ إذ قال الله ﷻ في آخرها: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [النور: ١٧] كيف يتجرأ هؤلاء الشيعة ولا يستحيون من الله ولا من عباده، فيهنون أزواج النبي ﷺ، فإنه لا يرضى زوج أبدًا أن يتعرض أحد لزوجته، أو أن يطعن فيها أو يذلها بأيّ سورة كانت، بل إن الرجل الشهم ربما يتحمل ذُلّ نفسه لسبب ما، ولكن لا يمكن أن يتحمل الذل والإهانة والطعن في زوجته وأهله، أفنصدق الشيعة في طعنهم في أم المؤمنين عائشة < ونكذب الله ﷻ ما هذا؟ أيُّ دين هذا، وأي منطق هذا، وأي عقل هذا.

نعوذ بالله من هذا الضلال، وهذا البهتان، هذا وإهانة أهل البيت من بنات النبي ﷺ في عقيدة الشيعة واضح كذلك، بل إن الأمر وصل إلى إهانة سيدة النساء فاطمة الزهراء < ، فنحن نعلم أن بنات النبي ﷺ أربع السيدة زينب، السيدة رقية، السيدة أم كلثوم، السيدة فاطمة < ن أجمعين، وكذا ذهب إلى هذا الأمر عامة الشيعة أيضًا إلا أن الشيعة الهند والباكستان أنكروا البنات الثلاثة، وأثبتوا للرسول ﷺ بنتًا واحدة فقط، وهي السيدة فاطمة الزهراء، أما الثلاثة الباقيات فأثبتوهنّ لغير رسول الله ﷺ مخالفين صريح الوحي الإلهي ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]، وما ذلك لأجل العداوة مع عثمان بن عفان ذي النورين < ؛ كي لا يتحقق له الشرف السامي والمجد الموصل؛ حيث زوجه النبي ﷺ بابنتيه رقية وأم كلثوم } ، ولذا سمي بذي النورين < قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فالله

ذكر البنات بصيغة الجمع التي تدلّ على تعدد بناته ﷺ وكتب علماء الشيعة تزوج خديجة < ، وهو ابن بضع وعشرين سنة ، فولد له منها قبل مبعثه القاسم ورقية وزينب وأم كلثوم ، وولد منها بعد مبعثه الطيب والطاهر وفاطمة -عليها السلام.

كذا قال أئمة المعصومون عند الشيعة وعلمائهم صريحة في تعدد بنات النبي ﷺ ومع ذلك أنكر من أنكر بقية بنات النبي ﷺ حتى لا يُنسب هذا الشرف لعثمان < ، وذكروا في أمر فاطمة < : أنه لما زوج رسول الله ﷺ فاطمة دخل عليها وهي تبكي فقال لها : ما يبكيكِ فوالله لو كان في أهلي خير منه ما زوجتك ، وما أنا أزوجه ، ولكن الله زوجك".

وذكر أيضًا الكليني في فروع (الكافي) أن فاطمة -عليها السلام- قالت لرسول الله ﷺ : "زوجتني بالمهر الخسيس ، فقال لها رسول الله ﷺ : ما أنا زوجتك ، ولكن الله زوجك من السماء". وقال الإمام محمد الباقر # في (كشف الغمة) : "بأنه اشتكت يومًا فاطمة إلى النبي ﷺ أن عليًّا ما يأتيه من الأموال يُقسمها بين الفقراء والمساكين"، فقال ﷺ : "أتريدين أن أسخط أخي وابن عمي ، اعلمي أن سخطه سخطي ، وسخطي سخط الله. فقالت : فاطمة إني أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله".

ويظهر من هذه الروايات أن السيدة فاطمة < كانت غير راضية بالزواج من سيدنا علي < بسبب فقره وقلة المهر ، وفيه إهانة عظيمة لسيدة نساء أهل الجنة ، فإنها < كانت من أزهد الناس في هذه الدنيا الفانية ، وأرغبهنّ إلى الدار الآخرة ، وكيف يتصوّر من مثلها أنها لا ترضى بهذا الزواج المبارك بسبب دنيا أو

مال بسيط، ومهر خسيس، حشاها من ذلك. وهل يمكن أن تكون تكره من سيدنا علي > أنه ينفق المال على الفقراء والمساكين، حتى تشتكيه إلى رسول الله ﷺ هل ذلك ممكن وهي الكريمة بنت الكريم، عجبًا للشيعة كيف يدَّعون محبة السيدة الطاهرة الزهراء، وقد نسبوا إليها هذه الأمور الدنيئة التي لا تليق بامرأة شريفة، فكيف بالزهراء > وأرضاها.

قد أورد روايات أخرى في حق السيدة البتول الزهراء > وهي تخاطب زوجها بأسلوب لا ترتضيه أيُّ زوجة عاقلة شريفة في يومنا هذا أن تُخاطب به زوجها، فكيف تفعل هذه السيدة الطاهرة فاطمة > بنت النبي ﷺ؛ إنما أوردوه من روايات في حق السيدة الزهراء إنما هو من باب الإهانة للزهراء > ولسيدنا علي > ومع ذلك يدَّعون حبهم لفاطمة، ويريدون هذه الروايات التي وضعوها كذبًا وزورًا.

ومن إهانتهم لآل البيت أيضًا ما قالوه في حق العباس > وابنه عبد الله بن العباس { حيث روى الكليني: أنه سأل صغير الإمام محمد الباقر أين كانت غيرة بني هاشم وشوكتهم وكثرتهم بعد وفاة رسول الله ﷺ حين غُلب علي من أبي بكر وعمر وسائر المنافقين، فأجاب الإمام محمد الباقر: من كان باقيًا من بني هاشم جعفر وحمزة اللذين كانا من السابقين الأولين، والمؤمنين الكاملين قد ماتا والاثنان اللذان كانا ضعيفي اليقين، وذليلي النفس وحديثي عهد بالإسلام قد بقيا العباس وعقيل. كذا ترى الشيعة رأيها في العباس وعقيل.

كما أهانوا ابن عباس } في تفسير الآية الكريمة: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢] قالوا: نزلت في حق عبد الله بن

عباس وأبيه، ويظهر من هذه الروايات واضحًا إهانتهم لعم المصطفى ﷺ سيدنا العباس > ، وكذا سيدنا عقيل، واتهامهما بالخذلان وضعف اليقين، وعدم كمال إيمانهم، وإهانة العباس وابنه حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس { والعياذ بالله، وأن الآية نزلت فيهما مع أن الآية نزلت في حق الكفار، فنعوذ بالله من كل زيغ وإلحاد.

رأي الشيعة في الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-

فلئن كان هذا رأي الشيعة فيمن ذكرنا من آل البيت؛ فماذا تقول عن الباقين منهم، وماذا تقول عن رأي الشيعة الأقدمين والمعاصرين في الخلفاء الراشدين، وفي الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- نقل الكليني في فروع (الكافي) عن أبي جعفر # : كان الناس أهل ردّة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة فقلت: من الثلاثة؟ فقال المقداد بن الأسود: أبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي، وذكروا في تفسير فرعون وهامان أن المراد بهما أبو بكر وعمر، والعياذ بالله.

وذكر محمد الباقر المجلسي رواية قال فيها: قال سلمان: ارتدَّ الناس جميعًا بعد رسول الله ﷺ إلا الأربعة، وصار الناس بعد الرسول بمنزلة هارون وأتباعه، وبمنزلة العجل وعباده فكان علي بمنزلة هارون وأبو بكر بمنزلة العجل، وعمر بمنزلة السامري. وذكر القشي في كتابه (رجال قشي) صاحب معرفة أخبار الرجال قال: قال أبو جعفر # : ارتد الناس إلا ثلاثة نفر سلمان وأبو ذر والمقداد، قال: قلت فعمار؟ قال: قد كان جاض جيضة ثم رجع، ثم قال: إن أردت الذي لم يشق ولم يدخله شيء فالمقداد، وأما سلمان فإنه عرض في قلبه

عارض، وأما ذر فأمره أمير المؤمنين بالسكوت، ولم يكن تأخذه في الله لومة لائم فأبى أن يتكلم.

ونقل القشي أيضًا عن أبي جعفر # قال: كان الناس أهل ردَّة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة، فقلت: من الثلاثة؟ فقال المقداد بن الأسود: وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي، ثم عرف الناس بعد يسير، وقال: هؤلاء الذين دارت عليهم الرحى، وأَبَو أن يبايعوا لأبي بكر.

وهكذا تمضي رواياتهم في إهانة الصحابة } والخلفاء الراشدين خاصة، وقد بنت الشيعة عقيدتها على إهانة أمهات المؤمنين > ن، وهم حين أثبتوا لأئمتهم العصمة كالرسول ﷺ، وأنهم -أي: الأئمة- أفضل من سائر الأنبياء، وأنه طاعتهم والإيمان على إمامتهم، كما يجب الإيمان بالرسول ﷺ تجب طاعته. وقد زعموا لأئمتهم من الصفات والفضائل ما لم تثبت لأحد إلا لله ﷻ، فمنذ ادَّعوا لأئمتهم أنهم يعلمون علم ما كان وما يكون، ويعلمون وقت موتهم، بل ولا يموتون إلا باختيارهم، وعندهم عصى موسى وخاتم سليمان -عليهما السلام، والاسم الأعظم وسلاح الإمامة، وأنهم أشجع الأمة وغير ذلك من الفضائل من ناحية، فمن ناحية أخرى رغم ما أثبتوا لهم من هذه الفضائل والخوارق والمعجزات والخرافات ما يتبرر ويخجل منها أيّ إنسان عامي أن يثبتها لنفسه، وتُنسب إليه لما فيها من العار والذل، فمثلًا أثبتوا لهم أنهم كانوا منافقين وجبناء، وأنهم يكذبون، وهلمَّ جرًّا.

ونودُّ أن نضع بين يديك طائفة من أقوالهم ورواياتهم التي أُخذت من أمهات كتبهم، والتي مرجع مذهبهم؛ فإنهم كتبوا في تزوج عمر > بأم كلثوم بنت

علي { قال الإمام جعفر الصادق: هي أول فرج غصبناه، ونعوذ بالله من هذه الوقاحة في حق السيدة ووالدها وإخوانها علي والحسنين } .

ولاحظ عبارة محمد الباقر المجلسي أحد أعلام الشيعة في تعليقه على هذه الرواية حيث يقول: تدل على تزويج أم كلثوم من الملعون المنافق عمر بن الخطاب ضرورة وتقية، ألا من سائل يسأل هذا أين كانت حين إذًا شجاعة أسد الله الغالب سيدنا علي بن أبي طالب، وغيرته، وشهامته، وكذا بنيه الحسن والحسين { . وقال زين العابدين ليزيد: قد أقررت بما سألت، وأنا عبد مكره لك، فإن شئت فأمسك وإن شئت فبع. فكيف يعترف الإمام المعصوم عند الشيعية بعبديته ليزيد، وهو ما هو.

ونقل الكليني عن ابن أبي عمير الأعجمي قال: قال لي أبو عبد الله # : يا أبا عمر إن تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين ممن لا تقية له، والتقية في كل شيء إلا في النبيذ والمسح على الخفين، ونقلوا نقولًا عن الأئمة دلّت على أنهم لا يقولون الحق، وكانوا يخافون ويخشون الناس، والعياذ بالله.

وإذا كان هذا كلامهم في الأئمة، وفي آل البيت، فكيف بمن سواهم، نقُولٌ كثيرةٌ أضرب الذكر عنها صفحًا يُفهم منها أن الأئمة كانوا يكتبون المسائل مرة ويحرفونها أخرى، ويغيرون أجوبتهم من شخص إلى آخر، وأن الكتمان في المسائل هو معظم دينهم؛ بل روى عنهم كذبًا وزورًا: "أن الذي يكتم الدين يعزّه الله، وأن الذي يظهره يُذله الله".

إذا كان هذا شأن الأئمة المعصومين عندهم، فبالله عليك كيف الاعتماد على هؤلاء الأئمة، أفليسوا هم أشبه بعلماء اليهود في تحريف الدين وكتمانه، وهذا

كله طعن وإهانة شنيعة في حق أئمة أهل البيت، وحاشاهم من هذه الأقوال الزائغة، وهذه الروايات الزائفة، كيف ينقلون عن جعفر أنه الكذَّاب وهو ابن الإمام النقي هو أحد الأئمة المعصمين عند الشيعة، وشقيق الإمام حسن العسكري، وهذا أيضًا أحد الأئمة الاثنا عشر المعصمين عند الشيعة، وجعفر هذا من آل علي وفاطمة، ومن سلالة الحسين وزين العابدين. فكيف دعواهم الباطلة بحبهم لآل البيت.

إن هذا سلسلة نسبه هي السلسلة الذهبية، ولكنه عند الشيعة محب آل البيت يلقب بجعفر الكذاب، فيا سبحان الله ففي الرواية عن جدّ عن رسول الله ﷺ قال: "إذا ولد جعفر بن محمد بن علي فسموه صادقًا لأنه إذا ولد من أولاده الخامس والذي يُسمَّى بجعفر، ويدَّعي الإمامة كذبًا، ويفتري على الله وهو عند الله جعفر الكذاب.

هكذا روايات وروايات كلها إهانات لآل بيت النبي ﷺ لم يَسْلم منها علي، ولا الحسن ولا الحسين، ولا فاطمة، ولا الأئمة، وهذا دين الشيعة، وهذه مخالفتهم، وهذه معتقداتهم في آل البيت، وتطاولهم عليهم، وإهانتهم لهم، ونعوذ بالله ﷻ من هذا الكفر، وهذا الضلال والزيغ والضياع

(الشيعة (٥))

عناصر الدرس

أثـــر الـــشيعة في العـــالم الإســـلامي والحكـــم عليـــه

إن معتقد الرافضة في أهل السنة هو الاعتقاد بأنهم كفَّار منافقون، ضُلَّال مارقون عن الإسلام، نواصب، وعلى دعاة التقريب من المنتسبين للسنة أن يُدركوا حقيقة عقيدة الرافضة في أهل السنة، وسيدركون عندها أن التقارب حيلة يُراد من ورائها الكيد لأهل السنة بإفساد عقائدهم، وسفك دمائهم، وهتك أعراضهم، وتخريب ديارهم، وتقويض خيامهم، وسائر التاريخ ينبئكم بما فعل الشيعة من قبل ذلك.

وإليك نبذة من عقيدته في أهل السنة حتى يستبين لك الأمر الذي تنطوي عليه قلوبهم؛ لمعرفة ما يكون من أثرهم إذا ما سادوا وقادوا، فأهل السنة عندهم كُفَّار مخلدون في النار كما روى البرقي عن أبي عبد الله # أنه قال: ما أحد ملة إبراهيم إلا نحن وشيعتنا، وسائر الناس منها براء. وفي (تفسير القمي) عن أبي عبد الله أنه قال: ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم -يعني: الشيعة- إلى يوم القيامة، نحن آخذون بحجزة نبينا، ونبينا آخذ بحجزة ربنا، وشيعتنا آخذون بحجزتنا من فارقنا هلك ومن تبعنا نجا، والمفارق لنا والجاحد لولايتنا كافر، ومتبعنا متبع أوليائنا مؤمن.

وروى الصدوق في ثواب الأعمال عن الصادق أنه قال: إن الناصب -قلت: يعني بالناصب السني- إن الناصب لنا أهل البيت لا يُبالي صام أم صلى، زنا أم سرق إنه في النار. وعن أبان بن تغلب قال: قال أبو عبد الله # : كل ناصب وإن تعبد واجتهد يصير لهذه الآية: ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٣، ٤]. عن

علي الخدمي قال: قال أبو عبد الله # : إن الجار ليشفع لجاره، والحميم لحميمه، ولو أن الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين شفعوا في ناصب ما شُفّعوا. وعن أبي عبد الله أنه قال: وأعداء علي أمير المؤمنين هم الخالدون في النار، وإن كانوا في أديانهم على غاية الورع والزهد والعبادة، والمؤمنون بعلي # هم الخالدون في الجنة وإن كانوا في أعمالهم مسيئين على ضدّ ذلك.

وعنه أنه قال: وخلق أرواح شيعتنا من طينتنا، وأبدان من طينة مخزونة مكنونة أسفل من ذلك الطينة، ولم يجعل الله لأحد في مثل الذي خلقهم منه نصيبًا إلا للأنبياء؛ لذلك صرنا نحن وهم الناس، وصار سائر الناس همج للنار وإلى النار، يعتقد الرافضة تحريم نكاح السنية وتحريم تزويج السني، فعن فضيل بن يسار قال: سألت أبا عبد الله # عن نكاح الناصب فقال: لا والله ما يحل. وعن أبي عبد الله قال: تزوج اليهودية والنصرانية أفضل، أو قال: خير من تزوج الناصب والناصبة. وعنه # قال: لا ينبغي للرجل المسلم أن يتزوج الناصبية، ولا يزوج ابنته ناصبًا، ولا يطرحها عنده. قال الطوسي في (تهذيب الأحكام): ولا يجوز نكاح الناصبة المظهرة لعداوة آل محمد # ، ولا بأس بنكاح المستضعفات منهي، يدل على ذلك ما ثبت من كون هؤلاء كفارًا بأدلة ليس هذه موضع شرحها.

وإذا ثبت كفرهم فلا تجوز مناكحتهم، وفي (مستدرك الوسائل) باب تحريم تزويج الناصب بالمؤمنة والناصبية بالمؤمن، أما ذبيحة السني فهي محرمة على الرافضة، فعن فضيل بن يسار عن أبي جعفر # قال: ذكر الناصب فقال: لا تناكحهم، ولا تأكل ذبيحتهم، ولا تسكن معهم، وإباحة مال السني وكل ما يملك كما جاء في كتاب (تهذيب الأحكام) لشيخ الطائفة الطوسي عن أبي عبد الله # قال: خذ مال الناصب حيثما وجدته، وادفع إلينا الخمس. وروي عنه أيضًا أنه قال:

مال الناصب وكل شيء يملكه حلال لك إلا امرأته، فإنه نكاح أهل الشرك جائز، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: لا تسبوا أهل الشرك فإن لكل قوم نكاحًا، ولولا أننا نخاف أن يقتل رجل منك برجل منهم، والرجل منكم خير من ألف رجل منهم، ومائة ألف منهم لأمرناكم بالقتل لهم، ولكن ذلك إلى الإمام.

وفي هذا النص الخطير إباحة ما يملك السني للرافضة، وتكفير أهل السنة وتسميتهم مشركين، وإباحة دمائهم للرافضة، ولا يمنع قتل الرافضي للسني إلا حيث يخشى أن يُقتل الرافضي، ولذلك يوكل النظر في قتله إلى الإمام حتى يقدر المصلحة في القتل، وليس المانع من قتله عصمة دمه عندهم، وكل سني عندهم مأبون يعني: مفعول به، كل سنية الفاجرة. روى العياشي في تفسيره عن جعفر الصادق أنه قال: ما من مولود يولد إلا وإبليس من الأبالسة بحضرته، فإن علم الله أن المولود من شيعتنا حجبه من ذلك الشيطان، وإن لم يكن المولود من شيعتنا أثبت الشيطان أصبعه السبابة في دبره فكان مأبونًا، فإن كانت امرأة أثبت في فرجها فكانت فاجرة.

والسني نجس الذات عند الرافضة، بل وأشدّ نجاسة من الكفار، كما أخرج الشيخ الصدوق في (علل الشرائع) بسنده عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله # أنه قال له: إياك أن تغتسل من غسالة الحمام، ففيها يجتمع غسالة اليهودي والنصراني والمجوسي والناصب، والناصب لنا أهل البيت وهو شرهم، فإن الله -تبارك وتعالى- لم يخلق خلقًا أنجس من الكلب، وإن الناصب لنا أهل البيت أنجس منه. عن خالد القلانسي قال: قلت لأبي عبد الله # : ألقى الذمي فيصافحني؟ قال: أمسحها بالتراب وبالحائط قلت: فالناصب؟ قال: اغسلها.

فانظر كيف جعلت الرافضة السنية أشد نجاسة من الكافر، مع أن الكافر أصلًا ليس نجس العين، فإن الكافر نجاسته نجاسة معنوية؛ لهذا كان النبي ﷺ يستقبل المشركين ويدخلهم المسجد، كما فعل مع ثمامة بن أثال ووفد نصارى نجران، وفي معتقد الشيعة كراهة استرضاع السنية، رووا عن جعفر بن محمد أنه قال: رضاع اليهودية والنصرانية أحب إلي من إرضاع الناصبية. وبماذا يدعو الرافضي إذا صلى على جنازة السني؟ في (الهداية) للصدوق: إذا صليت على ناصبي فقل بعد التكبيرة الخامسة: اللهم اخز عبدك في عبادك وبلادك، اللهم أصليه أشدّ نارك، وأذقه حرَّ عذابك، فإنه كان يوالي أعداءك، ويعادي أولياءك، ويبغض أهل بيت نبيك، فإذا رفع فقل: اللهم لا ترفعه ولا تزكه، ومن ثمَّ انبنى على هذا إباحة دماء أهل السنة، ولا عجب في هذا، فإذا اعتقدوا كفرهم وخلودهم في النار، فلا عجب إذا استحلوا دماءهم، وهم يقرّرون هذا في كتبهم صراحة لا تلميحًا، بل وينصون على خُطط إبليسية يُقتل به السني مع إخفاء آثار الجريمة، فعن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله # : ما تقول في قتل الناصب؟ قال: حلال الدم، لكن أتقي عليه، فإن قبلت أن تقبل عليه حائط، أو تغرقه في الماء لكي لا يشهد به عليك أحد فافعل.

وهذا نقل آخر يتباهى فيه الرافضي بحدث تاريخي اغتال فيه رافضي خمسمائة من أهل السنة، ثم يتهكم بمقدار الكفارة التي فُرضت عليه عن كل رجل منهم بفتوى إماميه بزعمه، لا لأنه قتل ولكن لكونه لم يستأذن، وقد بلغ الدية أقل من دية كلب أو تيس، وهما خير من السني، قال نعمة الله الجزائري: وفي الروايات أن علي بن يقتين -وهو وزير الرشيد- قد اجتمع في حبسه جماعة من المخالفين، وكان من خواصّ الشيعة، فأمر غلمانه فهدموا ثقف المحبس على المحبوسين فماتوا

كلهم، وكانوا خمسمائة رجل تقريبًا فأراد الخلاص من تبعات دمائهم، فأرسل إلى الإمام مولانا الكاظم # فكتب إليه جواب كتابه بإنك لو كنت تقدمت إلينا قبل قتلهم؛ لما كان عليك شيء من دمائهم ، حيث إنك لم تتقدم إليه، فكفر عن كل رجل قتله منهم بتيس، والتيس خير منه.

فانظر إلى هذه الدية الجزيلة التي لا تُعادل دية أخيهم الأصغر، وهو كلب الصيد، فإن ديته عشرون درهمًا، ولا دية أخيهم الأكبر وهو اليهودي أو المجوسي، فإنها ثمانيمائة درهم، وحالهم في الآخرة أخسّ وأبخس. يشهد التاريخ شهادة حق وصدق أن الرافضة طالما ولغوا في دماء المسلمين متى أمكنتهم الفرصة، ولو لم يكن إلا خبر سقوط بني العباس على يد التتار بمؤامرة رافضية، اشترك فيها جماعة منهم النصير الطوسي، وابن العلقمي؛ لكفى بها عبرة لمن يعتبر، ولولا خشية الإطالة لذكرت الخبر بطوله، فمن شاء يطالعه فليرجع إلى كتب التاريخ التي تحدثت عن سقوط بغداد، كتاريخ ابن كثير -رحمه الله تعالى- ، ويكفي أن تعلم أن عدد القتلى بلغ قرابة مليوني نسمة، فيهم الخليفة وأهله والوزراء، والعلماء، والأئمة، والخطباء، وحفاظ القرآن، وغيرهم، واختبأ كثير من الناس مدة أربعين يومًا بين الأوساخ والقاذورات، فخرج من خرج منهم حيًّا متغيرًا لا يكاد يعرف أحدًا، ثم انتشرت الأوبئة والطواعين، فهلك بالأمراض جمٌّ غفير ممن نجا من الموت بالذبح حتى لا يقال: بأن هذه تهمة يرمي بها السنة الرافضة، فإليك شهادة على القوم من أنفسهم، يقول الخوان ساري في ترجمة النصير الطوسي منوهًا بجريمته التاريخية في حق الإسلام وأهله: ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشد هولاكو خان، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد، لإرشاد

العباد وإصلاح البلاد، بإبادة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطغاة إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار؛ فانهار بها في ماء دجلة ومنها إلى جهنم دار البوار. (روضات الجنات) الأخوان سري.

وفي العصر الحاضر يقول الخميني مستنبطًا من قصة النصير الطوسي، ومستدلًّا بها: "إن من باب التقية الجائزة دخول الشيعي في ركب السلاطين، إذا كان في دخوله الشكلي نصر للإسلام والمسلمين مثل دخول نصيري الدين الطوسي" هم إذا لا يبرّءونه من هذه التهمة بل يعدونها من أعظم مفاخره، ومن كان هذا سابق تاريخهم، وماضي أسلافهم، فماذا يُنتظر من أحفادهم إلا السير على طريقهم، والحذو على منوالهم، والسعي لكيد الإسلام وأهله، نسأل الله أن يكفَّ بأسهم، والله أشد بأسًا وأشد تنكيلًا، وإذا كانت الرافضة تعتقد بطلان ولاية الخلفاء الراشدين الثلاثة، فالمتوقع منهم أن يروى صحة ولاية الحكومات الإسلامية المعاصرة، هيهات إنهم يفضلون أن تحكم النصارى المقدسات الإسلامية مكة والمدينة على أن يحكمها أهل الإسلام والتوحيد. نقل الشيخ رشيد رضا: أن الرافضي أبا بكر العطاس قال: "إنه يفضل أن يكون الإنجليز حكامًا في الأراضي المقدسة على ابن سعود".

قال حسين الخرساني: "إن طوائف الشيعة يترقّبون من حين وآخر أن يومًا قريبًا آتٍ يفتح الله لهم تلك الأراضي المقدسة لمرة أخرى، كذا ليدخلوها آمنين مطمئنين، فيطوفوا ببيت ربهم ويؤدُّوا مناسكهم، ويزوروا قبور سادتهم ومشايخهم، ولا يكون هناك سلطان جائر يتجاوز عليهم بهتك أعراضهم، وذهاب حرمة إسلامهم، وسفك دمائهم المحقونة، ونهب أموالهم المحترمة ظلمًا وعدوانًا، حقّق الله تعالى آمالنا" كذا زعم في كتابه (الإسلام على ضوء التشيع).

وأنا أقول خيَّب الله آمالهم، وأدام على بلاد الحرمين نعمة الأمن والاستقرار وتحكيم الشريعة، يا عباد الله كيف نُصدق من يتخذ الكذب دينًا إني لأعجب غاية العجب ممن يركض وراء وعود الرافضة، وينخدع بأباطيلهم، والكذب شعارهم ودثارهم؛ فما عُرف الكذب في أمة ولا ملة كما عُرف في الرافضة، ومعلوم أن التقية ركن من أركان إيمانهم، والتقية هي الكذب لا غير: إنه الإخبار بخلاف الواقع، وتسمية الكذب تقية كتسمية الخمر مشروبًا روحيًّا، وكتسمية الزنا متعة أو لهوًا بريئًا؛ فالأسماء لا تغير من حقائق الأسماء شيئًا، وحتى ترى منزلة الكذب عند الشيعة فاقرأ نصوص الشيعة في كتبهم.

روى الكليني عن أبي جعفر أنه قال: التقية من ديني ودين آبائي، ولا إيمان لمن لا تقية له، وروى أيضًا عن أبي عبد الله أنه قال: إن تسع أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له، ونسبوا إلى النبي ﷺ أنه قال: "مثل مؤمن لا تقية له كمثل جسد لا رأس له". ورووا عن الباقر أنه قال: خالطوهم بالبرانية وخالفوهم بالجوانية، إذا كانت الإمرة صبيانية. إلى غير ذلك من نصوص كثيرة التي تُقرر الكذب، وتحثّ عليه وتجعله ركنًا أساسًا من أركان الإيمان لا يتم إلا به، في مرويات أن أئمتهم الكذب في التعامل مع السنة، والكذب في التعامل فيهما بينهم أنفسهم، والكذب في الفتوى؛ حيث لا خوف على نفس ولا عرض، والكذب في كل شيء. قال الخميني: ثم إنه لا يتوقف جواز هذه التقية، بل وجوبها على الخوف على نفسه أو غيره، بل الظاهر أن المصالح النوعية صارت سببًا لإيجاب التقية؛ فتجب التقية وكتمان السر لو كان مأمونًا وغير خائف على نفسه.

والمقصود هنا أنه إذا كانت الرافضة تدين بالتقية وتؤمن بها، فكيف يمكن أن نقبل دعوتهم إلى التقارب، ونسيان الخلافات التاريخية بينهم وبين الرافضة، كيف نثق

فيمن يزعمونه من إظهار الصفاء والمودة وسلامة القصد، ودينهم أساسًا يقوم على الكذب والخداع. إن العاقل لا يمكن أن يثق بقوم هذا شأنهم أبدًا، وصدق موسى جار الله حيث يقول: إذا تقررت التقية أدبًا دينيًّا، فقلب كل شيعي في غلاف التشيع يكون مستورًا وراء التقية، لا يبقى لقوله قيمة، ولا يبقى لعمله صدق، ولا لوعده وعهده وفاء.

إن الاختلافات بين عقائد الرافضة وعقيدة أهل السنة اختلاف بعيد بعيد، والدعوة إلى التقارب من أبعد المستحيلات، وما أدقَّ ما قاله أحد علماء الرافضة في تصوير البعد بين الفريقين حيث يقول: إن مذهب الإمامية ومذهب أهل السنة عينان تجريان إلى مختلف الجهات، وإلى القيامة تجريان، هكذا متباعدتين لا يُمكن اجتماعهما أبدًا؛ مما يزيد استحالة التقارب أن كثيرًا من دُعاة التقارب في الوقت الذي يدعون فيه إلى التقارب نجدهم يعلنون في محاضرتهم، ويقررون في مؤلفاتهم عامة مسائل الخلاف الأصلية، فأي تقارب هذا؟

ذكر محب الدين الخطيب في خطوطه العريضة أن الرافضة فتحوا مراكز التقرير في بلاد أهل السنة، ولكنها لم تفتح مركزًا واحدًا لأهل السنة في بلادها، فأي تقارب هذا؟ وذكر أيضًا أن بعض مراكز نشر الرفض أصدر في أوجه نشاط الدعوة إلى التقارب كتاب الزهراء الذي اتهموا فيه الفاروق بالشذوذ الجنسي، والعياذ بالله. وهكذا نجد اليوم أيضًا بعض أشهر دُعاة التقارب يصرّح بلعن خالد بن الوليد > ، وآخر يصرّح بلعن معاوية > فأي تقارب هذا؟

إن حقيقة ما نراه من دعوى التقارب والجهود المبذولة في سبيله ما هو إلا سعي حثيث لخلخلة العقيدة في قلوب أهل السنة، ونشر عقائد الرافضة، وبثها في

المجتمعات الإسلامية السنية، وما لم يجتهد أهل الحق في نشر السنة، وبيان ما يخالفها بالحجة والبرهان؛ فإنهم سيُفسدون كثيرًا، فإن البلاد الإسلامية كانت أولًا على السنة في عصورها الأولى يوم فتحها الصحابة، وما انتشرت فيها العقائد الباطلة إلا بسبب غفلة أهل الحق وتكاسلهم، ونشاط دُعاة الرفض والتصوف وغيرهم من دُعاة الفرق الهالكة، فغيروا كثيرًا، وأفسدوا فسادًا كبيرًا.

دعـــوة التقريــــب بـــين الـــــسنة والــــشيعة

هذا ولعلماء الإسلام وعلماء الأزهر مواقف عظيمة، وفتاوى صريحة تُبيّن الموقف من دعوة التقريب بين السنة والشيعة، تبين حكم الشيعة في نظر أهل السنة، وحكم الشيعة في القرآن والسنة، فلقد صدرت آراء من دعاة التقريب بين المذاهب الإسلامية يثنون فيها على مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، على أن لهذه الطائفة أصولها المستمدة من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله ﷺ ولعله لا يكون من السهو أن يفوت هؤلاء أن هذا المذهب يقول بردة الصحابة جميعًا بعد وفاة الرسول ﷺ إلا قليلًا منهم. وأن أبا بكر وعمر كافران ملعونان، فهل يجوز المسلمين تقليدهم في ذلك؟ وأن يكون من المسلمين من يلعن أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة } أجمعين- أو يقول بكفر الصحابة، وأن هذا المذهب يقول بكفر المسلمين من غير الشيعة الحاضرين والماضين؛ فالمسلمون في رأيهم كفَّار حكامهم ومحكوموهم في نظرهم.

والذي دعاهم إلى ذلك أنهم يجعلون الإمامة بإمامة علي ومن بعده من أبنائه جزءً من الإيمان، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فمن لم يؤمن

بالأئمة من أهل البيت لم يكن مؤمنًا، ولذلك كفَّروا الصحابة الذين قالوا بإمامة أبا بكر وعمر وعثمان، وكفروا هؤلاء الخلفاء؛ لأنهم أخذوا ما ليس لهم من الإمامة، ولذلك كفروا المسلمين الحاضرين والماضين الذين لا يقولون بالإمامة، التي جعلوها جزءً من الإيمان، وجعلوا حكَّامهم أهل جور؛ لأنهم لم يستمدوا حكمهم من الأئمة المعصومين ذوي الحق، وجعلوا الرعية كفارًا؛ لأنهم اتبعوا أئمة الجور ولم يؤمنوا بإمامة الأئمة من أهل البيت فهل يجوز تقليد هذا المذهب في ذلك، وهل نقول للمسلمين لكم أن تقلدوا هذا المذهب فيما ذكرناه، فيكفر بعضهم بعضًا وتقوم عداوة بين الحاكمين والمحكومين بعضهم وبعض.

وهذا المذهب يقول: إن هذا القرآن الذي بأيدي الناس ليس هو القرآن كله، وإن عليًّا هو الذي جمعه كله، فهل يجوز للمسلمين تقليده في ذلك؛ إن ما نسبناه إليهم ينبغي ألا نتركه حتى نبين نسبته إليهم من كتبهم المعتبرة، التي جعلوها أصول هذا المذهب، والتي عندهم كالبخاري عندنا. أما إن هذا المذهب يقول بردة الصحابة، فنحن نستدل عليه بما ورد في (الوافي) في الباب العشرين منه قال: عن أبي جعفر # قال: ارتد الناس إلى ثلاثة نفر: سلمان وأبو ذر والمقداد، قيل: فعمار قال: كان حاص حيصة ثم رجع، ثم قال: إن أردت الذي لم يشك، ولم يدخله شيء فالمقداد، فأما سلمان فإنه عرض في قلبه أن عند أمير المؤمنين اسم الله الأعظم، لو تكلم به لأخذتهم الأرض، وهو هكذا، أما أبو ذر فأمره أمير المؤمنين بالسكوت ولم تأخذه في الله لومة لائم فأبى إلا أن يتكلم. إلى آخر رواياتهم في هذا الباب.

أما وإن مذهب الشيعة يسيء الظن بجميع المسلمين الذين لا يؤمنون بإمامة أهل البيت، فيدل عليه بعض الأحاديث التي رووها في أصول (الكافي)، هذا الغلو في

تكفير من عاداهم ممن لا يقول بنحلتهم أدَّى إلى العداوة والبغضاء بين السني والشيعي؛ حتى كانت العداوة بينهم أشد بين المسلم والكافر. وأما ما نسبناه إلى مذهب الشيعة من أنه يرى أن الإيمان بالإمامة جزءًا من الإيمان كالإيمان بالله والنبوة واليوم الآخر، فيدل على ما ورد في أصول (الكافي) للكليني عن أبي حمزة قال: قال لي أبو جعفر: إنما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله؛ فإنما يعبده هكذا ضلالًا. قلت: جعلت فداك فما معرفة الله؟ قال تصديق الله ﷻ وتصديق رسوله، وموالاة علي، والإتمام بهم، وبأئمة الهدى -عليهم السلام، والبراءة إلى الله من عدوهم، وهكذا يعرف الله، ومن لا يعرف الإمام منا أهل البيت؛ فإنما يعرف ويعبد غير الله.

وقال أبو عبد الله: "من ادَّعى الإمامة وليس من أهلها فهو كافر"، وقال أبو جعفر: "كل من دام الله بعبادة يجهد فيها نفسه، ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول". وقال قال الله تبارك وتعالى: "لأعذبن كل رعية في الإسلام دانت لولاية كل إمام جائر ليس من الله" إلى آخر هذه الروايات التي نقلوها في تكفير أهل السنة لعدم اعتقادهم بإمامة الأئمة.

وأما ادَّعاؤهم تحريف القرآن، ففي الكتاب الحجة من أصول (الكافي) باب الذكر فيه الصحيفة، والجفر والجامعة، ومصحف فاطمة -عليها السلام- عن أبي عبد الله # : "وإن عندنا مصحف فاطمة -عليها السلام- مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد". وفي باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة -عليهم السلام- وأنهم يعلمون علمه كله. وعن أبي جعفر # يقول: "من ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما

أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب # والأئمة من بعده -عليهم السلام".

وهكذا تتوالى رواياتهم ومعتقداتهم على نحو ما ذكرنا، فمن ثمَّ أصدر علماء الإسلام، وعلماء الأزهر فيهم فتاوى وأحكامًا سجلتها كتب، وسجلتها دار الإفتاء، ولجنة الفتوى: منها فتاوى كبار علماء الأزهر الشريف في الشيعة في رسالة صغيرة، وأخرى كبيرة تُبين معتقدات الشيعة، وتذكر حكم الإسلام فيهم، وإن كان الأحكام عندنا تكون على المبادئ لا على الأشخاص.

أما الأشخاص فلا بد من معرفتهم وإقامة الحجة عليهم، ومعرفة ما يعتقدون أنه قد آن الأوان لأهل السنة والجماعة أن يتوحدوا تحت راية القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأن يعملوا جاهدين على تعليم المسلمين ونشر الإسلام الصحيح بكل الوسائل المتاحة، وهي كثيرة، وأن يُحذِّروا المسلمين من الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين، وأن يحذروهم غاية التحذير من أولئك الذين يتظاهرون بحب آل بيت النبي ﷺ؛ لينخدع بهم العامة فينقادوا لهم، ثم بعد أن يطمئنوا إليهم يصارحونهم ويطلعونهم على المستور، فلا يستطيعون فكاكًا ولا هربًا عند ذلك، ولا يصح بحال من الأحوال أن تفرقنا الخلافات في الفروع؛ فالخلاف في الفروع يسير، ونحن لا نقول بعصمة أحد بعد رسول الله ﷺ.

والأمر في الفروع يدور بين راجح ومرجوح، ولنأخذ أنفسنا بالراجح، وغير معنفين من يأخذ بالمرجوح، فيجب أن ننتبه إلى أن الهجوم على الإسلام والمسلمين من عدوهم كان لا يتجاوز المسائل الفرعية الخلافية، أما الآن فالهجوم على الثوابت التي كانت لا تُمسّ من قريب أو بعيد. فإلى المخلصين من أهل السنة

ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فالمخلصون من أهل السنة يتمنون أن يتوحَّد المسلمون في المشارق والمغارب تحت راية القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأن تعود دولتهم كما كانت في عهد الرسول ﷺ، وفي عهد الخلافة الراشدة، وأن تصير أمتهم هي أقوى الأمم على الإطلاق، فهل تحقق شيء من ذلك، هذه أمانٍ وأحلام نسأل الله تعالى أن تحقق، والذي يحول دون تحقيقها أمور كثير منها:

أولًا: ضعف الإيمان وقلة اليقين بوعد الله ﷻ بالنسبة لكثير من المسلمين.

ثانيًا: قلة الإخلاص لله رب العالمين.

ثالثًا: الأهواء التي مزقت المسلمين كل ممزق.

رابعًا: المصالح الشخصية التي تُقدم على الإسلام، وإن تزَّرع أصحابها بخلاف ذلك، فقد أتي المسلمين من داخلهم قبل أن يأتوا من الخارج.

خامسًا: مؤامرات الكافرين المستمرة والمستميتة ضد الإسلام والمسلمين، والتي يسلكون لها كل السبل من دعوة إلى التحلل من دين الله تعالى إلى غير ذلك، يساعدهم على ذلك بعض المسلمين المنتسبين إلى الإسلام؛ فيجب على الباحثين عن الوحدة بين المسلمين الراغبين فيها ألا يُصبحوا فريسة للأماني الطيبة، والتفريق بين الواقع، وما ينبغي أن يكون من أمر ضروري حتى لا ينخدع الناس بالأماني الطيبة والرغبة في الخير، ثم يُفاجئ الناس بما لم يكونوا يتوقعون.

والتقريب بين السنة والشيعة رغبة كل حريص، ولا يصح أن تنسينا هذه الرغبة في الوحدة الحقائق التالية، يلزم من طعن الشيعة في عدالة الصحابة، أو القول بردّتهم عن الإسلام ما يأتي:

تكذيب صريح القرآن الكريم، فالناظر في القرآن الكريم يجد أن الله تعالى حكم بعدل الصحابة، وأثنى عليهم، ومدحهم، وشهد لهم بصدق الإيمان وقوة اليقين، ووعدهم جميعًا الجنة، وهو العليم بحقيقة أمرهم، وما انطوت عليه صدورهم، وما سيكون منهم في مستقبل أمرهم إلى يوم لقائه تعالى، ثم إن وعدهم الجنة دليل على أن حالهم سيظلّ مستقيمًا إلى أن يفارقوا الدنيا، قال الله تعالى عن أصحاب النبي محمد ﷺ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٨، ٩]، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ثم إن واقعهم العملي ﷺ وبعد وفاته يشهد بصدق ما قال الله تعالى، وكفى بالله شهيدًا، وصدق الله العظيم ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]، والشهادة لا أحد، وكذب وخسر خسرانًا

مبينًا من خالف قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ كما ينبني على ما زعمته الشيعة فشل النبي محمد ﷺ في تربية أصحابه؛ حيث ارتدوا بعد وفاته مباشرة، ولم ينفذوا وصيته، وسلبوا صاحب الحق حقَّه في الإمامة التي نصَّ عليها، وتواطئوا جميعًا على ذلك إلا أربعة.

كما يترتب عليه قصر الإسلام على عصره ﷺ فلا يتعدَّاه إلى الأعصر التي بعده؛ فلا يُعمل بالقرآن الكريم ولا بالسنة المطهرة، لأن الناقلين لها إما مرتدون عن الإسلام، أو على أقل تقدير فَسَقَة يتقرب إلى الله بلعنهم، والحط عليهم، ووصفهم بأقبح الصفات، ومن كان هذا حاله لا يُقبل قوله، فكيف نقبل منه القرآن والسنة المطهرة.

ولقد فطن أئمة الإسلام إلى أن هدف الطاعنين في الصحابة } ليس الصحابة في حد ذاتهم، وإنما قصر الإسلام على عصره ﷺ فلا يسترسل في سائر الأعصر بعده قال أبو زرعة الرازي -رحمه الله-: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق؛ لأن الرسول ﷺ عندنا حق والقرآن الكريم حق، وإنما أدَّى إلينا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا العمل بالكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة.

ولا نطيل بذكر أقوالنا للسنة في عدالة الصحابة، وماذا نقول في قول اختارهم الله تعالى بصحبة نبيه ﷺ وهو العليم الحكيم الخبير، لن نقول إلا ما قاله الله تعالى ورسوله ﷺ؛ فالصحابة هم أولياء الله تعالى وأحبابه، وخيرته من خلقه بعد رسوله وأنبيائه، وأن حبهم من الإيمان وبغضهم كفر ونفاق، هذه عقيدتنا في

الصحابة. هذا، ويلزم من التشكيك في سلامة القرآن الكريم من الزيادة والنقصان كفرَ المشكك كفرًا عقديًّا؛ لأنه يرد صريح القرآن الكريم أنه سلم من الزيادة والنقصان، وهذا ما أجمعت عليه الأمة سلفًا وخلفًا فالقرآن الكريم نُقل بأعلى أنواع التواتر، فهو متواتر تواتر الجيل عن الجيل، فالصحابة } جميعًا- أخذوه من نبيهم ﷺ، وأخذه جيل التابعين عن الصحابة، وهكذا إلى أن وصل إلينا، فلله الحمد والمنة.

فمن يشكك في سلامة القرآن الكريم عليه أن يُنكر كل شيء حتى نسبته إلى أبيه، ولا يُسلّم بصحة شيء على الإطلاق، وعليه من باب أولى أن يردّ التاريخ كله. هذا، ويلزم من تأويل الشيعة الإمامية المنحرف لآيات القرآن الكريم أن يظن القارئ للقرآن الكريم أنه ما نزل إلا لمدح الإمام علي > وآل البيت، والثناء عليهم، وبيان مكانتهم، والحط على مَن لم يثبت لهم ما تُثبته الشيعة لهم. وهذا غلو وإسراف؛ فالقرآن الكريم لم ينزل لهذا، فالقرآن الكريم هو المنهج القويم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، لينظم حياتهم من أولها إلى آخرها في عقيدتنا وشريعتنا، وأخلاقنا وآدابنا، وقصص السابقين لنأخذ العظة والعبرة، ولا نسلك سبيل المكذبين فيصيبنا مثل الذي أصابهم. وفي مثل هذا القصص قرآني أصلت العقيدة النظرية تأصيلًا عمليًّا.

وأما نظرة الشيعة إلى أئمتهم فإنهم ينظرون إلى أئمتهم على أنهم معصومون من الخطأ، بل يثبتون لهم ما لا يجوز إثباته إلا لله تعالى، هذا مع العصبية المذهبية التي أدَّت بالشيعة إلى تكفير المخالفين لهم، فأهل السنة عندهم كفَّار أنجاس، ناصبة من أهل النار؛ لأن الإمامة عند الشيعة الرافضة هي من أهم أركان

الإيمان، فمن لم يؤمن بها وبما تقوله الشيعة في أئمتهم فهو كافر، وإن نطق بالشهادتين وصلى وصام، وأتى بكل الطاعات، وزعم أنه مسلم. هذا، والشيعة سلفًا وخلفًا لم يتنازلوا عن شيء من أصولهم، فهذه عقائد موروثة، وإلا لخرجوا بتركهم لأصولهم من أن يكونوا شيعة، إن هدف الشيعة أن يتحول أهل السنة إلى التشيّع لا أن يترك الشيعة مذهبهم، وهم بالفعل يقومون بذلك الآن في دول أهل السنة تحت شعار حبّ آل البيت، وتحت نشر نكاح المتعة، وتحت الإغراء بالمال، ومصر مستهدفة وبقوة، والعالم الإسلامي السني قاطبة.

هذا، وإن أصحاب المصالح المادية الذين يأخذون الخُمس لم يتنازلوا عن مصالحهم المادية مهما كلَّفهم ذلك، وإن كان في ذلك ضياع الإسلام والمسلمين كافة، وإن الذي يصدّق الشيعة الرافضة فيما يقولون؛ حيث يبرئون أنفسهم من القول بكفر الصحابة مع أنهم يلعنونهم جهارًا نهارًا، وهذا ثابت في كتبهم وأدعيتهم، وتحريف القرآن الكريم، وأن عندهم ما يُسمى بمصحف فاطمة، وأنهم يدينون بالتقية ويرونها دينًا يدان لله به، ويتقربون بها إليه كالذي يقبض على الماء على الزئبق، فإنه لن يجد في يده شيئًا.

هذا مذهب تحرسه وترعاه وتعمل على نشره دولة قوية لها من الإمكانات المادية ما لها، وتستخدم هذه الإمكانات في نشره إلا أن يشاء الله تعالى أمرًا آخر، ولنقرب الصورة أكثر إلى أذهان المخلصين الراغبين في توحيد المسلمين على اختلاف مذاهبهم بهذا السؤال، هل من الممكن أن يتوحد أهل السنة والجماعة ويتناسوا ما بينهم من خلافات في الفروع مع أن أصولهم واحدة، وهم متفقون عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة؟ سأترك الإجابة للعاملين في مجال الدعوة

الذين يلمسون الواقع لمسًا عمليًّا، مع أن المسلم مطالب بألا يُقرَّ أهل البدع على بدعهم، سواء كانت بدعًا عقديَّة أو غير عقدية؛ بل يجب عليه أن يدعو الناس إلى الاستمساك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة بالحجة والحكمة والموعظة الحسنة ليكتب الله تعالى النجاة للجميع إلا أنه لا يصحّ أن يُستثمر هذا الخلاف المذهبي للقضاء على أهل السنة والشيعة، فيجب أن تقوم العلاقة بين أهل السنة والشيعة على أساس من العقل ومراعاة المصالح، ولا يصح أن يستثمر أعداء الإسلام ما بيننا من خلاف للوقيعة وإشعال الحروب على أساس الخلاف المذهبي، كما هو حادث في العراق الآن؛ فكل من يسعى إلى الوقيعة بين أهل السنة والشيعة وغيرهم وبين المسلمين والمسيحيين في البلاد التي تجمعهم فهو آثم مرتكب لكبيرة من أعظم الكبائر، يتناسب آثمها مع ما ينشأ عنها من مفاسد ومخاطر.

تقريب الشيعة ليس تقريبًا، وإنما هو تخريب، وتقريب الشيعة ليس تقريبًا على قدر ما هو دعوة لانتشار مذهب التشيع في العالم السني، إن فكرة التقريب ينبغي أن نوضحها حتى ننبئ المسلمين المخدوعين والغافلين من أهل السنة والجماعة، وهم يحسنون الظن بأعدائهم، ولا يحتاطون لأمر نجاتهم، وإلى من جهل مذهب الشيعة فانخدع وهو سليم القلب، وإلى المتعاطفين مع الشيعة وضحاياهم ومن يجهلون الأمر والموقف الحقيقي للشيعة من أهل السنة، وإلى كل الدَّاعين إلى التقريب بين أهل السنة والشيعة نقول: يجب أن نعلم أن هناك دارًا في القاهرة تُسمى دار التقريب بالزمالك تعمل لصالح الشيعة، كذا ما يُسمى بالمذهب الجعفري أو الجعفرية، ولم يقف الأمر عند هذا بل تم إنشاء جمعية أهل البيت سنة ٧٣ و ٧٤ اتخذت مركزًا لها بالمعادي بالقاهرة، استخدمت أساليب متنوعة لنشر عقيدة الشيعة بين أهل السنة.

هذا، وإن الذين تعاطفوا منا مع الشيعة لم يكونوا على علم بمعتقدات الشيعة، وإن عدم العلم بالشيء لا يعني عدمه وعدم العلم هذا هو الذي أوقع كثيرًا من علمائنا ومفكرينا في الدعوة إلى التقارب معهم، وهذا هو الذي حدا بالشيخ محمود شلتوت -رحمه الله- أن يقول فتاواه بجواز التعبد بالمذهب الإثني عشري، إن التقية الخبيثة التي يؤمن بها الشيعة دينًا هي التي ذهب ضحيتها الشيخ شلتوت -رحمه الله-، وكذا الشيخ غزالي -رحمه الله-، ومن قبل شيخ الأزهر الأسبق محمد الفحام -رحمه الله-، وأيضًا الشيخ حسن البنا -رحمهم الله تعالى جميعًا-، وغيرهم من حسن النية الذين دعوا إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية، وبين الشيعة وأهل السنة، ومع ذلك إلا بسبب التقية المبالغ فيها، وهي التي تأمر الشيعة بأن يُظهروا عكس ما يبطنون من عقائد، وعليه فإن الشيعي قد يقر ظاهرًا ما لا يقر به باطنًا، وقد ينكر ظاهرًا ما يعتقد باطنًا.

وبسبب هذه العقيدة وقع من وقع من أهل السنة وصدق كلام الشيعة، بل وأفتى بجواز التعبد بمذهبهم؛ فمن أجل التقية والخداع يكتبون ويقولون ما لا يعتقدونه أصلًا. إن هدف الشيعة من التقريب هو نشر مذهبهم بين أهل السنة، وقد نجحوا في العراق وغيرها؛ حيث تمكَّنوا من إدخال عدد من القبائل السنية في التشيع، فأصبح أولئك عددًا يضاف إلى أعداء الأمة يطعنون فيمن حمل هذا الدين، أعني الصحابة }، ويتربصون بالأمة الدوائر، ولذلك فدعوة التقريب التي نراها أو نسمع عنها في مصر أو في غيرها تحتاج إلى نظر، وإلا كانت دعوة إلى المذهب الشيعي. إنها لعبة مكشوفة وبواسطة ذلك التقريب بين المذاهب الإسلامية نُفذت خدعة مذهبية مدروسة؛ لانتزاع فتوى من الشيخ شلتوت المخدوع بجواز التعبد بالمذهب الشيعي، حتى فُهم منها أن مذهب الشيعة متفق عليه، ومذهب

أهل السنة مشكوك فيه، فلاحظ أن القوم يخططون ويعملون من أجل نصرة مذهبهم ونشره بين أهل السنة والجماعة باستغلال من ليس على علم بمعتقداتهم، أو بإغرائهم.

ودليل ذلك أنه أنشئت دار التقريب في مصر يُنفق عليها من الميزانية الرسمية لدولة الشيعة، وهذه الدولة الشيعة إذ آثرتنا بهذه المكرمة واختصتنا بهذا السخاء الرسمي، وضنت في نفس الوقت بمثلها على نفسها، وعلى أبناء مذهبها فلم تنشئ دارًا للتقريب في طهران، أو في النجف، أو في غيرهما من مراكز الدعاية الشيعية. كما أصدروا كتبًا في السنين الأخيرة تهدم فكرة التفاهم والتقريب، وفيها ما تقشعرّ منه الأبدان في ذلك كتاب اسمه الزهراء في ثلاثة أجزاء نشره علماء النجف، وقالوا فيه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب > إنه كان مبتلًى بداء لا يشفيه منه إلا ماء الرجال، فالروح النجسة التي يصدر عنها مثل هذا الفجور المذهبي هي أحوج إلى دعوة التقريب من حاجتنا نحن أهل السنة إلى مثل ذلك.

وبعد إعطاء فكرة مبسطة عن التقريب نذكر رأينا في فكرة التقريب بصفة عامة فنقول: إن التقريب بين المسلمين في تفكيرهم واقتناعاتهم واتجاهاتهم وأهدافهم من أعظم مقاصد الإسلام، ومن أهم وسائل القوة والنهوض والإصلاح، وهو من الخير لشعوبهم وجامعتهم في كل زمن ومكان. والدعوة إلى التقريب إذا كانت بريئة من الغرض، ولا يترتب عليها في تفاصيلها ضرر يطغى على ما يُرجى من نفعها، فإن على كل مسلم أن يستجيب لها، وأن يتعاون مع المسلمين على إنجاحها، وأول ما نلاحظه في هذا الأمر وفي كل أمر له علاقة بأكثر من طرف واحد أن من أقوى أسباب نجاحه أن يكون هناك تجاوب بين الطرفين، أو الأطراف ذات العلاقة به، لكن أن يكون المقصود هو الانتصار لفكرة واحدة

ونشر مذهب واحد يعتقد في نفسه أنه على الحق وما سواه على الباطل، فكيف يتحقق التقارب، أو يتم التفاهم.

والتقارب لا بد وأن ينتقل من قاعدة، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] فكيف يتمّ هذا التقريب ونحن نختلف في الله والرسول ونختلف في القرآن والسنة. إننا نحتاج إلى التقريب إذا كان مع الوسطية والإنصاف، فيقتضي الأمر مثلًا أن نتنازل عما نحن فيه، أو لا نتعصب له كلانا، أو على الأقل يقتضي الأمر مثلًا أن يبدءوا بتخفيف إحنتهم وضغينتهم عن أئمة الإسلام الأولين، وأن يشكروا لأهل السنة موقفهم النبيل من آل البيت، وعدم تقصيرهم بشيء من واجبات الإجلال والتكريم لهم، إلا أن يكون تقصيرنا نحو آل البيت في أننا لم نتخذهم آلهة نعبدهم مع الله، كما هو المشاهد في مشاهدهم القائمة في الناحية الأخرى التي يُراد التقريب بيننا وبينهم.

إن التجاوب لا بد منه بين الطرفين المراد تفاهمهما، والتقريب بينهما، ولا يكون التجاوب إلا إذا التقى السالب بالموجب، ولم تقتصر نشاط الدعوة إليه، والعمل لتحقيقه على جهة واحدة دون الأخرى كما هو حاصل الآن. كما لا يجوز أن يكون التقريب مبتدئًا بالفروع قبل الأصول كالفقه والسياسة، ونحو ذلك؛ فالفقه عند أهل السنة وعند الشيعة لا يرجع إلى أصول مسلَّمة عند الفريقين، والتشريع الفقهي عند الأئمة الأربعة من أهل السنة قائمًا على غير الأسس التي عليها التشريع الفقهي عند الشيعة، ما لم يحصل التفاهم على هذه الأسس والأصول قبل الاشتغال بفروعها، فلن يتحقق تقريب إيجابي، وذلك لأن واضعي أسس

الدين الشيعي لم يتركوا في أصولهم أيَّ وسيلة لهذا التقريب بعد أن أقاموه على دعائم منافية لما جاء به النبي ﷺ، ودعا إليه أصحابه وتركهم على المحجة البيضاء الواضحة لا ينحرف عنها منحرف إلا هلك، وهؤلاء القوم قد بنوا مذهبهم على الحقد والضغينة لأصحاب رسول الله ﷺ ، الذين قام الإسلام على أكتافهم لدرجة أنهم كفروا الصحابة عدا عن نفر قليل يُعدّون على أصابع اليد أو اليدين. وقد سمعت نموذجًا لمثل الكلام القذر الذي قالوه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب < .

هذا، ومما يمنع التجاوب الصادق بيننا ويستحيل التقارب بين أهل السنة والشيعة اعتقادهم بمبدأ عقيدة التقية، فإنها عقيدة دينية تُبيح لهم التظاهر لنا بغير ما يُبطنون، فينخدع سليم القلب منا بما يتظاهرون له به من رغبتهم في التفاهم والتقارب، وهم لا يريدون ذلك، ولا يرضون به ولا يعملون له إلا على أن يبقى من الطرف الواحد مع بقاء الطرف الآخر في عزلته مؤمنًا بعقيدته متمسكًا بمذهبه، لا يتزحزح عنه قيد شعرة.

هذا، وكيف يكون التقارب بيننا وبينهم مع عدم وجود المرجع الذي نرجع إليه ويجمع بيننا، فإن ربنا يقول: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، كما قال: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، وهؤلاء القوم لا يؤمنون بالقرآن الذي نؤمن به نحن المسلمين أهل السنة والجماعة، فهم يؤمنون بمصحف فاطمة الذي هو أضعاف هذا القرآن ثلاث مرات، ليس فيه حرف واحد، والذي هو مع الإمام الغائب.

وقد ألفوا كتبًا أثبتوا فيها تحريف القرآن مثل كتاب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) لأحد كبار علماء النجف، وهو الحج مرزا حسين بن محمد تقي النور الطبرسي، وقد جمع فيه مئات النصوص عن علماء الشيعة ومجتهديهم في مختلف العصور؛ بأن القرآن قد زيد فيه ونقص منه.

هذه النصوص الشيعية المكذوبة على أئمة أهل البيت كريمة العهد، ورحم الله أبا محمد بن حزم كان يناظر قسسًا في نصوص كتبهم لإثبات تحريف أناجيل، فأقام لهم الحجج على تحريفها، بل ضياع أصولها، فرد أولئك القسس بأن الشيعة يقررون أن القرآن محرف أيضًا، فأجابهم ابن حزم بأن دعوى الشيعة ليست حجة على القرآن ولا على المسلمين؛ لأن الشيعة غير مسلمين.

هذا، وكيف يتم التقريب والشيعة تزعم مزاعمها، وتعتقد معتقداتها التي ذكرتُ سلفًا إن دعوة التقريب ليست دعوة للتقريب، وإنما هي دعوة لنشر المذهب الشيعي، فلنفطن لهذا، ولنعلم ذلك جيدًا.

(الخوارج (١))

عناصر الدرس

التعريـــــف بـــــالخوارج ونـــــشأتها

لا شك أن بذور الفرقة بصفة عامة قديمة بقدم البشر، وأن الصراع بين الحق والباطل ممتدّ بامتداد الزمان، وأن الفُرقة سلاح يستغلّه الشيطان وجنوده بإغواء بني آدم وإضلالهم، وذلك بالتحريش بينهم، ولذلك مضى تاريخ البشر بين فريقين فريق يؤمن بالأنبياء وفريق يكفر بهم، وهكذا تمضي الحياة حتى يصير الناس في الآخرة إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير. وبدت الفُرقة واضحة في حياة البشرية منذ اختلف ابن آدم حتى قتل أحدهما الآخر، ومع الأنبياء وأممهم فمنهم من آمن ومنهم من كفر.

ومع أتباع بوليس شاور اليهودي الذي قام بحربه ضد أتباع المسيح # ومع اليهود حين فرقوا كلمة الأوس والخزرج فأقاموا بينهم حروبًا أكلت الأخضر واليابس لم تنتهِ إلا بإسلامهم ومؤاخاة النبي ﷺ بينهم. ومع الدور الذي قام به عبد الله بن أبي بن سلول -عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين- وذلك حين أسَّس مدرسة النفاق؛ لتعمل جاهدة على تفريق كلمة المسلمين مرَّة بين الأوس والخزرج، ومرة بين المهاجرين والأنصار، ومرات بإشاعة الفتن بغرض تفريق كلمة المسلمين، وما فعله شاس بن قيس اليهودي بالنسبة للأوس والخزرج بعد أن ألَّف الله ﷻ بين قلوبهم وآخى النبي ﷺ بينهم، وكم اجتهد المنافقون في أن يفرقوا كلمة المسلمين حتى أعيتهم الحيلة، فبنوا مسجدًا من أجل هذا الغرض وغيره ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

ثم اجتهد المنافقون والكافرون في تفريق كلمة المسلمين بعد موت النبي ﷺ، وذلك في خلافة أبي بكر الصديق بما عُرف بحروب المرتدّين ومانعي الزكاة الناكثين، ووجود فئات من المتنبئين إلى أن قيَّض الله ﷻ لهذه الفتنة أبا بكر الصديق، فقضى عليها في مهدها، وتتبع فلولها وأعاد الأمر إلى نصابه، وفي عهد عمر بن الخطاب > هدأت الفتنة بعض الوقت لأسباب؛ منها: خوف المنافقين من بطش عمر، وإجلاء عمر اليهود من جزيرة العرب على الرغم من قيامهم ببعض المناوشات، وانتهت هذه المناوشات بقتل فاروق الأمة عمر بن الخطاب > حين اجتمعت قُوى الشر وتآمرت على مقتل سيدنا عمر > وأرضاه، وقام بتنفيذ المؤامرة أبو لؤلؤة المجوسي، وقُتل عمر بن الخطاب شهيدًا في المحراب؛ فانكسر باب الفتنة بمقتل عمر، وأطلت الفتنة برأسها من جديد لتعمل بكل قواها ولتؤدي دورها في كل اتجاه علمي أو عملي ديني أو سياسي، ولئن كانت الفتنة من قبل ذلك لم تنجح؛ فإن الفتنة بعد مقتل عمر > قد نجحت وكانت الفتنة من قبل لا تعدو أن تكون بذرة، لكن البذرة لقيت ما يرويها حتى صارت لها جذوع وأصول وفروع، وذلك من بعد مقتل فاروق الأمة عمر > الذي أمضى خلافته نصرًا وفتحًا وخيرًا وبركة؛ حتى لقي الله تعالى شهيدًا في المحراب.

وفي لحظات حياته الأخيرة جعل عمر الخلافة شورى بين الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص أي: بقية العشرة المبشرين بالجنة باستثناء سعيد بن زيد؛ لأنه ابن عمه، فتورع عمر فلم يذكره. كما حذَّر أن يُسند الأمر إلى عبد الله بن عمر أو يسند إليه من الأمر شيء، ولكن يحضر الشورى ويشير بالنصح، كما أوصى أن يصلي بالناس

صهيب بن سنان الرومي، ثلاثة أيام حتى تنقضي الشورى، وأن يجتمع أهل الشورى ويُوكَّل بينهم أناس حتى يُبرم الأمر، ووكل بهم خمسين رجلًا من المسلمين، وجعل عليهم مستحثًّا أبا طلحة الأنصاري والمقداد بن الأسود الكندي.

وقد قال عمر بن الخطاب: ما أظن الناس يعدلون بعثمان وعلي أحدًا؛ لأنهما كانا يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ بما ينزل به جبريل # هذا، وقد أخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الأمر حتى ينظر، ويتحرى فيمن يقدم، فقد تنازل طلحة والزبير، فقدم عثمان > فكان عند الظن به، ما خالف له عهدًا، ولا نكث له عقدًا، ولا اقتحم مكروهًا، ولا خالف سنة.

وقد قال الإمام أحمد: لم يتفق الناس على بيعة كما اتفقوا على بيعة عثمان > ، ولَّاه المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام، وهم مؤتلفون متفقون متحابون متوادون معتصمون بحبل الله جميعًا، ومضت سيرة عثمان في خلافته على النحو الذي يرضى عنه الله تعالى ورسوله ﷺ وكيف، لا، وقد شهد له بطهارة السيرة وحسن الخاتمة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وقد قال الحافظ ابن حجر في ترجمة عثمان في (الإصابة): جاء من أوجه متواترة أن رسول الله ﷺ بشر عثمان بالجنة، وعدَّه من أهل الجنة، وشهد له بالشهادة، والحديث الذي يتواتر بذلك عن رسول الله ﷺ لا يرتاب فيه، ولا يجمح إلى غير مدلوله إلا الذي رضي لنفسه أن يقتحم أبواب الجحيم، ومع ذلك أطلَّت الفتنة برأسها من جديد لتعمل بكل قواها في كل اتجاه علميّ أو عملي، والذي تولى

كبرها في هذه المرة، هو عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، سوَّد الله وجهه تظاهر بالإسلام، وبحبه لآل بيت النبي ﷺ فراح يقول بوصاية علي بن أبي طالب > أي: أنه وصيّ رسول الله ﷺ وأولى الناس بعده بالخلافة، ثم أخذ يذمّ أبا بكر وعمر { يتهمهما بأنهما قد انتزعا الخلافة من علي > ، والأدهى من ذلك ما افتراء على سيدنا عثمان > من افتراءات ما أنزل الله بها من سلطان، واتهامات ليس لها من الحقيقة نصيب، ولا من الواقع نصيب، ولكنه أشاع ذلك في الناس، وانتقل في الأقطار والأمصار، وكتب به الكتب، وأرسل به رسائل ورسل؛ يؤلّب الناس على عثمان > .

فلقي آذان استمعت له، ورعاع صاروا جندًا له، وجاء الثوَّار من الأمصار، وخرج الخوارج على عثمان > وثاروا عليه، واجتمعوا حول بيته، وما انفضُّوا حتى قتلوه > ، وهؤلاء الخوارج في بدايتهم هم أصحاب الفتنة، هم أصحاب عبد الله بن سبأ وتلاميذه ومؤيدوه، وبينهم وبين خيرة الصحابة أبعد مما بين الحضيض والقمة؛ بل أبعد مما بين الخير والشر، وإن الشر الذي أقحموه على تاريخ الإسلام بحماقاتهم وقصر نظرهم إنه لم يكن من نتائجه إلا وقوف حركة الجهاد الإسلامية فيما وراء حدود الإسلام سنين طويلة لكفى آثمًا وجناية. والمظنون بالصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة وأغبياء القصاص الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها، ومستقيمها وسقيمها، وميادها وقويمها.

هذا، وهذا عبد الله بن عمر بن الخطاب { يقول: لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه، وعبد الله بن عمر كان شاهد عيان في خلافة عثمان

من أولها إلى آخرها، وكان أشدَّ الناس في الالتزام بالسنة المحمدية، ومع ذلك فإنه يشهد لعثمان بأن كل ما عاتبه به عليه كان يحتمل من عمر، وهو أبوه > ، ولو كان ذلك من عمر لما عاتب عليه أحد.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: "إن عثمان > لم يأتِ منكرًا لا في أول الأمر وفي آخره، ولا جاء الصحابة بمنكره، وكل ما سمعت من خبر فهو باطل، إياك أن تلتفت إليه".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (منهاج السنة): "إن خيار المسلمين لم يدخل واحد منهم في دم عثمان، لا قتل ولا أمر بقتل، وإنما قتله طائفة من المفسدين في الأرض من أوباش القبائل وأهل الفتن، وكان علي > يقول: اللهم ألعن قَتَلَة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل، وهؤلاء الذين شاركوا في الجناية على الإسلام بمقتل أمير المؤمنين عثمان > طوائف على مراتب فيهم الذين غلب عليهم الغلو في الدين، فأكبر الهنات وارتكبوها في إنكار المنكرات، ومنهم الذين ينزعون إلى عصبية جاهلية يبغضون شيوخ الصحابة من قريش، ولم تكن لهم في الإسلام سابقة؛ فحسدوا أهل السابقة من قريش على ما أصابوا من مغانم شرعية؛ جزاء جهادهم وفتوحاتهم؛ فأرادوا أن يكون لهم مثلها بلا سابقة ولا جهاد، وفيهم الموترون من حدود شرعية أقيمت على بعض ذويهم فأضغنوا في قلوبهم الإحنة والغل لأجلها".

وفيهم الحمقى الذين استغل السبئيون ضعف عقولهم، فدفعوهم إلى الفتنة والفساد والعقائد الضالة، وفيهم من أثقل كاهله خير وعثمان ومعروفه نحوه،

فكفر معروف عثمان عندما طمع منه بما لا يستحقه من الرئاسة والتقدم بسبب نشأته في أحضانه، وفيهم من أصابهم من عثمان من التعذير لبوادر بدرت منهم تخالف أدب الإسلام، فأغضبهم التعذير الشرعي من عثمان، وفيهم المتعجلون بالرئاسة قبل أن يتأهلوا لها اغترارًا بما لهم من ذكاء خلّاب أو فصاحة لا تغذيها الحكمة؛ فصاروا متعجلين بالأمر قبل إبانه.

وفيهم أهل الفتنة وعلى رأسهم السبئيون والمنافقون، وفيهم، وفيهم، وعلى الإجمال: فإن الرحمة التي جُبل عليها عثمان وامتلأ بها قلبه أطمعت الكثيرين فيه، وأرادوا أن يتخذوا من رحمته مطيّة لأهوائهم، ولو صدق التاريخ لأوقفنا على نفسيات هؤلاء الخوارج على عثمان > ، وعلى أغراضهم ونوعياتهم؛ ليكون من ذلك درس وعبرة لطلاب التاريخ الإسلامي، ونقول بهذه المناسبة: إن عهد الخليفة عثمان > ينبغي أن يُسمَّى العصر الذهبي للإسلام على الرغم من تشويهه من قبل الحُسَّاد والمفترين والمضلين -رحمه الله تعالى-، وأجزل ثوابه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين بما هو أهله، أجر ما جاهد وأنفق من قبل الفتح ومن بعده، وحتى في زمن خلافته وحين مماته.

لقد تمت في عهد هذا الخليفة العظيم أمور تنظيمية وكان من أجلّها جمعه الناس على مصحف واحد، كما زاد في عطاء الناس مائة في المائة، وقد روي ما يدل على ما كان عليه من كثرة الخير في زمانه، والتوسع في العطاء وتنويعه، كما استمرت حركة الفتح في مختلف الميادين في زمنه، فتم في عهده فتح شمال أفريقيا، وفتح الإسكندرية مرة ثانية بعدما قرروا المرور عليها، وغزا بلاد النوبة وأخذ الجزية من أهلها على يده قائده عبد الله بن سرح، وفي خلافة عثمان أنشئ أول أسطول إسلامي، وأول من فكر في ذلك معاوية بن أبي سفيان { وكان

واليًا على الشام، استعان بهذا الأسطول على غزو قبرص، وأخذ الجزية من أهلها، وفي عهده تمَّ فتح أرمينيا وأذربيجان، كما تم فتح بقية بلاد فارس، وقد عمَّ الرخاء في عهد عثمان بسبب هذه الفتوحات، وكثر المال والرقيق بصورة لم يُعرف لها مثيل من قبل رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان، لو كان من حواريّ المسيح # وكانت له من سيدنا عيسى ابن مريم منقبة مثل هذه المناقب التي أكرمه الله بها من نبي الرحمة سيدنا محمد ﷺ لعَبَدته النصارى لأجلها.

فالعجب لأمة يكون فيها جَهَلَة يعيبون على عثمان في زمانه وإلى يوم الناس هذا ما يستحق المدح والتكريم، ونرى في الأولين من يستشعر الشجاعة في نفسه عند الإقدام على سفك هذا الخليفة الرحيم لشبهات واهية، ثم يحمل مثل هذا الجهد أناس في الآخرين يتهمون أمير المؤمنين عثمان ويسبونه؛ بل ويلعنونه ويكفرونه، ثم يشعر أمثالنا في عصرنا بأن عثمان > لا يزال من بعض أمته في موقف يحتاج فيه إلى إنصافه ودفع إقالة السوء عنه، مع أنه لما وقع هذا الأمر وهو مقتل عثمان > وهو أمر عظيم، وشيء فظيع شنيع أُسقط في أيد الناس فأعظمه جدًّا، وندم أكثر هؤلاء الجهلة الخوارج بما صنعوا، وأشبهوا من تقدمهم ممن قصّ الله تعالى علينا خبرهم في كتابه العزيز من الذين عبدوا العجل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، ولما بلغ الزبير مقتل عثمان، وكان قد خرج من المدينة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ثم ترحم على عثمان وبلغه أن الذين قتلوه ندموا، فقال: تبًّا لهم ثم تلا قوله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٤٩ - ٥٠].

وبلغ عليًّا قتل عثمان فترحم عليه، وسمع بندم الذين قتلوه فتلا قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦]، ولما بلغ سعد بن أبي وقاص قتل عثمان > استغفر له، وترحَّم عليه، وتلا في حق الذين قتلوه ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، ثم قال سعد > : "اللهم أندمهم ثم خذهم" وقد أقسم بعض السلف بالله أنه ما مات أحد من قَتَلَة عثمان إلا مقتولًا. رواه ابن جرير في (البداية والنهاية) لابن كثير.

ثم ماذا؟ لما قضى الله تعالى أمره وأمضى قدره، وذلك بمقتل ذي النورين عثمان > عُلم أن الحق إلا يُترك الناس سدى، وأن المسلمين بعده مفتقرون إلى خليفة مفروض عليهم النظر فيه، ولم يكن بعد الخلفاء الثلاثة كالرابع قدرًا وعلمًا وتقًى ودينًا، فانعقدت له البيعة إنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب > وأرضاه، ولو لا الإسراع بعقد البيعة لعلي لتدافع إليها الأوباش فيقع ما لا يركع خرقه، ولكن عليًّا > أبى البيعة وتبرأ من الأمر، وابتعد عنه، ولكن عزم عليه المهاجرين والأنصار، وقالوا له: ننشدك الله ألا ترى الفتنة ألا تخاف الله، فلما رأى أن الأمر فرض عليه انقاد إليه حتى أتى الناس عليًّا، وهو في سوق المدينة وقالوا له: ابسط يدك نبايعك فقال: لا تعجلوا حتى يجتمع الناس ويتشاورون، وتمت البيعة > وهذه الوقائع على بساطتها تدل على أن بيعة علي > كبيعة إخوانه من قبلُ، جاءت على قدرها، وفي إبّانها، وأنها مستمدة من رضا الأمة في حينها لا من وصية سابقة مزعومة، أو رموز خيالية موهمة.

هذا ولما استقر أمر بيعة علي > دخل عليه طلحة والزبير، ورءوس الصحابة } وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذ بدم عثمان > ، فاعتذر إليهم بأن

هؤلاء لهم مددٌ وأعوان وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا، فطلب منه الزبير أن يوليّه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود؛ ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج وجهلة الأعراب، الذين كانوا معهم في مقتل عثمان > . فقال لهما: مهلًا علي حتى أنظر في هذا الأمر، وفي نفس الوقت لما يكن قد بايع أهل الشام، وعلى رأسهم معاوية، وقد تأثر الناس بمقتل عثمان تأثرًا عظيمًا وعلقوا قميص عثمان، وأخذوا يبكون حوله، وندب معاوية إلى الأخذ بثأر عثمان، أو يطالبون بدم عثمان ممن قتله من أولئك الخوارج.

وأما حقيقة موقف علي من قَتَلَة عثمان أنه عند البيعة له كانوا هم المستولين على زمام الأمر في المدينة، وفي حالة الإرهاب التي كانت سائدة يومئذٍ لم يكن في استطاعة علي > ولا غيره أن يقف منهم موقفًا يستطيع فيه القصاص، ولكن تعجَّل طلحة والزبير وعائشة } الأمر وخرجوا على رأس جيش يطالب عليًّا بالقصاص من قَتَلَة عثمان، كما أرادوا أن يتفقوا مع علي > على الطريقة التي يتوصلون بها إلى ذلك.

وهذا الذي سعى إليه المجاهد القعقاع بن عمرو > للنظر في جمع طوائف المسلمين، وضم شاردهم، ومنع تشردهم؛ إذ أرسله علي > رسولًا إلى طلحة والزبير بالبصرة يدعوهما إلى الألفة والجماعة، ويعظم عليهما أمر الاختلاف والفرقة، فذهب القعقاع إلى البصرة فبدأ بعائشة > فقال: أي أماه، ما أقدمك هذا البلد؟ فقالت: أي بني الإصلاح بين الناس. وسألها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا عندها، فحضرا، فقال القعقاع: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها؟ فقالت: إنما جئت للإصلاح ين الناس، فقال: ونحن كذلك.

قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح، على أي شيء يكون فوالله لئن عرفناه لنصطلحنّ، ولئن أنكرناه لا نصطلحنّ، قال: قَتَلَة عثمان، فإنها هذا إن تُرك كانت تركًا للقرآن. فقال: قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب منكم إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف، فاعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبت حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف، فإن تركتموهم وقعتم فيما تقولون، وإن قاتلتموهم فأُغيروا عليكم كان الذي حذرتم وفرقتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تدفعون وتجمعون منه، يعني: أن الذي تريدونه من قتل قَتَلَة عثمان مصلحة، ولكنه يترتب عليه مفسدة أربى منها، وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير لقيام ستة آلاف في منعه ممن يريد قتله، فعلي أعذر في تركه الآن قتل قَتَلَة عثمان، وإنما أخر قتل قَتَلَة عثمان إلى أن يتمكن منهم.

فإن الكلمة في جميع الأمصار مختلفة، ثم أعلمهم أن خرق بن الربيعة ومضر قد اجتمعوا لحربهم بسبب هذا الأمر الذي وقع، فقالت له عائشة أم المؤمنين: فماذا تقول أنت؟ قال: أقول إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة، وإدراك الثأر، وإن أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واستئنافه؛ كانت علامة شرّ وذهاب هذا الملك، فآثروا العافية تُرزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولًا، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له، فيصرعنا الله وإياكم، وايم الله إني لأقول قولي هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة، التي قلَّ متاعها ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي قد حدث أمر عظيم، وليس كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة القبيلة فقالوا: قد أصبت وأحسنت،

فارجع فإن قدم علي، وهو على مثل رأيك؛ صلح الأمر. قال: فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه ورضيه من رضي وأرسلت عائشة > إلى علي < تُعلمه أنها إنما جاءت للصلح، ففرح هؤلاء وهؤلاء.

وقام علي في الناس خطيبًا فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيه ﷺ على الخليفة أبي بكر الصديق، ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان، ثم حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمة أقوام طلبوا الدنيا وحسدوا من أنعم الله عليه بها، وعلى الفضيلة التي منَّ الله بها، وأرادوا ردَّ أمة الإسلام على أدبارها، والله بالغ أمره. نقله ابن كثير في (البداية والنهاية)، والطبري في (تاريخه) وابن خلدون في (مقدمته).

دور السبئية في زيادة الفتنة بين المسلمين وتقوية الخوارج

ثم ماذا حدث بعدُ حينما اتفق الفريقان على الصلح وعلى الرجوع إلى بلادهم لم تكن السبئية، وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ، وقتلة عثمان راضين بهذا الصلح، وكانوا يترقّبون كل صغيرة وكبيرة بدقة، وما يجري ما الفريقين من السعي إلى الصلح والإصلاح، والوفاق والاتحاد، وهم يحذرون أن يقع هذا، وتفشل خطتهم ومؤامرتهم للفتنة والفساد، وإقامة الحروب بين المسلمين، لكن وصل الأمر حدًّا لم يكن في تصورهم أن يصل إليه.

لقد تمَّ الصلح بالفعل بين علي من جانب وطلحة والزبير وأم المؤمنين } أجمعين- في جانب آخر إلى أن وصل الأمر أن قام أمير المؤمنين علي -رضي الله

تعالى عنه- خطيبًا في معسكره، وقال: ألا إني مرتحل غدًا فارتحلوا، ولا يرتحلنّ أحد معي أعان على قتل عثمان بشيء من أمر الناس، فما أن سمعت السبئية بهذا القول إلا وعرفوا مصيرهم، وهنا اجتمع رءوسهم أي: رءوس قَتَلَة عثمان، كالأشتر النخعي، شريح بن أبي أوفى، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وسالم بن ثعلبة، وغلاب بن هيثم، وغيرهم في ألفين وخمسمائة لم يكن فيهم صحابي واحد ولله الحمد. فقالوا: ما هذا الرأي وعلي والله أعلم بكتاب الله ممن يطلب قَتَلَة عثمان، وأقرب إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم، غدًا يجمع عليكم الناس، فإنما يريد القوم كلهم أنتم، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم؟ فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، وأما رأي علي فلم نعرفه إلى اليوم، فإن كان قد اصطلح معهم فإنما اصطلحوا على دمائنا، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليًّا بعثمان، رضي القوم منا بالسكوت، فقال ابن السوداء: بئسما رأيت لو قتلناه قتلناه، فإنا معشر قَتَلَة عثمان في ألفين وخمسمائة، وطلحة والزبير وأصحابهما في خمسة آلاف لا طاقة لكم بهم، وهم إنما يريدونكم ، فقال غلاب بن الهيثم دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد، فنمتنع بها. فقال ابن السوداء: بئس ما قلت: إذًا والله يتخطفكم الناس، ثم قال ابن السوداء -قبحه الله-: "يا قوم إن عزكم في خلطة الناس، فإذا التقى الناس فأنشبوا الحرب والقتال بين الناس، ولا تدعوهم يجتمعون، ولا تتركوهم يصطلحون؛ فمن أنتم معه لا يجد بدًّا من أن يمتنع، ويشغل الله طلحة والزبير ومن معهما عما يحبون، ويأتيهم ما يكرهون فأبصروا الرأي، وتفرقوا على ذلك، ثم أوقعوا بعض المناوشات في صفوف أصحاب الجمل، وأسرف حكيم بن جبلة في إنشاب القتال، وكان يطيل لسانه بسب أم المؤمنين عائشة، ويقتل من يلومه على ذلك من نساء ورجال، ومنادي عائشة يدعو الناس إلى الكفّ فيأبون حتى إذا مسَّهم الشر وعضهم نادوا أصحاب عائشة إلى الصلح؛

ولذلك أرسل علي إلى طلحة والزبير ليقول لهم: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل، فننظر في هذا الأمر فأرسل إليه إنا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس".

قال الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية): "فاطمأنت النفوس وسكنت، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسوا بعث علي عبد الله بن عباس إليهم، وبعثوا محمد بن طلحة السجاد إلى علي، وعولوا جميعًا على الصلح، وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط، قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر، واستسروا بذلك خشية أن يفطن أحد بما حاولوا من الشر، فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالًا وأيقظوا القوم على صليل السيوف، وقاموا من منامهم إلى السلاح، وهكذا أنشبوا الحرب بين علي وإخوته الزبير وطلحة، فظن أصحاب الجمل أن عليًّا غدر بهم، وظن علي أن إخوانه غدروا به، وكل منهم أتقى لله من أن يفعل ذلك في الجاهلية، فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل من أخلاق القرآن وهم أبناء الإسلام".

وهكذا نشبت الحرب عن طريق أصحاب الأهواء الذين بادروا بإراقة الدماء، وكثرة الغوغاء على البغواء، كل ذلك حتى لا يقع برهان، ولا تقف الحرب على بيان، ويخفى قَتَلَة عثمان، ويباد جند الإيمان، وإن واحدًا في الجيش يفسد تدبيره، فكيف بألف. وقتلة عثمان كانوا يزيدون على ألفين وخمسمائة، هذا فضلًا عن عدم علم المؤمنين المخلصين بما يجري وراء الأستار، وقد أحبك المتآمرون خطتهم، وقد جعلوا كلًّا من الفريقين يظن أن الآخر قد غدر به، وظنوا أن هذا عن ملأ من أصحاب علي، وبلغ الأمر علي فقال: ما للناس؟ فقالوا:

بيتنا أهل البصرة، فثار كل فريق إلى سلاحه، ولبسوا لأمة الحرب، وركبوا الخيول، وقامت الحرب على قدم وساق، وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان، وتواقف الفريقان، والسبئية أصحاب ابن سبأ قبَّحهم الله لا يفترون عن القتل، ومنادي علي > ينادي ألا كفوا إلا كفوا، فلا يسمع أحد.

ومن ناحية عائشة < وقد قال لها كعب بن سور الأزدي أول قضاة المسلمين على البصرة: يا أم المؤمنين أدركي الناس لعل الله يُصلح بكِ بين الناس، فقالت له: وقد أمسك بخطام الجمل خلي يا كعب عن البعير، وتقدم بكتاب الله فادعهم إليه، ودفعت إليه مصحفًا، وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجري الصلح فاستقبلهم كعب بالمصحف، وعلي من خلفهم يزعمهم ويأبون إلا إقدامًا فلما دعاهم كعبًا رشقوه رشقًا واحدًا فقتلوه، وتعقبوا طلحة والزبير فقتلوهما، ثم راموا أمير المؤمنين وقد حاولوا قتلها ولكن أصحابها ستروا الهودج بالدروع، ثم أخذت < حين أبوا الصلح في الدعاء، وقالت: أيها الناس ألعنوا قَتَلَة عثمان وأشياعهم، وأقبلت تدعو وضج أهل البصرة بالدعاء وسمع علي الدعاء، فقال: ما هذه الضجة، فقالوا: عائشة تدعوا ويدعوا الناس معها على قَتَلَة عثمان وأشياعهم، فأقبل علي يدعو وهو يقول: اللهم ألعن قَتَلَة عثمان وأشياعهم.

وهكذا اشترك صالح الفريقين في لعن قَتَلَة أمير المؤمنين الشهيد المظلوم عثمان > ، في الساعة التي كان في قَتَلَة عثمان ينشبون القتال بين صالح المسلمين ومعلوم أنه عند الفتنة وفي ملحمة القتال يتمكن أولي الإحن والحقد من حلّ العُرى، ونقض العهود، وكانت آجال قد حضرت، ومواعد قد أنجزت. وهكذا قد وقعت تلك الكارثة التي ذهب ضحيّتها آلاف من الناس حتى جعل علي > يقول لابنه

الحسن: يا بني ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عامًا. فقال له: يا أبتي قد كنت أنهاك عن هذا. قال: يا بني لم أر أن الأمر يبلغ هذا.

وانتهت الحرب بسقوط الجمل الذي كان عليه هودج أم المؤمنين عائشة بعدما قتل ممن أخذ بخطامه سبعون رجلًا، ولما سقط الجمل أقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه عمار، فاحتمل الهودج فنحَّياه، وسلم محمد بن أبي بكر على أخته عائشة < ، وأتاه علي < فقال: كيف أنت يا أماه؟ فقالت: بخير يغفر الله لك، قال: يغفر الله لكِ. قالت: ولك، ثم جهَّز علي < عائشة < بكل شيء مما ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وقالت: تجهز يا محمد يريد ابن أبي بكر، فبلغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيها جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس فخرجت على الناس وودعوها وودعتهم، وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعضنا استبطاء واستزادة، فلا يعتدنّ أحدٌ منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك، إنه هو والله ما كان بين وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي على معتبتي من الأخيار.

وقال علي: "يا أيها الناس صدقت والله وبرَّت ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجت نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة". وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ست وثلاثين من الهجرة، وشيعها علي < أميال وسرح بنيه معها يومًا. وبهذا تدرك جانبًا من مؤامرات السبئية ومخططاتها، والتي لأجلها دخل اليهودي الملعون ابن سبأ في الإسلام، وتستَّر بكفره، وتظاهر للحب لعلي وآل بيته، وفعل هو وجماعته السبيئون هذه الشناعات المنكرة التي جرت إلى أن تتمنى أم المؤمنين عائشة وأمير المؤمنين علي { أن كانا أمواتًا قبل وقوع هذا.

ولم يكتفِ السبئيون بما وقع في الجمل، بل بدءوا يتقوَّون ويجمعون حولهم الموالي والأعراب إلى أن فحل أمرهم، وازداد طغيانهم، كما ازداد نفوذهم وقوتهم، وجمعوا حولهم أوباشًا من الناس والفسقة الفجرة، كما أنهم بدءوا يبثون العقائد الفاسدة بينهم، وحرسوا على إثارة الفتن والقلائل، وإثارة الأحقاد والضغائن، وأخذوا ينفخون في الرمد، ويحاولون إسعار الحرب بين المسلمين مرة أخرى، ويحرضون الشيعة عليه ضدَّ كل من يطالب بثأر عثمان وقصاصه، وخاصة معاوية > الذي عزله علي عن الشام، وامتنع من الخضوع لخلافة علي > والتسليم بإمارته بدعوى أن بيعة علي لم تنعقد؛ لأنه لم تحصل الشورى، لم يبايعه أهل الحل والعقد، ولم ينتخبه إلا رجال معدودون من المهاجرين والأنصار ومن أهل المدينة، وفوق ذلك كله قَتَلَة عثمان والسبئية التجئوا في معسكره، واكتنفوا بكنفه، ومن طرف آخر بدأت الرسائل تتبادل بين علي ومعاوية { على أن يبايع معاوية عليًّا أولًا، ثم بعد أن تهدأ الأمور يكون هناك موقف مع قَتَلَة عثمان الذين استفحل أمرهم، ولا قدرة لعلي عليهم، بل صاروا يملكوننا ولا نملكهم، ونحو هذا مما جاء في الرسائل؟

ولكن معاوية > بعد أن وصلته رسالة علي > جمع رؤساء الصحابة الذين عنده مع قادة الجيوش وأعيان الشام واستشارهم فيما يطلب علي، فقالوا: لا نبايعه حتى يقتل قَتَلَة عثمان، أو يسلمهم إلينا، فأرسل معاوية مع من بعث بهم علي > يدعونه إلى الجماعة والطاعة يقول: أما بعد فإنكم دعوتموني إلى الجماعة والطاعة، فأما الجماعة فمعنا هي وأما الطاعة فكيف أطيع رجلًا أعان على قتل عثمان، وهو يزعم أنه لم يقتله، ونحن لا نرد ذلك عليه ولا نتهمه به، ولكنه آوى قتله عثمان فيدفعهم إلينا حتى نقتلهم، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة، فلما رجع أبو الدرداء وأبو إمامة إلى علي } أجمعين- وقال له

ذلك. فقال: هؤلاء اللذان تريان فخرج خلق كثير فقالوا: كلنا قَتَلَة عثمان فمن شاء فليرمنا.

هذا، ولا يجوز أن نغفل السبب الرئيس لمن تأثروا بالدسائس اليهودية، والأفكار المدسوسة خرجوا عن الجادة المستقيمة، وأعطوا هذا الخلاف صبغة دينية، أمثال السبئيين وغيرهم ممن وقعوا في حبائل اليهودية المبغضة للإسلام، وهم الذين كان يؤججون نار الحرب، كلما خبت نيرانها، ويفسدون وسائل الصلح، كلما أوشكت أن تؤتي ثمارها ويزورون الرسائل بين الفريقين لإثارة الحقد والبغضاء في النفوس، ولا شك أن كثير من أتباع عبد الله بن سبه، هم من المجوس واليهود و المنافقين دخلوا في معسكر علي > تحت ستار شيعة علي، كما دخل بعض منهم في معسكر معاوية > ولكنهم لم يكونوا لا من شيعة علي ولا من شيعة معاوية، بل هم كانوا كتلة مستقلة، وفئة باغية لها أفكارها وعقائدها، ولها أغراضها وأهدافها، وهم الذين كانوا يسعون بالفساد ويضرمون نار الحرب، كلما أراد الطرفان الصلح والاتحاد بينهما، ومنهم نشأت فتنة الخوارج.

الخوارج (٢)

عناصر الدرس

الفتنة بعد مقتل عثمان وتولية علي }

أطلت الفتنة برأسها مرة أخرى حين أصر أهل الشام على عدم مبايعة علي > حتى يَقْتُل قتلة عثمان، أو يسلمهم لهم، وما استطاع علي أن يسلمهم قتلة عثمان، ولا أن يقتلهم في الوقت الراهن، وكانت هناك رسائل بين علي ومعاوية، وزوّرت الرسائل بين الفريقين من قبل السبئيين لإثارة الحقد والبغضاء في النفوس.

ووجدت طائفة من أتباع بن سبأ، وزعوا أدوارهم ووزعوا أنفسهم بين جيش علي وجيش معاوية، ومنهم نشأت فتنة الخوارج الذين كفروا عليًّا وعثمان ومعاوية معًا } أجمعين- لأنه لم يكن همهم إسقاط خلافة عثمان، ولا تحريض الناس عليه بل كان كل ما يقصدون هو القضاء على دولة الإسلام، وسدّ باب فتوحاتهم وغزواتهم، ولذلك عندما نجحوا في إيقاع الفتنة بين المسلمين، وتأليبهم على خليفة رسول الله ﷺ الراشد الثالث عثمان بن عفان >، وتفريق كلمة المؤمنين وتشتيتهم تألَّبوا على علي >، كما تألبوا على عثمان > من قبل. وهذا مما لا ينكره إلا مكابر أو مجادل بلا حق ولا علم ولا بصيرة.

ثم ثبت علي على موقفه، وثبت معاوية على موقفه بعد أن دارت ببينهما رسائل كثيرة واقترعوا كذلك، وباءت كل المحاولات بالفشل؛ لأن عليًّا لا يرى جواز وجود خليفتين في وقت واحد، وأن معاوية شقَّ جماعة المسلمين، وفرَّق كلمتهم وأبى السمع والطاعة، ومعاوية > يقول: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني؛ ولكن ألستم تعملون أن عثمان قُتل مظلومًا وأنا

ابن عمه أطالب بدمه، وأمره إليّ، فقولوا له: فليسلم إليّ قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره. ومع عدم اقتناع الفريقين بوجهة نظر الآخر، فضلًا عن تداخل قتلة عثمان في الأمر، وإثارتهم القلائل.

بهذا دارت الحرب بين علي > ومعاوية > مع فئتين عظيمتين من المسلمين دعواهما واحدة كما قال رسول الله ﷺ وهو يمدح الحسن بن علي } : ((إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من أمتي دعواهما واحدة)) وهذه الدعوة الواحدة تمثّلت في وحدة الدين والإيمان، وطلب الحق؛ فلم يكن بين القوم خلاف ديني يرجع إلى الكفر والإسلام، أو الاتهام بالنفاق أو نحوه، ولكن الخلاف بينهما في جانب سياسي محض طائفة ترى أن عليًّا خليفة صاحب حق شرعي؛ حيث انعقدت الخلافة له بمشورة أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار، وعلى معاوية أن يبايعه ولا ينازعه الخلافة وإلا جاز له قتاله.

طائفة رأوا أن أحق الناس بها معاوية بن أبي سفيان } حيث إنه يريد القصاص لدم الإمام المظلوم صهر رسول الله ﷺ، وخليفته للمسلمين، والذي أخذ رسول الله ﷺ البيعة المشهورة للأخذ بثأره يوم الحديبية، وسُمّيت فيما بعدُ -أي: هذه البيعة- ببيعة الرضوان؛ حيث أنزل الله رضاه لكل من بايع لأجله. فالخلاف مبني على الاجتهاد لكل واحد منهما وجهة نظره التي يرى صوابها وأحقيتها مع اعتراف كل منهما بالفضل للآخر، والشهادة له بالإسلام.

فهذا علي > قال مخاطبًا جنده عن معاوية ومن معه: أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنها خير ما تواصى به العباد، وخير عواقب الأمور عند الله، وقد فُتح باب

الحرب بينكم وبين أهل القبلة، هذا، وقد زاد علي > المسألة وضوحًا وبيانًا في كتاب له كتبه لأهل الأمصار يوضح فيه ما جرى بينه وبين أهل صفّين، ويبين فيه حكم ما ناضلوه وقاتلوه وموقفه منهم فقال: وكان بدء أمرنا أنا التقينا والقوم من أهل الشام، والظاهر أن ربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله، ولا يستزيدوننا، الأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه بَراء، ولأجل ذلك منع أصحابه من سبّ أهل الشام وأنصار معاوية، وشتمهم إيَّاهم أيام حربهم بصفين، فقال: إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم؛ كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دمائنا ودمائهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم.

وبهذا ندرك أن عليًّا > لم يكن يعدّ محاربيه كفارًا، ولقد أقرّ بذلك الشيعة أنفسهم؛ حيث أوردوا نفس الرواية التي أوردها أهل السنة في كتبهم عن جعفر عن أبيه أن عليًّا # كان يقول لأهل حربه: إنا لم نقاتلهم على التكفير لهم، ولم يقاتلونا على التكفير لنا، ولكنا رأينا أنا على حق، ورأوا أنهم على حق، وفي رواية عن جعفر أن أبيه محمد الباقر أن عليًّا لم يكن ينسب أحد من أهل حربه إلى الشرك، ولا إلى النفاق، ولكن يقول: هم إخواننا بغوا علينا.

ومن طريف ما ذُكر أن أبا العالية وهو تابعي مشهور، أدرك النبي ﷺ وهو شاب، ولكنه لم يسلم إلا بعد وفاة النبي ﷺ في عهد أبي بكر > فإنه روى عنه أبو خلدة أنه قال: قال أبو العالية: "لما كان زمان علي ومعاوية، وإني لشاب القتال أحبّ إليّ من الطعام الطيب، فجُهزت بجهاز حسن حتى أتيتهم، فإذا

صفان ما يُرى طرفاهما إذا كبَّر هؤلاء كبر هؤلاء، وإذا هلل هؤلاء هلل هؤلاء، فراجعت نفسي أيُّ الفريقين أُنزله كافرًا، ومن أكرهني على هذا، قال: فما أمسيت حتى رجعت وتركتهم" فالخلاف الذي وقع بين علي ومعاوية { لم يؤدِّ إلى التكفير والتفسيق فيما بينهم، ولا المقاطعة الدائمة والمباغضة الأبدية والهجران والقطيعة، كما تصوَّره القوم في العصور المتأخرة، وكما وُضعت الأساطير والقصص، بل كل واحد من الحزبين كانا يعتقد بإيمان الآخر وإسلامه كما أشرنا، ويحب الإصلاح بينهما ويسعى إلى التوافق والتصالح، وعلى ذلك صالح الحسن بن علي معاوية - { أجمعين- وبايعه، ولو كان يظنه كافرًا خارجًا عن الإسلام أو فاسقًا لما اتفق معه ولم يصالحه ولم يبايعه، ولم يأمر أخاه الحسين ولا قائد جيشه قيس بن سعد أن يبايعه.

كما ثبت ذلك حتى في كتب الشيعة أنفسهم، وجعل الحسن بن علي أحد شروط الصلح مع معاوية > أن يكون متبعًا لسيرة الخلفاء الراشدين، ولم يكن هؤلاء إلا أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا - { أجمعين- وقبول معاوية > هذا الشرط، وهو العمل بسيرة هؤلاء لا يكون إلا لحسن الظن فيهم، واعتقاده الخير منهم، والإيمان بتقواهم وطهارتهم زيادة على إيمانهم وإسلامهم الصحيح الخالص؛ ولذلك فكلّ الذين كانوا على رأي علي > أصبحوا بعد استشهاد علي وتنازل الحسن عن الخلافة مطاوعين لمعاوية أيضًا، ومبايعين له كما حصل مع إمامهم الحسن وأخيه الحسين، وقائد عسكره قيس بن سعد؛ ولم يكن بينهم خلاف ديني ولا نزاع قبلي، ولا عصبية الحسب والنسب.

وكانوا يفيضون على الحكام، ويصلون خلفهم كما كان الحسن والحسين { وهما ابنا علي > وفاطمة > وسبطا رسول الله ﷺ يفيدان على معاوية >

ولما استقرت الخلافة لمعاوية > كان الحسن يتردّد إليه مع أخيه الحسين فيكرمهما معاوية إكرامًا زائدًا ويقول لهما: مرحبًا وأهلًا ويعطيها عطاء جزيلًا، وقد أطلق لهما في يوم واحد مائتي ألف، وقال: خذاها وأنا ابن هند، والله لا يعطيكماهما أحد قبلي ولا بعدي، فقال الحسين: والله لن تعطي أنت ولا أحد قبلك ولا بعدك رجلًا أفضل منا، ولما توفي الحسن كان الحسين يفد إلى معاوية في كل عام فيعطيه ويكرمه.

هذا؛ وخلاصة الحكم على نحو ما نعتقده، نحن أهل السنة والجماعة، أقول - وبالله التوفيق: لقد كان من مصلحة الإسلام ألَّا تنشب حرب صفين بين الفريقين مع علمنا أن حرب البصرة التي هي موقعة الجمل ناشئة عن إنشاب قتلة عثمان الحرب بين الفريقين، وكانت يدهم في ذلك ظاهرة، وأما في صفين فهي لا تخفى أيضًا مهما كانت خفية، ونعلم أن النبي ﷺ قد ذكر الفتن وأشار إلى أنها تدور رحى الإسلام بعد خمس وثلاثين عامًا، ونعذر أصحاب رسول الله ﷺ فالمطالبون بإقامة حد الله على قتلة عثمان معذورون؛ لأنهم يطالبون بحق؛ سواء كانوا من أصحاب الجمل أو من أهل الشام، وتقصير علي في إقامة حد الله عليهم كان عن ضرورة قائمة ومعلومة، ولكن عليًّا > أولى بالحق من معاوية >، وإن كان كلاهما على حق، وذلك لقوله ﷺ وقد أنذر الخوارج: ((تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق))، وفي (صحيح مسلم) من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: ((تمرق مارقةٌ عند فُرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتان بالحق)).

فبين ﷺ أن كل طائفة منهما تتعلق بالحق، ولكن طائفة علي أدنى إليه، ووجه ذلك أن معاوية وهو يطالب بدم عثمان لا يصح أن يحكم؛ إذ تهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه أن يخرج عليه؛ بل يطلب الحق عنده، فإن ظهر له قضاء

وإلا سكت وصبر. فكم من حق يحكم الله فيه وإن لم يكن له دين، فحينئذٍ يخرج عليه فيقوم له عذر في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، فانظر -رحمك الله- لم يخرجهم عن الإيمان بالبغي بالتأويل، ولا سلبهم اسم الأخوة لقوله بعدها: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

فنحن أهل السنة والجماعة ندين لله ﷻ بأن عليًّا ومعاوية ومن معهما من أصحاب رسول الله ﷺ، و } كانوا جميعًا من أهل الحق، وكانوا مخلصين في ذلك، والذي اختلفوا فيه إنما اختلفوا عن اجتهاد، كما يختلف المجتهدون في كل ما يختلفون فيه، وهم لإخلاصهم في اجتهادهم يُثابون عليه في حالتي الإصابة والخطأ، وثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ، وليس بعد رسول الله ﷺ بشرٌ معصوم عن أن يُخطئ، وقد يخطئ بعضهم في أمور ويصيب في أخرى، وكذلك الآخرون، ومن مرق عن الحق في إثارة الفتنة الأولى على عثمان لا يُعدّ من إحدى الطائفتين اللتين على الحق، وإن قاتل معهما والتحق بهما؛ لأن الذين تلوثت أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغي الظالم على أمير المؤمنين عثمان كائنًا من كان؛ استحق إقامة الحد الشرعي عليهم، سواء استطاع ولي الأمر أن يقيم عليهم هذا الحد أو لم يستطع. وفي حالة عدم استطاعته فإن مواصلتهم تسعير القتال بين صالح المسلمين، كلما أحسوا منهم بالعزم على الإصلاح والتآخي، كما فعلوا في وقعة الجمل وما بعدها، يُعدّ إصرار منهم على استمرارهم في الإجرام ما داموا على ذلك.

فإن قلنا: إن الطائفتين كانتا من أهل الحق، فإنما نريد أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا من الطائفتين، ومن سار معهم على سنته ﷺ من التابعين، ونرى أن عليًّا المبشر بالجنة أعلى مقامًا عند الله ومن معاوية خال المؤمنين، وصاحب رسول رب العالمين، وكلاهما من أهل الخير، وإذا اندسَّ فيهم طوائف من أهل الشر ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

أما قوله ﷺ في عمار: ((تقتله الفئة الباغية)) فقد كان معاوية يعرف من نفسه أنه لم يكن منه البغي في حرب صفين؛ لأنه لم يردها ولم يبتدئها، ولم يأتِ لها إلا بعد أن خرج علي من الكوفة، وضرب معسكره في المخيلة ليسير إلى الشام، ولذلك لما قتل عمار قال معاوية: إنما قتله من أخرجه، وإن لم يكن الأمر كذلك، فإنا نعتقد كل من قتل من المسلمين بأيد المسلمين منذ قتل عثمان؛ فإنما إثمه على قتلة عثمان فهم البُغاة، وهم الفئة الباغية؛ لأنهم فتحوا باب الفتنة، ولأنهم واصلوا تسعير نارها، ولأنهم الذين أوغروا صدور المسلمين بعضهم على بعض، فكما كانوا قتلة عثمان فإنهم كانوا قاتلين لكل من قُتل بعده، ومنهم عمار > ومن هُم أفضل من عمار كطلحة والزبير } أجمعين- إلى أن انتهت فتنتهم بقتلهم عليًّا > نفسه، وقد كانوا من جنده، وفي الطائفة التي كان قائمًا عليها.

فالحديث إذا من أعلام النبوة والطائفتان المتقاتلتان في صفين كانتا طائفتين من المؤمنين، وأما الذين قتلوا عمار فهم الفئة الباغية من السبئيين ومن كان على شاكلتهم. وكما ذكر ابن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشعباني قاضي أفريقيا المتوفى سنة مائة وست وخمسين من الهجرة، وكان رجلًا صالحًا من الآمرين

بالمعروف، ذكر أهل صفين فقال: كانوا عربًا يعرف بعضهم بعضًا في الجاهلية، فالتقوا في الإسلام معهم على الحميَّة وسنة الإسلام، فتصابروا، واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء فيستخرجون قتلاهم ويدفنونهم. وقال الشعبي: "هم أهل الجنة لقي بعضهم بعضًا فلم يفر أحد من أحد"، ولذلك فإن هذه الحرب على الرغم من كونها من الفتن كانت حربًا مثالية، وكانت الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ التي جرى فيها المتحاربان على مبادئ الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو يُعمل بها في حروبهم، ولو في القرن الحادي والعشرين.

وإن كثيرًا من قواعد فقه الحرب في الإسلام لم تكن لتُعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب، ولله في كل أمر حكمة، وكل ما وقع من الفتن فإثمه على الذين أثاروا الفتنة وأشعلوا نار الحرب؛ لأنهم السبب الأول فيها، فهم الفئة الباغية التي قُتل بسببها كل مقتول في وقعتي الجمل وصفين، وما تفرع عنهما. وعلى الجملة نقول: لقد كان الصواب ألا يكون قتال، وكان ترك القتال خيرًا للطائفتين، فليس في الاقتتال صواب، ولكن علي كان أقرب للحق من معاوية وأفضل منه، وكلاهما صحابي جليل، والقتال قتال فتنة ليس بواجب ولا مستحب، وهذا قول أحمد وأكثر أهل الحديث وأكثر أئمة الفقهاء، وهو قول أكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهو قول عمران بن حصين > الذي كان ينهى عن بيع السلاح في ذلك القتال، وهو يقول: هو بيع السلاح في الفتنة، وهو قول أسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وأكثر من بقي من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار } أجمعين.

ولهذا كان من مذهب أهل السنة الإمساك عما شجر بين الصحابة، فإنه قد ثبتت فضائلهم ووجبت موالاتهم ومحبتهم، وعدم إيذائهم، أو سبهم، فنقول كما قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: قد برأ الله أيدينا من دمائهم، فلنبرئ ألسنتنا من الخوض في أعراضهم، كما قال: تلك فتنة طهَّر الله منها يدي، فلا أخوض فيها بلساني، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤]. هذا والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، اللهم اهدنا لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، آمين.

فتنة التحكيم، واستقلال الخوارج عن بقية الأمة

ومع هذه الملابسات حيث صفين ومن قبلها الجمل في معركة صفين بدأت فتنة التحكيم، ودبَّت الفتنة لتكون الشرارة الأولى لظهور الخوارج كفرقة تطفو على السطح، وتستقل عن بقية الأمة، وفي البداية أقول: إن جُل ما ذكر في مسألة التحكيم، وكل ما شاع في أوساط الناس مما لا يرضي الله تعالى، ولا يتفق مع مروءة ولا دين؛ إنما هو من سخافات حمل على تسطيرها في الكتب عدم الدين مع الجهل البيّن، كذا التعصب والكذب الصراح، وما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة، ووضعه المؤرخون تملقًا للملوك فتوارثته أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع.

ويجب أن يعلم أنما ورد بخصوص قضية التحكيم من روايات وردت جلها غير صحيحة؛ لأنها من رواية أبي مخنف الشيعي، الذي قال عنه الحافظ الذهبي: أبو مخنف إخباري تالف، لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره، وقال فيه ابن عدي:

شيعي محترق صاحب أخبارهم، وليس بين أيدينا رواية واحدة نطمئنّ إليها يكون كل رُواتها ثقات، ويجب أن ندعى روايات أبي مخنف جانبًا، وهي تحمل في ثناياها أقبح الصور عن الخلاف وعن التحكيم، ومن ذلك الصورة الثابتة في أذهان الناس، والتي تُدرَّس في كتب التاريخ؛ إذ الشائع لدى الأكثرين أن عمرو بن العاص غدر بأبي موسى الأشعري { ، وقدمه للكلام بعد أن اتفق على خلع معاوية وعلي { وقام أبو موسى فخلع معاوية وعليًّا؛ بينما تقدم عمرو بعده فخلع علي وثبت معاوية.

وأصل المغالطة من تجاهل المغالطين أن معاوية لم يكن يومئذٍ خليفة، ولا هو ادَّعى الخلافة حتى يحتاج عمرو إلى خلعها عنه، بل إن أبا موسى وعمروًا اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، واتفاق الحكمين على ذلك لا يتناول معاوية؛ لأنه لم يكن خليفة، ولم يقاتل على الخلافة، وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان، فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين، واتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم، تناول التحكيم شيئًا واحدًا هو الإمامة.

أما التصرف العملي في إدارة البلاد تحت معاوية، وهو ولي عليها فهو متصرف فيها ولم يشر إليها، فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر كما زعموا، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة كما سطروا، وكان من الممكن أن يكون هناك محلّ للمكر أو الغفلة، لو أن عمروًا أعلن في نتيجة التحكيم أنه ولى معاوية إمارة المؤمنين وخلافة المسلمين، وهذا ما لم يُعلنه عمرو، ولا ادَّعاه معاوية، ولم يقل به أحد في الأربعة عشر قرنًا الماضية؛ لأن الخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد الصلح مع

الحسن بن علي { وتنازله له عن الخلافة حقنًا لدماء المسلمين، وقد تمت بمبايعة الحسن لمعاوية، ومن ذلك اليوم فقط سُمي معاوية أمير المؤمنين؛ فعمرو لم يغالط أبو موسى ولم يخدعه، لأنه لم يعط معاوية شيئًا جديدًا، ولم يقرر في التحكيم غير الذي قرره أبو موسى، ولم يخرج عما اتفقا عليه معًا.

هذا، والذي صح في قصة التحكيم ما ذكره الدارقطني بسنده إلى حصين بن المنذر قال: لما عزل عمرو معاوية جاء حصين بن المنذر فضرب فسطاطه قريبًا من فسطاط معاوية، وبلغ معاوية، فأرسل إليه وقال: إنه بلغني عن هذا أي: عن عمرو كذا وكذا، أي: عزل عليًّا ومعاوية، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه، فأتيته فقلت: أخبرني عن الأمر الذي وُليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، لكن قلت لأبي موسى ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ. قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يُستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما، فرضي الله عن أبي موسى كان رجلًا تقيًّا ثقة عالمًا فقيهًا، أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ، وقدمه عمر وأثنى عليه بالفهم، وكان آخر العهد بأبي موسى عندما كان واليًا على الكوفة، وجاء دعاة علي يحرضون الكوفيون على لبس السلاح، والالتحاق بجيش علي استعدادًا لما ينتظرونه من قتال مع أصحاب الجمل في البصرة، ثم مع أنصار معاوية في الشام؛ فكان أبو موسى يُشفق على دماء المسلمين أن تُسفك بتحريض الغلاة فيها، ويذكّر أمة محمد ﷺ بقول نبيهم ﷺ في الفتنة: ((القاعد فيها خير من القائم))، فتركه الأشتر يحدث الناس في المسجد بالحديث النبوي، وأسرع إلى دار الإمارة فاحتلّها، فلما عاد إليها أبو موسى منعه

الأشتر من الدخول، وقال له: اعتزل إمارتنا، فاعتزلهم أبو موسى واختار الإقامة في قرية يقال لها عرض بعيدًا عن الفتن وسفك الدماء.

ولما شبع الناس من سفك الدماء، واقتنعوا بأن أبا موسى كان ناصحًا للمسلمين في نهيهم عن القتال، طلبوا من علي أن يكون هو ممثل العراق في أمر التحكيم؛ لأن الحالة التي كان يدعو إليها هي التي فيها الصلاح، فأرسلوا إلى أبي موسى وجاءوا به من عُزلته، فلما قيل له: إن الناس قد اصطلحوا قال: الحمد لله، قيل له: وقد جعلت حكمًا. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أحضروه إلى علي < كتبوا بينهم كتابًا هذه صورته: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه هو أميركم وليس بأميرنا. فقال الأحنف: لا تكتب إلا أمير المؤمنين. فقال علي: امحُ أمير المؤمنين واكتب هذا، ما قاضى عليه علي بن أبي طالب.

ثم استشهد علي بقصة الحديبية حين امتنع أهل مكة، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ فامتنع المشركون من ذلك، وقالوا: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فكتب الكاتب: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان قاضي علي على أهل العراق، ومن معهم من شيعتهم والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله وكتابه، ونحيي ما أحي الله، ونميت ما أمات الله، كما وجد الحكمان في كتاب الله، وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المتفرقة، ثم أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين

والمسلمين من الطائفتين كليهما. عهد الله وميثاقه أنهما على ما في هذه الصحيفة، وأجلا القضاء إلى رمضان، وإن أحب أن يؤخرا ذلك على تراض منهما.

وكتب في يوم الأربعاء لثلاث عشر خلت من صفر سنة سبع وثلاثين على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في رمضان، ومع كل واحد من الحكمين أربع مائة من أصحابه، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمع من العام المقبل بأذرح بلد بالشام.

هذا، وقد ذُكر أن عمرو بن العاص هو الذي دعا إلى رفع المصاحف، ولم يصح، وأصح ما ورد في ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبي وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي بنهروان فيما استجابوا له، وفيما فارقوه، وفيما استحل قتالهم فقال: كنا بصفين ولما استحر القتال بأهل الشام اعتصموا بتل فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى علي بمصحف فادعه إلى كتاب الله، فإنه لن يأبى عليك فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله، ثم قرأ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣].

وقال علي: نعم أنا أولى بذلك بيننا وبينكم كتاب الله، قال: فجاءته الخوارج ونحن ندعوهم يومئذٍ القراء وسيوفهم على عواتقهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين ما ينتظر هؤلاء القوم الذين على التل، فلا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم فتكلم سهل بن حنين، فقال: يا أيها الناس اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني: الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ولو نرى قتال لقتلنا فجاء عمرو إلى رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل، وذكر تمام الحديث كما هو في صلح الحديبية.

تلك بداية الشرارة أنه لما كتب كتاب الصلح بين علي ومعاوية فيه تحكيم أبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، ثم قرأ الكتاب على القوم فقال: رجل يدعى عروة بن أذينة وهي أمه، وهو عروة بن جرير من بني ربيعة، وقيل: هو عبد الله بن وهب الراسبي والصحيح الأولى، وقال: أتحكمون في دين الله الرجال فأخذ هذه الكلمة من الرجل طوائف من أصحاب علي من القراء، وقالوا: لا حكم إلا لله فسموا المحكمية، وتفرق الناس إلى بلادهم من صفين، وخرج معاوية إلى دمشق بأصحابه ورجع علي إلى الكوفة، ولما دخل انعزل عنه طائفة من جيشه قيل: كانوا ستة عشر ألفًا، وقيل اثني عشر ألفًا. وقيل أقل من ذلك، فباينوه وخرجوا عليه، وأنكروا عليه أشياء، فبعث إليهم عبد الله بن عباس فناظروهم فيها، وردَّ عليهم ما توهموه شبهة، ولم يقل لهم حقيقة في نفس الأمر فرجع بعضهم، واستمر بعضهم على ضلاله حتى كان من أمرهم ما كان، مما ينبغي أن نفصّل القول فيه إن شاء الله تعالى.

ألا وهو خروج الخوارج، لما دعا أهل الشام إلى تحكيم كتاب الله، وعلي يطالب الناس بالمضي في القتال لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فأبى عليه الخوارج وقالوا: نجيب إلى كتاب الله ونتيب إليه، فطالبهم بالقتال، فقالوا له: ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله، فقال لهم: إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم الكتاب، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم به، وتركوا عهده ونبذوا كتابه فقال له مسعر بن فتكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي، ثم السبنسي في عصابة معهما من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج: يا علي أجب إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه، وإلا دفعناك برمتك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان إنه علينا أن نعمل بكتاب الله فقبلناه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك، قال: فاحفظوا عني

نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي، أما أنا فإن تطيعوني فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم قالوا: فابعث إلى الأشتر فليأتك وليكف عن القتال، فبعث إليه ليكف عن القتال، وقد ذكر الهيثمي بن عدي بسنده عن ابن عباس { أن عمار بن ياسر > كره ذلك، وأبى وقال: في علي بعض ما أكره ذكره، ثم قال من رائح إلى الله قبل أن يبتغى غير الله حكم فحمل فقاتل حتى قتل -رحمه الله تعالى.

وكان ممن دعا إلى ذلك سادة الشاميين عبد الله بن عمرو بن العاص أقام في أهل العراق فدعاهم إلى الموادعة، والكف وترك القتال والائتمار بما في القرآن، وذلك على أمر معاوية له بذلك { ، وكان ممن أشار إلى علي بالقبول والدخول في ذلك الأشعث بن قيس الكندي > ، وروى أبو مخنف من وجه آخر أن عليًّا لما بعث إلى الأشتع قال: قل له ليست هذه الساعة التي ينبغي أن تزيلني عن موقفي فيها إني قد رجوت أن يفتح الله علي فلا تعجلني، أو فلا تعجلني، فرجع الرسول وهو يزيد بن هانئ إلى علي فأخبره عن الأشتع بما قال، وصمم الأشتر على القتال لينتهز الفرصة، فارتفع الهرج وعلت الأصوات فقال أولئك القوم لعلي: والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل فقال: أريتموني سررته ألم أبعث إليه جهرة وأنتم تسمعون فقالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلا والله اعتزلناك.

قال علي ليزيد بن هانئ: ويحك قل له أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت، فلما رجع إليه يزيد بن هانئ فأبلغه عن أمير المؤمنين أن ينصرف عن القتال، ويقبل إليه جعل يتململ ويقول: ويحك ألا ترى إلى ما نحن فيه من النصر ولم يبقَ إلا القليل فقلت: أيهم أحب إليك أن تقبل أو يقتل أمير المؤمنين كما قتل عثمان، ثم ماذا يغني عنك نصرتك ها هنا، قال: فأقبل الأشتر إلى علي وترك القتال فقال: يا

أهل العراق يا أهل الذل والوهن أحين علوتم القوم، وظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله بها فيها، وسنة ما أرسلت عليه؛ فلا تجيبهم أمهلوني فإني قد أحسست بالفتح. قالوا: لا. قال: أمهلوني عدو الفرس، فإني قد طمعت في النصر قالوا: إذا ندخل معكم في خطيئتك.

ثم أخذ الأشتر يُناظر أولئك القراء الداعين إلى إجابة أهل الشام لما حاصله، إن كان أول قتالكم هؤلاء حقًّا فاستمروا عليه، وإن كان باطلًا فاشهدوا قتالكم بالنار، فقالوا: دعنا منك، فإنا لا نطيعك ولا صاحبك أبدًا، ونحن قاتلنا هؤلاء في الله وتركنا قتالهم لله، فقال لهم الأشتر: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم يا أصحاب السوء، أو الجباه السود كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا، وشوقًا إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت يا أشباه النيّب الجلالة، ما أنتم بربانين بعدها، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون، فسبوه وسبهم وضربوا وجه دابته بسياطهم، وجرت بينهم أمور طويلة، ورغب أكثر الناس من العراقين وأهل الشام بكمالهم إلى المصالحة والمسالمة مدة لعله يتفق أمر يكون فيه حقن لدماء المسلمين، فإن الناس تفانوا في هذه المدة، ولا سيما في هذه الثلاثة أيام المتأخرة التي آخر أمرها ليلة الجمعة التي عُرفت بليلة الهرير كلٌّ من الجيشين فيه من الشجاعة والصبر ما ليس يوجد في الدنيا مثله، ولهذا لم يفر أحد عن أحد بل صبروا حتى قتلوا من الفريقين سبعين ألفًا، خمس وأربعون ألفًا من الشام وخمس وعشرون ألفًا من أهل العراق قاله غير واحد كما نقله ابن كثير في (البداية والنهاية).

وبهذا ندرك أن أمر الخوارج قد ظهر مع بداية التحكيم وأنهم ضلوا كذلك بسببه؛ حيث راعوا بعد ذلك ينكرون على الأميرين التحكيم ويكفرونهما ثم خرجوا بعد ذلك على جماعة المسلمين معتقدين كفرهم؛ لأنهم وافقوا على التحكيم كذلك، بل ذهبت الخوارج بعد ذلك في تكفير أنفسهم حتى أصبحوا فرق شتى تصل إلى عشرين فرقة، وبذلك ندرك الأصول التاريخية والنشأة والملابسات؛ لنشأة التكفير بدعة التكفير الأولى مع نشأة خوارج الأمة التي وقعت قديمًا مع هذه الخلافات، وتلك الفتن واستمرت إلى يوم الناس هذا تغذيها ظروف كالظروف الراهنة التي يتقلب فيها مجتمع اليوم من فجور ومنكرات، ولعل آخر الخوارج بدلًا من أن يخرج مع المهدي أو مع عيسى بن مريم، يخرج مع المسيح الدجال كذا يفعل الضلال بأهله، والغلو بأصحابه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

منـــــــــاظرة الخـــــــــوارج

قال الإمام أحمد: عن عبد الله بن عياض بن عمرو القارئ قال: جاء عبد الله بن شداد فدخل على عائشة > ونحن عندها مرجعها من العراق ليالي قبل علي فقالت له يا عبد الله بن شداد هل أنت صادقي عما أسأل عنه فحدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي فقال: وما لي لا أصدقك، قالت: فحدثني عن قصتهم. قال: فإن عليًّا لما كاتب معاوية وحكم الحكمين خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس فنزلوا بأرض يقال لها حروراء من جانب الكوفة وأنهم عتبوا عليه فقالوا: انسلخت من قميص ألبسكه الله واسم سماك به الله ثم انتقلت فحكمت في دين الله ولا حكم إلا الله.

وما أن بلغ عليًّا ما عتبوا عليه، وفارقوه عليه أمر فأذن مؤذن إلا يدخل على أمير المؤمنين رجل إلا رجل قد حمل القرآن ولما امتلئت الدار من قراء الناس دعا بمصحف إمام عظيم ووضعه بين يديه وجعل يسكه بيده ويقول: أيها المصحف حدث الناس فنادوه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تسأل عنه إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه فماذا تريد؟ أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينكم كتاب الله يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء: ٣٥] فأمة محمد ﷺ أعظم دمًا وحرمة من امرأة، ورجل ونقموا علي أن كاتبة معاوية كتب علي بن أبي طالب، وقد جاءنا سهيل بن عمرو، ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريش فكتب رسول الله ﷺ باسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم قال: كيف تكتب قال: باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: اكتب فكتب فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفكم فكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشًا يقول الله تعالى في كتابه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] فبعث إليهم عبد الله بن عباس فخرجت معه حتى إذا توسط عسكرهم قام ابن الكوى فخطب الناس فقال: يا حملة القرآن، هذا عبد الله بن عباس فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه ممن يخاصم في كتاب الله بما لا يعرفه، هذا ممن نزل فيه وفي قومه بل هم خاصمون فردوه إلى صاحبه ولا تواضعوه، أي: لا تناظروه ولا تناقشوه ولا تواضعوه كتاب الله فقال بعضهم: والله لنواضعن فإن جاء بحق نعرفه لنتبعنا، وإن جاء بباطل لنكبتنه بباطله، فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب.

فيهم ابن الكوى حتى أدخلهم على علي الكوفة، فبعث علي إلى بقيتهم، وقال قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ بيننا وبينكم إلا تسفكوا دمًا حرامًا أو تقطعوا سبيلًا، أو تظلموا ذمة، فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

فقالت له عائشة: يا ابن شداد فقتلهم، فقال: والله ما بعثت إليهم حتى قطعوا السبل وسفكوا الدماء واستحلوا أهل الذمة، فقالت: آلله؟ قال: آلله لا إله إلا هو قد كان ذلك، قالت: فما شيء بلغني عن أهل العراق يقولون ذو الثدي وذوي الثدية قال: قد رأيته فقمت مع علي في القتل فدعا الناس فقال أتعرفون هذا فما أكثر من جاء يقول قد رأيته في مسجد بني فلان ورأيته في مسجد فلان يصلي ولم يأتوا فيه بسبت يعرف إلا ذلك، قالت: فما قوله علي حين قام عليه، كما يزعم أهل العراق قال سمعته يقول: صدق الله ورسوله قالت: هل سمعت منه أنه قال غير ذلك قال: اللهم لا قالت أجل صدق الله ورسوله، يرحم الله عليًّا إنه كان لا يرى شيئًا يعجبه إلا قال: صدق الله ورسوله، فيذهب أهل العراق يكذبون عليه، ويزيدون عليه في الحديث، تفرد به الإمام أحمد بإسناد صحيح.

ففي هذا السياق ما يقتضي أن عدتهم كانوا ثمانية آلاف لكن من القراء قد يكون واطأهم على مذهبهم آخرون من غيرهم حتى بلغوا اثني عشر ألفًا، أو ستة عشر ألفًا، ولما ناظرهم ابن عباس رجع منهم أربعة آلاف وبقي بقيتهم على ما هم عليه وقد روى يعقوب بن سفيان بسنده عن ابن عباس وذكر القصة وزاد فيها أنهم عتبوا عليه أيضًا أنه غزا يوم الجمل فقتل الأنفس الحرام، ولم يقسم الأموال والسبي فأجابهم بقوله قد كان في السبي أم المؤمنين فإن قلتم: ليست لكم بأم

فقد كفرتم، وإن استحللتم سبي أمهاتكم فقد كفرتم، قال: فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم فتقاتلوا وذكر غيره أن ابن عباس لبس حلة لما دخل عليهم فناظروه في لبسه إياها واحتج عليهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وذكر ابن جرير أن عليًّا خرج بنفسه إلى بقيتهم، فلما يزل يناظرهم حتى رجعوا معه إلى الكوفة، وذلك يوم عيد الفطر أو الأضحى، شكَّ الراوي في ذلك ثم جعلوا يعرضون لهم في الكلام ويسمعونه شتما ويؤولون بتأويل في آيات حتى بقيت بقيتهم، والتي كان القتال بسببها فيما معركة بين علي والخوارج ما قصتها ما حكايتها.

(الخوارج (٣))

عناصر الدرس

تعـريض الخـوارج في الكـلام لعلـي وإسماعـه شـتمًا

قال الشافعي -رحمه الله-: قال رجل من الخوارج لعلي وهو في الصلاة: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقرأ علي: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقد ذكر ابن جرير أن هذا كان وعليّ في الخطبة، وذكر ابن جرير أيضًا أن عليًّا بينما هو يخطب يومًا إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال: يا علي أشركت في دين الله الرجال، ولا حكم إلا لله، فتنادوا من كل جانب لا حكم إلا لله، لا حكم إلا لله؛ فجعل علي يقول هذه كلمة حق يُراد بها باطل.

ثم قال: إن لكم علينا إلا نمنعكم فيئًا ما دامت أيديكم معنا، وألا نمنعكم مساجد الله وألا نبدأكم بالقتال حتى تبدءونا، لكنهم خرجوا بالكلية عن الكوفة، وتحيزوا إلى النهروان، ثم اشتد أمر الخوارج وبالغوا في النكير على علي، وصرَّحوا بكفره؛ فجاء إليه رجلان منهم، وهما زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي، فقال: لا حكم إلا لله، فقال علي: لا حكم إلا لله. فقال له حرقوص: تب من خطيئتك واذهب بنا إلى عدونا حتى نقاتلهم، حتى نلقى ربنا. فقال علي: قد أردتكم علي ذلك فأبيتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهودًا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

قال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه. فقال علي: ما هو بذنب ولكنه عجز من الرأي، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه، ونهيتكم عنه. فقال له زرعة

بن البرج: أما والله يا علي؛ فإن لم تدعْ تحكيم الرجال في كتاب الله؛ لأقاتلنك أطلب بذلك رحمة ورضوانه، فقال علي: تبًّا لك ما أشقاك كأني بك قتيلًا تسفي عليك الريح، فقال: وودت أن قد كان ذلك، فقال له علي: إنك لو كنت محقًّا كان في الموت تعزية عن الدنيا، ولكن الشيطان قد استهواك فخرج من عنده يحكمانه، وفشا فيهم ذلك، وجاهروا به الناس ثم اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي، فخطبهم خطبة بليغة زهدهم في الدنيا، ورغبهم في الآخرة والجنة، وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: اخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا السواد إلى بعض كور الجبال، أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه الأحكام الجائرة.

ثم قام حرقوص بن زهير فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعونكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها، ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. فقال سنان بن حمزة الأسدي: يا قوم إن الرأي ما رأيتم، وإن الحق ما ذكرتم، فولوا أمركم رجلًا منكم، فإنه لا بد لكم من عماد وسناد، ومن راية تحفون بها وترجعون إليها، فابعثوا إلى زيد بن حسن الطائي، وكان من رءوسهم، فعرضوا عليه الإمارة فأبى، ثم عرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، وعرضوها على حمزة بن سنان فأبى، وعرضوها على شريح بن أبي أوفى العبسي فأبى، وعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي فقبلها، وقال: أما والله لا أقبلها رغبة في الدنيا، ولا أدعها فرقًا من الموت، واجتمعوا أيضًا في بيت زيد بن حصن الطائي السبسني فخطبهم وحثَّهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلا عليهم آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ

﴿خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

والتي بعدها وبعدها الظالمون والفاسقون، ثم قال: فأشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهوى، ونبذوا حكم الكتاب، وجاروا في القول والأعمال، وأن جهادهم حقّ على المؤمنين، فبكى رجل منهم يقال له عبد الله بن شجرة السلمي، ثم حرَّض أولئك على الخروج على الناس، وقال في كلامه: اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يُطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتم وأطيع الله كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له، العاملين بأمره، وإن فشلتم فأيّ شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته، ثم ماذا في الوقت الذي كان يتجهز فيه علي > إلى الشام مرة أخرى بعدما كان أمر الحكمين بلغه أن الخوارج قد عاثوا في الأرض فسادًا، وسفكوا الدماء، وقطعوا السُّبل، واستحلوا المحارم.

وكان من جملة من قتلوه عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ أسروه وامرأته معه وهي حامل، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ وإنكم قد روَّعتموني، فقالوا: لا بأس عليك حدثنا ما سمعت من أبيك، فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ستكون فتنة القاعدة فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي)) فاقتضوه بيده فبينما هو يسير معهم؛ إذ لقي بعضهم خنزيرًا لبعض أهل الذمة فضربه بعضهم فشق جلده فقال له آخر: لما فعلت هذا وهو لذمي، فاذهب إلى ذلك الذمي فاستحله، وذهب إلى ذلك الذمي فاستحله وأرضاه.

وبينما هو معهم ؛ إذ سقطت تمرة من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها في فمه ، فقال له آخر : بغير إذن ولا ثمن ، فألقى هكذا من فمه ، حتى قال عبد الله لنفسه : ما دام الأمر كذلك فما علي منكم بأس ، إني مسلم ما أحدثت في الإسلام حدثًا ، ولقد أمنتموني قلتم لا روع عليك ، إذًا فلا ضير عليك ، ومع هذا قدموا عبد الله بن خباب فذبحوه وجاءوا إلى امرأته فقالوا : إنك امرأة حبلى ، فقالت : ألا تتقون الله وذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها ، فلما بلغ الناس هذا من صنيعهم خافوا إن هم ذهبوا إلى الشام واشتغلوا بقتال أهله أن يخلفهم هؤلاء في ذراريهم وديارهم بهذا الصنع ، فخافوا غائلتهم ، وأشاروا على علي بأن يبدأ بهؤلاء ، ثم إذا فرغ منهم ذهب إلى أهل الشام بعد ذلك. والناس آمنون من شر هؤلاء.

فاجتمع الرأي على ذلك وفيه خيرة عظيمة لهم ولأهل الشام أيضًا ، فأرسل علي > إلى الخوارج رسولًا من جهته وهو الحارث بن مرة العبدي ، فقال : أخبر لي خبرهم ، واعلم لي أمرهم واكتب إلي به على الجلية ، فلما قدم عليهم قتلوه ، ولم ينظروه ، فلما بلغ ذلك عليًّا عزم على الذهاب إليهم أولًا قبل أهل الشام ، والبدء بهم ، ثم نادي مناديه في الناس بالرحيل ، فعبر الجسر فصلى ركعتين عنده ، ثم مضى في طريقه ، وقد اجتمع الناس حوله ، ثم بعث إلى الخوارج أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم حتى أقتلهم ، ثم أنا تارككم وذاهب إلى العرب - يعني : أهل الشام- ثم لعل الله أن يقبل بقلوبكم ويردكم إلى خير ما أنتم عليه ، فبعثوا إلى علي يقولون : كلنا قتلى إخوانكم ، ونحن مستحلون دماءهم ودماءكم ، قد تقدم إليهم قيس بن سعد بن عبادة فوعظهم فيما ارتكبوه من الأمر العظيم والخطب الجسيم ، فلم ينفع.

وكذلك أبو أيوب الأنصاري أنّبهم ووبخهم فلم ينجع، وتقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إليهم فوعظهم وخوفهم وأنذرهم وحذرهم، وتوعدهم، وقال: إنكم أنكرتم أمرًا أنتم دعوتموني إليه، فنهيتكم عنه فلم تقبلوا، وها أنا وأنتم فارجعوا إلى ما خرجتم منه، ولا ترتكبوا محارم الله، فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمرًا تقتلون عليه المسلمين، والله لو قتلتم عليه دجاجة؛ لكان عظيمًا عند الله، فكيف بدماء المسلمين؟ فلم يكن لهم جواب، إلا أنت تنادوا فيما بينهم إلا تخاطبوهم، ولا تكلموهم، وتهيؤ للقاء الرب ﷻ الرواح الرواح إلى الجنة.

وتقدموا فاصطفوا للقتال، وتأهبوا للنزال، فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى، وعلى خيالتهم حمزة بن سنان، وعلى الرجال حرقوص بن زهير السعدي، ووقفوا مقاتلين لعلي وأصحابه، وجعل علي على ميمنته حجر بن عدي وعلى الميسرة شبث بن ربعي، أو معقل بن قيس الرياحي، وجعل على الخيل أبا الأيوب الأنصاري، وعلى الرجال أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة وكانوا في سبعمائة قيس بن سعد بن عبادة، وأمر علي أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمانٍ للخوارج ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا، فانصرف منهم طوائف كثيرون، وكانوا في أربع آلاف، فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع عبد الله بن وهب الراسبي، فزحفوا على علي فقدَّم علي بين يديه الخيل، قدم منهم الرماة وصف الرجال وراء الخيالة، وقال لأصحابه: كفّوا عنهم حتى يبدءوكم.

وأقبلت الخوارج يقولون: لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة، فحملوا على الخيالة الذين قدمهم علي، ففرقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى

الميمنة، وأخرى إلى الميسرة، واستقبلتهم الرماة بالنبل، فرموا ووجههم وعطفت عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فأناموا الخوارج فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقُتل أمراؤهم عبد الله بن وهب، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن شجرة السلمي قبحهم الله.

قال أبو أيوب: وطعنت رجلًا من الخوارج بالرمح، فأنفذته من ظهره، وقلت له: أبشر يا عدو الله بالنار، فقال: ستعلم أيّنا أولى بها صليًّا. قال: ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة نفر، وجعل علي يمشي بين القتلى منهم، ويقول: بئسًا لكم، لقد ضركم من غركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ومن غرهم قال: الشيطان، وأنفس بالسوء أمارة غرتم بالأماني، وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. ثم أمر بالجرحى من بينهم فإذا هم أربعمائة فسلمهم إلى قبائلهم ليداووهم، وقسم ما وجد من سلاح ومتاع لهم، وذكر الهيثم بن عدي في كتاب الخوارج بسنده عن النزال بن سبرة أن عليًّا لم يخمس مع ما أصاب من الخوارج يوم النهروان، ولكنه رده إلى أهله كله حتى كان آخر ذلك مرجل أتي به فرده.

هذا، ولم بطل علي > أهل النهروان أي: الخوارج جعل الناس يقولون: الحمد لله يا أمير المؤمنين، الذي قطع دابرهم، فقال علي: كلا والله إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء، فإذا خرجوا من بين الشرايين فقلما يلقون أحدًا ألبوا أن يظهروا عليه، قال: كان عبد الله بن وهب الراسبي قد قحلت مواضع السجود من شدة اجتهاده وكثرة سجوده، حتى كان يقال له: ذو النفسات أي: التي هي ركبت الإبل، ومعناها أن أيديهم وركبهم غلظت من طول السجود، وروى الهيثم عن بعض الخوارج أنه قال: ما كان عبد الله بن وهب من بغضه

عليًّا يسميه إلا الجاحد، وقالوا لهيثم بن عدي بسنده عن علقمة بن عامر قال: سئل علي عن أهل النهروان أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا قيل: أفمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا، فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين!؟ قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا. فهذا ما أورده ابن جرير وغيره في هذا المقام، ونقله عنه ابن كثير في (البداية والنهاية).

أما ما ينطبق عليهم في كتاب الله ﷻ فمثل قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٤، ١٠٥] إنها تنطبق على هؤلاء الخوارج الجهلة الضُّلّال الأشقياء في الأقوال والأفعال، الذين فرقوا الكلمة، ومزقوا الأمة، وأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف، وهم يرون أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويجاهدون في سبيل الله ويقولون الحق لا يخشون في الله لومة لائم؛ حتى قتلوا من قتلوا من المسلمين، وفرقوا جماعة المؤمنين، وارتكبوا الكبائر الموبقات العظائم والخطيئات مما لا يرضي رب الأرض والسموات، مما زينوه لهم إبليس الشيطان الرجيم المطرود من السموات.

وقد تدارك أولهم بآخرهم وكأنما اتفقوا على ما هم فيه من الضلال والخسران، والله المستعان فرقوا الكلمة، فكانوا على نحو ما قال الله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وهم ممن قال الله ﷻ فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، كما جاء عن الحسن قال: خرج علينا عثمان بن عفان يوم يخطبنا فقطعوا عليه كلامه، فتراموا بالبطحاء حتى جعلتُ ما أبصر أديم السماء، قال: وسمعنا صوت من بعض حجر أزواج النبي ﷺ فقيل:

هذا صوت أم المؤمنين. قال: فسمعتها وهي تقول: ألا إن نبيك قد برأ مما فرق دينه واحتزب، وتلت قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وعن أبي أمامة > أنها -أي: هذه الآية- نزلت في الخوارج، وجاء عن أبي غالب واسمه حرور قال: كنت بالشام، فبعث المهلب سبعين رجلًا من الخوارج فنصبوا على درجه دمشق، فكنت على ظهر بيت لي فمر أبو أمامة فنزلت فاتبعت، فلما وقف عليهم دمعت عيناه، وقال: سبحان الله ما يسمع السلطان ببني آدم، قالها ثلاثة كلاب جهنم كلاب جهنم، شر قتلى تحت ظل السماء ثلاث مرات، خير قتلى من قتلوه، فطوبى لمن قتلهم أو قتلوه، ثم التفت إليّ فقال: يا أبا غالب، إنك بأرض هم بها كثير، فأعاذك الله منهم كنت رأيتك بكيت حين رأيتهم، قال: بكيت رحمة حين رأيتهم كانوا من أهل الإسلام، هل تقرأ سورة آل عمران؟ قلت: نعم قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧].

وإن هؤلاء كان في قلوبهم زيغ، ثم قرأ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٥-١٠٧]

قلت: هم هؤلاء يا أبا أمامة؟ قال: نعم. قلت: من قبلك تقول، أو شيء سمعت من النبي ﷺ قال: إني إذًا لجريء بل سمعت من رسول الله ﷺ لا مرة ولا مرتين حتى عدَّ سبعًا، ثم قال: إن بني إسرائيل تفرقوا على إحدى وسبعين

فرقة، وإن هذه الأمة تزيد عليها فرقة كلها في النار إلا السواد الأعظم، قلت: يا أبا أمامة، ألا ترى ما فعلوا؟ قال: عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم.

وحكى ابن بطال في (شرح البخاري) عن أبي حنيفة أنه قال: لقيت عطاء بن رباح فسألته عن شيء فقال: من أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة. قال: أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا. قلت: نعم. قال: من أي الأصناف أنت؟ قلت: ممن لا سب السلف ويؤمن بالقدر، ولا يكفر أحدًا بذنب، فقال عطاء: عرفت فالزم، ولئن كانت هذه الآيات انطبقت على الخوارج فيها من صفاتهم وخلالهم ما فيها، فإن السنة المطهرة أوردت أحاديث كثيرة تدلّ على الخوارج بذاتهم وبصفاتهم وبأحوالهم؛ فلقد وردت أحاديث كثيرة مرفوعة إلى رسول الله ﷺ من اثني عشرة طريق بلغت حدَّ التواتر، منها ما رواه مسلم بسنده عن زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع الذين ساروا إلى الخوارج، فقال علي: يا أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن، يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قُضي لهم على لسان نبيهم ﷺ؛ لاتكلوا على العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلًا له عضض وليس له ذراع على رأس عضضه مثل حلمة الثدي، عليه شعرات بيض، فتذهبون إلى معاوية، وأهل الشام فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام، وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم، والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس أي: الماشية والمال السائب، فسيروا على اسم الله.

فقال سلمة: فذكر زيد بن وهب منزلًا منزلًا حتى مررنا على قنطرة، فلما التقينا والخوارج يومئذٍ عبد الله بن وهب الراسبي قال لهم: ألقوا الرماح وسُلّوا سيوفكم وكسروا جفونها، فإني أخاف أن يُناشدوكم كما نشدوكم يوم حروراء فرجعوا فوحشوا برماحهم أي: رموا بها عن بُعد مخافة أن يلحقوا وسلوا سيوفهم فشجرهم الناس برماحهم أي: داخلوهم بها وطاعنوهم، قال: وقتل بعضهم على بعض، وما أصيب من الناس يوم إذا إلا رجلان، فقال علي: التمسوا فيهم المخدج، أي: ناقص اليد أو الخلق من الخداج، وهو النقصان، فالتمسوه فلم يجدوه، فقام علي بنفسه حتى أتى ناسًا قد قُتل بعضهم إلى بعض، فقال: أخروهم فوجدوه مما يلي الأرض، فكبر، ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله.

قال: فقام إليه عبيدة السلماني، فقال: يا أمير المؤمنين والله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو حتى استحلفه ثلاثًا، وهو يحلف له أنه سمعه من رسول الله -صلى الله وعليه وسلم- ، وهذا لفظ مسلم، وقد رواه أبو داود عن الحسن بن علي الخلاب، عن عبد الرزاق بنحوه، ومن طريق أخرى عن علي فيما رواه الإمام أحمد بسنده قال علي: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخرَّ من السماء أحب إليّ من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرءون القرآن، لا يجاوز حناجرهم -قال عبد الرحمن: لا يجاوز إيمانهم حناجرهم- يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة))، وأخرجاه في الصحيحين من طرق عن الأعمش بنحوه، ورواه الإمام

أحمد عن ابن مسعود بنحوه، وأخرج أحمد بسنده عن أنس قال: ذكر لي أن نبي الله ﷺ قال ولم أسمعه منه ((إن فيكم فرقة يتعبدون ويدينون حتى يعجبوا الناس، وتعجبهم أنفسهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)).

وكما حدثت سنة النبي ﷺ عن الخوارج كفرقة بصفاتها وأحوالها، فقد ورد في السنة من رأس الخوارج، ومن أول أمرهم قال الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ عام الجعرانة، موضع قريب من مكة، وهو يقسم فضة في ثوب بلال للناس، فقال رجل: يا رسول الله اعدل. فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، لقد خبت إن لم أكن أعدل، فقال عمر: يا رسول الله دعني أقتل هذا المنافق، فقال معاذ الله: أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم أو تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية. وفي رواية أنه قال ﷺ عن الرجل لما ولى: ((إن من ضئضئ هذا قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان ،لئن أن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)) أي: قتلًا عامًا يستأصل شأفتهم، فلا ترى لهم من باقية، وقد رواه البخاري من حديث عبد الرزاق بنحوه، ثم رواه أحمد عن أبي سعيد، وهو في الصحيحين من حديث عمارة بن القعقاع، وهذا الرجل هو ذو الخويصرة التميمي، وسماه بعضهم حروقوصًا، فأول الخوارج ذو الخويصرة وآخرهم ذو الثدية، وقد صرح بأسمهما في الأحاديث، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: ((بينما رسول الله ﷺ يقسم قسمًا إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي اعدل يا رسول الله، قال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أتأذن لي فيه فأضرب عنقه فقال: دعه فإن

له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر في قُذذه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في مضيه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر راصفه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرس والدم، آياتهم رجل أسود إحدى يديه مثل ثدي المرأة، مثل البضعة تدردر ويخرجون على حين فترة من الناس ،فنزلت فيه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ٥٨] الآية)).

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن عليًّا حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ ورواه البخاري عن أبي بكرة بن أبي شيبة عن هشام بن يوسف عن معمر رواه البخاري من حديث شعبة ومسلم من حديث يونس بن يزيد عن الزهري به، ثم رواه أحمد بنحوه. وأما ما جاء في الحديث من كلمات غريبة: "القذذ، والنضي، والرصاف، والنصل" فمعناه: قذذه: ريش سهم واحدتها قذة، قوله: فلا يوجد فيه شيء أي: من دم الصيد أو فرثه، ونضيه النضي تعني: السهم بلا نصل ولا ريش، وقيل: هو القدح الذي كانوا يستقسمون به، والرصاف مدخل النصل من السهم، النصل حديدة السهم، والبضعة البضعة القطعة من اللحم، ومعنى تدردر تضرب وتذهب وتجيء، وأصلها تَدّردر.

كما جاء في السنة أيضًا أن رسول الله ﷺ ذكر قومًا يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس، سيماهم التحليق أي: حلق رءوسهم، ثم هم شر الخلق، أو من شر الخلق، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق، قال: فضرب النبي ﷺ مثلًا، أو قال قولًا: ((الرجل يرمي الرمية، أو قال: الغرر فينظر في النصل فلا يرى بصيرة -أي: حجة يعني شيء من الدم يستدل به على إصابة الرمية- وينظر في المضي

فلا يرى بصيرة، وينظر في الفوق فلا يرى بصيرة)) فقال أبو سعيد: وأنتم قتلتموهم يا أهل العراق.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد يقول: كنا جلوسًا ننتظر رسول الله ﷺ فخرج علينا من بيوت بعض نسائه، قال: فقمنا معه، فانقطعت نعله، فتخلف عليها علي يخصفها، فمضى رسول الله ﷺ ومضينا معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه فقال: ((إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله فاستشرف لها قوم، وفيهم أبو بكر وعمر } أجمعين- فقال: لا ولكنه خاصف النعل -يريد عليًّا فجئنا نبشره. قال: فكأنه قد سمعه)).

معتقدات الخوارج

تتلخص آراؤهم أو أفكارهم أو معتقداتهم على الجملة، فيما يلي:

أولًا: فيما أجمعوا عليه.

وثانيًا: فيما اختلفوا فيه.

أما فيما أجمعوا عليه فقولهم بتكفير علي وعثمان وأصحاب الجمل، والحكمين ومن صوابهما، أو صوب أحدهما أو رضي بالتحكيم مع التبرؤ منهم؛ لأنه لا تحكيم في دين الله لأحد من الناس، إذ لا حكم إلا لله هذا أول شأنهم، كما يقولون: أول القصيدة كفر. المعتقد الثاني: ليست الخلافة ركنًا من أركان الدين، ويمكن للمسلمين أن يعيشوا بدون خليفة، وحسبهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ليفصل بينهم، وإذا دعت الضرورة لإقامة خليفة فليس ضروري أن

يكون من بيت علي، أو من قريش؛ بل يمكن أن يكون أي فرض من المسلمين، ولو كان عبدًا إذا كانت متوفرة فيه الصلاح لتولي الخلافة، وليس من حق المختار للخلافة أن يتنازل عنها، أو يقبل التحكيم بعد ذلك، وإذا جار الحاكم؛ فعزله واجب، ومحاربته فرض على كل مسلم.

ثانيًا: ما اختلفوا فيه وهو كثير جدًّا، وأصدق ما يقال فيه قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، ومن ذلك اعتقادهم أن الإيمان رأس الأعمال، وأن الأعمال جزء من الإيمان، ومن ترك ما أمره الله به فقد حبط عمله، وإيمانه وهو كافر، ومن ذلك كفر مرتكبي الكبيرة، أو كفر المصر على المعصية، ومنهم من لم يفرّق بين الكبائر والصغائر، ثم توسَّعوا في دائرة الكفر التي شملت السلف والخلف، ثم عمَّ جميع الأمة؛ فاستحلوا أموالها وفروج نسائها، ثم تشعبت بهم الآراء وتنوعت الأفكار، واختلفت المعتقدات حين تفرَّقت الخوارج فرقصًا وشيعًا وأحزابًا حتى صاروا عشرين فرقة، على رأسها المحكمة الأولى، والأزارقة، والنجدات، والصفرية، والعجارده، كما افترقت العجاردية فيما بينها فرقًا كثيرة منها الخازمية، والشعبية والمعلومية والمجهولية، والمعبدية، والرشيدية، والمكرمية، والحمزية، والإبراهيمة، والواقفة، والسلطية ، والأخنسية، والشيبية، والشيبانية، والشمراخية.

وافترقت الإباضية منها فرقٌ حفصية، وحارسية، ويزيدية، وأصحاب طاعة لا يُراد بها الله، واليزيدية منهم أتباع ابن يزيد بن أنيس ليست من فرق الإسلام؛ لقولها بأن شريعة الإسلام تُنسخ في آخر الزمان لنبي يبعث من العجم، وكذلك في جملة العجاردة فرقة يقال لها الميمونية، ليست من فرق الإسلام؛ لأنها

أباحت نكاح بنات البنات، وبنات البنين كما أباحته المجوس، وقد اختلفوا فيما يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها، فقد ذكر الكعبي في مقالاته أن الذي يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها إكفار علي وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل، وكل من رضي بتحكيم الحكمين، والإكفار بارتكاب الذنوب، ووجوب الخروج على الإمام الجائر.

وقال شيخنا أبو الحسن: الذي يجمعها إكفار علي وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين، ومن رضي بالتحكيم ، وصوب الحكمين أو أحدهما وجوب الخروج على السلطان الجائر، ولم يرض ما حكاه الكعبي من إجماعهم على تكفير مرتكبي الذنوب.

والصواب ما حكاه شيخنا أبو الحسن عنه، وقد أخطأ الكعبي في دعواه إجماع الخوارج على تكفير مرتكبي الذنوب منهم، وذلك أن النجدات من الخوارج لا يُكفّرون أصحاب الحدود من موافقيهم.

وقد قال قوم من الخوارج: إن التكفير إنما يكون بالذنوب التي ليس فيها واحد مخصوص، فأما الذي فيه حدّ أو وعيد في القرآن فلا يُزاد صاحبه على الإثم الذي ورد فيه مثل تسميته زانيًا أو سارقًا، ونحو ذلك، وقد قالت النجدات: إن أصحاب الكبيرة من موافقيهم كافر كفر نعمة، وليس كفر دين.

وفي هذا بيان خطأ الكعبي في حكايته عن جميع الخوارج تكفير أصحاب الذنوب كلهم منهم ومن غيرهم، وإنما الصواب فيما أجمع الخوارج عليه ما حكاه شيخنا الحسن -رحمه الله- من تكفيرهم عليًّا وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين، ومن صوبهما أو صوب أحدهما، أو رضي بالتحكيم، وكذا وجوب الخروج على السلطان الجائر.

هذا، وقد قال الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل): وكبار الفرق منهم المحكمة، والأزراقة، والنجدات، والبيهسية، والعجاردة، والثعالبة، والإباضية، والصفرية، والباقون فروعهم، ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي { ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك، ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقًّا واجبًا، ومن ثم اختلفت معتقدات الخوارج حينما صاروا شيعًا وأحزابًا، فقد انقسم الخوارج إلى أحزاب كثيرة متعددة، أو إلى فرق وشعب.

والحق أن مذهب الخوارج كان فكرة سياسية خالصة، فقد كانوا يرون أن الخلافة لا ينبغي أن تنحصر في قوم بعينهم، بل إن كل مسلم صالح للخلافة ما دام قد توفَّرت فيه شروطها من إيمان، وعلم، واستقامة، على شريطة أن يبايعه الناس بذلك، ولا بأس بعد ذلك في أن يكون من الفرس أو الترك أو الحبش؛ فالمعنى الذي فيه قصر الخلافة على قريش بعيدٌ عن تفكيرهم، بل هو مخالف لمنهجهم.

وقد حاربوا هذا المعنى في معتقدهم، وفيما اتفقوا عليه. وبالرغم أن الخوارج قد حاربوا عليًّا وخرجوا عليه، فإن له فيهم وهو الإمام المنصف كلمة حق حين قال في آخر أيامه: لا تقاتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه. وأمير المؤمنين يشير بذلك إلى أن الخوارج أخطئوا في طلب الحق، ولم يكونوا يريدون اغتصاب خلافة أو نحوها، بل كانوا يُدافعون عن عقيدة دينية آمنوا بها، وإن أخطئوا السبيل إليها، ولكن الذي أفسد على الخوارج دعوتهم هو سفكهم الدماء، وبخاصة دماء المسلمين من مخالفيهم في الرأي.

لقد كان دم المسلم عندهم أرخص من دم غير المسلم، وقد ذكرنا قصتهم مع عبد الله بن خبَّاب > وانقسم الخوارج على أنفسهم انقسامات كثيرة، وكان أمرًا

طبيعيًّا ؛ نظرًا لأن ما اعتقدوه لم يكن من صُلب هذا الدين، ولم يكن من القرآن أو السنة بفهم صحيح، ومزجوا الدين بالسياسية خلطوا بين الحكم والعقيدة، وتعلقوا بقضية الخلافة، وقالوا بكفر مرتكب الكبيرة، وزعموا أن العمل جزءٌ لا يتجزأ من الإيمان، فيكفر كلّ من ترك أيّ عمل من أعمال الإسلام، فلما تشعَّبوا إلى فرق عديدة أصبح لكل فرقة عقائدها ونظرياتها التي خالفوا بها منهج أهل السنة والجماعة.

فالُمحَكّمة الأولى: قضيتهم قضية التحكيم، وتكفير الحكمين، وادّعاء أن عليًّا حكم الرجال، فكفروا عليًّا ومعاوية والحكمين، وكفروا كل من رضي بالتحكيم، وتشعب عن الخوارج الأزارقة أصحاب أبي راشد نافع بن الأزرق الذين خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز، فغلبوا عليها وعلى كورها، وما وراءها من بلاد فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير قتلوا عماله بهذه النواحي، واشتدَّ بأسهم، وظلوا في حروب نحو تسع عشرة سنة إلى أن فرغ من أمرهم في أيام الحجاج، ومات نافع قبل وقائع المهلب مع الأزارقة، وبايعوا بعده قطري بن الفجاءة المازني وسموه أمير المؤمنين، واعتقدت الأزارقة معتقدات، أو ابتدعت بدعًا، زعمت فيها كفر علي > وأن الله أنزل في شأنه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وصوبوا فعل عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله حين قتل عليًّا، وزعموا أن الله ﷻ أنزل فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وعلى هذه البدعة مضت الأزراقة، وزادو عليها تكفير عثمان وطلحة والزبير وعائشة، وعبد الله بن عباس { ؛ بل وسائر المسلمين معهم مع الحكم

بتخليدهم في النار جميعًا، وأكفروا القعدة عن القتال، وأظهروا البراءة منهم، وأكفروا من لم يهاجر، وأباحوا قتل أطفال المخالفين لهم، وقتل النساء معهم، وأسقطوا حكم الرجم عن الزاني المحصن، وأسقطوا حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال، وجعلوا حدَّ القذف على المحصنات من النساء فقط.

وحكموا بأن أطفال المشركين في النار مع آبائهم، وأن التقية غير جائزة في قول ولا عمل، وجوَّزا أن يبعث الله نبيًّا يعمل أنه يكفر بعد نبوته، أو كان كافرًا بعد بعثته، والكبائر والصغائر إذا وقعت كانت بمثابة الكفر، وفي الأمة من جوز الكبائر والصغائر على الأنبياء -عليهم السلام- فهي كفر، واجتمعت الأزارقة على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفَر كفر ملة خرج بها عن الإسلام جملة، ويكون مخلدًا في النار مع سائر الكفار.

واستدلوا بكفر إبليس قالوا: ما ارتكب إلا كبيرة؛ حيث أمره الله بالسجود لآدم # فامتنع، وإلا فهو عارف بوحدانية الله تعالى، ومن بعد الأزارقة كانت النجدات العذرية أصحاب نجدة بن عامر الحنفي، وقيل: عاصم، وكان من شأنه أنه خرج من اليمامة مع عسكره يريد اللحوق بالأزارقة؛ فاستقبله أبو فديك، وعطية بن الأسود الحنفي في الطائفة الذين خالفوا نافع بن الأزرق؛ فأخبروه بما أحدثه نافع من الخلاف بتكفير القعدة عنه، وسائر الأحداث والبدع، وبايعوا نجدة، وسموه أمير المؤمنين.

ثم اختلفوا على نجدة فأكفره قوم منهم لأمور نقموها عليه، منها: أنه بعث ابنه مع جيش إلى أهل القطيف، فقتلوا رجالهم وسبوا نساءهم، وقوموها على أنفسهم، وقال: إن صارت قيمتهن في حصصنا فذاك، وإلا رددنا الفضل،

ونكحوهن قبل القسمة، وأكلوا من الغنيمة قبل القسمة، فلما رجعوا إلى نجدة وأخبروه بذلك، قال: لم يسعكم ما فعلتم، قالوا: لم نعلم أن ذلك لا يسعنا؛ فعذرهم بجهالتهم، واختلف أصحابه بذلك، فمنهم من وافقه، وعذر بالجهالات في الحكم الاجتهادي، وقالوا: الدين أمران:

أحداهما: معرفة الله تعالى ومعرفة رسله -عليهم الصلاة والسلام- وتحريم دماء المسلمين يعنون موافقيهم والإقرار بما جاء من عند الله جملة، فهذا واجب على الجميع، والجهل به لا يُعذر فيه.

الثاني: ما سوى ذلك فالناس؛ معذورون فيه إلى أن تقوم عليهم الحجة في الحلال والحرام، قالوا: ومن جوز العذاب على المجتهد المخطئ في الأحكام قبل قيام الحجة عليه فهو كافر، واستحل نجدة بن عامر دماء أهل العهد والذمة وأموالهم في حال التقية، وحكم بالبراءة لمن حرمها، قال: وأصحاب الحدود من موافقيه: لعل الله تعالى يعفو عنه، وإن عذبهم؛ ففي غير النار، ثم يدخلهم الجنة؛ فلا تجوز البراءة عنهم، قال: ومن نظر نظرة أو كذب كذبة صغيرة أو كبيرة، وأصر عليها فهو مشرك، ومن زنا وشرب الخمر وسرق غير مصرّ عليه فهو غير مشرك.

وغلظ على الناس في حد الخمر تغليظًا شديدًا حتى أسقط حد الخمر، وهذا من ضلالاته أيضًا، ولما كاتب عبد الملك بن مروان وأعطاه الرضا نقم عليه أصحابه فيه؛ فاستتابوه وأظهر التوبة فتركوا النقمة عليه والتعرض له، وندمت طائفة على هذه الاستتابة، وقالوا: أخطأنا، وما كان لنا أن نستتيب الإمام، وما كان له أن يتوب باستتابتنا إياه، فتابوا من ذلك وأضمروا الخطأ، وقال له: تب من توبتك وإلا نابذناك فتاب من توبته.

وهكذا كانت ضلالات هذه النجدات العذرية، وكانت افتراقاتهم بعدُ إلى عطوية وفديكية وبرء كل واحد منهما عن صاحبه بعد قتل نجدة وسارت الدار لأبي فديك إلا من تولى نجده، وأهل سجستان وخراسان وكرمان، من الخوارج على مذهب عطية، وقيل كان نجدة ابن عامر ونافع الأزرق قد اجتمعا بمكة مع الخوارج على ابن الزبير ،ثم تفرق عنه فاختلف نافع ونجدة وصار نافع إلى البصرة ونجدة إلى اليمامة. واختلافهم في قضية التقية والقعود عن الجهاد.

ثم كانت فرقة البيهسية مخالفة الأزارقة، والنجدات العاذرية، وزعمت أمورًا ضلت بها ضلالًا بعيدًا حينما وافقوا القدرية في القدر، وحينما قال بعضهم إن واقع الرجل حرامًا لم يحكم بكفره حتى يرفع أمره الإمام الوالي ويحده كل ما ليس فيه حد فهو مغفور، وقالوا: إن السكر إذا كان من شراب حلال؛ فلا يؤاخذ صاحبه بما قال فيه وفعل. إلى غير ذلك من الضلالات، وجاءت من بعد ذلك العجاردة أصحاب عبد الله الكريم عجرد وتفرقوا فرقًا من السلطية والميمونية والحمزية والخلفية، والأطرافية، والشعبية، والحازمية، ويُحكى عنهم أنهم ينكرون كون سورة يوسف من القرآن ويزعمون أنها قصة من القصص وكانوا يقولون: أطفال المشركين في النار مع آبائهم، ويتولون القعدة إذا عرفوهم بالديانة، ويرون الهجرة فضيلة لا فريضة ويكفرون بالكبائر.

ومن بعد ذلك الثعالبة وكانوا أصنافًا كالأخنسية، والمعبدية، والرشيدية، والشيبانية، والمكرمية، والمعلومية، والمجولية، ولهم بدع وضلالات وعقائد من دون ذلك هم لها معتقدون، وأعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وضلوا بذلك ضلالًا بعيدًا.

الخوارج (٤)

عناصر الدرس

التعريف بالإباضية، ومؤسسها

الإباضية: أصحاب عبد الله بن إباض، الذي خرج في أيام مروان بن محمد، فوجه إليه عبد الله بن محمد بن عطية، فقاتله بتبالة وقيل: إن عبد الله بن يحيى الإباضي كان رفيقًا له في جميع أحواله وأقواله.

فمؤسس الإباضية إذًا هو: عبد الله بن إباض، والذي حملت الفرقة اسمه، فعرفت بالإباضية، والإباضية فرقة معتدلة في فكرها الديني قياسًا إلى فرق الخوارج الأخرى، ومن ثم، فهي أقرب من غيرها إلى أهل السنة والجماعة. وإذ حملت الإباضية هذا الاسم اسم عبد الله بن إباض، فلا يعني ذلك أنه مؤسس المذهب من الناحية الفقهية، فمؤسسه من الناحية الفقهية هو أبو الشعثاء جابر بن زيد، ومن بعده أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وأما عبد الله بن إباض فكان زعيمًا سياسيًّا من زعماء المُحَكّمة، ولكنه تميز بالاعتدال في فكره مع الشجاعة والبسالة والجرأة في وجه السلطان، مع صواب الفكرة وعمق المقال.

ولقد ذهب مذهبنا في أن عبد الله بن إباض لم يكن رأس الإباضية المذهبية، لا السياسية كثير من علماء الإباضية المتأخرين وفقهائهم؛ إذ هناك من ينص على أنه كان من أتباع أبي الشعثاء جابر بن زيد. هذا، ومن الحقيقة بمكان أن القوم لم يطلقوا على أنفسهم هذه التسمية، إنما أطلقها عليهم مخالفوهم في الرأي، ولقد ارتضاها القوم وتقبلوها لأن النسبة ارتبطت بزعيمهم السياسي الأول: عبد الله بن إباض. وفي ذلك يقول الشماخي: وأما تسمية مذهبنا بالإباضية فلكون عبد الله بن إباض > كان المجاهد علنًا، المناضل في سبيل تحقيق الحقائق، وتصحيح قضايا العقول فيما أحدثه أهل المقالات والبدع من الزور والافتراء في شريعة ربنا.

لقد التفت المبرد إلى ذلك في وقت مبكر حين أورد رسالة أبي بيهس زعيم البيهسية من الخوارج إلى عبد الله بن إباض في شأن نافع بن الأزرق وشأن ابن إباض نفسه، اتهم فيها نافعًا بالغلو والكفر لأنه يكفر غير الخوارج، واتهم فيها ابن إباض بالتقصير والكفر لأنه يصف مخالفي الخوارج بكفار النعم، وتلك هي رسالة أبي بيهس: إن نافعًا غلا فكفر، وإنك قصرت فكفرت، تزعم أن من خالفنا ليس بمشرك، وإنما هم كفار النعم لتمسكهم بالكتاب وإقرارهم بالرسول، وتزعم أن مناكحهم ومواريثهم، والإقامة فيهم حل طلق.

الإباضية هم فرقة معتدلة نسبيًّا من فرق الخوارج إلا أن أصحابها والمنتسبين إليها ينفون عن أنفسهم هذه النسبة؛ إذ يعدون مذهبهم مذهبًا اجتهاديًّا فقهيًّا سنيًّا يقف جنبًا إلى جنب مع الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية، بل ويطلقون على أنفسهم أهل الحق، بل إن أحد علمائهم من المحدثين الشيخ سالم بن حمود قد ألف كتابًا يدفع فيه عن قومه صلاتهم بالخوارج، وجعل عنوانه: (أصدق المناهج في تمييز الإباضية عن الخوارج).

يقول فيه: مذهبنا مذهب رسول الله ﷺ ومذهب ابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومذهب الخلفاء الراشدين، غير أنهم كثيرًا ما يطلقون على أنفسهم الوهابيين، والنسبة هنا لعبد الله بن وهب الراسبي الصحابي، الذي كان من أنصار أمير المؤمنين علي، ثم خرج عليه بعد التحكيم.

على أن إباضية الجزائر يطلق بعضهم على نفسه الوهابية نسبة للإمام عبد الوهاب، ويطلق فريق آخر على نفسه لقب الرستميين أو الرستميين نسبة إلى عبد الرحمن بن رستم، أحد دعاة المذهب، وأول أئمة الدولة الرستومية في أفريقيا.

وما دمنا بسبيل الحديث عن عبد الله بن إباض، فإنه ينبغي الإشادة بفضائله وشجاعته وفصاحته وغيرته على المقدسات الإسلامية، ذلك أنه ما علم بما فعله جيش يزيد بن معاوية بمدينة الرسول ﷺ من نهب وتخريب، ثم اتجه ذلك الجيش إلى مكة ليسمع بها ما قد صنعه بالمدينة حتى سارع عبد الله بن إباض على رأس جيش، واتجه إلى مكة، واتخذ العدة للدفاع عنها، هو وجيش عبد الله بن الزبير، ولكن الله ﷻ كان قد بدد شمل جيش يزيد، ولقي قائده حتفه بين المدينة ومكة.

ومن فضائل عبد الله بن إباض جرأة وبلاغة ما جرى بينه وبين الخليفة الأموي من تراسل، فقد أراد عبد الملك أن يستميل عبد الله إلى جانبه، فبعث إليه برسالة لا تخلو من دهاء، ظاهرها الاستنصاح والتحبب، وباطنها الاحتواء السياسي والفكري، وطلب إليه أن يعيد إليه الرسالة مع رده عليها، فكتب عبد الله بن إباض هذا الرد الذي تتبدل البلاغة في نص الرسالة كلها، التي يستهلها هكذا:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان، أما بعد، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، وأوصيك بتقوى الله فإن العاقبة للتقوى، والمرد إلى الله، واعلم أنه إنما يتقبل الله من المتقين.

قد جاءني كتابك مع رسولك سنان بن عاصم، وإنك كتبت إلي أن أكتب لك؛ أي تطلب مني أن أكتب إليك بكتاب فكتبت إليك فمنه ما تعرف ومنه ما تنكر، ولكن الذي تنكره ليس عند الله بمنكر، وأما ما ذكرت من عثمان، وما عرضت به من شأن الأمة، فإن الله ليس ينكر عليه أحد شهادته في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم: الظالمون، والفاسقون، والكافرون".

ومضت الرسالة تتهم الراشد الثالث > بأنه حاد عن الحكم لما أنزل الله في حديث طويل، لم نحب أن نخوض فيه احترامًا منا لذي النورين، وهو ما نختلف فيه مع فكر عبد الله بن إباض وجماعته في شأن سيدنا عثمان.

يمضي عبد الله بن إباض بعد ذلك ناصحًا عبد الملك أن يستمسك بكتاب الله، وأن يعتصم بالله، وأن يتدبر القرآن قائلًا: فلا يغرنك يا عبد الله بن مروان من نفسك، ولا تسند دينك إلى الرجال، إنهم يستدرجون من حيث لا يعلمون، فإن أملك الأعمال خواتمها، وكتاب الله جديد أبدًا لا ينطق إلا بالحق، أجارنا الله باتباعه أن نبغي أو نضل، فاعتصم بالله يا عبد الملك بن مروان يهدك إلى صراط مستقيم، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١] وكتاب الله هو حبل الله المتين الذي أمر المؤمنون أن يعتصموا به ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وأنشدك الله أن تتدبر معاني القرآن فتكون مهتديًا به مخاصمًا به، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

ومضى ابن إباض في رسالته، وكتاب عبد الله بن إباض بليغ البنية، عميق المعاني، سديد الاستشهاد بكتاب الله وسنة رسوله، وقوي الحجة، وواضح البرهان، من منطلق عقيدته الإسلامية من ناحية، وهو ما نوافقه عليه، ومن واقع ما اعتقده من أمور نسبت إلى ذي النورين، وما يحتاج فيه إلى تثبت ويقين، أو نحتاج إلى أن نرد عليه، فإن مؤرخي الإسلام قد ذكروا في ذلك أمورًا كثيرة صح بعضها، وجانب الصواب بعض الآخر منها.

ومهما كان الأمر، فقد كانت شخصيته -شخصية عبد الله بن إباض- أكثر لمعانًا من الناحية السياسية منها من الناحية المذهبية الشرعية.

أما الذي يعد المؤسس الحقيقي لمذهب الإباضية من حيث كونه مذهبًا فقهيًّا شرعيًّا، فهو جابر بن زيد، وتجمع الأخبار على أن عبد الله بن إباض كان يتلقى العلم عليه، لقد كان جابر إمامًا في العلم جامعًا للأحكام مقبلًا على كتاب الله وسنة رسوله، زاهدًا متواضعًا، امتحن في دينه من قبل الحجاج، كما امتحن غيره من الأئمة البررة: أبو حنيفة ومالك وابن حنبل، ولقد عرض عليه الحجاج القضاء فأبى، ولقد شهد لجابر أعلام الصحابة والتابعين، وعبد الله بن عباس يقول عنه: لو نزل أهل البصرة بجابر بن زيد لوسعهم علمًا من كتاب الله ﷻ.

ويقول عمرو بن دينار: ما رأيت أحد أعلم بالفتيا من جابر بن زيد ذلك أن جابرًا قد روى عن عدد من أعلام الصحابة، من أمثال عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبي ذر الغفاري، ومعاوية بن أبي سفيان، وعكرمة وغيرهم، وكان يقول: أدركت سبعين بدريًّا فحويت ما عندهم من العلم إلا البحر، يقصد عبد الله بن عباس، فلم يستطع جمع ما لديه من علم لغزارته.

ويقول إياس بن معاوية في شأنه: أدركت الناس، وما لهم مفت غير جابر بن زيد. ويقول إياس مرة أخرى: أدركت أهل البصرة وفقيههم جابر بن زيد من أهل عمان. ولما مات جابر سنة ثلاث وتسعين للهجرة قال قتادة: اليوم مات أعلم أهل العراق.

ولجابر بن زيد أحكام فقهية تدل على علم كامل، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد رأى جابر أحد الحجاج، وفي رواية أحد الحججة يصلي فوق الكعبة، فنادى بأعلى صوته: يا من يصلي فوق الكعبة لا قبلة له، وكان ابن عباس في ناحية المسجد فقال: إذا كان جابر بن زيد في البلد فهذا القول منه.

ومعنى قول ابن عباس أن جابرًا أكثر العلماء المعاصرين احتفاءً بأمور دينه، وروى مالك بن دينار القصة الطريفة التالية: جاء جابر بن زيد للزيارة؛ أي لزيارته، وحضرت الصلاة فأبى أن يؤمني فقال: ثلاثة ربهن أولى بهن: رب البيت أحق بالإمامة في بيته، ورب الفراش أحق بصدر فراشه، ورب الدابة أحق بصدر دابته.

وهناك خبر غريب يورده ابن حجر العسقلاني في شأن نفي صلة جابر بالإباضية، قال داود بن أبي هند عن عذرة: دخلت على جابر بن زيد فقلت: إن هؤلاء القوم يعني الإباضية ينتحلونك. فقال: أبرأ إلى الله من ذلك، ولكن مثل هذا الخبر لم يتكرر في مؤلف آخر.

هذا، وقد روى عن أبي الشعثاء جابر بن زيد عدد من كبار المحدثين والعلماء من أمثال قتادة وعمرو بن دينار وأيوب السختياني، ولكن الأخطر من ذلك كله هو أنه خرج أحد أبرز علماء الإباضية وأئمتهم في العلم، وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة.

أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، يعد واحدًا من أهم فقهاء الإباضية وأكثرهم تخريجًا للعلماء الذين صاروا دعاة وأئمة وقضاه وفقهاء، ومن عجب أن أبا عبيدة كان أسود زنجيًّا أعور، ولكن هذه العيوب الخليقة تلاشت أمام علمه وفضله وزهده وتقاه، ولقد أسرف بعض الإباضية في امتداحه مثل إسراف الشيعة في امتداح علي بن أبي طالب، وأن أحد العلماء المعاصرين يصفه قائلًا: قطب دائرة العلماء: أبو عبيدة مسلم الذي خوله الله هدى أحيا به أرواح الحق في أقطار شتى، وكساه من لدنه وقارًا، وأضفى عليه من ملابس الإيمان أوفاها.

وإلى هنا، ولا بأس، ولكن الكاتب يمضي قائلًا: وجعل توقيره في قلوب أتباعه من نوع توقير الصحابة لرسول الله ﷺ.

ولقد كان أبو عبيدة يأكل من عمل يده في الوقت الذي يربي فيه الأئمة والفقهاء، ذلك أنه كان يصنع القفاف من خوص النخل، ويبيعها، ولذلك كان يلقب القفاف. ومثلما تعرض أستاذه جابر للأذى من قبل الحجاج بن يوسف، فقد نال أبو عبيدة من ظلم الحجاج مثلما نال أستاذه، إن أبا عبيدة ظل في سجن الحجاج إلى أن زالت غمة المسلمين بهلاكه.

لقد اتجه إلى إفريقيا عدد من تلاميذ أبي عبيدة، ونشروا المذهب هناك، ولا يزال نابضًا نشطًا إلى يومنا هذا، منهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، الذي بويع بالإمامة في صياد على مقربة من طرابلس، سنة مائة وأربعين هجرية.

ويقول الشيخ أبو العباس الناصري: إن أبا الخطاب استولى على طرابلس بالمغرب سنة مائة وأربعين هجرية، وحكم إفريقيا كلها سنة مائة واحد وأربعين، وكان بطلًا شجاعًا، قد وجه إليه منصور العباسي جيشًا من خمسين ألفًا بقيادة ابن الأشعث أمير مصر، ففاجأه في سرب على حين غرة، فقتله، ومن كان معه من أصحابه سنة مائة وأربع وأربعين للهجرة، وكانوا نحوًا من اثني عشر ألفًا.

ومن تلاميذ أبي عبيدة أيضًا عبد الرحمن بن رستم بن بهران الذي اتجه إلى المغرب في صحبة أبي الخطاب، وكان أبو الخطاب قد استخلفه على القيروان، فلما سقطت في يد ابن الأشعث، فر عبد الرحمن إلى الغرب ولحقت به جموع من الإباضية، ونزل بموضع أنشأ فيه مدينة تاهرت، وبايعه أصحابه بالإمامة.

وهو فارسي الأصل، وهو أول من ملك من الرستميين، وكان من الفقهاء المعروفين بالزهد والتواضع. ومن تلاميذ أبي عبيدة أيضًا: إسماعيل بن براء الغدامسي الذي صار قاضيًا للمذهب بالمغرب. ومن تلاميذه الذين بأمره نصبوا أئمة: الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي، في أرض اليمن، بل لقد جمعت إمامته اليمن والحجاز، ومثلما خرج أبو عبيدة هؤلاء الأئمة الفقهاء، فقد خرج أيضًا الحلقة الرابعة في هذه السلسلة الذهبية من علماء الإباضية؛ وأعني به الربيع بن حبيب الفراهيدي العماني المصري، صاحب مسند الربيع الذي عليه يعتمدون في أمور دينهم.

الدولة الإباضية أو الدول الإباضية: ظل القطر العماني منذ فجر الإسلام مستقرًّا للمذهب الإباضي، وكان من الأمور الطبيعة أن يسيطر أبناء المذهب على نظام الحكم فيه في شكل إمامة تستمد نظام حكمها وأحكامها من المذهب الشائع بين أهل البلاد.

لم يكن المذهب الإباضي وحده بين المذاهب الإسلامية الذي أنشأ حكومة، بل حكومات على رأسها إمام الإباضي، بل إن عددًا من الفرق الإسلامية استطاع أن ينشأ دولًا ويقيم حكومات تستمد أسلوبها في الحكم من أحكام مذهبها.

وربما عمدت بعض هذه الحكومات إلى نشر مذهبها بالترغيب الذي يتمثل في المناصب الرفيعة وبذل المال الكثير، وبالترهيب الذي يتمثل في سل السيوف والإطاحة بالرقاب مثلما فعل العبيديون المشهورون بالفاطميين في شمال أفريقيا ثم في مصر والشام، وامتد عمر دولتهم إلى ما يربوا على قرنين من الزمان، ومثلما فعل الزيدية في اليمن الذين أنشئوا إمامة جعلوا عاصمتها صنعاء،

واستمرت عدة قرون إلى أن زالت دولتهم من قريب، وعلى وجه التحديد عام ألف وتسعمائة واثنين وستين من الميلاد.

وإن ما يؤكد حرص كل فرقة إسلامية على إقامة حكم يأخذ لون الفرقة في فكرها وعقائدها، وما فعلته فرقة المعتزلة بالدولة العباسية حين نقلوها من دولة سنية إلى دولة معتزلية على أيدي خلفاء مرموقين ثلاثة: هم المأمون والمعتصم والواثق، مما لا يتسع المجال لتفصيله في هذا المقام.

وإذا ما عدنا إلى الحكم الإباضي وجدناه ثبت أقدامه ووطأ أركانه في أكثر من قطر إسلامي، وجدناه في عمان ممثلًا في خمس حقب أو بالأحرى أربع دول: هي دولة بني الجلندي، والخلوصيين والنباهنة واليعاربة والبوسعيديين، ووجدناه لبعض الوقت في اليمن ولقرن ونصف إلا قليلًا في الشمال الأفريقي في الدولة الرستمية، وجدناه أخيرًا في شمال أفريقيا، وعلى وجه التحديد في منباسة وزنجبار، ولكن كفرع من نظام الحكم في عمان.

المـــــــــذهب الإباضـــــــــي

الإباضية -كما قلنا- فرقة من فرق الخوارج، لكنهم أكثر فرق الخوارج اعتدالًا، وذلك لاعتدال مذهبهم وتسامحهم مع مخالفيهم، وسبب إلصاق تهمة الإباضية بالخوارج، كما قيل: هو سياسة الدولة الأموية في التشنيع على الإباضية، حتى ينفروا الناس من أصحاب المذهب الإباضي، الذين وجدوا منهم الصلابة في مواقفهم ضد الدولة الأموية، وقد تقبل كثير منهم هذا الإلصاق فأثبتوه في كتبهم بدون تمحص أو بحث عن الحقيقة.

وقد ظهر اسم الإباضية لأول مرة في المؤلفات الإباضية المغربية في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ولكن يبدو أنهم مع مرور الزمن اصطلح مع مخالفيهم

على تسميتهم بهذا الاسم قد قبلوا به خاصة أنهم لم يجدوا فيه ما يؤذيهم أو يسيء إلى سمعتهم.

والإباضية لهم في الماضي أمجاد، ولا يزالون كذلك في عصرنا الحاضر، فهم الذين خاضوا الحرب الباسلة ضد الإنجليز في عمان، دون أن يكل لهم عزم أو يفت في عضدهم إرهاب، وهم أول من دون الحديث في القرن الأول الهجري، ويعتبرون أنفسهم أنهم وحدهم الذين حافظوا على تعاليم الإسلام الحقة.

ويرون أن القدوة الحسنة من بعد النبي ﷺ كانت في أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب > ، ولا يحبون سيدنا عثمان بن عفان > ويسمونه صاحب بدع، ويلعنون الإمام علي بن أبي طالب > وأنكروا منه قبول التحكيم، ويعتبرون بيعته باطلة لمجرد قبوله التحكيم. أقول: أليس هذا وذاك كافيًا في أن يكون الإباضية خوارج! وقد كانت هذه قضية الخوارج الأساسية.

وأما نظرتهم إلى الإمامة، فهي على الجملة، كما رأى الخوارج أيضًا لا يشترطون في الإمام أن يكون قرشيًّا، إنما يكفي أن يكون ورعًا وتقيًّا وفاضلًا يحكم كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ كما يرون أن الإمام الذي ينحرف ينبغي خلعه وتولية غيره، وهم في ذلك كالخوارج أو المحكمة الأول.

ولقد بدأ الإباضية حركتهم السياسية في وقت متأخر؛ لأن عبد الله بن إباض خرج على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، فوجه إليه عبد الله بن محمد بن عطية مقابلة في معركة تبالة، وهي بلدة بأرض تهامة في الطريق إلى صنعاء باليمن وهزمه وقتله. ومن هنا يمكن أن نفهم أن المذهب الإباضي نشأ في فترة متقدمة بالنسبة إلى غيره من المذاهب الإسلامية، هذا من حيث التاريخ، أما الطريقة التي نشأ بها، فهي لا تختلف عن غيرها من طرق نشأة بقية المذاهب، فهي عبارة عن إمام من أئمة المسلمين، وبالنسبة للإباضية هو أحد كبار التابعين، اجتمع عليه

عدد من الناس وطلاب العلم والتزموا مجلسه، وأخذوا عنه ثم تفرقوا بعد التحصيل في البلاد، ووقف المتفوقون منهم موقف أساتذتهم، واتخذوا لنفسه أسلوبًا في السلوك والتدريس. ونقل عنه طلابه رواياته ورأيه، وقد كان كل جيل ينقل عن الجيل السابق ما حفظه من آثار وآراء تكتسب مع مضي الزمن شيئًا من الاحترام، يبلغ درجة التقديس أحيانًا وتزداد هذه الصورة وتكبر مع الأيام.

وبعد؛ فهذه الصورة التقريبية التي نشأت عنها جميع المذاهب، وإن اختلفت أزمنة الأئمة، فمنهم من كان من الرعيل الأول من التابعين، ومنهم من كان تابعي التابعين، ومنهم من كان في الدرجة الثالثة، ومنهم من كان أبعد من ذلك بكثير.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه بالنسبة للإباضية، فقد كان يحضر مجلس جابر بن زيد عدد من الطلاب الأذكياء، فمنهم من كان يأخذ عنه وعن غيره مثل قتادة وأيوب وابن دينار وحيان الأعرج وأبي المنذر تميم بن حويص، ومنهم من كان يأخذ عنه أكثر مما يأخذ عن غيره أو يكاد يختص بمجلسه كأبي عبيدة مسلم وضمام وأبي نوح الدهام والربيع بن حبيب وعبد الله بن إباض، ومن هؤلاء الطلاب أيضًا من كان يشتغل أثناء التحصيل وبعد التحصيل بالشئون العامة، ومنهم من اشتغل بالمسائل السياسية ومطارحتها مع حكام الدولة الأموية في ميدان الكلمة دون استعمال السيف، كعبد الله بن إباض، ومنهم من جلس للتدريس وأخذ مكان الإمام كأبي عبيدة وأبي نوح صالح الدهام وقام بنفس الدور وتخصص فيه.

ولما كانت هذه الحركة في عنفوان بناء الدولة الأموية، وكانت سيوفها مسلطة على جميع الأمة والعلماء خوفًا منهم أن يجهروا بالإنكار عليها أو يدعوا الناس للخروج عنها، وكان جابر في مجالسه كزملائه حسن وسعيد وغيره من كبار التابعين، غير راضين عن الوضع، وكثيرًا ما يتناولونه بالنقد.

ومن هنا كانت السلطات السياسية بدورها تراقبهم هم وتلاميذهم في يقظة وحذر وشدة، تضيق الزمام عليهم، وتحاول بكل وسيلة ألا تسمح بنقدهم أن يتسرب إلى الناس، وقد احتاطت الدولة الأموية لذلك من بداية الأمر، فنسبتهم إلى التطرف واعتبرتهم ضمن الخوارج، وكانت تهمة الخارجية تشبه ما يسمى اليوم بالعمالة أو الخيانة عملية ليس لها ضوابط، توجه بسهولة إلى كل من يراد التخلص منه أو الانتقام منه أو إيقاف نشاطه، وتستغل عند اللزوم.

ولذلك ولم يسلم منها الإمام جابر بن زيد، كما لم يسلم منها الإمام مالك بن أنس، وكان الغرض من إشاعة هذه التهمة هو إشعارهم بأنهم تحت المراقبة، وأن تبرير أي موقف يتخذ معه من السلطات هو موجود في أذهان الناس، ولا يحتاج إلا إلى تأكيد عملي من أجهزة الحكم.

ومن خلال ما تقدم يمكن أن نفهم أن نشأة المذهب من الناحية الفكرية والسلوكية كان كغيره أيضًا من المذاهب الإسلامية، فقد نشأ هذا المذهب نشأة إسلامية بأئمته وعلمائه، طبقات يأخذ بعضها عن بعض إلى اليوم، وقد بدأ جهوده العملية في خدمة الثقافة في الاتجاه الذي اختاره قبل، قبل أن تبدأ أكثر المذاهب الأخرى، ودونت له مؤلفات في الحديث والفقه، وقد كان أتباعه إلى يومنا هذا يرون أن المصدر الأساسي في الدين الإسلامي في عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه، إنما هو القرآن الكريم، وأن من أنكر شيئًا منه صورة أو آية أو حرفًا أو مشرك أو مرتد.

والمصدر الثاني هو السنة الصحيحة، وهي على درجات المتواتر منها قطعي الدلالة يفيد العلم ويوجب العمل، وهي على درجات، المتواتر منها قطعي الدلالة يفيد العلم ويوجب العمل، ومنكره كالمنكر للقرآن، والمشهور من السنة

والمستفيض هو أضعف من المتواتر وأقوى من الآحاد، وهو يوجب العمل، اختلفوا هل حجته قطعية أم ظنية؟ على قولين.

والآحاد من السنة الظنية الدلالة يوجب العمل، والمرسل وإن كان أضعف من الآحاد إلا أنه يوجب العمل إذا كان لصحابي أو تابعي. ويرون أيضًا أن المصدر الثالث للدين الإسلامي هو الإجماع إذا استوفى الشروط المعروفة عند الأصوليين، والخروج عنه فسق، وحجته قطعية ويرون أنه وقع إجماع بقسميه القولي والسكوتي وأنه من الممكن أن يقع في كل عصر، وينقل إلى الناس بالشروط المعتبرة.

كما يرون أن المصدر الرابع هو القياس على الأسس المعروفة في كتب الأصول، والمصدر الخامس للدين الإسلامي هو الاستدلال بأنواعه المختلفة، ويهتمون بالمصالح المرسلة اهتمامًا خاصًّا، وربما يكون الإباضية بالنسبة إلى اعتبار المصالح المرسلة في الدرجة الثانية بعد المالكية.

ومكان الإباضية في باب الفقه ربما كان في الشريحة التي تقع بين أهل الظاهر والحنابلة من جهة، والحنفية من جهة أخرى، ورغم أن المذهب نشأ بالعراق إلا أنه لم يذهب مع الرأي المذهب الذي بلغه الحنفية والمعتزلة، ويكفي لإيضاح هذه النقطة أن تعرف أيها الباحث أن الفقه الإباضي يعتمد من حيث الأدلة بعد القرآن الكريم في مجال السنة على المتواتر أو المشهور أو المستفيض، وعلى الآحاد وعلى مرسل الصحابة والتابعين، وإذا تعارض الحديث والقياس رجح جانب الحديث، ولو كان آحادًا أو مرسلًا للطبقة السابقة، ولا يرد الحديث الآحاد إلا إذا صادمه دليل قطعي، ويقولون بالقياس والاستصحاب والمصلحة المرسلة على التفاصيل والمناقشات الطويلة المعروفة في كتب أصول الفقه.

معتقـــــــــدات الإباضـــــــــية

هذا ؛ وأصولهم في العقيدة نستطيع أن نلخصها في الآتي :

أولًا: الأصل العام في عقيدة الإباضية هو التنزيه المطلق للباري -جل وعلا- وما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مما يوهم التشبيه، فإنهم يؤولونه بما يفيد المعنى، ويناسب المقام، ولا يؤدي إلى التشبيه مثبتين لله تعالى الأسماء الحسنة والصفات العلا، كما أثبتها الله لنفسه، واستواء الله على عرشه يجب تأويله تأويلًا مجازيًّا، ويد الله مثلًا تؤول بالقوة أو بالنعمة، إذًا هو التأويل.

ثانيًا: يقولون: إن صفات الله تعالى ليست زائدة على الله -يعني: ليست زائدة على الذات- ولكنها عين ذاته وقالوا: لا يخلق الله شيئًا إلا دليلًا على وحدانيته، قال فريق منهم: يجوز أن يخلق الله رسولًا بلا دليل ويكلف العباد بما أوحي إليه، ولا يجب عليه إظهار المعجزة، ولا يجب على الله تعالى ذلك إلا أن يخلق دليلًا، وأن يظهر معجزته.

ثالثًا: الإمامة عندهم تتكون من ثلاثة أركان لا بد منها، وهي: الاعتقاد والإقرار والعمل.

رابعًا: كلمة التوحيد عندهم هي أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن ما جاء به حق، وأن إنكار أي قسم من أقسامه الثلاثة شرك.

خامسًا: يقولون: إذا أطلقت كلمة الكفر على الموحد؛ المقصود بها كفر النعمة لا كفر الشرك، وهي من باب سباب المسلمين في سوق وقتاله كفر، ومن باب لا

ترجعوا بعدي كفار يضرب بعضكم رقاب بعض، والرشوة في الحكم كفر، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

سادسًا: يقولون: إن القرآن الكريم كلام الله نقل إلينا بالتواتر، وإنكار شيء منه شرك، لكنهم قالوا كالمعتزلة لأن القرآن الكريم إما خالقًا أو مخلوقًا، فهذا القرآن الذي بين أيدينا نقرؤه مخلوق لأنه منزل ومتلو.

سابعًا: إن أفعال الإنسان أو العباد من خلق الله واكتساب من الإنسان لأن الإنسان حر في اختياره مكتسب لعمل ليس مجبرًا عليه، ولا خالقًا لفعل، وأن الاستطاعة مع الفعل وليست بعده، وهم بذلك يقفون موقفًا وسطًا بين القدرية والجبرية، فيرون أن الاستطاعة عرض من الأعراض، وهي مع الفعل، وبها يحصل الفعل، وأن أفعال العباد مخلوقة لله إحداثًا وإبداعًا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازًا.

ثامنًا: ينكرون رؤية الله في الجنة للمؤمنين، محتجين لقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولأنه عندهم يلزم من يقول بالرؤية إثبات الجهة لله تعالى، وهو باطل.

تسعًا: يؤولون بعض مسائل الآخرة تأويلًا مجازيًّا كالميزان والصراط فيقولون: إنما هو طريق الإسلام ودين الله الذي ارتضاه لعباده، وهو وصفه بأنه أحد من السيف وأدق من الشعرة إن صح يقصد به صعوبة الاستمساك بالإسلام وسط الفتن والشهوات والرغبات الجامحة والفتن المتلاطمة في خضم الحياة، فهو ليس كما يقول البعض بأنه طريق حسي فوق جهنم يمر عليه الخلاق.

عشرة: التوبة عندهم هي أساس المغفرة، ولا تغفر كبيرة بدون توبة، أما الصغائر فإنها تغفر باجتناب الكبائر وبفعل الحسنات، كما في الحديث: ((وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)).

الحادي عشر: يقولون بأن النفاق منزلة بين الشرك والإيمان، والمنافقون مع المسلمين في أحكام الدنيا، ومع المشركين والمشركات في الآخرة انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

الثاني عشر: ينفون قول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين أي بين الإيمان والكفر، ويقولون: إن الإيمان والكفر ضدان كالحياة والموت وكالحركة والسكون، ويقولون بأن الشخص لا يخرج من الإيمان إلا ويدخل في الكفر، ومن لم يكن مؤمنًا كان كافرًا لا محالة، مستشهدين على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

الثالث عشر: أن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر وجب على الأمة الإسلامية وأولي الأمر.

الرابع عشر: يؤمنون بالجنة والنار ويقولون: إن العقاب والثواب في الحياة الآخرة أبديان، وأن النار كالجنة لا يعتورها الفناء، وأن من سعد في الدنيا لا يشقى أبدًا، ومن شقي أبدًا لا يسعد أبدًا، ولا تجتمع السعادة والشقاوة لشخص واحد أبدًا.

الخامس عشر: يقولون: إن الولاية المطيع والبراءة من العاصي واجبتان، فمن رأينا منه خيرًا وسمعنا عنه خيرًا قلنا فيه خيرًا وتوليناه، ومن رأينا منه شرًّا وسمعنا عنه شرًّا قلنا فيه شرًّا وتبرأنا منه.

السادس عشر: يقسمون الناس إلى ثلاثة أقسام حسب عقيدتهم، وهي كالآتي:

أ. مؤمنون أوفياء بإيمانهم.

ب. يشركون واضحون في شركهم.

ج. قوم أعلنوا كلمة التوحيد وأقروا بالإسلام، لكنهم لم يلتزموا به سلوكًا وعبادة، وهم ليسوا مشركين لأنهم يقرون بالتوحيد، وهم كذلك ليسوا مؤمنين لأنهم لا يلتزمون بما يقتضيه الإيمان، وهم كذلك ليسوا في أحكام الدنيا بإقرارهم بالتوحيد، وهم مع المشركين في أحكام الآخرة لعدم وفائهم لإيمانهم ولمخالفتهم ما يستلزمه التوحيد من عمل أو ترك.

السابع عشر: يقولون: إن إنكار معلوم من الدين بالضرورة شرك.

الثامن عشر: يقولون: إن حجة الله تقوم على الخلق بالكتب والرسل.

التاسع عشر: الحسن عندهم ما هو حسنه الشعر والقبيح ما قبحه الشرع خلافًا للمعتزلة الذين يقولون: الحسن ما حسنه العقل والقبيح ما قبحه العقل.

العشرون: قالوا بإن شفاعة الرسول ﷺ ثابتة، وهي قسمان:

أ. الشفاعة الكبرى يوم القيامة لبدء الحساب ولدخول المؤمنين الجنة، وهي المقام المحمود الذي يختص به نبينا ﷺ.

ب. الشفاعة الصغرى، وهذه الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين الموفين بزيادة الدرجات.

الحادي والعشرون: يؤمنون بالقضاء والقدر وأنه من الله، وأن الخير والشر خلق من الله وكسب من العباد، وهم يوافقون أهل السنة في هذا، والحجة قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] وقوله سبحانه: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]

وقالوا: لو ثبت للعباد خلق للزم ثبوت شريك، وهذا محال، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣] وقال عز من قائل: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

الثاني والعشرون: قالوا: إن مرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة لا كفر ملة، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٤] بما معناه: وهو مستطيع، فهو كافر وكل تارك للحج، وهو مستطيع فهو كافر بنعمة الله التي أنعم الله بها عليه من الاستطاعة؛ بمعنى أنه سترها وهو معنى الكفر لغة، ومنه قول ﷺ: ((لا ترجعوا بعدي كفارًا؛ يضرب بعضكم رقاب بعض)) وقول امرأة ثابت بن قيس في صحيح البخاري: "أخاف الكفر في الإسلام".

هذا، ونزيد على ما ذكرناه بأنهم يعتقدون أن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان، فإنه دار بغي، ويعتقدون بأن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين ومناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح والخيل، وكل ما فيه من قوة الحرب حلال، وما سواه حرام.

ويرون بأن الخلافة ينبغي ألا تنحصر في قريش إذ أن كل مسلم صالح لها إذا ما توفرت فيه الشروط، والإمام الذي ينحرف ينبغي خلعه وتولية غيره، والإمامة بالوصية باطلة في مذهبهم، ولا يكون اختيار الإمام إلا عن طريق البيعة، كما يجوز تعدد الأئمة في أكثر من مكان، ولا يوجبون الخروج على الإمام الجائر، ولا يمنعونه، وإنما يجيزونه إذا كانت الظروف مواتية والمضار فيه قليلة، فإن هذا الجواز يميل إلى الوجوب، وإذا كانت الظروف غير مواتية والمضار متوقعة كثيرة، والنتائج غير مؤكدة، فإن هذا الجواز يميل إلى المنع.

ومع كل هذا فإن الخروج لا يمنع في أي حال، والكتمان مرغوب فيه على جميع الأحوال ما دام الحاكم ظالم، كما يرون أيضًا بأن الجد للأب أولى من الحضانة من الجدة للأم خلافًا لأكثر المذاهب، ويرون بأن الجد يمنع الإخوة من الميراث، بينما ترى المذاهب الأخرى أن يقتسموا معه.

هذا، ولا يجوز لديهم أن يدعو شخص لآخر بخير الجنة، وما يتعلق بها إلا إذا كان مسلمًا موفيًا لدينه مستحقًّا للولاية بسبب طاعته، أما الدعاء بخير الدنيا وبما يحول الإنسان من أهل الدنيا إلى أهل الآخرة، فهو جائز لكل أحد من المسلمين تقاة وعصاة.

كذلك لديهم نظام اسمه حلقة العذابة، وهي هيئة محدودة العدد تمثل خيرة أهل البلد علمًا وصلاحًا تقوم بالإشراف الكامل على شئون المجتمع الإباضي الدينية والتعليمية والاجتماعية والسياسية، كما تمثل مجلس الشورى في زمن الظهور والدفاع، أما في زمن الشراء والكتمان فإنها تقوم بعمل الإمام وتمثله في مهامه.

ولديهم منظمة اسمها أيروان تمثل المجلس الاستشاري المساعد للعذابة، وهي القوة الثانية في البلد بعدها، ويشكلون من بينهم لجانًا تقوم على جمع الزكاة وتوزيعها على الفقراء، كما تمنع منعًا باتًّا طلب الزكاة أو الاستجداء، وما إلى ذلك من صور انتظار العطاء

فالإباضية إذًا، كما أنها حركة دينية، فهي سياسية واجتماعية، ويعتمدون في دعوتهم على الإقناع، ولا يلجئون إلى استعمال العنف إلا في حالات الدفاع، ولذلك لم يشتركوا في أي عمل من أعمال العنف التي قام بها الخوارج والشيعة وغيرهم من قبل ضد الدولة الأموية، على الرغم من إنكارهم الشديد على حكام الدولة الأموية ونقدهم العنيف لسلوكهم.

ويشترطون في الإمام شروطًا كثيرة لا بد أن يكون عقد الإمامة فريضة بفرض الله، وأن يقوم الإمام بالأمر والنهي، والقيام بالعدل، وأخذ الحقوق من مواضعها ووضعها في موضعها الصحيحة، ومجاهدة العدو، وكل هذا ثابت بالأدلة من القرآن والسنة والإجماع.

ويشترطون الكفاءة في الإمام ولا بد لها من عدة شروط، لا تتم الإمامة والبيعة لأحد إلا بها، وهي كالآتي: أن يكون المتقدم للإمامة رجلًا بالغًا وحرًّا وعاقلًا ليس بأعمى، ولا أصم، ولا أخرص، وأن يكون فصيحًا باللغة العربية، وأن يكون سليم البنية أو البدن، وليس بزمن أي ضعيف، ولا مقطوع الرجلين، ولا اليدين، وأن يكون من أهل العلم والورع في الدين، وأن يعقد له من أهل الولاية ستة رجال أحرار بالغين عاقلين من أفضل المسلمين في الورع والدين، وليس فيهم أعمى فصاعدًا.

ويشترط فيمن يتقدم للإمامة عند الإباضية أن يكون أهلًا لدعوة العلماء المسلمين بعقد الإمامة عليه وألا يعقدوا لأحد قبله من المسلمين إلا أن يكون بينهما بحر، فإن لم يكن بينهما بحر كان الذي قبله داعية، وليس بإمام وألا يعتقدوا له، ولا لغيره في وقت واحد، ولا يدرى أيهم من قبل وليس بينهما بحر، وليس منهما إمامة، ويرجع الأمر شورى بين المسلمين، وأن يكون ممن لم يقم عليه حد من قطع ولا جلد.

والحق أن هذه الخصال أو الشروط لم تكن أصولًا ثابتة في اختيار الأئمة القادة عند الإباضية، بل كثيرًا ما تغيرت من وقت لآخر حسب الظروف السياسية والتطبيق العلمي لمبادئ الإباضية، فكثيرًا ما كان يحدث فيه تعديل ليتلاءم مع الظروف السياسية المختلفة، وهذا سر من أسرار استمرارية الإباضية حتى عصرنا هذا.

ولا يسمون إمامهم أمير المؤمنين، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين، ويرون أن العالم كله يفنى إذا فني أهل التكليف، وتقول الإباضية: لا يجوز أن تبقى الأمة الإسلامية بدون إمام أو سلطان، والإمام هو المسئول عن تصرفاته وتصرفات ولاته، ويستحسن له أن يستشير أهل الحل والعقد من أهل كل منطقة في تولية العمال عليهم وعزلهم عنهم وبلد المخالفين في المذهب بلد إسلامي، ولو كان سلطانهم جائرًا.

ولحكم الدار في نظر الإباضية أربع صور هي كما يلي:

الأولى: الدار دار إسلام ومعسكر السلطان معسكر الإسلام، وذلك عندما يكون الوطن مسلمًا والأمة مسلمة، والدولة مسلمة تعمل بكتاب الله.

الثانية: الدار دار إسلام ومعسكر السلطان معسكر الإسلام إلا أنه معسكر بغي وظلم، وذلك عندما يكون الوطن مسلمًا والأمة مسلمة والدولة مسلمة، لكنها لا تنتهج المنهج الإسلامي في الحكم، سواء كانت من إباضية أم من مخالفيهم.

الثالثة: الدار دار إسلام، ومعسكر السلطان معسكر كفر وشرك وذلك عندما يكون الوطن مسلمًا والأمة مسلمة، والحاكم دولة مستعمرة مشركة كتابية أو غير كتابية.

الرابعة: الدار دار كفر، ومعسكر السلطان معسكر كفر، وذلك عندما يكون الوطن مشركين تسكنه أمة مشركة، وتتولى الحكم فيه دولة مشركة.

ومن أصولهم في التشريع، كما ذكرنا: يعتقدون أن مصادر التشريع: القرآن والسنة النبوية المطهرة، والإجماع والقياس، والاستدلال، ويدخل تحت الاستدلال: الاستصحاب والاستحسان والمصالح المرسلة.

ولهم آراء تخصهم في كثير من مسائل الأصول يخالفون بها ما عليه أهل السنة والجماعة، نعزف عنها حتى لا نطيل البحث.

ولهم أصول في العلاقات الاجتماعية ترتبط فيما بين الأفراد والدولة، وفيما بين العلاقة بين الأفراد وبعضهم البعض بما يدل على أن المذهب الإباضي مذهب مستقل، يحاول أن يكون له منهج كامل أو متكامل بعيدًا عن بقية الفرق، ومخالفين بذلك أهل السنة والجماعة على الجملة.

وقد ذكرت شيئًا عند تأسيس الدولة الإباضية أو الفرقة الإباضية من مؤسسيهم، وأذكر شيئًا من الفرق التي خرجت على آراء الإباضية، منها: فرقة النكارية، والنفاثية والخلفية والعسينية أو العميرية والفرثية والسكاكية، واكتفى أصحاب كتب الفرق بذكر الفرق التي شذت عن الإباضية، فقالوا: الحفصية والحارثية واليزيدية والميمونة الإباضية والبيهسية والشبيبية.

وبعد، فهذه هي أهم فرق الإباضية عند أصحاب المقالات أو الذين كتبوا عن الفرق، أما الإباضية فإنهم ينكرون هذه الفرق إنكارًا تامًّا.

هذا، وقد ذكرتها بعنوانيها دون الخوض في مبادئها.

وأما السلوك والأخلاق عند الإباضية، فيتمسك الإباضيون بجميع أنواع السلوك والأخلاق التي أمر بها الإسلام على الجملة، ومن مظاهر ذلك أنهم يرون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر واجب في الحدود التي بينها الرسول ﷺ في حديثه، كما يرون أن محبة المسلمين في الله من أجل طاعتهم، وبغض العصاة والكافرين من أجل معصيتهم أمر واجب على كل مسلم، وأن هذه المحبة يجب أن تتوجه إلى جميع أولياء الله في جميع الأزمنة والأماكن على الإجمال.

ويرون أن جميع المسلمين يتساوون في الحقوق والواجبات عدا شيئًا واحدًا هو الدعاء بخير الجنة، وما يتعلق به.

وأحسب أن هذه الحقوق العريضة كافية لمعرفة المذهب الإباضي بين المذاهب الإسلامية.

وأما أماكن انتشارهم ومواقع نفوذهم، فلهم صولة وجولة في جنوبي الجزيرة العربية حتى وصل مكة المكرمة والمدينة المنورة، أما في الشمال الأفريقي، فقد كانت لهم دولة عرفت باسم الدولة الرستمية وعاصمتها تهرت، ولقد حكموا الشمال الإفريقي حكمًا مستقلًّا زهاء مائة وثلاثين سنة حتى أزالهم الفاطميون.

ولقد قامت للإباضية دولة مستقلة في عمان وتعاقب على الحكم في العصر الحديث أئمة إباضيون.

ومن حواضرهم التاريخية جبل نفوسة بليبيا إذ كان معقلًا لهم ينشرون منه المذهب الإباضي، ومنه يديرون شئون الفرقة الإباضية، وما يزال لهم وجود إلى وقتنا الحاضر في كل من: عمان وحضرموت واليمن وليبيا وتونس والجزائر، وفي واحات الصحراء الغربية.

(الخوارج (٥) - الرد على معتقدات الخوارج الباطلة (١))

عناصر الدرس

أثـــر الخـــوارج في الجماعـــات الغاليـــة في العـــصر الحاضـــر

لقد أدركنا فيما سبق الأصول التاريخية لبدعة الخوارج وظهورها وانتشارها وكيف ومتى تفجرت، ومن الذين تولوا كبرها وتحملوا وزرها، وأنها قامت على تكفير من عاداهم، وهذه البدعة لم تنته بعد، ولم يقض عليها بانتهاء فرقها وطوائفها، ولكنها لا تزال حية في الواقع تخرج علينا في أثواب مختلفة، فمن الفرق القديمة لا تزال فرقة الإباضية لها وجودها الواضح في كثير من البلاد، حيث عمان والجزائر وتونس وزنجبار، وغير ذلك، وهؤلاء أمرهم معروف وأنهم فرقة من الخوارج وإن أنكروا ذلك، وقد سبق الحديث عنهم.

ولكن هناك طائفة أخرى إن لم تكن طوائف لها أفكارها التي لا تختلف كثيرًا عما رددتها فرق الخوارج القديمة حيث سادت في أوساط فئة قليلة من الشباب، هذه الأفكار أفكار الخوارج، وهي لا تزعم أنها من خوارج الأمة في شيء.

ولكن بحكم الحيدة والإنصاف نقول: إذا اتفقت المبادئ فلا يعنينا الأسماء أو الرايات، فلقد ظهر في حقل العمل الإسلامي في الآونة الأخيرة نوع من الشباب القلق، تنم حركاته عن ردود فعل مبني على خلل أو اضطراب في العقيدة مع سطحية في الفكر وعشوائية في الحركة، شباب يصدر عن تصرفات فردية، يريد أن يجني الثمرة قبل نضجها، إنهم شباب حاولوا معرفة الحقيقة لكنهم أخطئوا الطريق، واعتنقوا أفكار الخوارج مرة أخرى، فوجدنا من يعتقد كفر من ارتكب المعصية وأصر عليها، بل كفروا جميع المسلمين عداهم، وإن صلوا وصاموا، وأعلنوا هذا التكفير لأسباب أخرى، منها عدم الحكم بما أنزل الله وبقاؤهم في

دار الكفر، ولم يعذروا الناس بالجهل على اختلاف بينهم وأضافوا إلى ذلك بدعة المفاصلة الشعورية التي تعني مجاراة المسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم مع الاعتقاد بكفرهم وغير ذلك.

فظاهرة التكفير لها جذورها في تاريخ الفكر الإسلامي منذ عهد الخوارج ولعلها أول قضية فكرية شغلت المسلمين، وكان لها آثارها العقلية والعملية العسكرية والسياسية لعدة أجيال.

فالفكرة -كما علمت- بعيدة المدى عميقة الجذور، فهي ضاربة الجذور في الماضي البعيد، قد تضافرت على نشأتها مختلف الظروف السياسية والتاريخية، وإن كان الواقع سيء في هذه الأيام من دور، فهو بعثها وإعادتها إلى لحياة مرة أخرى لا في نشأتها من جديد، ولا شك أن هذا له ارتباط وثيق بالأحداث العدوانية التي تمر بالمسلمين والظروف التي يمر بها العالم الإسلامي، وذلك عندما فوجئ العالم الإسلامي عقب الحرب الثانية بالاحتلال الأجنبي، وأن الوعود كانت كاذبة ذهبت أدراج الرياح، وأن الحكم القائم في البلاد حكم أجنبي متستر وراء واجهات من المواطنين، وكذلك ما يعيشه العالم اليوم من ضياع روحي كان السبب في كل شيء، ذلك أن نظرة واحدة إلى الواقع الذي تعج به البشرية اليوم لتضع النقاط على الحروف في نواح مختلفة، وتقدم التفسيرات الحقيقة لكثير من المشاكل الفكرية التي أخذت في هذه الأيام طابعًا حادًّا ومتميزًا.

كما كان من الأسباب الرئيسة لظهور تلك الفكرة محاولة القضاء على قافلة الإصلاح المتمثلة في ظاهرة الصحوة الإسلامية في سلسلة صراعات شرسة أعدت

خصيصًا بأيد ملوثة لاستفراغ طاقتها واستنزاف جهودها وإحباط مساعيها، وفتحت المعتقلات ونصبت المشانق، وانتهكت الأعراض، وشرد النساء والأطفال، وانتشر الرعب والهلع، وأصبح مجرد ذكر كلمة الإسلام مثار هلع في النفوس، وسخرت أجهزة الإعلام للتشويه والتعمية، فساهمت بنصيب كبير غير مشكور، وامتد نطاق الحرب، فكان على الفضيلة والمبادئ نفسها بدلًا من انحصارها فيمن يمثلونها فقط فحوربت فكرة التدين نفسها بالإرهاب والتشويه، وأمست مظاهر الالتزام والتقوى، مثار اشمئزاز وسخرية بالإضافة إلى كونها مصدر رعب وهلع ونذير إجرام وخطورة والويل للمسلمين.

وأما المعاملة الوحشية التي عومل بها السجناء والمعتقلون، والتي لا تتفق مع دين، ولا خلق، ولا قانون، فحدث ولا حرج، لقد اقتيد هؤلاء الشباب من بيوتهم إلى ساحات التعذيب، وصب عليهم من ألوان القهر والإيذاء والإذلال والتعذيب ما تقشعر من ذكره الأبدان، وما تشيب من هوله الولدان، لقد تفننوا في إيذاء الأبدان، وإهانة الأنفس، والاستخفاف بالعقول، وتحطيم الشخصية، والاستهانة بالآدمية إلى حد بعيد يعجز القلم عن تصويره، ويتوقف العقل في تصوره.

في داخل هذا الآتون المحمي لتعذيب البشر ولد التطرف، ونبتت فكرة التكفير مرة أخرى، متأثرة بهذا الجو مع ما هم عليه من تعصب أو تزمت فضلًا عن قراءات تعود إلى أفكار قديمة تمت إلى الخوارج بصلة، ووجدت فكرة التكفير في هذا الجو اللاهب عاملًا مساعدًا على الاستجابة لها، حين بدأ هؤلاء المعذبون بسؤال بسيط لأنفسهم: لم كل هذا العذاب يصب علينا؟ وأي جريمة اقترفناها إلا أن قلنا: ربنا الله، ومنهجنا الإسلام ودستورنا القرآن، وما نريد من أحد جزاء، ولا شكورًا

إلا أن نؤدي واجبنا نحو ديننا، وأن يرضى الله تعالى عنا؟ أيمكن أن يكون العمل للإسلام في بلد إسلامي جناية ينكل بنا من أجلها كل هذا النكال.

وانتقلوا من هذا السؤال إلى سؤال آخر: هؤلاء الذين يضربوننا إلى أن نخر صرعى، ويدوسون إنسانيتنا بأقدامهم، ويسبون ديننا وينتهكون حرماتنا ويسخرون من صلاتنا وعبادتنا، ويجترئون أحيانًا على ربنا، هل يعد هؤلاء مسلمون؟ وإذا كان هؤلاء مسلمون، فأين الكفار إذًا؟ لا، إن هؤلاء كفار خارجون من الملة، ولا دين لهم. وانتقلوا من هذا السؤال إلى سؤال آخر: إذا كان حكم هؤلاء الذين يعذبوننا إلى الموت، فما حكم سادتهم الذين يأمرونهم ويوجهونهم ويصدرون إليهم القرارات؟ ما حكم أولئك القادة والحكام الذين في أيديهم سلطة الأمر والنهي والإبرام والنقض الذين لم يحكموا بما أنزل الله، ولم يكتفوا بذلك حتى حاربوا بكل شدة كل من يدعو إلى الحكم بما أنزل الله؟ هؤلاء بالنظر إلى أولئك أشد كفرًا وأصرح ردة عن الإسلام، وحسبنا فيهم قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وبعد أن اقتنعوا بهذه النتيجة وآمنوا بها انتقلوا إلى سؤال رابع، توجهوا به إلى من معهم من السجناء والمعتقلين: ما قولكم في هؤلاء الحكام الذين لم يحكموا بما أنزل الله، وزادوا على ذلك التنكيل بكل من دعا إلى الحكم بكتاب الله، فمن وافقهم على تكفيرهم فهو منهم، ومن خالفهم أو توقف في الأمر فهو كافر مثلهم لأنه شك في كفر الكفار، ومن شك في كفر الكافر فهو كافر.

ولم يقفوا عند هذا الحد، فقد انتقلوا إلى سؤال خامس: هذه الجماهير التي تطيع هؤلاء الحكام وتخضع لهم، وهم يحكمون بغير ما أنزل الله ما حكم هؤلاء؟ كان

الجواب حاضرًا عند هؤلاء: إنهم كفار مثلهم فقد رضوا بكفر هؤلاء الحكام وأقروه وصفقوا له والرضا بالكفر كفر، ولا شك. ومن هذا المنطلق انتشرت موجة تكفير الناس بالجملة وتفرعت عن هذه الفكرة الأساسية أفكار فرعية متطرفة أخرى، ومن سنة الحياة المشاهدة المجربة أن العنف لا يولد إلا عنفًا، وأن شدة الضغط لا يكون من ورائها إلا الانفجار.

ومن هنا بدأ نطاق التكفير يتسع، لا ليشمل من وال الحكام أو رضي بحكمه، بل من سكت عن تكفيرهم، وهذا يعم جمهور الناس، أضف إلى ذلك ما لاحظه المسلمون في الوقت الذي يعذبون فيه ويضطهدون أن الفسقة والفجار والملاحدة واللادينين طلقاء وأحرار لا يحاسبهم أحد، ولا يعاقبهم أحد، بل وثبوا على أجهزة الإعلام والتوجيه وغيرها، يوجهونها كما يشاءون إلى الكفر والفسوق والعصيان، مع انتشار الكفر والردة الحقيقية جهرة في مجتمعاتها الإسلامية، واستطالة أصحابها وتبجحهم بباطلهم دون أن يجدوا من يزجرهم أو يردهم عن ضلالهم وغيهم، مع تساؤل بعض العلماء في شأن هؤلاء الكفرة الحقيقيين وعدهم في زمرة المسلمين، والإسلام منهم براء، أمثال العلمانيين والشيوعيين والاشتراكيين.

هذا فضلًا عن غربة الإسلام في ديار الإسلام والهجوم العلني والتآمر الخفي على الأمة الإسلامية، وذلك ساعة أن يرى المنكر يستعلن والفساد يستشرى، والباطل يتبجح، والعلمانية تتحدث بملء فيها، والماركسية تدعو إلى نفسها بلا خجل، والصليبية تخطط وتعمل بلا وجل، وأجهزة الإعلام تشيع الفاحشة وتنشر السوء، ويرى النساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، ويرى الخمر تشرب جهارًا وأندية الفساد تجعل الليل نهارًا.

ويرى المتاجرة بالغرائز على أشدها من أدب مكشوف وأغان خليعة وصور فاجرة، وأفلام داعرة وأقلام مأجورة، ومعسكرات مختلطة ومدارس وجماعات مشتركة، ومحاكات عاهرة إلى آخره، يرى المسلم هذا في ديار الإسلام، ثم يرى معها التشريع الذي يجب أن يعبر عن عقائد الأمة وقيامها بصورة قوانين تحرص على معنويات الأمة، وتعاقب من يجترئ على حماها.

هذا التشريع للأسف لا يعاقب على المنكر وكأنه يؤيد الفساد لأنه لم ينبع مما أنزل الله، بل مما وضع الناس فلا عجب أن يحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويسقط فرائض الله ويعطل حدود الله، وصار الإسلام غائبًا عن ساحته غريبًا عن أوطانه منكورًا بين أهله، معزولًا عن الحكم وعن التشريع وعن توجيه الحياة العامة شئون الدولة في سياستها واقتصادها، وسائر علاقاتها بالداخل والخارج.

وفرض على الإسلام أن يتقوقع في العلاقة بين المرء وربه، ولا يتجاوزها إلى العلاقات الاجتماعية أو الدستورية أو الدولية، ومعنى هذا أنه فرض على الإسلام أن يكون نسخة من النصرانية في عهد انكماشها حيث يكون عقيدة دون شريعة، وعبادة دون معاملة ودينًا دون دولة وقرآنًا دون سلطان.

هذا، وإن كنت تلمست الأسباب والدوافع وراء ظهور فكرة التكفير مرة أخرى التي كانت خارجة عن دائرتهم، سواء من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو الإعلامية، وكلها أسباب لا دخل لهم فيها، فإني لا أعفي هؤلاء الشباب، ومن على شاكلتهم كبارًا وصغارًا الذين حملوا لواء هذه الفكرة وآمنوا بها، وأعادوا إلينا فكرة التكفير، وفكر الخوارج مرة أخرى، لا نعفيهم من المسؤولية، ولا ندعي أنهم أطهار أبرار، وليس لهم نصيب في هذا الفكر المتطرف، بل كان لهم نصيب كبير من الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا الفكر والانحراف في فهم الدين والغلو والتنطع.

وعلى رأس هذه الأسباب: ضعف البصيرة بحقيقة الدين، وقلة البضاعة في فقهه والتعمق في فهم أسراره، والوصول إلى فهم مقاصده واستشفاف روحه بصورة لا تربط الجزئيات بالكليات، ولا ترد المتشابهات إلى المحكمات، ولا تحاكم الظنيات إلى القطعيات، ولا تعرف من فنون التعارض والترجيح ما تستطيع به أن تجمع بين المختلفات أو ترجح بين الأدلة والاعتبارات، والحق أن نصف العلم مع العجب والغرور يضر أكثر من الجهل الكلي مع الاعتراف لأن هذا جهل بسيط، وذاك جهل مركب، وهو جهل من لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

ولو افترضنا في هؤلاء الشباب أنهم مخلصون، فالإخلاص وحده لا يكفي، ما لم يسنده فكر عميق لشريعة الله وأحكامه، وإلا وقع صاحبه فيما وقع فيه الخوارج من قبل، وهم لم ينقصهم العمل أو التعبد، وقد كانوا صوامًا قوامًا قراء للقرآن شجعانًا في الحق باذلين النفس في سبيل الله، ولكن لم يعفوا من تفريق كلمة الأمة وشق عصا الطاعة، والسير في غير الاتجاه المستقيم، ومن سار في غير الاتجاه المنشود لم يزده طول السير إلا بعدًا عن الهدف، ولا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى.

ولهذا مظاهر عديدة عند هؤلاء نذكر أهمها فيما يلي: الاتجاه الظاهري في فهم النصوص، والاشتغال بالمعارك الجانبية عن القضايا الكبرى، أو الاشتغال بالسفاسف دون المعالي، كذلك الإسراف في التحريم مع التباس المفاهيم، واتباع المتشابهات وترك المحكمات.

وننظر إلى غلاة اليوم أو خوارج هذا العصر، فنجدهم يعتمدون على المتشابهات في تحديد كثير من المفاهيم الكبيرة التي رتبوا عليها نتائج خطيرة، بل بالغة الخطر في الحكم على الأفراد والجماعات وتقويمهم وتكيف العلاقات بهم من حيث الولاء والعداء والحب والبغض واعتبارهم مؤمنين يوالون أو كفارًا يقاتلون.

وهذه السطحية في الفهم والتسرع في الحكم وخطف الأحكام من النصوص خطفًا دون تأمل، ولا مقارنة؛ نتيجة لترك المحكمات البينات واتباع المتشابهات والمحتملات هي التي جعلت إخوانهم من الخوارج قديمًا يسقطون في ورطة التكفير لمن عداهم من المسلمين، وتقاتل خليفة المسلمين علي بن أبي طالب > وقد كانوا جنودًا في جيشه مستندين إلى أفهام عجيبة، بل أوهام غريبة في دين الله تعالى، فاتهموه بالخروج من الدين لأنه حكم الرجال في دين الله، ورددوا كلمتهم المعروفة: لا حكم إلا لله. مستدلين بظاهر القرآن الكريم حيث يقول: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧] ورد الإمام علي > عليهم بقوله: كلمة حق أريد بها باطل، على نحو ما أسلفنا عند الكلام عن الخوارج، ذلك أن رد الحكم إلى الله وحده، سواء أكان حكمًا كونيًّا أم شرعيًّا بمعنى: التدبير لله والتشريع لله وحده لا يعني إبطال تحكيم البشر في القضايا الجزئية التي يتنازع الناس فيها ما دام تحكيمهم في إطار حكم الله وتشريعه، كما يكون التحكيم بين الزوجين وفي تقدير الصيد.

ومن لم يحسن الفهم عن الله ورسوله فيما جاء من آيات أو من أحاديث، ولم يقف طويلًا عندها دارسًا فاحصًا متأملًا متفقهًا جامعًا بين أولها وآخرها وموفقًا بين مثبتها ونافيها، ومقارنًا بين خاصها وعامها أو بين مطلقها ومقيدها مؤمنًا بها كلها، محسنًا الظن بها جميعها، محكمها ومتشابهها، من لم يفعل ذلك فما أسرع ما تضل راحلته، ويعمى عليه طريقه، وتضيع منه غايته، فيشرق مرة ويغرب أخرى على غير بصيرة ويخبط خبط عشواء في ليلة مظلمة، وهذا هو الذي وقع فيه دعاة التكفير حديثًا ووقع فيه الخوارج وغيرهم قديمًا.

ومن أسباب ضعف البصيرة عند هؤلاء أنهم لا يسمعون لمن يخالفهم في الرأي، ولا يقبلون الحوار معه، ولا يتصورون أن تتعرض آراؤهم للامتحان بحيث توازن بغيرها، تقبل المعارضة والترجيح، وكثير منهم لم يتلق العلم من أهله وشيوخهم المختصين بالمعرفة وإنما تلقاه من الكتب والصحف مباشرة، دون أن تتاح لهم فرصة المراجعة والمناقشة والأخذ والرد، واختبار فهمه ومعلوماته، ووضعها على مشرحة التحليل، وطرحها على بساط البحث، ولكنه قرأ شيء وفهمه واستنبط منه، وربما أساء القراءة أو أساء الفهم أو أساء الاستنباط أو أساء في كل ذلك، وهو لا يدري، وربما كان ثمة معارض أقوى، وهو لا يعمل؛ لأنه لم يجده من يوقفه عليه.

وغفل هؤلاء الشباب أن علم الشريعة وفقهها لا بد أن يرجعوا فيه إلى أهله الثقات، وأنهم لا يستطيعون أن يخوضوا هذا الخضم الزاخر وحدهم دون مرشد يأخذ بأيدهم، ويفسر لهم الغوامض والمصطلحات، ويرد الفروع إلى أصولها، والنظائر إلى أشباهها، وهذا مما جعل علماء السلف يحذرون من تلقي العلم عن هذا النوع من المتعلمين، ويقولون: لا تأخذ القرآن من مصحفي، ولا العلم من صحفي. وهم يعنون بالمصحفي الذي حفظ القرآن من المصحف فحسب، دون أن يتلقاه بالرواية والمشافهة من شيوخه وقرائه المتقنين، ويعنون بالصحفي الذي أخذ العلم من الصحف وحدها من غير أن يتتلمذ على أيدي العلم ويتخرج على أيديهم.

ولا شك أن هناك أسباب أخرى كانت وراء ظاهرة التكفير وعودة ذكر الخوارج مرة أخرى في تاريخ الأمة، ولكن اكتفينا بذكر الأهم منها مع الإيجاز في ذلك.

هذا، وما كادت تظهر فكرة التكفير حتى كان هناك انقسامات بين دعاتها واضطراب في الفكرة، فحين بدأت تعود ظاهرة التكفير حديثًا، وذلك داخل

المعتقلات تحت وطأة التعذيب بالوسائل الوحشية التي اتبعتها السلطات الغاشمة آنذاك تجاه أصحاب الفكر الإسلامي، والتي من أهم عوامل ظهور هذا الفكر حيث اختمرت فكرة التكفير لدى بعض الشباب وبدءوا يجسدون ما ورد في كتابات الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- عن الجاهلية والمجتمع المعاصر، وكيف أنه أصبح جاهليًّا، حتى استخلصوا منه فهمًا خاصًّا هو أن المجتمع قد صار كافرًا، لكن جعلوا الوصول إلى هذه الفكرة بدأ الانقسام والانشقاق من أول ظهرت فيه.

وفي البداية وقفوا عند هذا المفهوم العام دون أن يدخلوا في التفاصيل، ومن ثم لم يعتزلوا المجتمع، ولم يستحلوا حرماته، بيد أنه عندما فوجئ المعتقلون برجال السلطة السرية يطلبون من الجميع تأييد رئيس الدولة تأيدًا مطلقًا مقرين بأنه الخليفة العادل، وما صاحب هذا الطلب من تهديدات ومضاعفة في العذاب، وقامت معركة رهيبة تجاه هذا الأمر اقترنت بفترة المخاض، لهذا الفكر حيث رفض المعتقلين من الإخوان المسلمين مبدأ التعاون مع السلطة الخفية، يعني المباحث، وتجاهلوا مطلبها، وآثروا تنفيذ التهديدات لأن الإبادة آنذاك لم تكن أسوء من التعذيب، وعمليات غسيل المخ التي تجري عليهم صباح مساء، ولذا فقد أعلنوا دون تردد أنه لا ولاء بينهم وبين هذه الحكومة التي سلبتهم حقوقهم، وقبلت على نفسها أن تقوم بدور الجلاد، لا أكثر ولا أقل.

وفي هذه المحنة من محن الصراع بين الحق والباطل اجتهدت فئة من المعتقلين وكتب أفرادها ورقة بأنهم يؤيدون الحكم ونسبوها إلى جميع المعتقلين، وسكت أكثر المعتقلين على أساس أنها فتنة، وليس مطلوبًا من المسلم أن يسعى إلى التعذيب، وأنه ليس محاسبًا أمام الله على فعل غير، ويراد به الذين كتبوا تأييدًا باسم

الجميع، ولكن قلة من الشباب عدت ذلك الموقف تخاذلًا في الدين، وطاعة للسلطان في غير ما أمر الله به، وأعلنت كفر رئيس الجمهورية، وهنا تدخلت السلطة، وعزلت هؤلاء الشباب في أماكن خاصة، وفيها تمخضت المناقشات عن ميلاد التكفير.

وبعد انقضاء مدة العزل والتجويع تم توزيعهم في الحجرات، وأعلنوا عن هذا الفكر، وكانت مظاهره هي أن صلى هؤلاء الشباب وحدهم، وأعلنوا أن باقي الإخوان قد كفروا لأنهم أيدوا الحاكم الكافر، ، وأعلن هؤلاء أن المجتمع بأفراده قد كفروا بولايتهم للحاكم الجاهلي، ولا تنفعهم صلاة، ولا صيام، وأوضحوا أن الخروج من الكفر يكون بالانضمام إلى جماعتهم ومبايعة إمامهم، وقد تبع هؤلاء الشباب فكرة التكفير لأسبابه المختلفة دون أن يبحثوا في الآثار المترتبة على ذلك.

فالإيمان بهذا المعتقد يستلزم فسخ عقود الزوجات اللاتي لا يدخلن في هذه الجماعة، ويستلزم أيضًا تحريم الذبائح الواردة من البلاد الإسلامية لأنها ارتدت عن الإسلام، كما يستلزم هذا الفكر اعتزال المساجد وعدم صحة الصلاة خلف أئمتها ما لم يؤمن الإمام بهذا المفهوم، لهذا عندما واجه المعتقلون من الإخوان المسلمين هذا الشباب بهذه النتائج، وطلبوا منهم أن يحددوا مواقفهم من هذه الأمور؛ لأنها نتيجة طبيعة لهذه العقيدة، عندئذ انقسم هذا الفكر إلى طائفتين:

الأولى: طائفة أظهرت أنها لا تقول بكفر من خالفهم، وبالتالي فإن الذين لا يؤمنون بهذا الفكر ليسوا كفارًا وتجوز الصلاة خلفهم، وأيضًا زوجات أصحاب هذا الفكر لسنا كافرات، ولا ضرورة لفسخ زواجهن.

الثانية: طائفة تمسكت بالمفاصلة الصريحة وأعلنت كفر إخوانهم الذين لا يقولون بكفر من خالفهم، فكفروا جماعة الإخوان، كذا الآباء والأمهات والزوجات،

وهذه الطائفة هي التي يطلق عليها اسم جماعة التكفير والهجرة، ولكنها تسمي نفسها جماعة المسلمين.

أما الطائفة الأخرى، فقد آثرت عدم إظهار منهجها عملًا بقاعدتين عندها هما: المفاصلة الشعورية، والعهد المكي، والمراد بالمفاصلة الشعورية: عدم تغير العقيدة، والإيمان بكفر المجتمع وباقي المعتقلين، ولكن الواجب ألا نضع اللؤلؤة في عنق الخنزير العقدية لؤلؤة، ولا يجب أن ينتمي إليها إلا من آمن بها ظاهرًا وباطنًا، أما من لا يؤمن بها فهو خنزير، ولكن هناك ضرورة حركية توجب مراعاة شعور من يصلي من الشعب، فلا يصدم بأنه كافر، بل نطبق عليه مبدأ المفاصلة الشعورية، ونصلي خلفهم في الظاهر فقط بأن ينوي أحدنا الصلاة منفردًا خلف الجماعة فيتبع إمامها في الظاهر، ولكنه في نفسه ليس متبعًا إذ لم ينو الصلاة خلفه، ولا بد من مفاصلته وجماعته في أنفسنا مفاصلة شعورية، وعند المواجهة يصرحون بكفرهم لهذا، كما جاء على لسانهم.

أما العهد المكي فمعناه: أنه يمثل عهد الاستضعاف وعدم التمكين وترك إظهار الشعائر، ولهذا العامل يرى أصحاب هذا الرأي جواز أكل ذبائح المشركين وزواج نسائهم، وذلك بأنه بسبب كفر المجتمع، فمن العقيدة عندهم أن يؤخذ الدين بصورته التي نزلت على النبي ﷺ وتؤخذ الأحكام على مراحل، كما كان في أول الإسلام، وقاسوا عليه ما يعيشون فيه من استضعاف، فإن تمكنت الجماعة من الوصول إلى السلطة، وحكمت بالإسلام أخذت بما كان في المدينة لأنها في عهد التمكين، وما داموا في عصر الاستضعاف فلا تحرموا الذبائح ولا المشركات، ولا تجب صلاة الجمعة والعيدين، ولا يجوز الجهاد، بل يجب كفى

الأذى وعدم رد العدوان، وغير ذلك من الأحكام التي لم تنزل إلا بالمدينة في عهد التمكين، وما يعرف بالمفاصلة الشعورية.

والعهد المكي يسمى الحركة بالمفهوم، وهي جزء من العقيدة يكفر من أنكر مراحلها، وبالتالي يكفر من لجأ إلى القوة في عهد الاستضعاف، ومن خرج عن نظام الحركة بالمفهوم، وأعلن المفاصلة الكاملة للمجتمع، ولهذا فإن الطائفة الأولى جماعة التكفير والهجرة تعد كافرة، ولكن لا يصرحون بهذا إلا للخاصة أخذًا بقاعدة المفاصلة الشعورية، ثم ماذا؟ تزعزعت هذه العقيدة في نفوس بعضهم، وذلك من باب إباحة الصلاة خلف من يعتقدون كفره، فخرج من هؤلاء قلة تركت الحركة بالمفهوم، وأعلنت المفاصلة الكاملة لما في الحركة من مفهوم من كفر صريح يتمثل في استباحة المحرمات والشهادة بغير الحق، وإلباس الحق بالباطل.

وبناءً عليه قرر أصحاب المفاصلة الشعورية أمرًا آخر، وأصدروا بيانًا جاء فيه: لا نصلي خلف ما لا نطمئن إلى صحة عقيدته، وأن صلاتنا خلف من نعلم أو نشك في صحة عقيدته أو لم تستقر العقيدة عندهم، تشهد لهم بأنهم كاملو العقيدة، ولكن تبين لهم أن هذا التحول يحول دون انتشار دعوتهم، ويكشفهم فأخذت هذه الفئة مرة ثانية بالحركة بالمفهوم، ولكنها لا تصرح بهذا التحول للجميع، ومع هذا فقد ترتب على العدول عن المفاصلة الكاملة والعودة للحركة بالمفهوم انشقاق في الفكر، ونشأ فكر آخر تمسك بمفاصلة كاملة حكم بكفر من عاد للحركة بالمفهوم.

ونشأت أيضًا أفكار أخرى بعضها يرجئ الحكم الشرعي إلى يوم القيامة مع الأخذ بالمفاصلة الكاملة احتياطيًّا، والبعض الآخر يرى كفر من يخالفهم حتى في

الجزئيات عملًا بقاعدة عندهم تقول: بتكفير من لم يكفر الكافر، وقد ترتب على هذه القاعدة تصريح أصحاب المفاصلة الكاملة أي جماعة التكفير والهجرة بكفر الفئات الأخرى، وعلى الأخص أصحاب المفاصلة الشعورية، ومنهم من كفر بالمعصية عمومًا وخالفهم البعض، فكفر بالإصرار على المعصية أو كفر مرتكبي الكبيرة فقط، ومنهم من أعلن كفر جميع المسلمين، ومنهم من توقف في الحكم عليهم أي: ليسوا بمسلمين، ولا كافرين حتى يتبينوا حالهم.

وهكذا صارت جماعة التكفير أو خوارج العصر منذ نشأتهم عبارة عن جماعات وأهواء وآراء، وفي ظل ذلك التخبط والانقسام كانت جماعة التكفير والهجرة، وأخذت الفكرة تترقى تدريجيًّا ويتسع نطاقها في التكفير ليشمل كل من عداهم من جمهور الناس حتى تغالوا في ذلك، وكفروا كل من أصر على المعصية، بل اتهموا الأنبياء بالكفر أيضًا، وأخذوا يقررون المبادئ لجماعتهم، ولكن ماذا حدث بعد؟ عندما نوقش أعلم رجل في وسط هؤلاء الشباب، وأول إمام لهم هو الشيخ علي عبده إسماعيل اقتنع أن الحركة بالمفهوم تنطوي على استحلال الحرام، والحكم بما لم ينزل الله، وطلع على أصحابه أن الذين اتبعوا الحركة بالمفهوم قد كفروا لأن الحكام يشرعون في المصالح الدنيوية والعقوبات، وهذا الكفر، ومن باب أولى يكفر من يشرع في العبادات كالقول باستحلال زواج المرتدة عن الإسلام بدعوى أنها مشركة في عهد الاستضعاف.

وما أن أعاد هذا الرجل النظر في قضية تكفير المسلمين، ثم قرأ كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم وناقش المرشد العام للإخوان المسلمين آنذاك، هو الشيخ الأستاذ حسن الهضيبي الموجود في نفس المعتقل، وذلك بعد أن قرأ

بحث (دعاة لا قضاة) قام هذا الشاب بعد صلاة العصر، وخلع ثوبه، وأعلن أنه ينخلع من التكفير، كما يخلع هذا الثوب، وأوضح الأسباب للمصلين خلفه.

ومنهم أصحاب فكر التكفير، وهنا رمي بالكفر من أحد شباب هذا الفكر، واسمه شكري أحمد مصطفى الذي كان طالبًا من كلية الزراعة كان في أوائل الثلاثينات من عمره، وذلك في أثناء القبض عليه سنة خمس وستين من الميلاد، وبعد الحكم عليه وسجن سنوات أفرج عنه سنة واحد وسبعين من الميلاد، وقد جمع حوله نفرًا من الشباب غير قليل، وتزعم بعد ذلك إمامة ما سموه بجماعة المسلمين، والتي تمخضت عنه هو وطالب آخر في البداية، وأعلن أن الحق مع الجماعة ولو كانت من فرد واحد، وأنه هو إمام الجماعة المسلمة ومن تخلف عن بيعته كفر، وهذه الفئة هي التي تطلق عليها أجهزة الأمن جماعة التكفير والهجرة. وقد أخذت في إرساء مبادئها التي لا تختلف كثيرًا عن مبادئ الخوارج القدامى، وتتلخص هذه المبادئ في الآتي:

الأول: الحد الأدنى للإسلام هو كل فرائض الإسلام.

الثاني: الحكم بغير ما أنزل كفر صريح، وذلك كما ينطبق على الحاكم بغير ما أنزل الله، وهو يشمل أيضًا كل واحد من أفراد الرعية، رضي بهذا الحكم، ولم يخرج على الحاكم، ولم يعلن كفره، وظل في تلك الدار التي هي دار كفر، وليست دار إسلام.

الثالث: أن المصر على المعصية كافر.

الرابع: مصادر التشريع في الإسلام تتمثل في: القرآن والسنة فقط، ومن قال بالقياس أو الإجماع، فقد كفر.

الخامس: تقليد المذاهب كفر، والاجتهاد المكفول لكل مسلم بلا شروط.

السادس: اختلافات الفقهاء تدل على أنها ليست من عند الله، والأخذ بها من الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

السابع: لا عذر بالجهل في أمور الدين، يستوي في ذلك الأصول والفروع.

الثامن: لا عذر بالخطأ في التأويل، كما لا عذر بالإكراه أيضًا.

التاسع: الحكم بالكفر يكون على المعين دون شك في كفر الكافر لأنه كفر.

العاشر: ليس هناك أهل فترة، فالكل قد أقيمت عليه الحجة وبلغته الدعوة وأخذ عليهم الميثاق.

الحادي عشر: فرضية الهجرة من دار الكفر وبلاد الحرب والمجتمعات الجاهلية.

الثاني عشر: تحريم التعليم في المجتمعات الجاهلية لأن الله أرادنا أمة أمية لا تتعلم أكثر من أمور الدين، وتعلم أي ذرة من العلم فوق ذلك من الكفر الذي يصيب الإنسان بالطغيان.

الثالث عشر: وجوب اتباع جماعتهم التي هي جماعة المسلمين، مع وجوب البيعة، من لم يبايع فهو كافر، كما يجب السمع والطاعة للأمير في كل شيء، ولو أمر بما يخالف الشرع؛ لأنه أدرى بدواعي الضرورة لذلك، ويعلم ما لا تعلمه الرعية من ظروف الواقع المحيط بالجماعة، ولذا يجب أن يسلموا له القياد أينما قادهم.

ولا شك أن فكر التفكير وشبهاته أو مبادئه لها جذورها القديمة من يوم أن ظهرت الخوارج والفرق بعد ذلك فضلًا عن الفتن التي ساعدت على ظهورها في العصر الحديث، والظروف التي يمر بها العالم الإسلامي، كما رأينا أن ظاهرة التكفير

ليست وليدة سبب واحد، بل هي وليدة أسباب متعددة متنوعة، وليس من إنصاف الحقائق أن نركز على سبب واحد ونغض الطرف عن الأسباب الأخرى أو نركز على جهة معينة ونغض الطرف عما سواها فالأسباب متشابكة ومتداخلة، كلها تعمل بأقدار متفاوتة مؤثرة آثارًا مختلفة، قد يقوى أثرها في شخص، ويضعف في آخر، ولكنها جميعًا لها في الناحية أثرها الذي لا يجحد.

ولا شك في بطلان ما ذهبت إليه فرقة التفكير في منهجها، ومخالفتها في ذلك منهج السلف الصالح، وخروجها عن إجماع الأمة، وهي في ذلك كفرقة الخوارج التي هي امتداد لها، وقد رأينا اتفاقًا في كثير من المبادئ والأفكار التي سنحاول الوقوف عند أهمها إن شاء الله، ومن ذلك ما أصابهم من غبش في مبادئ الإسلام الأساسية كالإيمان والكفر والشرك والجاهلية، وعدم الجمع بين النصوص، وعدم ربط الجزئيات بالكليات، أو رد المتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، وقولهم بأن العمل أساس الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله كفر على العموم والخصوص، وقولهم بأن مرتكب الكبيرة والمصر على المعصية كافر ونحو هذا مما التقت فيه أفكار الأوائل بالأواخر من خوارج هذه الأمة في القديم والحديث، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

إنها قضية التكفير التي تزعمها الخوارج في القديم وفي الحديث، ولأسباب واهية وشبهات تافهة، إنها أخطر القضايا التي جاءت من أجلها الرسالات، وهي أهم العلاقات التي تربط الإنسان بربه أو لا وتربط الإنسان بغيره أو لا، وهي أساس يقابل الأساس الذي قام عليه الدين، وهو الإيمان، ومن ثم فالحديث عن الإيمان أو الكفر يجب أن يكون دقيقًا ويحتمل على الأدلة اليقينية، والمنطق الصحيح،

وعلى وضوح الرؤية لكل مظهر من مظاهر القول والعمل، ويتصل بالعقيدة بوجه ما.

ومن هنا كان لا بد من معرفة الكفر بمعناه وأقسامه وصوره على النحو الذي أراده الله في معناه، وعلى الفهم الذي فهمه رسول الله ﷺ وأصحابه } ومن تبعهم بإحسان.

الرد على أهم مبادئ وأفكار الخوارج قديمًا وحديثًا

ومن هنا نحن نرد على أهم مبادئ وأفكار الخوارج قديمًا وحديثًا، بادئ ذي بدء بمعرفة الكفر وأنواعه وأقسامه، لا بد من معرفة أنواع الكفر، وأنه يكون كفر عقيدة، ويكون كفر عمل، وكفر العمل كجحد المعروف، وكفران النعم وكفران العشير، ومنه الكفر الذي دون الكفر، وأن الكفر منه ما يخرج من الملة، وما لا يخرج من الملة، ومنه ما يكون كفرًا ولا يكفر صاحبه بانتفاء الكفر عنه لسبب من الأسباب الذي يعذر بها، وأن من الكفر ما يضاد الإيمان من كل وجه، ومنه ما لا يضاد الإيمان من كل وجه، وأن شعب الكفر تسمى كفرًا، كما أن شعب الإيمان تسمى إيمانًا، وليس بلازم إذا وقع الإنسان في بعض شعب الكفر أن يكون كافرًا لاجتماع شعب الإيمان عنده مع شعب الكفر التي وقع فيها.

كما أن نفي الإيمان عن شخص اقترف كبيرة كالزنا والسرقة وشرب الخمر لا يعني ذلك أنه كفر وخرج من الملة، وإن كان يعني أنه كافر من جهة العمل، وفي نفس الوقت انتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد، ففي الإسلام كفر دون كفر، كما قاله أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ هل إذا قال

الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] يكون كقوله تعالى: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦] وهل إذا قال الله تعالى على لسان سليمان # : ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] أتعتقد أن هذا من الكفر الصراح البواح؟ ويكون كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] سبحانك ربي هذا بهتان عظيم! وهل يستوي كفر العشير بالكفر بالله؟ أو كفر تارك الصلاة تكاسلًا كمن تركها جحودًا؟.

وهل يكون من حلف بغير الله -وهو من الكفر- كمن سجد لغير الله من صنم ونحوه؟ وهل من صدر منه خلة من خلال الكفر يستحق بها اسم كافر على الإطلاق؟ وهل يستوي في ذلك من فعله مرة واحدة أو مرات معدودة لمن كان هذا دأبه وشأنه وديدنه؟ فمن ارتكب محرمًا يقال: فعل فسوقًا لا أنه فسق لذلك المحرم، ولا يلزمه اسم الفاسق إلا بغلبة ذلك عليه، وهكذا اسم الزاني والسارق والمنتهب وشارب الخمر لا يسمى مؤمنًا وإن كان معه إيمان، كما أنه لا يسمى كافرًا، وإن كان ما أتى به من خصال الكفر؛ إذ المعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

ومن هنا كان ولا بد من معرفة لمدلول الكلمات كالكلمة الكفر ومفهومها ومدلولاتها وأقسامها حتى الإيمان ومعرفة مدلوله، ومن أجل أن نفهم مدلول كلمة ما وردت في القرآن والسنة لا بد من معرفة لمدلولها العربي أولًا ثم نتتبع استعمال الشارع لها في أوضاعها المختلفة، ولا يجوز بتاتًا أن نجعل عرف الناس في زمن ما أو مكان ما غير زمن التشريع حكمًا على اللفظ، فإن كان الإيمان لغة

التصديق فلا يجوز الوقوف على هذا المعنى اللغوي وأشباهه دون النظر إلى المعنى الشرعي، كما لا يجوز الفهم الإيمان بمعنى النطق فقط، أو الاعتقاد فقط أو المعرفة بالقلب بحسب ونحو ذلك.

وإنما نقول: الإيمان هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، يزداد بالطاعات، وينقص بالعصيان، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ونرى أن العمل من مسمى الإيمان، ولا نراه شرط صحة، كما قالته الخوارج، بل يمكن أن يقال عنه شرط كمال، ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقصان، مخالفين بذلك من جعل الأعمال شرطًا في صحة الإيمان كالخوارج والمعتزلة، ومن نحا نحوهم، وهذا كله بالنظر إلى ما عند الله تعالى، أما بالنظر إلى ما عندنا، فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر إلا إذا اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق، فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى أنه فعل كفر، فمن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته.

هذا، ومن قال: إن الإيمان قول وعمل، أراد بالقول النطق بالشهادتين، أما العمل المراد به أعم من عمل القلب والجوارح، ليدخل الاعتقادات والعبادات، ومراد من أدخل ذلك في تعريف الإيمان، ومن نفاه، إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى، فكيف يذهب الإيمان جملة بإضاعة الأعمال، كما زعمت الخوارج والمعتزلة والتكفير؟ ولذلك لا يجوز أن نسمي مؤمنًا إلا من سماه الله ﷻ مؤمنًا، ولا نسقط الإيمان بعد وجوبه إلا عمن أسقطه الله ﷻ عنه، ووجدنا بعض الأعمال التي سماها الله ﷻ إيمانًا، لم يسقط الله ﷻ اسم الإيمان عن تاركه، فلم

يجز لنا أن نسقطه عنه لذلك، لكن نقول: إنه ضيع بعض الإيمان، ولم يضع كله، ومع ذلك فإنا نقول قول أهل السنة: الإيمان عقد وقول وعمل.

هذا والزعم بأن الحد الأدنى للإسلام هو كل فرائض الإسلام، كما زعمت الخوارج قديمًا وحديثًا زعمًا مردود وأمر مرفوض يتنافى مع الفيض الزاخر من فيض النبي ﷺ ومع الوقائع التي جرت في حياته ﷺ وصحابته -رضوان الله عليهم- وهي من الوضوح والجلاء بمكان، فقد ثبت عقد الإسلام للناس في الدنيا بنطق الشهادتين على أساس الدخول في الإسلام والإقرار بما فيه، ولا يشترط الفهم الدقيق لمعنى الشهادة ما دام قد رضي بالإسلام دينًا، وقد أبدى استعداده للالتزام بما فيه إجمالًا، ولا يوجد ما يدل على وجوب تنازل العمل مع الشهادتين حتى يحكم للفرد بالإسلام، بل إنه بمجرد نطقه بالشهادتين إقرارًا بالإسلام يدخل فيه، وتجري عليه أحكام الإسلام، ولا يجوز لنا أن نخرجه من الإسلام إلا بجحود ما أدخله فيه، وبشروط معينة أو يأتي بناقض من نواقضه، وهذه متعلقة بالأحكام الدنيوية.

ونقرر أن الإنسان يدخل الإسلام بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فمن أقر بهما بلسانه، فقد دخل في الإسلام وأجريت عليه أحكام المسلمين، وإن كان كافرًا بقلبه لأننا أمرنا أن نحكم بالظاهر، وأن نكل إلى الله السرائر، ودليلنا في ذلك عن أبي هريرة > عن رسول الله ﷺ قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)) واتفق أهل السنة من المتحدثين والفقهاء والمتكلمين على أن المؤمن الذي يحكم

بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد في النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا من الشكوك، فنطق بالشهادتين، فهذا الحد الذي به ينفصل العبد عن الكفر، ويتصل بالإيمان نطق بالشهادتين، وإيمان بمجمل رسالة النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- مؤكدًا ما ذكرناه: وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ وما اتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وبذلك يصير الكافر مسلمًا والعدو وليًّا، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه، فقد دخل الإيمان، وإن كان بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان.

(الرد على معتقدات الخوارج الباطلة (٢))

عناصر الدرس

ثبوت عقد الإسلام للناس في الدنيا بنطق الشهادتين

إن الثابت على وجه القطع واليقين، بأنه يثبت عقد الإسلام للناس في الدنيا بنطق الشهادتين، على أساس الدخول في الإسلام والإقرار به، ولا يشترط الفهم الدقيق لمعنى الشهادة ما دام قد رضي بالإسلام دينًا، وقد أبدى استعداده للالتزام بما فيه إجمالًا، ولا يوجد ما يدل على وجوب تلازم العمل مع الشهادتين، حتى يُحكم للفرد بالإسلام، بل إنه بمجرد نطقه بالشهادتين إقرارًا بالإسلام يدخل فيه، وتجري عليه أحكام الإسلام، ولا يجوز لنا أن نخرجه من الإسلام إلا بجحود ما أدخله فيه، وبشروط معينة، أو أن يأتي بناقض من نواقض الإسلام، وهذه متعلقة بالأحكام الدنيوية.

ونقرر أن الإنسان يدخل الإسلام بالشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ فمن أقر بهما بلسانه فقد دخل في الإسلام، وأجريت عليه أحكام المسلمين، وإن كان كافرًا بقلبه؛ لأننا أمرنا أن نحكم بالظاهر، وأن نكل إلى الله السرائر، وهذه القاعدة تواترت عليها الأمة وكثرت فيها الأدلة.

الدليل الأول: حديث النبي ﷺ عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)).

فقد اتفق أهل السنة من المتحدِّثين والفقهاء والمتكلمين، على أن المؤمن الذي يُحكم بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد في النار، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين

الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا من الشكوك، ونطق بالشهادتين، فهذا هو الحد الذي ينفصل به العبد عن الكفر، ويتصل بالإيمان، إنه النطق بالشهادتين والإيمان بمجمل رسالة النبي ﷺ.

الدليل الثاني: حديث المقداد بن عمرو الكندي أنه قال: "يا رسول الله، إن لقيت كافرًا فاقتتلنا، فضرب يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ بشجرة، وقال: أسلمت لله أأقتله بعد أن قالها؟ قال ذلك بعدما قطعها أأقتله؟ قال: ((لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال))" فهذا رجل قد أثبت له النبي ﷺ حكم الإسلام لمجرد أن قال: أسلمت لله، مع أن قولته هذه جاءت بعد واقعة، كل وقائعها تكاد تصرح بأنه قالها تقية وهربًا من القتل.

الدليل الثالث: حديث أسامة بن زيد بن حارثة قال: "بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحَرْقة من جهينة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم، وفي رواية أخرى: كان قد أثخن في المسلمين، أي: قتل منهم كثيرًا. قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله. قال: فكف عنه الأنصاري فطعنته برمحي فقتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ((يا أسامة، أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله)) قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذًا قال: ((أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله)) فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم". وفي رواية: ((هلا شققت عن قلبه)) وفي رواية ثالثة: ((كيف بك بلا إله إلا الله يوم القيامة)).

فهذا حكم النبي ﷺ لهذا الرجل بالإسلام لمجرد تلفظه بالشهادة، وإن كانت في ظاهر الأمر تقية، مع ذلك التعنيف الشديد لأسامة، حتى قال قولته: "تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم".

الدليل الرابع: عن أبي هريرة > قال: "قال رسول الله ﷺ لعمه: ((قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة)) قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينًا، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]".

فلو لم تكن لا إله إلا الله إسلامًا تدخل صاحبها الجنة، وتحرم عليه الخلود في النار، فلِمَ يطلبها النبي ﷺ من عمه ويلح في طلبها ويقول: ((أشهد لك بها يوم القيامة)).

الدليل الخامس: يقول ﷺ: ((إن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)).

الدليل السادس: قوله ﷺ: ((من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار)).

الدليل السابع: قوله ﷺ أيضًا: ((أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه)).

الدليل الثامن: حديث الجارية عن يسار بن معاوية بن الحكم، وقد جاء بأمة سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: ((أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت: نعم. قال: أتشهدين أني رسول الله؟ قالت: نعم. قال: أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟ قالت: نعم. قال: أعتقها)) وفي رواية: ((فإنها مؤمنة)) فهذا هو حكم رسول الله ﷺ في ظرفه وزمانه، كما لا يخفى أنه يثبت كذلك عقد الإسلام لكل من ولد لأبوين مسلمين، أو كانت ولايته للمسلمين منذ صغره قبل بلوغه الحلم، وكذلك للفترة السابقة، وبهذا يصير معصوم الدم والمال والعرض.

الدليل التاسع: صح أن غلامًا كان يخدم النبي ﷺ وكان يهوديًا فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: ((أسلم)) فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال: "أطع أبا القاسم ﷺ" فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه بي من النار)).

الدليل العاشر: عن مالك عن عبيد الله بن الخِيار أن رجلًا سارّ رسول الله ﷺ فلم نَدْرِ فيم ساره حتى جهر رسول الله ﷺ فإذا هو يستأذن في قتل رجل من المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: ((أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولا شهادة له. قال: أليس يصلي؟ قال: بلى ولا صلاة له، فقال النبي ﷺ: أولئك الذين نهاني الله عنهم)).

إلى غير ذلك من الأحاديث، وهذا ولا شك فيما يتعلق بالأحكام الدنيوية التي نحن نتحدث عنها، ونحن لا نقول بأن من نطق بالشهادتين يلزمنا الحكم بإسلامه، مهما قال أو عمل بعد النطق بهما، ولا نقول أيضًا: إن المسلم لا يرتد مهما قال أو عمل، فلا شك أن شريعة الله قد حددت أقوالًا وأعمالًا، إذا قالها المسلم أو عملها خرجت به عن الإسلام، وارتدت به إلى الكفر.

وهذه الأقوال والأعمال التي حددها الله ﷻ، ووضحها الرسول ﷺ ليس لنا أن نزيد فيها أو أن ننقص منها، ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن هذا يقلل من قيمة العمل أو يغض منه، فليس في وجوب الحكم بإسلام من نطق بالشهادتين، ما يتعارض مع كون المسلم مكلفًا بعد النطق بها بفرائض أخرى، وهي من الإيمان؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج والدعوة إلى الله تعالى والجهاد، إلى آخره، وبالطبع الحكم هذا شيء، ودعوة الناس إلى الأثر المترتب عليه، وفهم مدلول شهادة التوحيد، والعمل بشروطها شيء آخر، وهو مطلوب من كل مسلم، وعلى من يدعوهم أن يُذكِّر بذلك وأن يوضح معالمه.

فبهذا نحن نعتقد أن الإيمان تصديق بالجنان، وتلفظ باللسان، وعمل بالأركان، يزداد بالطاعات وينقص بالعصيان؛ فإذ نرى العمل داخلًا في مسمى الإيمان، لا نراه شرط صحة في الإيمان كما قالته الخوارج، وترتب عليه أنهم كفّروا الناس بتركهم العمل، وكذا كفروهم بارتكاب المعاصي، أو بالإصرار عليها، أو بارتكاب الكبيرة.

الـرد علـى الخـوارج في تكفـير مرتكب المعاصي

لقد زعم كثير من فرق الخوارج في القديم والحديث، أن المعاصي من جنس الشرك أو الكفر، ومن ارتكب معصية فقد خالف أصل الإيمان، ولا بد في التوبة منها من العودة إلى الإسلام، أو الدخول في الإيمان مرة أخرى؛ لأنه من عصى الله في أي شيء ولم يتب فهو كافر مرتد حلال الدم، لا سيما إذا ارتكب كبيرة من الكبائر، فذلك أمر كادت فرق الخوارج أن تجمع عليه.

والخوارج إذ يعتقدون هذا إنما أخذوه من عمومات القرآن، مع إغفال النصوص الأخرى، أو الأدلة المخصصة، والسلوك في فهمها مسلكًا ملتويًا منحرفًا، لقد زعموا أن نصوص الشريعة التي جاءت في هذا الصدد، وتناولت هذه القضية على نوعين:

الأول: يبين أن الذنوب كلها كفر وشرك، فمن عصى فقد كفر.

الثاني: يستثني التوبة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وبالجمع بينهما ينتج أن من عصى الله ولم يتب فهو كافر حلال الدم، كذا زعموا، فإذا سألت: ما الدليل على أن كل الذنوب والمعاصي كفر وشرك عندكم؟

قالوا: هناك الكثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠] وكذلك قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠] وقوله عز من قائل: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤] كذلك: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣] وقوله سبحانه: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١].

وقوله ﷺ: ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)).

وفي ردنا عليهم جملة نقول:

أولًا: لقد خُدعتم في فهم هذه النصوص على عمومها؛ لأنكم أخذتم جانبًا من النصوص وتركتم الجانب الآخر فيها، وذلك لأن الله تعالى قد قسم الذنوب إلى قسمين: شرك وما دون الشرك، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ومعلوم أن المغفرة لا تكون للطاعة بل للمعصية، ولا تكون للحسنة بل للسيئة، فكل ما ذكر من النصوص السابقة وهي من العمومات، لا بد أن يقيد بهذا النص العام، ولا بد أن يفهم أنها ليست على إطلاقها طبقًا للقاعدة الأصولية: حمل العام على الخاص.

فكل هذه النصوص في النهاية كنص واحد يتقيد بنص هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، ومن العجب أنك تجد هذه التفرقة عند أصحاب هذا الفكر الغريب، إنها تفرقة تحكمية بين النصوص، فتزعم أن

النصوص الواردة في الشريعة في جانب الوعد إنما هي للبشارة فقط، وليست للحكم لأحد بعينه بالإسلام، وأن النصوص الواردة في جانب الوعيد إنما هي للحكم مع الترهيب، هذه التفرقة لا تخرج عن كونها تحكمًا وتقديمًا بين يدي الله ورسوله، وقولًا في الإسلام بالرأي وعلى الله بغير علم.

ثانيًا: إن هذه النصوص التي أوردوها في الوعيد معارضة بمثلها في الوعد، فلنتأمل معًا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢] وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١] وقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفتح: ١٧].

فإذا قابلنا أي نص من النصوص العامة الواردة في الوعيد، بنص من نصوص الوعد، انكشف لنا في المسألة أمر مهم حري بالبحث والتأمل، إذ لا بد من التوفيق بين العمومات؛ لأن الأخذ بظاهرها موقع في التناقض لا محالة، وبيان ذلك أن التطبيق المباشر لعموم آيات الوعد، تعني أن أي طاعة واحدة تكفي لدخول الجنة حتمًا، ولو اجتمعت معها سائر المعاصي، كما أن التطبيق المباشر لعمومات الوعيد، يعني أن أية معصية واحدة تفضي إلى الخلود في النار حتمًا، ولو اجتمع معها سائر الطاعات من فرائض وقربات، على النحو الذي فهمته الخوارج قديمًا وحديثًا.

فإطلاق الجانبين بهذه الصورة يستحيل شرعًا وعقلًا؛ إذ يرد عليه بأن من جمع بين المعصية والطاعة يكون كافرًا مسلمًا، مخلدًا في النار مخلدًا في الجنة في الوقت نفسه؛ لأنه بمقتضى معصية واحدة تطبق عليه نصوص الوعيد التي تقرر الخلود في النار، كما زعمت الخوارج، وبمقتضى طاعة واحدة تطبق عليه نصوص الوعد التي تقرر الخلود في الجنة، كما زعمت المرجئة، وفي ذلك جمع بين المتناقضين وهو عين المستحيل.

فإذا استبعدنا هذه الطريقة في الفهم لاستحالتها، وجدنا أمامنا طريقين وكلاهما باطل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن القول بأحدهما ترجيح بلا مرجح إما إطلاق عموم الوعد، كما فعلت طائفة المرجئة، والقول بأن طاعة واحدة تكفي لدخول الجنة، وهذه الطاعة عندهم هي التصديق، ولا بد في جانب الوعيد من اجتماع المعاصي كلها للخلود في النار، ومن ثم شاع عنهم القول: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وإما إطلاق عموم الوعيد كما فعلت الخوارج، والقول بأن أي معصية واحدة تكفي للخلود في النار، ولا بد في جانب الوعد من اجتماع الطاعات كلها للخلود في الجنة.

وكلا الطريقين في الفهم من الوجهة العقلية يسوغ، كما لا يوجد في جانبي هذه العمومات ما يحول دونه، ويكون الأخذ بأيهما ترجيحًا بلا مرجح، فليس هذا الطريق بأولى في الفهم من ذلك، وبهذا ندرك مغزى قول السلف الصالح: إن قول كل فريق من المتطرفة -المرجئة والخوارج- يكذب الآخر، فنستدل بكلام كل منهما لإبطال كلام الآخر؛ ليبقى الحق من هؤلاء وهؤلاء براء.

وهدى الله السلف الصالح أهل السنة والجماعة إلى العقيدة الرشيدة القويمة، التي لا تعرف الإفراط ولا التفريط: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]

وبهذا يتبين لنا أنه ليس للخوارج ولا لأذنابهم من دعاة التكفير اليوم من أدلة على دعواهم، إلا هذه العمومات التي ثبت بطلان الاستشهاد بها، على النحو الذي انحرفوا فيه عن الصراط المستقيم.

ثالثًا: في الرد عليهم مما يبطل إطلاق هذه النصوص والأخذ بعمومها، أنه قد ثبت بالاستقراء أن نصوص الشريعة أطلقت كلًا من المعصية والذنب والخطيئة والسيئة والإثم على الشرك، وعلى ما دون الشرك، فلا يمكن أن نأخذ هذه النصوص على إطلاقها؛ لأن هذا الإطلاق يدخل فيه ما دون الشرك، وهو لا يخرج من الإسلام قطعًا.

ولنذكر الأمثلة بالنسبة للمعصية أطلقت على الشرك في مثل قوله تعالى: ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة: ١٠]، وفي مثل قوله تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣]، وقوله ﷺ: ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)).

كما أطلقت على ما دون الشرك في قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] فإن المعصية هنا ليست من قبيل الشرك لاستحالته على الأنبياء قطعًا، وقوله ﷺ: ((عدلت شهادة الزور الإشراك بالله)) وهذا الحديث دلالته بينة في بيان الشرك وما دونه، فهو بصدد النكير الشديد على شهادة الزور، والتهويل من شأن هذه الجريمة، التي بلغت لعظمها وبشاعتها مستوى الإشراك بالله، الذي هو أعظم الذنوب كلها.

وبالنسبة للذنب -كلمة الذنب- وهو مرادف للمعصية، ورد بمعنى الشرك في قوله تعالى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٤] وقوله سبحانه: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١].

ووردت بمعنى الشرك وما دونه في قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ٣، ٤] وقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غافر: ٢١] وقوله ﷻ: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ووردت بمعنى ما دون الشرك قطعًا بل في الصغائر ونحوها، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله سبحانه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥]، وقوله تعالى على لسان موسى #: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: ١٤].

وقال ﷺ: ((ما من مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها وسجودها، إلا كان كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله)).

فتبين مما تقدم أنه يستحيل إطلاق كلمة الذنب بمعنى الشرك؛ لأنه قد دخل فيه ما دون الشرك قطعًا، وبهذا يستقيم القول بأنه ليس كل ذنب شركًا.

وكذلك بالنسبة لكلمة الخطيئة، فقد وردت في القرآن الكريم بمعنى الشرك، وذلك في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨١ ﴾ [البقرة: ٨١]، وأطلقت على الشرك وما

دونه في قوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴾ [نوح: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣].

وتكون بمعنى ما دون الشرك وذلك في مثل قوله تعالى على لسان إبراهيم # : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢] ولا يمكن أن تكون شركًا لاستحالته على الأنبياء.

وقوله تعالى في الحديث القدسي: ((لو أتيتني بملء الأرض خطايا ولم تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة)) وقوله ﷺ: ((أريتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقي من درنه شيء؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)). فالخطايا هنا الصغائر؛ بدليل قوله ﷺ: ((الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر)) ولا شك أن الصغائر هي ما دون الشرك. وقوله ﷺ: ((ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلك الرباط فذلكم الرباط)).

ومما تقدم يتبين لك استحالة إطلاق لفظ الخطيئة، للقول بأن كل خطيئة شرك؛ لأن هذا إطلاق يدخل فيه ما دون الشرك، ويظل الشرك نوعًا معينًا من الخطايا، فليست كل خطيئة شركًا، ولكن كل شرك خطيئة.

وما قيل عن كلمة الذنب والخطيئة والمعصية، كذلك يقال في كلمة السيئة التي أطلقت على الشرك في مثل قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١] وأطلقت على

ما دون الشرك في مثل قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١]، واتسعت لتشمل الاثنين معًا: الشرك وما دون الشرك، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ٧٨] كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٤٥] وقال عز من قائل: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ومن العرض السابق يتبين لك أن كلمة السيئة ككلمة المعصية والخطيئة والذنب، لها إطلاقاتها في نصوص الشريعة، فيراد بها الشرك وما دون الشرك، فيتبين لنا أن أخذ الأمر على عمومه، بأن كل سيئة كفر أو شرك لا يجوز؛ لما تبين أن إطلاق السيئة يدخل فيها الصغائر وهي لا تكفِّر بالإجماع، ومن ثم يبطل القول بأن كل سيئة شرك، ويبقى الشرك سيئة أو سيئات بعينها تحتاج إلى تحديد.

ومثل هذا كلمة الإثم المرادفة لما سبق، وهي أيضًا ترد في القرآن الكريم بمعنى الشرك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠] ووردت بمعنى ما دون الشرك في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ ﴾ [النجم: ٣٢]، وبمعنى الشرك وما دونه معًا في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فارتكاب الإثم محرم، إذًا فكل إثم معصية؛ لأن المعاصي هي المحرمات، ولكن الله ﷻ يبين أنه ليس كل إثم شركًا فيقول: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

ومما تقدم يتبين استحالة إطلاق النصوص السابقة ؛ لأن الإطلاق يدخل فيه ما دون الشرك، وترتيب الخلود في النار على ما دون الشرك أمر بين البطلان، لا يستقيم مع قول الله ﷻ: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

فلا بد من تقييم مثل هذه النصوص وتقييدها ؛ ليكون المقصود بها هو الشرك وحده، ويستقيم الحكم بأنه ليست كل معصية شركًا، ولكن الشرك معصية، ويتبين أيضًا من كل ما تقدم أن كلًا من السيئة والذنب والخطيئة والمعصية والإثم، له إطلاق على العموم ليشمل الشرك وما دون الشرك معًا، وإطلاق على ما دون الشرك فقط، ولما كان يطلق على دون الشرك، فلا مساس له بقضية الخلود في النار.

فوجب عقلًا وشرعًا إذا أطلقت أي واحدة منها رتب عليها الخلود في النار، لم تكن على إطلاقها، وإنما تنصرف إلى ما هو شرك، فإذا أطلقت مفردة كان المقصود بها هو الشرك فحسب، مثل قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١] وقوله تعالى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٤].

وأما إذا أطلقت بصيغة الجمع كان المقصود منها اجتماع الشرك مع غيره، مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غافر: ٢١] وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥].

فقد وضح الآن الوجه الآخر من القضية، وتبين وجوب فهمها جميعًا في ضوء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

هذا ونزيد الأمر توضيحًا فيما أوردوه من باقي النصوص العامة، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] فنقول: بأنه ليست كل معصية تعني عبادة للهوى أو الشيطان؛ لأن طاعة الهوى والشيطان كما تصدق على الشرك، تصدق على ما دون الشرك، وبطل إطلاق القول بأن كل طاعة للهوى أو الشيطان هي شرك، وبالتالي انهدم القول بأن كل معصية شرك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]. قالوا: إن كان مطلق التولي عن طاعة الله ورسوله كفرًا، فإن أي معصية كفر.

نقول: إن الله ﷻ يأمرنا باجتناب الشرك، ويأمرنا باجتناب ما دون الشرك، وقد وجبت علينا طاعته في ذلك كله، ولكن المولى عظمت رحمته يبين لنا أن من يتولى عن الأُولى: اجتناب الشرك، فمصيره الكفر والخلود في النار، أما من يتولى عن الثانية وهي اجتناب ما دون الشرك، فأمره موكول إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له للآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فإذا جاءنا بعد ذلك نص عام يبين لنا أن مطلق التولي كفر، حمل على أن الكفر تولٍ عن التوحيد فقط، أما المعاصي فيما دون الشرك فهي إلى الله ﷻ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] هذه الآية أيضًا لا تدل على أن مطلق طاعة الكافرين شرك؛ وذلك لأن الكافرين يعملون أعمالًا مختلفة منها ما هو شرك ومنها ما هو

دون الشرك، ومنها أعمال عادية ومنها طاعات وأخلاق رفيعة، ولا شك أنه ليست مطلق طاعة الكافرين، في أي عمل من هذه الأعمال، يعد شركًا، وإنما الشرك هو طاعتهم فيما يفعلون ويأمرون به من أفعال الشرك، وبهذا يبطل إطلاق الآية على القول بأن أية طاعة للكافرين في أي عمل من الأعمال تعد شركًا؛ لأن هذا الإطلاق يدخل فيه ما دون الشرك، كما تدخل فيه الأعمال العادية والقربات، فيصير معنى الآية والله أعلم بمراده: وإن أطعتموهم في شركهم إنكم لمشركون.

وهذا النص أو غيره لا يقتطع من نصوص الشريعة ليفهم وحده، بل لا بد من فهمه في ضوء سائر النصوص الشرعية، التي تناولت قضية الشرك، مع أن الآية تتكلم عن قضية بعينها، وهي أن المشركين أخذوا يجادلون المسلمين في قضية الذبح فقالوا لهم: كيف تأكلون ما ذبحتم بأيديكم، ولا تأكلون ما ذبحه الله ﷻ بيده؟ يريدون الميتة فأنزل الله تلك الآية.

ومما يرد على الخوارج قديمًا وحديثًا في هذه القضية، ما جاء في سنة النبي ﷺ القائل: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)) فكيف يكون أصحاب الكبائر مخلدين في النار أو يكونون كفارًا، والنبي ﷺ يقول: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)). وعن أبي ذر > قال: ((أتيت النبي ﷺ وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فجلست إليه فقال: ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي

ذر)). فخرج أبو ذر يقولها، أي قال ذلك في الرابعة، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر، فخرج أبو ذر يقولها.

كما قال ﷺ في أمر الحدود: ((فمن أصاب شيئًا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له)) ففرق ﷺ بين المرتدين وأصحاب الحدود.

لم تشرع الحدود على شاكلة واحدة؛ لتكون من باب الردة في أن كل من ارتكب حدًّا يكون كافرًا مرتدًا، فيستوون في الحد، ولكن حد الزنا فيه الجلد أو الرجم، وحد السرقة فيه القطع، وحد الخمر فيه الجلد، وهكذا؛ أما الردة فمن بدل دينه فاقتلوه، فلو كانت كل الذنوب أو الكبائر متساوية لكانت النتيجة واحدة، أن الذنوب من باب الردة، فلا يكون هناك إلا القتل، لكن الإسلام فرق في العقوبات بين واحدة وأخرى، فهذا ردنا على جزئية التكفير بالكبيرة أو بالمعصية، والإصرار عليها.

الرد على الخوارج فيما زعمته من تكفير الصحابة }

إن من أشنع ما اقترفه الخوارج قديمًا نظرتهم إلى الصحابة نظرة الاتهام، بل زعمت تكفير اثنين من الخلفاء الراشدين: عثمان وعلي } وكذا تكفيرهم لمعاوية والحكمين } ومن رضي بالتحكيم، ثم عمموا الحكم على سائر الصحابة } لكنهم قالوا بموالاة أبي بكر وعمر } وهم في هذا على خلاف الروافض.

هذا، وما رضيت اليهود ولا النصارى في أصحاب موسى وعيسى، ما رضيت الخوارج والروافض في أصحاب محمد ﷺ حين حكموا عليهم بأنهم قد اتفقوا على الكفر والباطل، فما يُرجى من هؤلاء وما يُستبقى منهم، كيف وقد قال الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وبعد ذلك الرضا من الله ﷻ والرضوان، نجد الخوارج ومن على شاكلتهم يلعنون أصحاب رسول الله ﷺ ويكفرونهم كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

وإذا لم ينفذ هذا الوعد في الخلفاء فلمن ينفذ؟! وإذا لم يكن فيهم ففيمن يكون؟! والدليل عليه انعقاد الإجماع أنه لم يتقدمهم في الفضيلة أحد إلى يومنا هذا، وما بعدهم مختلف فيه، وأولئك مقطوع بهم متيقن إمامتهم، ثابت النفوذ وعد الله لهم، فإنهم ذبوا عن حوزة المسلمين، وقاموا بسياسة الدين، ومن بعدهم تبع لهم من الأئمة، الذين هم أركان الملة ودعائم الشريعة، الناصحون لعباد الله، الهادون من استرشد إلى الله، فكيف يحق للخوارج وغيرهم تكفيرهم، وزعمهم بأنهم كانوا أحرص الناس على الدنيا، والنبي ﷺ يقول: ((لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)).

وكيف يعد النبي ﷺ من أصحابه العشرة المبشرين بالجنة، وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة، ويحق للخوارج أو الروافض التبري منهم ولعنهم وتكفيرهم أيضًا.

هذا، وقد ذكر النبي ﷺ لعثمان مناقب وشهد له بالجنة على بلوى تصيبه، وزوجه بابنتيه وسمي بذي النورين > ، وكذا علي > الذي زوجه النبي ﷺ ابنته الأثيرة إلى نفسه فاطمة الزهراء < وبعد هذا نجد المبغضين لأصحاب رسول الله ﷺ يرفضون ذلك وينكرونه، وكأنهم يكذبون رسول الله ﷺ في شهادته.

هذا ونُذكر بالأثر الوارد عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله إذ قال: "إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد ﷺ".

ونحن المسلمين أهل السنة والجماعة، لا نعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ وكل من ادعى العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ فهو كاذب، فالإنسان إنسان يصدر عنه ما يصدر عن الإنسان، فيكون منه الحق والخير، ويكون منه الباطل والشر، وقد يكون الحق والخير في إنسان بنطاق واسع، فيعد من أهل الحق والخير، ولا يمنع هذا من أن تكون له هفوات، وقد يكون الباطل والشر في إنسان آخر بنطاق واسع، فيعد من أهل الباطل والشر، ولا يمنع هذا من أن تبدر منه بوادر صالحات في بعض الأوقات.

ويجب على من يتحدث عن أهل الحق والخير، إذا علم لهم هفوات ألا يسيء ما غلب عليهم من الحق والخير، فلا يكْفر ذلك كله من أجل تلك الهفوات، ويجب على من يتحدث عن أهل الباطل والشر، إذا علم لهم بوادر صالحات ألا يوهم الناس أنهم من الصالحين، من أجل تلك الشوارد الشاذة من أعمالهم الصالحات.

إن أحداث المائة الأولى من عصور الإسلام، كانت من معجزات التاريخ، والعمل الذي عمله أهل المائة الأولى من ماضينا السعيد، لم تعمل مثله أمة

الرومان ولا أمة اليونان قبلها، ولا أمة من أمم الأرض بعدها، ثم أبو بكر وعمر وسائر الخلفاء الأربعة الراشدين، وإخوانهم من العشرة المبشرين بالجنة } ، وطبقاتهم من أصحاب رسول الله ﷺ خصوصًا الذين لازموه وراقبوه، وتمتعوا بجميل صحبته، من أنفق منهم من قبل الفتح وقاتل، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، فإنهم جميعًا كانوا شموسًا طلعت في سماء الإنسانية مرة، ولا تطمع الإنسانية بأن يطلع في سمائها شموس من طرازهم مرة أخرى، إلا إذا عزم المسلمون على أن يرجعوا إلى فطرة الإسلام، ويتأدبوا بأدبه من جديد، فيخلق الله منهم خلقًا آخر، يعيش للحق والخير، ويجاهد الباطل والشر، حتى تعرف الإنسانية طريقها الحقيقي إلى السعادة.

هذه الشموس من أصحاب رسول الله ﷺ تتفاوت أقدارها وتتباين في أنواع فضائلها، إلا أنها كلها كانت من الفضائل في مرتقى درجاتها.

هذا، ومن وقف على صحيح التاريخ، وعرف تاريخ هؤلاء الأفاضل من المسلمين، وميز بين الأصيل والدخيل من سيرة هؤلاء العظماء، فإنه ستأخذه الدهشة لما اخترعه إخوان أبي لؤلؤة، وتلاميذ عبد الله بن سبأ، والمجوس الذين عجزوا عن مقاومة الإسلام وجهًا لوجه في قتال شريف، فادعوا الإسلام كذبًا، وأدخلوا على الإسلام ما ليس منه، ودخلوا قلعته مع جنوده خلسة، وقاتلوهم وفرقوا كلمتهم، وألصقوا بسيرة رجاله ما لم يكن فيها، ولا من سجية أهلها، وبهذا تحولت أعظم رسالات الله وأكملها إلى طريقة من الخمول، والجمود والفرقة والاقتتال، والاتهام والتكفير.

ونحن إذ نذكر هذه الحقائق إنما نريد أن نذكر عكس ما أراده المغرضون، من ترديد خلافات عفا عليها الزمن، فالصحابة كانوا أسمى أخلاقًا وأصدق إخلاصًا لله، وترفعًا عن خسائس الدنيا، من أن يختلفوا عليها، فأصحاب رسول الله ﷺ هم قدوتنا في ديننا، وهم حملة الكتاب الإلهي والسنة المحمدية، التي وصلت إلينا.

فإن من حق هذه الأمانات على أمثالنا؛ أن ندرأ عن سيرة حفظتها الأولين كل ما ألصق بهم من إفك ظلمًا وعدوانًا؛ لتكون صورتهم التي تعرض على أنظار الناس هي الصورة النقية الصادقة، التي كانوا عليها، فنقتدي بهم كما أمر الله ﷻ، ورسوله ﷺ وفي كتاب الله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩]. قال ابن عباس والثوري والسدي: "هم أصحاب محمد ﷺ". وقد قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

قال ﷺ: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)). وقال ﷺ: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) وقال ﷺ في أهل بدر: ((لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)) فهل بعد هذا وإن كان هذا قليل من كثير، وغيض من فيض، هل يجوز بعد هذا سب الصحابة } فضلًا عن تكفيرهم من الخوارج أو غيرهم، هكذا ينبغي أن تتضح معالم القضية، والله أعلم.

(الرد على معتقدات الخوارج الباطلة (٣))

عناصر الدرس

قــــــــــــضية الحاكميــــــــــــة

إن قضية الحاكمية من القضايا التي لها جذورها في تاريخ الفكر الإسلامي، منذ عهد الخوارج، ولعلها أول قضية فكرية شغلت المسلمين، وكان لها آثارها العسكرية والسياسية لعدة أجيال، حيث أطلت علينا هذه البدعة برأسها لأول مرة، حيث تولى كبرها صبية أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، انشقوا على الإمام علي > حين طلب أصحاب معاوية تحكيم كتاب الله، وفي أول الأمر كما علمت طلبوا منه الخضوع لهذا الأمر، فلما انعقد التحكيم تمردوا عليه مرة أخرى، وقالوا: كيف نُحكم الرجال في كتاب الله، لا حكم إلا لله، فرد الإمام علي > عليهم بقوله: "كلمة حق أريد بها باطل".

وهو العالم بكتاب الله، الذي يعرف جيدًا أنه لم يحد عنه بقبوله التحكيم، وإنما تحكيمه الرجال كان من كتاب الله ﷻ، فإن الله حكّم في أرنب يباع بربع درهم قوله تعالى في صيد الحرم: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٥] وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] فصير الله ذلك إلى حكم الرجال، فهل حكم الرجال في دماء المسلمين وإصلاح ذات بينهم أفضل، أو في حكم أرنب ثمنه ربع درهم، وفي بضع امرأة.

وعلي > لم يُحكم قط رجلًا في دين الله وحاشاه من ذلك، وإنما هو قد حكم كلام الله ﷻ، بعد أن اتفق الفريقان على الدعوة إلى حكم القرآن الكريم، وقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩] كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ

لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء: ٨٣].

ولما كان من المستحيل أن يتناظر الفريقان بكامل أفرادهما، فقد تم اختيار كل منهم عن الفريق الذي يمثله، مدليًا بحجج المعسكر الذي ينوب عنه، أبو موسى الأشعري عن أهل العراق، وعمرو بن العاص عن أهل الشام، فلم يخطئ علي > إذًا في قبول التحكيم للرجوع إلى ما أوجبه القرآن، فجماعة الخوارج أول من ابتدع التكفير لمن خالفهم في الرأي، بزعم لا حكم إلا لله، أو أن من صرف الحكم لغير الله فقد كفر.

كما أن هذه القضية شغلت حيزًا كبيرًا في واقع الناس باسم الحاكمية، وهو تعبير عن معاني وأحكام تضمنتها آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ثم أسندت اللفظة إلى الله ﷻ باسم حاكمية الله، ثم تفرعت عنها أحكام، ومضمون هذه القضية من وجهة نظر الخوارج قديمًا وحديثًا: أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر وجاهلية، كفر يناقض الإسلام وجاهلية تضاد الإسلام.

ولقد أجمع أصحاب هذا الفكر على رأي واحد، وهو أن حكام المسلمين قد كفروا بتركهم الحكم بما أنزل الله، وتنحيتهم الشريعة عن التطبيق، فاستحقوا أن يتصفوا بالصفات الثلاث الواردة في سورة المائدة: الكافرون الظالمون الفاسقون، وأن المحكومين الذين لم يعملوا على تغيير هذا الحكم، وذلك بالانضمام إلى أصحاب الفكر الصحيح للإسلام -يريدون أنفسهم الخوارج وأذنابهم- فإنه يعد كافرًا لطاعته لهذا الحكم أن الله تعالى يقول: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وكذلك من لم يعلن عن كفر الحاكم فهو كافر؛ لأنه من لم يكفر الكافر فهو كافر، كذا زعموا الخوارج قديمًا والتكفير حديثًا والإباضية ومن نحا نحوهم.

فنقول في الرد على ما ذهبوا إليه: إن الحكم إلا لله، عقيدة السلف الصالح وأهل السنة والجماعة، ويقيننا الذي لا شك فيه أن الحكم لله وحده، وأنه ﷻ وحده صاحب الأمر والنهي دون سواه، وهو جل وعلا دون غيره الذي جعل الحلال حلالًا والحرام حرامًا، فهذا يقين جازم لا شك فيه، ونؤمن إيمانًا كاملًا بأن شريعة الله هي الحق، وأن ما دونها باطل وظلم، فماذا بعد الحق إلا الضلال، ولا شك أن شريعة الله هي التي تلزم دون غيرها، وهي تلزم مقتضى أمره تعالى سواء ارتضاها حاكم أم لم يرتضها.

ونحن نؤمن إيمانًا كاملًا بأن شريعة الله هي الواجبة النفاذ، وأن واجب كل فرد مسلم العمل بمقتضاها وإنفاذها فعلًا، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، سواء أنفذها الحاكم أم عمل على تعطيلها. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] ومقتضى الإيمان بالله تعالى ومقتضى توحيده تعالى، ومقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، الاعتقاد الجازم بأنه تعالى دون غيره صاحب الأمر المطلق، الذي لا يحده حد يأمر بما شاء، ويقضي بما شاء ويحكم بما شاء وقت ما يشاء، لا لعلة تلزمه أن يقضي أو يأمر أو يحكم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ولا يسأل لم قضى أو لم أمر أو لم حكم، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

هذا ومن اعتقد أن كائنًا من كان في إمكانه أو من حقه بغير إذن من الله، أن يحل ما حرم الله أو يحرم ما أحل الله، فقد جعل ذلك الكائن شريكًا لله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وحاكمية الله وشريعته التي نعتقد، لا مجال لمقارنتها بأي نظام سياسي وضعي، مما عرفته البشرية.

فالأسس التي تقوم عليها الخلافة؛ هي أن المشرع هو الله ﷻ، والرسول ﷺ مبلغ عن ربه، وأن حق التشريع غير ممنوح لأحد، لا للخليفة ولا أهل مشورته ولا لحزب ولا لمجموع الأمة، أو من يمثلها كمجلس الشعب أو البرلمان، بل هو خالص حق الله تعالى، أما الاجتهاد لمعرفة حكم الله فيما يعرض من وقائع، وفيما يجد من نوازل وقضايا، فهذا ليس تشريعًا، بل هو البحث عن حكم الله في هذه الواقعة بالطريق الذي شرعه الله لذلك ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وهذا موكول بأهله من العلماء، وهم بذلك لا يشرعون للأمة، بل يستنبطون للأمة حكم الله في هذه الوقائع، ويجتهدون في ذلك، ملتزمين في اجتهادهم بالشرع وقواعده وحدوده وضوابطه وقيوده، لا يحيدون عن ذلك قيد أنملة.

ومقتضى الحكم ألا نقدم بين يدي الله ورسوله، لا بقول ولا بفعل ولا بأمر ولا بنهي ولا تشريع، ولا نرفع صوتنا فوق صوت النبي ﷺ في شيء من ذلك أبدًا، ونرد الأمر كله لله ولرسوله ﷺ ونرد أي نزاع لله ورسوله ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الخليفة أو الحاكم أو الإمام ما هو إلا منفذ لأمر الله ورسوله، فمهمته حفظ الدين ونشره، وسياسة الدنيا بالدين، والإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين.

والشورى من سمات حكمه والعدل كذلك، مع العلم أيضًا، وسلامة الأعضاء والحواس وقوة الرأي، مع الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية الأمة، وجهاد العدو، وطاعة الحاكم واجبة وهي من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فيجب طاعته في كل أوامره، ما لم يأمر بمعصية، فإن أمر بمعصية وجبت مخالفته وحرمت طاعته في هذا الأمر.

فإذا ظلم الخليفة أو فسق لم يجب الخروج عليه لخلعه، لكن إذا تتابع منه ذلك فيجوز إن كانت مفسدة خلعه أقل من المفسدة المترتبة على الإبقاء عليه، مع ما هو عليه من ظلم أو فسق، أما إذا طرأ على الخليفة والعياذ بالله كفر، بعد انعقاد بيعته فيجب عزله وخلعه بنصب إمام مسلم عادل، وإن أدى الأمر إلى نصب القتال لخلعه، أي: وذلك بعد إقامة الحجة عليه.

هذا وبالنسبة لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] والتي بعدها الظالمون والفاسقون، فقد صح عن ابن عباس } وعطاء وابن طاوس وبعض السلف وأنهم قالوا: أنه كفر دون كفر، أو كفر لا ينقل عن الملة، أو أنه ليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ونحو هذا، فإن هذا يتنزل على ما كان معروفًا أو سائدًا في حينه عند الصحابة } من أن مخالفة الشرع فيما لو حدثت، تكون في واقعة أو مسألة واحدة أو عدة مسائل، ويفعل ذلك وهو معتقد أنه فعل معصية، كترك واجب أو فعل محرم، ولا تتجاوز هذا الحد، وما كان يدور بخلد صحابي أن حاكمًا يمكن أن يخالف الشرع جملة وتفصيلًا، وأن يضع منهجًا متكاملًا حسب هواه، يخالف كله شريعة الله.

فكلام السلف هنا إذا حكم، أي: بغير ما أنزل الله، بسبب الهوى أو الرشوة أو لقرابة أو شفاعة أو ما أشبه ذلك، فلا شك أن ذلك كفر دون كفر، وليس هذا في تنحية شريعة الله جملة عن الحكم، ورميها بالرجعية والتخلف، فقول السلف: كفر دون كفر، ينطبق على الحاكم الملتزم بالإسلام وشرائعه، فهو إذا خالف النص أو حاد عنه، فهو الذي ينطبق عليه هذا الحكم، وليس الأمر ساريًا على من يحل القانون محل شرع الله.

وقال ابن القيم -رحمه الله- بعد ذكر الأقوال في قضية الحكم: "والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر، بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانًا، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر، وإن جهله أخطأه فهذا مخطئ له حكم المخطئين".

وهذا الذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- يعد فيصلًا في تلك الجزئية، ونعلم أن الحق الذي لا مراء فيه في هذه الآيات، أنها عامة في أهل الكتاب وغيرهم، شاملة لليهود والنصارى والمسلمين، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لا سيما إذا دعم ذلك أدلة أخرى، كمجيء مَن التي أفادت العموم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ومن. ورحم الله الحسن بن علي قال: "نزلت في أهل الكتاب وهي علينا واجبة". وكما قال النخعي: "نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة بها". كما نرجح قول ابن عباس أيضًا في المسألة: "من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق". وقول عكرمة: "إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه".

أما من عرف بقلبه كونه حكم الله، وأقر بلسانه كونه حكم الله، إلا أنه أتى بما يضاد، فهو حاكم بما أنزل الله، ولكنه تارك له فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية، كما صح القول بأن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وأن الكفر فيها هو الكفر المخرج عن الملة، ويضاف إليها صفة الظلم لحكمهم بخلافه، والفسق لخروجهم عنه، فيجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حاله، انضمت إلى الامتناع عن الحكم بها ملائمة لها، أو لطائفة، غير أن هذا الحكم يكون على سبيل العموم.

أما كفر المعين فإنه يحتاط له، حتى تقام الحجة على من أريد الحكم عليه بذلك، وما ذُكر في كفر الحاكم بغير ما أنزل الله، إنما هو على سبيل الترجيح، وليس على سبيل القطع، خلاف ما ذهبت إليه فرق الخوارج، من التكفير القطعي المخرج من الملة، سواء أكان على سبيل التعميم أم الخصوص، وما ذلك إلا لأنه اتفقت كلمة أئمة السلف، على أن المسلم لا يجوز أن يحكم بكفره، بمجرد حكمه بغير ما أنزل الله، دون إقامة الحجة وإظهار البينة.

وإذا كان السلف قد اختلفوا، فلا يجوز القطع فيها برأي واحد، إذا كانت الأدلة ظنية وليست قطعية، هكذا نرد على الخوارج نقول والله أعلم بالصواب.

وأما بالنسبة للمحكومين فكيف نكفرهم تبعًا للحاكم إذا كفر، حتى إنهم كفروا من زعم أن هذه الشعوب في البلاد الإسلامية، تؤمن بالله وتدين بالإسلام؛ لأنه شهد بالإيمان لأقوام هم كفار، أو لأنه لم يكفر الكافر، هذا ونحن نفرق بين الاعتقاد والعمل، فزعمهم أن من أطاع من لم يحكم بما أنزل الله واتبعه فقد كفر بذلك العمل، دون النظر إلى النية والاعتقاد، وهذا خلط وخطأ؛ لأن الاعتقاد

فعل النفس منفردة لا شركة للجسد معها فيه، والعمل فعل النفس بتحريك الجسد فهي شيء آخر غير الاعتقاد.

وقد فرق الرسول ﷺ بقوله: ((إنما الأعمال بالنيات)) بين النية والعمل، وجعل النية وهي الاعتقاد غير العمل، والاتباع في اللغة هو الامتثال والطاعة، الطاعة في اللغة هي العمل بالأمر، الطاعة في الشرع العمل تنفيذًا للأمر مع النية والاعتقاد، وهذا صريح ما قضى به الرسول ﷺ في حديث: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)).

وطبقًا لنص هذا الحديث فإن الأعمال المأمورة بها والمنهي عنها في الشرع، إذا ما أتاها العبد، فإن المدار في حكمها يتوقف على نيته، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن قصد طاعة الله تعالى وتنفيذ حكمه، فإنه لا يكون أبدًا متبعًا ولا مطيعًا لمن نقل إليه ذلك الحكم، أو أمره به أو أفتاه به، ولا يغير من ذلك شيئًا أبدًا أن يكون الناقل أو الآمر أو المفتي قد أصاب حكم الله في الحقيقة، أو أخطأه، والذي قصد طاعة شخص ما، وتنفيذ أمره فيما يدين به، ولو خالف أمر الله فهو متبع له في المعنى الشرعي، ولا يغير من ذلك شيئًا أن يكون ذلك الشخص قد أمره بما وافق حكم الله، أو خالفه، فالمدار إذًا على النية والاعتقاد لا على العمل المجرد عن النية والاعتقاد.

كما يجب التفرقة بين المتبع في الحكم وغير المتبع، وبين اتباع واتباع، فليس المحب لذلك الشيء المتبع له كمن كره ذلك أو اضطر له؛ لحديث: ((إنما الأعمال بالنيات)) ولقوله ﷺ: ((إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره

فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم قال: لا ما صلوا)).

فهذا رسول الله ﷺ يفرق بين إنسان كره ظلم وجور الأمراء، وأنكر فعلهم، فهو بذلك قد سلم من اتباعهم على ظلمهم، أو الركون إليهم وطاعتهم في معصية الله، وإن كان مكرهًا في كونه تابعًا لهم، وتحت سيطرتهم، وبين إنسان آخر تابع لهم وتحت سيطرتهم أيضًا، إلا أنه محب لهم راض بأفعالهم وموال لهم ومتابع، فهذا لا شك أنه يختلف موقفه عن الأول تمامًا؛ فالأول: كره وأنكر فسَلِم، أما الثاني: فهو قد ركن إلى الذين ظلموا، فله نصيبه مما سينالون من جزاء.

كما يجب أن نفرق تفرقة واضحة في نوعية الاتباع؛ إذ لا يستوي من أطاع في معصية الله، كمن أطاع في أمر مباح، ومن هنا نفرق بين من أطاع هؤلاء في أمر ليس فيه معصية، كقوانين الصحة وقوانين المرور، وبين من أطاع في تشريعات وقوانين تخالف حكم الله، فالأول: لم يطع في معصية ولا شيء عليه، وأما الثاني: فالأمر يحتاج إلى تفصيل في معرفة حكمه، وقد أشرنا إليه سابقًا.

ودليلنا في ذلك حديث النبي ﷺ: ((لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف)) فقد توهم البعض استحالة أن يأذن الله تعالى للناس، من منطلق أن له الحكم والأمر والتشريع، أن يضعوا لأنفسهم بعض التنظيمات التي تنظم جانبًا من شئون حياتهم، وهذا فهم خاطئ؛ إذ إن هذه التنظيمات الدنيوية لا تحد من سلطان الله، ولا تضاد حاكميته، الله ﷻ صاحب التشريع هو الذي ترك لنا كثيرًا من أمور دنيانا، ننظمها حسبما تهدينا إليه عقولنا، في إطار مقاصد عامة وغايات حددها لنا ﷻ، وأمرنا بتحقيقها بشرط ألا تحل حرامًا أو تحرم حلالًا.

هذا كما يجب التفريق بين أمر مجمع عليه وآخر مختلف فيه، فلقد ابتدع أهل التكفير قاعدة تكفير من لم يكفر الكافر، وأرادوا بها تكفير من خالفهم في الرأي، وكانت حجتهم أن الإمام محمد بن عبد الوهاب وبعض شيوخه، يرون كفر من لم يكفر الكافر المعين، وهذا حق أريد به باطل، والكافر المعين المجمع على كفره لا يحل ادعاء أنه مؤمن؛ لأن في هذا إنكارًا لحكم الله عليه بالكفر، ومثاله اليهود والنصارى ومن على غير ملة الإسلام، أما إن كان الحكم بكفر شخص ليس محل إجماع، كما هو الحال في كفر تارك الصلاة، فلا يجوز استخدام هذه القاعدة في هذا الموضع، وكذا كل مسألة اختلف في صاحبها، هل هو مسلم أم كافر أو كان ممن شهد الشهادتين، ثم خالفهما بناقض من نواقضهما، ولم تقم عليه الحجة، فإنه لا تنطبق عليه هذه القاعدة، حتى يجمع على الأمر بكفره.

والذي لا خلاف عليه بين الأئمة، أنه لا يجوز تكفير من خالفنا في الرأي، كما لا يجوز تكفير شخص بعينه أي باسمه، إنما يكون الحكم بالكفر على الأعمال فيقال: من شرع مع الله فقد كفر، ولا يقال: إن فلانًا بعينه قد كفر؛ لأن سلطة الحكم على الأشخاص ليست للأفراد، بل للحاكم المسلم أو القاضي الذي يصدر حكمًا في قضية أمامه، كما أن الأمر يستلزم إقامة حجة، لا بد فيها من استيفاء الشروط وانتفاء الموانع.

وأما استيفاء الشروط فيكون بنصب الأدلة ورد الشبهات، وأما انتفاء الموانع؛ فيكون برفع الأعذار عنه، من خطأ ونسيان وإكراه وتأويل وجهل وجنون، أو كأن يكون حديث عهد بإسلام، أو ممن نشأ في بادية، فيجب عدم الخلط بين القضايا مع وضوح الرؤية، والله الهادي إلى سواء السبيل.

العـــــــذر بالجهـــــــل

لقد زعم كثير من فرق الخوارج -على نحو ما ذكرنا- أنه لا عذر بالجهل في الدين على العموم أو الجملة، على خلاف بينهم، فمنهم من يعذر ومنهم من يعذر أتباعهم دون سواهم، ومنهم من يعذر في الفروع دون الأصول، وقسموا الدين إلى قسمين:

أحدهما: معرفة الله تعالى ومعرفة رسله -عليهم الصلاة والسلام- وتحريم دماء المسلمين يعنون موافقيهم، والإقرار بما جاء من عند الله جملة، فهذا واجب على الجميع والجهل به لا يعذر فيه.

الثاني: ما سوى ذلك، فالناس معذورون فيه إلى أن تقوم عليهم الحجة في الحلال والحرام، وقالوا أيضًا: الدين ينقسم إلى أصل وفروع، والأصل هو التوحيد أو الإيمان المجمل أو أصل الإسلام، وهذا لم يختلف فيه الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- وهذا لا عذر فيه بالجهل، سواء وجدت مظنة العلم أم لم توجد، وسواء ثبتت إقامة الحجة أم لا، ويعد كافرًا من جهل ذلك. وفروع وهي فروع الشريعة المختلفة بين كل رسول ورسول حسب زمانه واختلاف قومه، حسبما شاءت حكمة الله ﷻ، وهذا لا يكفر جاهله قبل إقامة الحجة عليه؛ وذلك لعدم قطعية الدليل، بل يعتبر مبتدعًا أو فاسقًا.

كما زعموا أن الناس جميعًا يجب أن يكونوا على درجة واحدة، من العلم والمعرفة في أحكام الدين، وأن الحق بتفاصيله قد بلغ الجميع، وأنه لا عذر لأحد بجهله، فمن غابت عنه الأوامر وجهل التشريعات يكون فاسد العقيدة، وأن

جميع أحكام الشريعة تلزمه، ولا بد أن يعلمها ولا بد أن يتعلم الرجل أصول التوحيد وفروعه، وكل ما يتعلق بالتوحيد: توحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الأسماء والصفات والأفعال، وما يجب عليه تجاه ذلك، وإن جهل ذلك فقد كفر، كما عليه أن يتعلم أصول العبادات والقواعد القطعية في الشريعة والفقه، والتي ثبتت بالنص أو بالاستقراء، وإن جهل ذلك كفر، واشترطوا له مظنة العلم كدار الإسلام.

وحكموا بأنه بناء على هذا، يعد المسلمون في هذا الوقت، الذي نعيشه قد فسدت عقيدتهم، وخرجوا عن دين الإسلام؛ لأنهم جهلوا معالم الدين ومعظم شرائع الإسلام، التي فرضها الله تعالى لتنظيم حياتهم، وأن العباد قد فطروا على التوحيد، فلا وجه لأن يعذر الناس في أموره ومسائله، فبالفطرة قامت عليهم الحجة، وأن الناس قد أقروا بالتوحيد من قديم الزمان وشهدوا به، كما قاله الله تعالى في آية الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٤].

فكونهم ينسون هذا بعد ذلك أو يغفلون عنه، فلا عذر لهم في ذلك، ومن قصر في تعلم أمور الدين مع إمكانية ذلك فلا عذر له، فبإمكانية العلم قامت عليهم الحجة، واستشهدوا على كلامهم هذا بقول الله تعالى أيضًا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] وفسروها لا يعلمون أنهم مشركون، ومعناه عندهم أن المسلم الذي نطق بالشهادتين يرتد كافرًا، إن وقع في أي نوع من أنواع الشرك،

حتى وإن جهل ذلك، وإن لم يكن عامدًا أو كان جاهلًا متأولًا، والآية حجة في ذلك.

واستشهدوا من السنة بأحاديث منها ما رواه مسلم في صحيحه، عن عائشة > قالت: "قلت: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: ((لا ينفعه إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين))". وما رواه الإمام أحمد بسنده، حديثًا طويلًا في قدوم وفد بني الْمُنْتَفِق على رسول الله ﷺ جاء فيه: ((والله إن أباك المنتفق لفي النار)) ومثل ذلك ما رواه مسلم عن أنس > أن رجلًا قال: "يا رسول الله أين أبي؟ قال: ((في النار)) قال: فلما قفا الرجل دعاه فقال: ((إن أبي وأباك في النار))".

قالوا: يتضح من الأحاديث السابقة أن جهل من مضى قبل بعثة الرسول ﷺ بالتوحيد لم يكن عذرًا لهم، سواء في الحكم عليهم في الدنيا بظاهر أمرهم، أو في حقيقة أمرهم عند الله تعالى، وذلك بإخبار الرسول ﷺ أنهم في النار.

وما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن عمران بن حصين > أن النبي ﷺ رأى رجلًا في يده حلقة من صفر فقال: ((ما هذه؟ قال: مِن الواهنة. فقال: انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا)).

والحديث فيه شاهد أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر، وأنه لم يعذر صاحبه بالجهالة، وإذا كان الرجل لم يعذر بالجهالة في أمر من أمور الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر.

فتلك جل أدلتهم وذلك مبلغ علمهم، فنقول في الرد عليهم إن شاء الله تعالى، مع بيان الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة، بعد أن علمنا رأي المخالفين لأهل السنة في عدم العذر بالجهل:

ينبغي عرض رأي أهل السنة لتتضح الصورة، ويعلم المحق من المبطل، فلقد كثر الجدال واشتد الخلاف وكثرت الأسئلة، حول حكم من أتى شركًا من هذه الأمة وهو جاهل بالشرع، فقد اتفق أهل السنة والجماعة والأئمة المشهورون، المتبعون لهدي السلف الصالح }، على أنه من ثبت له عقد الإسلام بالشهادتين، أو بكونه ولد لأبوين مسلمين، أو كانت ولايته للمسلمين منذ صغره قبل بلوغه الحلم، فإنه لا يزول عنه حكم الإسلام وإن خالف الشريعة في أي أمر كان، إلا إذا كان أمرًا مما حكم الشرع فيه بكفر صاحبه، ويكون عالمًا بالشرع في هذا الأمر، أما من خالف الشرع مع الجهل، فلا يأثم بل يعذر بجهله، سواء في الفروع كانت المخالفة أم في الأصل، حتى تقام عليه الحجة بخطأ ما فعله، فإن عاد إليه بعد العلم به وإقامة الحجة عليه يعد كافرًا مرتدًا عن الإسلام والعياذ بالله، والأدلة على ذلك:

أولًا: من القرآن الكريم:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وفيه ما أكد الله ﷻ شرطين لا بد منهما، حتى يؤاخذ الشخص المكلف شرعًا بذلك، وهما:

الشرط الأول: بعثة الرسول ليبشر وينذر كما في الآية الأولى.

الشرط الثاني: بلوغ نذارة الرسول ﷺ إلى العباد كما في الآية الثانية.

يقول ابن تيمية -رحمه الله: "ولا يثبت الخطاب إلا بعد البلوغ لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله جل وعلا: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾

[النساء: ١٦٥] ومثل هذا في القرآن متعدد، يبين ﷻ أنه لا يعاقب أحدًا حتى يبلغه ما جاء به، ولا يعذبه على ما لم يبلغه، فإنه إذا لم يعذبه الله على ترك الإيمان إلا بعد بلوغ الحجة، فأولى بأنه لا يعذب على بعض شرائعه إلا بعد البلوغ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥]".

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالى: "قال تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل، أنه لا يضل قومًا إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى أيضًا: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]". يقصد أن الله تعالى أقام عليهم الحجة بدعوتهم إلى الهدى وتبيينه لهم، فاستحبوا العمى على الهدى، فكان نصيبهم العذاب، والقاعدة الشرعية المعروفة هي أن المؤاخذة لا تكون إلا بعد العلم لهذه الآية، أي أن المسلم لا يعتبر ضالًا إلا إذا عرف الحق ثم زاغ عنه وكابر، كما أورد البخاري الآية تحت باب: قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١] قال القرطبي: "أي أننا فعلنا هذا بهم، أي: إرسال الرسل لأني لم أكن أهلك القرى بظلمهم، أي: بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فأي عذر فوق هذا، أناس يشركون ولا يستحقون العذاب؟ لا لشيء سوى عدم علمهم". فكيف بمن يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد يصلون ويزكون ويفعلون الصالحات، لكن يجهلون بعض صور الشرك، فيقعون فيها جهلًا، فهل يجوز لنا أن نحكم عليهم بكفر أو بشرك قبل أن نقيم عليهم حجة الله؟! ويقول تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ

بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ٤٧].

قال ابن كثير -رحمه الله- بعد سرد هذه الآيات وغيرها: "إلى غير ذلك من الآيات، الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسل إليه".

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "الأصل الثاني أن العذاب يستحق بسببين:

الأول: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها.

الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها.

فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة، وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه، حتى تقوم حجة الرسل".

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] أي: ومن سلك غير طريقة الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شِق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق، وتبين له واتضح له، نُوله ما تولى كما قال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]

فهؤلاء قوم موسى، جهلوا قدر الله ﷻ، وما يجب أن ينزه عنه تعالى من المثيل والشريك، ولسنا نحن الذين نقول بجهلهم هذا، إنما هو قول موسى # لهم قال: إنكم قوم تجهلون.

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢، ١١٣]

فهؤلاء الحواريون الذين أثنى الله عليهم، قد قالوا لعيسى # جهلًا منهم: هل يستطيع ربك؟ كما أرادوا أن يجعلوا منها دليلًا على صدق رسالته وحجة على نبوته، فيشهدون له بعد ذلك، فلم يبطل بذلك إيمانهم.

وقد رام البعض الخلاص من هذا الدليل فقالوا: إن الآية وارد فيها قراءة أخرى: "هل تستطيع ربك" "هل تستطيع" بالتاء "ربك" بفتح الباء، بمعنى: هل يطيعك ربك إن سألته، أو هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك؟

ومع التسليم بصحة هذه القراءة الأخيرة، فإن القاعدة الأصولية الواجبة الاتباع أنه إذا كانت للآية أكثر من قراءة صحيحة ثابتة، وجب الأخذ بها واعتبار المعنى الذي تدل عليه كل قراءة، إذ ما دامت القراءات كلها ثابتة عن الرسول ﷺ فكلها قرآن موحى به من الله ﷻ، وليس قرآن بأولى من قرآن وليست قراءة بأولى من قراءة. أقول: وفي هذا القدر من الأدلة القرآنية كفاية.

ثانيًا: السنة النبوية الكريمة:

عن عبد الله بن مسعود > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا أحد أغير من الله، ومن أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين)) وفي رواية أخرى: ((من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه)) ومما يؤخذ منه أن إعذار الناس بإرسال الرسل إليهم، وقيام

الحجة بذلك، مما يحبه الله حبًا لا يدانيه فيه بشر، وإذا كان الله لا يعذبه على ترك الإيمان إلا بعد بلوغ الحجة، فإنه لا يعذب على بعض شرائعه إلا بعد البلوغ.

حديث ثان: حادثة ذات أنواط: عن أبي واقد الليثي: "قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حديث العهد بالكفر، وللمشركين سدرة -أي شجرة- يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة وقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: ((الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون، لتركبن سنن من كان قبلكم...)) وذكر الحديث".

ويستفاد من هذه الحادثة الآتي:

أن بعض الصحابة جهلوا أمرًا من أمور الشرك، وهو التبرك بشجرة يضعون عليها أسلحتهم؛ لتجلب لهم النصر، ومع ذلك فالرسول ﷺ عذرهم لأنهم كانوا يجهلون الأمر، وكذلك كل من جهل أمرًا من أمور الشرك فهو معذور بجهله. وفيه أن العبرة في العذر بالجهل أو عدمه هي بلوغ العلم، وليست إمكانية العلم؛ لأن إمكانية العلم لن تكون في عصر مثلما كانت في عصر النبي ﷺ.

كذلك ينبغي أن نفرق بين الحكم بالكفر أو بالشرك، على شخص، وبين التغليظ عليه بالقول حتى ينزجر وينتهي، فالنبي ﷺ رغم أنه لم يكفر الصحابة وعذرهم بجهلهم، إلا أنه أغلظ في القول عليهم فقال: ((الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى...)) إلى آخره، وفيه أنه لا فرق في

العذر بالجهل بين دار الإسلام ودار الكفر، ما دام الشخص يجهل. فهذه الواقعة كانت في السنة الثامنة للهجرة، وكانت للنبي ﷺ دولة ممكنة.

وفيه أن الصحابة جهلوا صورة من صور الشرك، ولم يجهلوا أصل الشرك، وهو اتخاذ إله آخر غير الله يعبد من دونه، وشتان بين الأمرين، فجاهل صور الشرك معذور بالجهل وجاهل أصل الشرك كافة.

وأما قول الصحابي راوي الحديث: "ونحن حديثو عهد بكفر" كان معناه أن أغلبهم كذلك وليس جميعهم؛ لأنه هو نفسه ممن شهدوا بدرًا على الأصح، وبدر في السنة الثانية من الهجرة، وبين بدر وحنين ست سنوات، وعليه فلا يجوز حمل الحديث على حديث العهد بالكفر فقط دون غيره، بل كل جاهل معذور بجهله.

ومن الأدلة أيضًا حادثة سجود معاذ > للنبي ﷺ عن عبد الله بن أبي أوفى قال: "لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ فقال: ((ما هذا يا معاذ؟)) فقال: أتيت الشام فوفيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فقال: فوددت في نفسي أن أفعل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ((لا تفعلوا فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها))".

وفي هذا الحديث دلالة على أن من سجد جاهلًا لغير الله لم يكفر، ولو سجد رجل لرجل على أن هذا من الدين فهو لا يكفر، حتى يبين له، وأن العلماء يجوز عليهم الجهل، وإن جهلوا عذروا كغيرهم، وهل هناك في هذه الأيام من هو في علم معاذ، أعلم الأمة بالحلال والحرام، وأن سجود معاذ كسجود إخوة يوسف ليوسف، والفارق في جواز أحدهما والمنع من الآخر؛ لإباحة السجود في شرعة يوسف # وتحريمه في شريعة محمد ﷺ ولولا العذر بالجهل لكفر معاذ، وصور العبادات أو العقائد تختلف من ملة لأخرى، أما أصل العقيدة وهو توحيد الله فلا يختلف عليه.

ومن الأدلة التي تجيز العذر بالجهل أيضًا حادثة الرجل الذي ذَرّ نفسه، فعن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال رجل لم يعمل خيرًا قط لأولاده أو أهله: إذا مات فحرقوه وذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر الله البر فجمع ما فيه ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب وأنت أعلم، فغفر له)).

ويستفاد من هذه الحادثة الآتي: أن هذا الرجل قد شك في قدرة الله تعالى جهلًا وعُذر بجهالته. قال ابن تيمية: "فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد قال بإنكار قدرة الله وإنكارهم ميعاد الأبدان وإن تفرقت، كَفر، لكنه كان مع إيمانه بالله ﷻ وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلًا بذلك ضالًّا في هذا الظن مخطئًا، فغفر الله له ذلك".

ولهذا لا يكفر العلماء من استحل شيئًا من المحرمات لقرب عهده بالإسلام، أو لنشأته ببادية بعيدة، فإنّ حكم الكفر لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة، وكثير من هؤلاء قد لا تكون قد بلغته النصوص المخالفة لما يراه، ولا يعلم أن الرسول بُعث بذلك، فيطلق أن هذا القول كفر، ويكفر من قامت عليه الحجة دون غيره، وابن تيمية كان يكثر من الاستدلال بهذا الحديث على أن الجاهل لا يعذب إلا بعد إقامة الحجة عليه. وكذا أبو محمد ابن حزم الذي قال أيضًا: "فهذا إنسان قد جهل إلى أن مات أن الله ﷻ لا يقدر على جمع رماده وإحيائه، وقد غفر له لإقراره خوفه وجهله".

كما يقول ابن تيمية أيضًا: "فهذا رجل شك في قدرة الله وفي إعادته إذا ذُري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، ولكن كان جاهلًا لا يعلم ذلك،

كان مؤمنًا يخاف اللهَ أن يعاقبه فغفر له بذلك، والمتأول من أهل الاجتهاد، والحريص على متابعة الرسول ﷺ أولى بالمغفرة من مثل هذا".

وأحاديث أخر كحادثة إنكار ابن مسعود للمعوذتين، وحادثة ما شاء الله وشئت، وحادثة: "اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل" وحديث حذيفة: "يُدْرَس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ولا يسرع على كتاب الله في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، فيبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والمرأة العجوز، فيقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها فقال صلة بن زفر لحذيفة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة؟! فأعرض عنه حذيفة، فرددها ثلاثًا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة قال: يا صلة، تنجيهم من النار، تنجيهم من النار، تنجيهم من النار".

ووجه الدلالة من الحديث: أن هؤلاء الذين لا يعرفون سوى لا إله إلا الله، قد جهلوا أمور الدين ومع ذلك عذروا، ومع ذلك لم يكفروا، ومع ذلك تنجيهم من النار.

قال ابن تيمية (في أوقات الفترات وأمكنة الفترات): "يثاب الرجل على ما معه من إيمان قليل، ويغفر الله فيه لمن لم تقم الحجة عليه، ولا يغفر به لمن قامت الحجة عليه كما في هذا الحديث المعروف". وذكر الحديث، والحديث ظاهر في العذر بالجهل عندما يرفع العلم ويفشو الجهل، ولا يعلم الناس من الإسلام غير كلمة التوحيد، وهم لا يدرون بعد ذلك بقية الشرائع.

هذا، والله ولي التوفيق.

قائمة المراجع العامة

١. (بيان مذهب الباطنية وبطلانه)

محمد بن الحسن الديلمي، مكتبة المعارف، ١٩٨٢م

٢. (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)

أبو الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٨٩هـ

٣. (أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية)

ناصر بن عبد الله القفاري، دار الرضا للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٨هـ

٤. (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية)

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الرياض، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦ هـ

٥. (الفَرْق بين الفِرَق)

عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٦م

٦. (صب العذاب على من سب الأصحاب)

محمود شكري الألوسي، تحقيق: عبد الله البخاري، الرياض، أضواء السلف، ١٤١٧هـ

٧. (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة)

الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف ومراجعة: مانع الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ

٨. (أصول الإسماعيلية)

سليمان السلومي، الرياض، دار الفضيلة، ١٤٢٢هـ

٩. (الزيدية)

أحمد محمود صبحي، دار الزهراء للإعلام العرب، ١٩٨٤م

١٠. (الشيعة والتشيع فرق وتاريخ)

إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السنة، باكستان، لاهور، ١٤٠٤هـ

١١. (الشيعة وآل البيت. إدارة ترجمان السنة)

إحسان إلهي ظهير، باكستان، لاهور، ١٤٠٤هـ

١٢. (مع الشيعة الاثني عشرية في الأصول والفروع)

علي أحمد السَّالوس، الرياض، الناشر دار الفضيلة، ١٤٢٣هـ

١٣. (الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام)

ناصر عبد الكريم العقل، دار الوطن، ١٩٩٦م

١٤. (الإسماعيلية تاريخ وعقائد)

إحسان إلهي ظهير، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م

